واحدة من أعظم روائيّات زماننا The New York Times

صَديقتي المُذهِلَة

إيلينا فيرّانتي

ترجمة : مُعاويَة عَبد المجيد

رِوايَة

مكتبة بغداد

دار الآداب

إيلينا فيرّانتي

صديقتي المذهلة

الطفولة والمراهقة

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

دار الآداب - بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلّ الشخصيّات والأحداث في هذا العمل الأدبيّ، وما يحتويه من أسماءٍ وحوارات، هو من نسج خيال الكاتبة وتعبيرها الحرّ. وأيّ تشابهٍ، أو إشارةٍ، أو تطابقٍ مع الأحداث الواقعيّة والأشخاص والأسماء والأماكن الحقيقيّة، هو محضُ صُدفةٍ وغيرُ مقصود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الربّ: لكَ الحرِّيَّة في هذا، واعلمْ أنّني لم أبغض مَن هم على شاكلتك. فمن بين الأرواح الجاحدة، أجد الخبيث أقلّها ثقلاً على نفسي. إنّ نشاط الإنسان معرّضٌ للخمول بسهولة، ما يدفعه إلى التلذّذ بالراحة المطلقة. ولهذا، يطيب لي أن أزوّده برفيقٍ يستحثّه ويؤثّر فيه ويكون له بمثابة الشيطان.

غوته، «*فاوست*»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهرس الشخصيّات

عائلة شيرولّو (عائلة الإسكافيّ):

فرناندو شيرولّو، إسكافيّ.

نونتسيا شيرولّو، والدة ليلا.

رافايلا شيرولّو، يسمّيها الجميع *لينا*، ووحدها إيلينا تناديها *ليلا*.

رينو شيرولّو، شقيق ليلا الأكبر، إسكافيٌّ هو أيضًا.

رينو، اسمٌ لأحد أبناء ليلا، لاحقًا.

أبناءٌ آخرون.

عائلة غريكو (عائلة البوّاب):

إيلينا غريكو، يسمّونها *لينوتشا* أو *لينو*، وهي البنت الكبرى. ويأتي بعدها بيبي وجانّي *وإيليزا*.

الأب، يعمل بوّابًا في البلديّة.

الأمّ، ربّة منزل.

عائلة كارّاتشي (عائلة الدون آخيل):

الدون آخيل كارّاتشي، غول الحكايات.

ماريّا كارّاتشي، زوجة آخيل.

ستيفانو كارّاتشي، ابن الدون آخيل، بائع اللحوم في ملحمة العائلة.

بينوتشا وألفونسو كارّاتشي، ابنا الدون آخيل الآخرَين.

عائلة بيلوزو (عائلة النجّار):

ألفريدو بيلوزو، نجّار.

جوزيبينا *بيلوزو*، زوجة ألفريدو.

باسكوالي بيلوزو، الابن الأكبر لألفريدو وجوزيبينا، عامل بناء.

كارميلا بيلوزو، تُدعى كارمن أيضًا، شقيقة باسكوالي، بائعةٌ في محلّ خياطة.

أبناءٌ آخرون.

عائلة كابوتشو (عائلة الأرملة المجنونة):

ميلينا، من أقارب أمّ ليلا، أرملةٌ مجنونة.

زوج *ميلينا*، حمّال الصناديق في سوق الخضروات والفاكهة.

آدا كابوتشو، ابنة ميلينا.

أنطونيو كابوتشو، شقيقها، ميكانيكيّ.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سارّاتوري (عائلة الموظّف بالسكك الحديديّة/شاعر):

دوناتو سارّاتوري، مراقب تذاكر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليديا سارّاتوري، زوجة دوناتو.

نينو *سارّاتوري*، أكبر أبناء دوناتو وليديا الخمسة.

ماريزا سارّاتوري، ابنة دوناتو وليديا.

بينو، *كليليا*، شيرو *سارّاتوري*، أبناءُ دوناتو وليديا الأصغرُ سنًّا.

عائلة سكانّو (عائلة بائع الفواكه):

نيكولا سكانّو، بائع فواكه.

آسونتا سكانّو، زوجة نيكولا.

إنتسو سكانّو، ابن نيكولا وآسونتا، بائع فواكه أيضًا.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سولارا (العائلة المالكة للمقهى/محلّ الحلويّات الذي يحمل اسم العائلة):

سيلفيو سولا*را*، صاحب المقهى/ محلّ الحلويّات.

مانويلا سولا*را*، زوجة سيلفيو.

مارتشيلّو وميكيلي سولا*را*، ابنا سيلفيو ومانويلا.

عائلة سبانيولو (عائلة صانع الحلويّات):

السيّد سبانيولو، صانع الحلويّات في مقهى سولارا.

روزا سبانيولو، زوجة صانع الحلويّات.

جيليولا سبانيولو، ابنة صانع الحلويّات.

أبناءٌ آخرون.

جينو، ابن الصيدلانيّ.

المعلّمون:

فيرارو، معلّم وأمين مكتبة.

السيّدة أوليڤييرو، معلّمة.

جيراتشي، أستاذٌ في المرحلة الأولى من المدرسة الثانويّة.

السيّدة غالياني، أستاذةٌ في المرحلة الثانية من المدرسة الثانويّة.

نيلا *إنكاردو*، ابنة عمّ المعلّمة أوليڤييرو، تعيش في إيسكيا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدّمة

محوُ الأثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١

اتَّصل بي رينو هذا الصباح. ظننتُ أنّه سيطلب نقودًا مرّة أخرى، وتأهّبتُ لرفض طلبه. لكنّ الاتِّصال كان لسببٍ آخر: كانت أمّه مفقودة.

«منذ متى؟»

«منذ أسبوعين».

«وتتّصل بي الآن؟»

لا بدّ أنّ نبرتي بدت حادّة، وساخرة إلى حدٍّ ما، بالنسبة إليه، رغم أنَّني لم أكن غاضبةً أو مستاءة. حاول أن يرُدّ، فكان مضطربًا ومتردِّدًا، بالإيطاليّة تارةً وبالعامِّيَّة النابوليتانيّة تارةً أخرى. قال إنّه بات مقتنعًا بأنّ والدته تتسكّع في نابولي كعادتها.

«وخلال الليل أيضًا؟»

«تعرفين طباعها حقّ المعرفة».

«أجل، ولكن ألا يبدو لك غياب أسبوعين مدّة طويلة؟»

«بلى. أنت لم تزوريها منذ زمن، لقد تدهورت حالتها. لا تخلد إلى النوم أبدًا، تدخل، تخرج، وتفعل ما يروق لها».

إلّا أنّه قلق بشأنها؛ وأخيرًا، سأل عنها جميع المعارف، وطاف بين المستشفيات، واتَّجه إلى الشرطة أيضًا. لا شيء. لم يجد أمّه في أيّ مكان. يا له من ابن رضيّ! رجلٌ بدينٌ في الأربعين من عمره، لم يعمل في حياته يومًا، سوى في المحظورات وتبذير أموال العائلة. تخيّلتُ نسبة الاهتمام الذي أولاه لبحثه عن والدته: صفر. كان رجلاً بلا عقل، وقلبه لا ينبض إلّا تلبيةً لغرائزه.

«أليست عندكِ؟» سأل على حين غرّة.

أمّه عندي؟ وما الذي تفعله هنا في تورينو؟ كان يعرف الوضع جيّدًا، إنّما أراد التحدّث للثرثرة ليس إلّا. رينو كان مسافرًا رحّالة.. وكيف لا، فقد جاء إلى بيتي عشر مرّات على الأقلّ دون أن يتلقّى أيّ دعوة. أمّا والدته، التي كنت سأستقبلها بحفاوة، فلم تغادر نابولي يومًا واحدًا في حياتها. أجبتُه:

«لا، ليست عندي».

«هل أنتِ متأكّدة؟»

«أرجوك يا رينو. قلت لك إنّها ليست هنا».

«فأين ذهبتْ إذن؟»

وانفجر في البكاء، حتى تركتُه يستعرض كلّ ما لديه من يأس وشهقات تبدأ مصطنعةً، ثم تستمرّ بشكل حقيقيّ. وحين انتهى، قلت له:

«أرجوك أن تتصرّف ولو لمرّة واحدة كما ترغب والدتك: لا تبحثْ عنها!»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ماذا قلتِ؟»

«قلتُ ما سمعتَ. لن يجدي بحثُك. تعلّمْ أن تعتمد على نفسك في الحياة، ودعْني وشأني أنا أيضًا».

أغلقتُ السمّاعة.

٢

والدة رينو تُدعى رافايلا شيرولّو، لكنّهم جميعًا كانوا ينادونها لينا. أمّا أنا، فلا. لم أستخدم الاسم الأوّل ولا الثاني أبدًا. بالنسبة إليّ، اسمها ليلا، منذ أكثر من ستّين عامًا. ولو ناديتُها لينا أو رافايلا، هكذا فجأة، لظنّت أنّ صداقتنا انتهتْ.

قالت لي مرارًا، خلال أكثر من ثلاثين عامًا، إنَّها تريد أن تختفي دون أن تترك أثرًا، ولا أحد يعلم ما الذي تقصده بكلامها غيري. لم يخطرْ في بالها أن تهرب أبدًا، ولا أن تغيّر هويّتها، ولم تحلم بأن تبدأ حياةً جديدة في مكانٍ آخر. ولم تفكّر في الانتحار إطلاقًا، بل كانت تشمئزّ من فكرة أن يهتمّ رينو بجسدها ويكون مرغمًا على الانشغال بها. كانت نيّتها في أمرٍ مختلف كلّيًّا: كانت تريد أن تتبخّر، وأن تتلاشى كلّ خلاياها، حتى يستحيل أن يعثر أحدٌ على أيّ شيء يخصّها. وطالما أنّني أعرفها جيّدًا، أو أفترض ذلك على الأقلّ، لا أستغرب أنّها وجدتْ سبيلاً كي لا تترك في هذا العالم شعرةً واحدةً منها، في أيّ مكان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣

مرّت الأيَّام. راقبتُ البريد الإلكترونيّ، والبريد الورقيّ، دون أملٍ يُرجى. جرتِ العادة أن أراسلها مرارًا دون أن تجيب، إذ كانت تفضّل المكالمات الهاتفيّة أو الدردشات الليليَّةَ الطويلة عندما كنت أذهب إلى نابولي.

فتحتُ أدراجي، والصناديق المعدنيّة التي أحفظ فيها أغراضًا من كلّ نوع. أغراض قليلة، لأنّني قد فرّغتُ الكثير من المحتويات، لاسيّما تلك التي تخصّها، وهي على علمٍ بذلك. اكتشفتُ أنّني لا أملك شيئًا يعود لها، لا صورة، ولا بطاقة، ولا هديّة صغيرة. فوجئتُ أنا نفسي بهذا. هل من المعقول أنّها لم تترك لي شيئًا يذكّرني بها طوال كلّ تلك الأعوام؛ أو أنّني، وهذا الأسوأ، لم أشأ الاحتفاظ بأيّ ذكرًى منها؟ أجل، معقول؟

بادرتُ أنا بالاتّصال برينو، هذه المرّة، رغمًا عنّي. لم يردّ على الهاتف الأرضيّ ولا على الجوّال. فعاود الاتّصال بي في المساء،

على راحته. كان يحاول أن يُبدي إحساسًا بالألم من خلال صوته.

«رأيتُ أنّكِ اتّصلتِ بي. هل لديكِ أخبارٌ ما؟»

«لا. وأنت؟»

«لا شيء».

أخذ يحدِّثني عن أمور لا معنى لها. كان يريد أن يتَّجه إلى التلفزيون، إلى البرنامج الذي يُعنى بالأشخاص المفقودين، ويوجِّه نداءً، ويطلب من أمّه أن تسامحه عن أخطائه كلِّها، ويتوسّل إليها أن تعود.

بقيتُ أصغي إليه بصبرٍ جميل، ثم سألتُه:

«هل تفحّصتَ خزانتها؟»

«لماذا؟»

بالطبع، لم يخطر في باله أكثر الأمور بديهيّة.

«اذهبْ وانظرْ هناك!»

هرع إلى الخزانة، واكتشف أنّه لا يوجد أيٌّ من أغراض والدته، بما فيها ثيابها، الصيفيّة والشتويّة، لا شيء سوى شمّاعاتٍ قديمة. اختفت أحذيتها. اختفت كتبها القليلة. اختفت الصور جميعُها. والأفلام القصيرة. اختفى حاسوبها، والأقراص القديمة التي ولّى زمن استخدامها، كلُّ شيء، وكلّ الأغراض التي تعود إلى خبرتها العجيبة في مجال الإلكترونيّات التي استهلّتها بالآلات الحاسبة منذ نهاية السبعينيّات، في حقبة البطاقات المثقّبة. كان رينو مذهولاً. قلتُ له:

«خذْ ما تريد من الوقت، ثم اتّصلْ بي وأخبرْني إن عثرتَ على أيّ شيء يخصّها، حتى لو كان دبّوسًا صغيرًا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اتّصل بي في اليوم التالي، وكان منفعلاً.

«لا وجود لأيّ شيء».

«ولا أيّ شيء؟»

«أبدًا. اقتصّت وجهها من الصور التي تجمعنا، حتى من تلك التي أبدو فيها طفلاً».

«هل تفحّصتَ جيّدًا؟»

«أجل، وفي كلّ مكان».

«وفي قبو البناية؟»

«قلتُ لكِ إنّني بحثتُ في كلّ مكان. لقد اختفتِ العلبة التي تحتوي على الوثائق أيضًا: شهادات قديمة للولادة، عقود هاتفيّة، سندات الضرائب. ماذا يعني هذا؟ هل سرق أحدٌ كلّ شيء؟ عمّ يبحثون؟ ماذا يريدون من أمّي ومنّي؟»

هدّأتُ من روعه وأوصيته أن يبقى مطمئنًّا. كان من غير الوارد أنّ أحدًا يريد شيئًا ما، منه تحديدًا.

«هل بوسعي المجيء لقضاء بعض الوقت في بيتك؟»

«كلّا».

«أرجوكِ، لا أستطيع النوم».

«تدبّرْ أمورك يا رينو، لا أعرف ماذا أفعل لك».

أغلقتُ السمّاعة.. وحين اتّصل ثانيةً لم أردّ. جلستُ خلف المنضدة.

ليلا كالعادة تريد أن تبالغ، قلت لنفسي. تحاول أن تبلغ بمفهوم «محو الأثر» إلى حدوده القصوى. لم تكن تريد أن تختفي الآن وقد

بلغت السادسة والستّين عامًا فحسب، بل أرادت أن تمحو أيّ أثرٍ لحياتها التي خلّفتها وراءها.

شعرتُ بأنّني غاضبةٌ جدًّا.

سنرى مَن ينتصر هذه المرّة، قلتُ لنفسي. أضأتُ الحاسوب وشرعتُ أكتب كلّ تفاصيل قصّتنا، كلّ ما بقي في ذهني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطفولة

حكاية الدون آخيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١

بدأت صداقتنا، أنا وليلا، حين قرّرنا أن نصعد السلالم التي تفضي، درجةً درجة، عتبةً عتبة، إلى شقّة الدون آخيل.

أذكر النور المائل إلى البنفسجيّ في الفناء وروائح غروبٍ ربيعيٍّ دافئ. كانت الأمّهات يحضِّرن العشاء، وحان وقت العودة إلى المنزل، لكنّنا تأخّرنا إثر خضوعنا لتحدٍّ في اختبار الشجاعة، دون أن نتبادل كلمةً واحدة. كنّا منذ زمنٍ لا نقوم إلّا بهذا التحدّي، داخل المدرسة وخارجها. كانت ليلا تُدخل يدها فذراعها كلّها في فتحة أنبوب الصرف السوداء، ثم أفعل بعدها ما فعلتْ، وقلبي ينبض بشدّة خوفًا من أن تركض الصراصير على جلدي، أو تنهش الجرذان يدي. كانت ليلا تتسلّق إلى نافذة الطابق الأرضيّ الذي تسكن فيه السيِّدة سبانيولو، تتعلّق على العارضة الحديديّة التي يمرّ عليها حبل الغسيل، تتأرجح ثم تلقي بنفسها إلى الأسفل على الرصيف؛ فأفعل بعدها ما فعلتْ، رغم خشيتي من السقوط وإلحاق الأذى بنفسي. كانت ليلا تُدخل في جلدها رأس دبّوس فرنسيٍّ صدئ، لا أعلم متى عثرتْ عليه في الطريق، وما

انفكّت تحتفظ به في جيبها كأنّه هديّةٌ من ساحرةٍ ما؛ وكنت أراقب الرأس المعدنيّ يحفر نفقًا أبيض في كفّها، وحين تُخرجه تقدّمه لي، فأفعل مثلما فعلتْ.

وفي لحظةٍ ما، رمتني بإحدى نظراتها المعتادة، نظرة جارحة من عينيها الحادّتين، واتَّجهتْ نحو البناية حيث يسكن الدون آخيل. تجمّدتُ من الخوف، إذ كان الدون آخيل غول الحكايات، وكنت أمتنع، منعًا باتًّا، من الاقتراب منه أو التكلُّم معه، أو النظر إليه أو التلصُّص عليه. كان لا بدّ أن أتصرّف كأنّه غير موجود، لا هو ولا عائلته. فجميعُنا، عائلتي والآخرون، يُضمر له الحقد والريبة.. ولم أكن أعلم سبب هذه المشاعر. أبي يتحدّث عنه بأسلوبٍ يجعلني أتخيّله بدينًا، وجلده مليء بالبثور داكنة اللون، عصابيًّا رغم صيغة «الدون» التي كانت توحي إليّ بمكانةٍ مرموقةٍ لرجلٍ هادئ. الدون آخيل كائنٌ مخلوقٌ من مادّة أجهلها، مزيجٌ من الفولاذ والزجاج ونبتة القرّاص، لكنّه كائنٌ حيّ، له أنفاسٌ حارّةٌ تنبعث من أنفه وفمه. كنت أعتقد أنّه، بمجرّد أن يراني من مسافة بعيدة، كان سيرمي في عينيّ شيئًا حارقًا وحادًّا. أمّا إذا تملّكني الجنون ودنوتُ من باب بيته، فكان سيقتلني بلا شكّ.

انتظرتُ قليلاً علّها تفكّر في الموضوع وتعود أدراجها. كنت أعرف ما الذي تنوي فعله، وأملتُ أن تتراجع، ولكن عبثًا. لم تكن القناديل قد أُنيرتْ بعد، ولا أضواء السلالم، ثمّة بعض الأصوات الغاضبة تنطلق من البيوت. كان عليّ أن أترك اللازورديّ الذي يكسو الفناء كي أتبعها، وأدخل في السواد خلف البوّابة. وحين تجرّأتُ على الدخول أخيرًا، لم أَرَ شيئًا في البداية، شممتُ رائحة أغراضٍ قديمة ومبيدٍ حشريّ. ثم اعتدتُ على الظلام، ووجدتُ ليلا جالسة على أوّل درجة من أوّل عتبة. نهضتْ وشرعنا بالصعود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقدّمنا إلى جانب الجدار، هي تسبقني بدرجتين وأنا أتردّد بين تقليص المسافة أو تمديدها. ما زلتُ أذكر كيف مسحتْ بكتفها الجدار المقشّر، وكيف كانت السلالم عالية جدًّا، أعلى من سلالم بناياتنا. كنتُ أرتجف. كلّما سمعتُ صوتًا ما أو أيّ وقْعٍ للخطى، ظننتُ أنّ الدون آخيل يهاجمنا من الخلف أو يظهر أمامنا حاملاً سكيّنًا طويلاً، كذاك الذي يشطر صدر الدجاج. كانت رائحة الثوم المقلّى تضوع من هناك. لا بدّ أنّ ماريّا، زوجة الدون آخيل، ستضعني في المقلاة مع الزيت المغليّ، لأستحيل وجبةً لأبنائها؛ أمّا هو، سيمصّ رأسي كما كان والدي يفعل بأسماك التريليا.

توقّفنا مرارًا، وفي كلّ مرّة آمل أن تقرّر ليلا العودة. وكنتُ أتصبّب عرقًا، ولا أعلم إن كانت هي مثلي. تنظر إلى الأعلى، بين الفينة والأخرى، ولم أفهم ما الذي يُثير انتباهها. فلم يكن سوى اللون الرماديّ يُطبق على النوافذ الكبيرة عند كلّ عتبة. أُنيرتِ الأضواءُ فجأة، ولكنّها كانت خافتة، يغشوها الغبار، لتترك بقعًا واسعةً من الظلّ المحفوف بالمخاطر. انتظرنا لنتأكّد ما إذا كان هو من أدار القاطع، لكنّنا لم نسمع شيئًا، لا خطواتٍ ولا صفقَ بابٍ يُفتح أو يُغلق. ثم استأنفتْ ليلا صعودها، وأنا خلفها.

كانت تحسب أنّها تقوم بأمرٍ صائبٍ وضروريٍّ، بينما كنتُ قد نسيتُ الصواب بعينه، متأكّدة من أنّني هناك، لأنّ ليلا كانت هناك ليس إلّا. كنّا نصعد ببطء نحو أعظم أسباب رعبنا في تلك الآونة، ماضيتين لتحدّي الخوف ومساءلته أيضًا.

وعند العتبة الرابعة، تصرّفتْ ليلا على نحوٍ غير متوقّع. توقّفتْ وانتظرتني، وحين بلغتُها مدّت يدها إليّ. فغيّرت هذه الحركة كلّ شيء بيننا إلى الأبد.

٢

كان الذنب ذنبها. في وقتٍ ليس ببعيد ـ عشرة أيَّام، شهر، ومن يدري، لم نكن نكترث للزمن حينها ـ أخذتْ منِّي دميتي ورمتْها في قبو البناية. وإذا كنّا، يومذاك، نصعد نحو الخوف، فكنّا حينها مُجبرتين للنزول بسرعةٍ نحو المجهول. في الأعلى أم في الأسفل، كان يبدو لنا دومًا أنّنا نواجه شيئًا فظيعًا؛ ورغم أنّه كان يوجد من قبلنا، فإنّه معدّ لنا خصِّيصًا وفي انتظارنا. عندما نكون أطفالاً، من الصعب أن نفهم ما هي المصيبة قبل أن ينضج إحساسنا بالمصيبة، وقد لا نرى له أيّ ضرورة أصلاً. الكبار، في انتظارهم للغد، يتحرَّكون ضمن حاضرٍ يتبع البارحة أو أوَّل البارحة أو الأسبوع الماضي كحدٍّ أقصى: لا يهتمُّون بالتفكير في الباقي. أمّا الصغار، فلا يعرفون ما معنى البارحة، ولا أوَّل البارحة، ولا حتى معنى الغد. كلّ شيء بالنسبة إليهم يقتصر على أمورٍ قريبة، وتوجد في الحاضر: هذا الطريق، هذه البوّابة، هذه السلالم، هذه أمِّي، هذا أبي، هذا النهار، هذه الليلة.. وأنا كنت صغيرة، وكانت دميتي أعلمُ منِّي بالمحصّلة. كنت أتحدّث إليها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتجيبني. كان وجهها من السلولويد وشعرها من السلولويد وعيناها من السلولويد. ترتدي فستانًا أزرق صغيرًا خاطته أمّي في لحظةٍ سعيدةٍ نادرة. وكانت دميتي جميلة؛ أمّا دمية ليلا، فكان جسدها من خرقةٍ مصفرّة محشوّة بالنشارة، وتبدو لي قبيحةً وقذرة. كانت الدميتان تتجسّسان إحداهما على الأخرى، وتتفحّص إحداهما الأخرى، وكانتا على استعدادٍ أن تلوذا بين أذرعنا إذا هبّ إعصارٌ ودوّى الرعد، أو إذا حاول أحدٌ، أكبر وأقوى منهما، أن ينهشهما بأنيابه المدبّبة.

كنّا نلعب في الفناء، كلٌّ منّا تلعب بمفردها. ليلا تجلس على الأرض، بجانب كوّة القبو، وأنا على الجانب الآخر. وكان ذلك المكان يعجبنا، لا سيّما أنّنا نستطيع بسط أغراض دميتي تينا، ودميتها نو، على الأرضيّة الإسمنتيّة، بين أعمدة مدخل البناية، وقرب شِباك تلك الكوّة. كنّا نضع الحصى وسدّادات قوارير المياه الغازيّة، وأزهارًا صغيرة ومسامير وشظايا الزجاج. ألتقط ما تقوله ليلا لدميتها وأكرّره على مسامع تينا بصوتٍ خفيض، بعد تعديلاتٍ طفيفة. إذا وضعتْ سدّادة على رأس دميتها كما لو كانتْ قبّعة، أقول لدميتي بلهجتنا: ضعي تاج الملكة على رأسكِ يا تينا وإلّا أصابك البرد. إذا لعبتْ نو بجرسٍ على ذراع ليلا، قلّدتُها حالاً بفعل الشيء ذاته مع تينا. ولكن، لم يحدث بعد أن اتّفقنا على لعبة وبدأنا نلعب معًا. بل كنّا نقصد هذا المكان دون اتّفاقٍ مسبق. فكانت ليلا تذهب إلى هناك بينما أطوف متظاهرةً بالذهاب إلى مكانٍ آخر. وسرعان ما أتّجه إلى تلك الكوّة، وكأنّ شيئًا لم يكن، لأجلس على الجانب الآخر.

أكثر ما كان يجذبنا هو الهواء المنعش الذي يندفع من القبو، كنسمةٍ ترطّب أجواء الربيع والصيف. وكنّا نحبّ الأعمدة التي تؤوي بيوت العناكب، والظلام، وشِباك الكوّة الكثيفة التي اصفرّت بفعل الصدأ حتى تعشّقت، سواءً من جانبي أم من جانب ليلا، فشكّلت

فجوتين نرمي فيهما الحصى ليسقط في عمق ذلك الظلام، ويرتدّ إلينا صدى ارتطامها بالأرض. كان كلّ شيء جميلاً ومخيفًا في تلك الآونة. عبر تينك الفجوتين، كان بوسع الظلام أن يسلبنا دميتينا على حين غرّة، إن لم تكونا في مأمنٍ بين ذراعينا، وغالبًا ما نضعهما عمدًا قرب شِباك الكوّة كي تتلذّذا بأنفاس القبو الرطبة، وتصغيا إلى أصواته الغامضة من حفيفٍ وخشخشةٍ وطقطقة.

لكنّ نو وتينا لم تنعما بالسعادة. كانتا تشاركاننا الذعر الذي يصيبنا كلّ يوم. لم نكن نثق بالنور الذي ينهمر على الحجارة، والبنايات، والريف، والأشخاص سواءً أكانوا في منازلهم أم في الخارج. لم نكن نرى منه سوى الزوايا السوداء، والمشاعر المكبوتة التي توشك على الانفجار. وكنّا نعزو كلّ ما يخيفنا تحت ضوء النهار إلى تلك الأفواه المعتمة، تلك الكهوف التي تنفتح تحت بنايات الحيّ. فالدون آخيل، على سبيل المثال، لم يكن في بيته فقط، في الطابق الأعلى، بل كان هناك في الأسفل أيضًا، كعنكبوت بين العناكب، كجرذٍ بين الجرذان، كشكلٍ يتجلّى بأيّ شكلٍ يريد. كنتُ أتخيّله كفمٍ مفتوح، وأسنانه كأنياب الحيوانات الكاسرة؛ وجسده كالصخر تنبتُ من أطرافه مخالبُ زجاجيّة وأعشابٌ ضارّة، ولديه حقيبةٌ ضخمةٌ سوداء قادرةٌ على ابتلاع أيّ شيء نرميه من زوايا الشِباك المنزوعة. تلك الحقيبة عنصرٌ أساسيٌّ من شخصيّة الدون آخيل، لا تفارقه أبدًا، حتى إذا كان في بيته، ويضع فيها موادَّ حيّة وميّتة.

وكانت ليلا تعلم بذلك الخوف الذي يعتريني، فدميتي تعبّر عنه بصوتٍ مرتفع. وهكذا، تحديدًا في اليوم الذي تبادلنا الدميتين، دون أن ننبس ببنت شفة، إذ اكتفينا بالنظرات والإشارة، ما إن حصلتْ ليلا على تينا، حتى دفعتْها تحت الشِباك وتركتْها تهوي في لجّة الظلام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣

ظهرتْ ليلا في حياتي عندما كنّا في الصفّ الأوّل الابتدائيّ، وسرعان ما أذهلتني، لأنّها شرِّيرة للغاية. كان جميعنا يتّسم بقليلٍ من الشرّ، ولكنّنا نُبديه فقط حين لا تستطيع المعلّمة أوليڤييرو أن ترانا. أمّا ليلا، فكانت شرِّيرة على الدوام. ذات مرّة، مزَّقتِ المنديل المجفّف إلى أجزاء صغيرة، ثم غطّستها واحدًا تلو الآخر في ثقب الحبر، وأخذتْ تصطادها تباعًا بالقلم وترمينا بها. رمتني مرّتين على شَعري ومرّة على ياقتي البيضاء. فصرختِ المعلّمة بأعلى ما في جوفها من صوت حادٍّ كالإبرة، صرخة طويلة ومزلزلة كانت تبثّ فينا الرعب، وأمرتْها أن تقف خلف السبّورة عقابًا لها. لكنّ ليلا لم تنفّذ ما أُمرَت به، ولم يكن يبدو أنّها مذعورة أيضًا، بل واصلتْ رمينا بأجزاء المنديل المغطّس بالحبر. ما جعل المعلِّمة تنهض من خلف طاولتها لتنهرها؛ وكانت بدينةً وتبدو لنا كعجوز، رغم أنّها لم تبلغْ سوى الأربعين من عمرها حينذاك. تعثّرتْ بشيء ما واختلّ توازنها، فارتطم وجهُها بزاوية المقعد. وخرّت على الأرض كأنّها ميّتة.

لا أذكر بالضبط ما حصل بعد ذلك، لا أذكر سوى جسد المعلّمة هامدًا كصرّة غامقة اللون، وليلا ترمقها بنظرةٍ جدِّيّة.

ما زال في ذهني العديد من الحوادث من هذا النوع، إذ كنّا نعيش في عالمٍ غالبًا ما يتعرّض فيه الصغار والكبار إلى الجروح، والجروح تنزف دمًا، ثم قيحًا، وقد يموتون في بعض الحالات. إحدى بنات السيِّدة آسونتا، بائعة الخضروات، جُرحت بمسمارٍ وماتت من الكزاز. أصغر أبناء السيِّدة سبانيولو مات بالتهابٍ في حلقه. أحد أبناء عمومتي، وكان عمره عشرين عامًا، ذهب ذات صباح ليجرف بعض الأنقاض، وفي المساء مات مسحوقًا والدم ينزف من فمه وأذنيه. والد أمّي لقي مصرعه حين كان يعمل في تشييد بناية وسقط إلى الأسفل. والد السيد بيلوزو كان قد بتر ذراعه بالمخرطة عن طريق الخطأ. أخت جوزيبّينا، زوجة السيِّد بيلوزو، توفِّيت بمرض السلّ وهي في الثانية والعشرين من عمرها. أخو الدون آخيل الأكبر ـ لم أرَه أبدًا ومع ذلك يبدو لي أنّني أذكره ـ ذهب إلى الحرب ومات مرّتين، في الأولى غرقًا في المحيط الهادي، وفي الثانية التهمتْه أسماك القرش. أفراد عائلة ميلكيوري ماتوا جميعهم متعانقين، يصرخون من الخوف، تحت القصف. الآنسة كلوريندا العجوز ماتت بعد استنشاقها الغاز بدلاً عن الهواء. جانينو، الذي كان في الصفّ الرابع بينما كنّا في الأوّل، مات ذات يوم لأنّه وجد قنبلة ودفعه الفضول لمسّها. لويجينا، التي ربّما قد لعبتْ معنا في الفناء، لم يبق منها سوى اسمها، قتلتها الحمّى التيفيّة. كان عالمنا هكذا، يغصّ بالكلمات القاتلة: الالتهاب، الكزاز، الحمّى التيفيّة، الغاز، الحرب، المخرطة، الأنقاض، العمل، القصف، القنبلة، السلّ، القيح. وما زلتُ أنسب كلّ مخاوفي التي رافقتني طوال حياتي إلى تلك المفردات وتلك الحقبة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان من الممكن أن نموت لأسباب تبدو بسيطة. مثلاً، إذا تعرّقتِ ثم شربتِ من ماء الصنبور البارد دون أن تنظّفي يديك قبل ذلك، فربّما تملؤكِ البثور الحمراء، وينزل بكِ السعال حتى تفقدي القدرة على التنفُّس. كان من الممكن أن يموت المرء إذا تناول الكرز الأسود دون أن ينزع نواته. وقد يموت إذا كان يمضغ العلكة الأميركيَّة ثم يسهو فيبلعها. ومن الممكن أن يموت إذا ضربه أحدٌ على صدغه. الصدغ ناحية حسّاسة جدًّا، وكنّا نعيره جلّ انتباهنا. كانت رمية حجرٍ كافية لقضاء الأجل، وكنّا نتعرّض لها نحن الإناث مرارًا. حين نخرج من المدرسة، تعترضنا عصابةٌ من فتيان الريف، يقودهم إنتسو، أو إنسوتشو، أحد أبناء السيِّدة آسونتا، بائعة الخضروات، وينهالون علينا بوابلٍ من الحجارة. كانوا يشعرون بالإهانة، لأنّنا نتفوّق عليهم. وما إن تُشنّ غارة الحجارة حتى نلوذ بالفرار جميعنا، عدا ليلا، إذ كانت تمضي قُدُمًا واثقة الخطى. وفي بعض الأحيان، تتوقّف أيضًا، لأنّها ضليعة في مسارات الحجارة وتتجنّبها بحركاتٍ هادئة، بل أصفها الآن بالأنيقة. كان لديها أخٌ ذكرٌ أكبر منها، ولعلّها تعلّمتْ منه بعض الأمور؛ أنا أيضًا لديّ إخوةٌ ذكور، لكنّهم أصغر منّي ولم أتعلّم منهم أيّ شيء. ومع هذا، حين كنت أنتبه إلى أنّها بقيتْ بمفردها خلفي، أتوقّف لانتظارها رغم خوفي الشديد.

كان ثمّة شيءٌ ما، منذ تلك الأعوام البعيدة، يمنعني من أن أتخلّى عنها. لم أكن قد عرفتُها جيّدًا، ولم نكن قد تبادلنا أيّ كلمة رغم منافساتنا المتواصلة، في المدرسة وخارجها. لكنّ هاجسًا غامضًا كان يُشعرني بأنّني لو هربتُ مع الأخريات لتركتُ عندها قطعةً منّي لن أستطيع استردادها أبدًا.

في البدء، كنتُ أختبئ خلف زاويةٍ، وأطلّ برأسي كي أرى إن

كانت بخير. فإذا بي أُجبَر على بلوغها بما أنّها لم تكن تتحرّك، فأمرّر لها الحجارة، وأرمي بعضها نحو الصبْية، ولكنْ عن غير اقتناع بما أفعل. لقد فعلتُ أشياءً كثيرة في حياتي عن غير اقتناع، ولطالما شعرتُ بالحيرة تجاه أفعالي. أمّا ليلا، فعكسي تمامًا: حين كانت صغيرة ـ لا أذكر عمرها بدقّةٍ آنذاك، ربّما بين الستّ أو السبع سنوات؛ وعندما صعدنا السلالم معًا إلى بيت الدون آخيل، ربَّما كنّا بين الثماني والتسع سنوات ـ كان الحزم القاطع من طباعها. فأن تمسك، بقبضتها، أسطوانة القلم ثلاثيّ الألوان أو حجَرَة ما أو سياج سلالم مظلمة، كان يوحي بأنّها ستفعل، دون تردّدٍ، ما يتأتّى عليها: غرز ريشة القلم في خشب المقعد برميةٍ صائبة، قذف أعيرةٍ مليئة بالحبر، ضرب ذكور الريف بالحجارة، الصعود حتى بيت الدون آخيل.

كان الصبْية يأتون من خلف المحطّة، يلمُّون الحجارة من بين السكك الحديديّة. إنتسو، قائدهم، كان طفلاً في غاية الشقاوة، يكبرنا بثلاث سنواتٍ على الأقلّ، وشعره القصير أشقر وعيناه فاتحتا اللون. كان يقذف الحصى المهشّمة بدقّة عالية، بينما تنتظر ليلا رمياته لتريه كيف تجتنبها، ما يزيده غضبًا، فيردّ على عنادها برمياتٍ أكثر خطورة. ذات مرّة، أصبنا كاحله الأيمن؛ وأقول أصبناه، لأنّني أنا من مرّر تلك الحَجَرة المسطّحة، ذات الأطراف المهشّمة، إلى ليلا. هوتِ الحَجَرة على جلده كشفرة الحلاقة، وتركتْ أثرًا أحمر أخذ ينزف الدماء. نظر الطفل إلى قدمه المصابة، ما زلت أذكره كأنّه أمام عينيّ: كان يمسك الحجرة، التي أراد قذفها، بين الإبهام والسبّابة، وذراعه مرفوعة، فإذا هو يتسمّر في مكانه مذهولاً. حاله كحال رفاقه التابعين، وقفوا ينظرون إلى دمائه بأعينٍ ترسمُها الدهشة. لكنّ ليلا لم ترضَ بتلك النتيجة، وانحنتْ لتمسك بحَجَرةٍ أخرى. فأمسكتُ ذراعها، وكان هذا أوّل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تماسٍّ بيننا، تماسّ عنيف مردُّهُ الهلعُ. إذ شعرتُ بأنّ الصبْية سيصبحون أكثر عدوانيَّةً، وأردتُ أن نلوذ بالفرار. ولم يحالفْنا الوقت، فإنتسو استفاق من ذهوله، رغم كاحله الدامي، وقذف تلك الحَجَرة. كنتُ ما أزال أمسك بليلا حتى أصابتِ الحَجَرة جبينها. وبعد لحظةٍ، وجدتُها مستلقيةً على الرصيف ورأسها ينزف.

٤

دماء. جرتِ العادة ألّا تنزف الدماء إلّا بعد تبادل أوقح الشتائم وأفظع اللعنات. أبي، رغم أنّه كان يبدو لي رجلاً صالحًا، لم يكن يتوقّف عن إطلاق الوعيد والإساءات، إذا كان أحدٌ ما لا يستحقّ أن يعيش على وجه الأرض، وفقًا لتعبيره. وكان الدون آخيل، تحديدًا، يثير انفعاله، ولديه دومًا ما يعيّره به، حتى يصل بي الأمر إلى سدّ أذنيّ كي لا أسمع تلك العبارات النابية. حين يتحدّث عنه مع أمّي يسمّيه «ابن عمّكِ»، وسرعان ما تنفي والدتي صلة الدم بينها وبين الدون آخيل (كانت هنالك قرابةٌ بعيدة جدًّا بينهما) ثم ترفع مستوى الشتيمة. كان الشجار بينهما يُرعبني، ويُصيبني الهلع ما إن أفكّر بأنّ للدون آخيل أذنين قادرتين على التقاط أيّ شتيمة تصدر بحقّه من مسافة بعيدة. وكنت أخشى أن يأتي ليقتل والديّ.

بكلّ الأحوال، لم يكن والدي العدوّ اللدود للدون آخيل، إنّما السيِّد بيلوزو، نجّارٌ في منتهى البراعة، دائم الإفلاس لكثرة ما يقامر، بأمواله المستحقّة، في مقهى سولارا. بيلوزو كان أبًا لكارميلا، رفيقتنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المدرسة، ولباسكوالي الذي كان يافعًا، ولابنين صغيرين آخرين أكثر بؤسًا منّا حدث وأن لعبنا معهما، أنا وليلا؛ ولطالما حاولا أن يسرقا أغراضنا، في المدرسة وخارجها، كالقلم والممحاة ومربّى السفرجل، ولطالما عادا إلى المنزل وقد اصفرّ وجهاهما من شدّة اللكمات التي كنّا نوجّهها إليهما.

وكان البؤس ينضح من وجه السيِّد بيلوزو كلّما رأيناه. من جهة، كان يخسر ما عنده في القمار؛ ومن جهة أخرى، كان يذلّ نفسه على الملأ، لأنّه لم يعد بوسعه أن يُشبع جوع عائلته. ولأسباب مبهمة، كان يعزو البليّة التي مُني بها إلى الدون آخيل. كان يتّهمه بالغشّ بعد أن ابتلع أدوات النجارة كلّها، كما لو أنّ جسده الغامض مخلوقٌ من البلاء، ما أدّى إلى كساد المحلّ. ثم لامه لأنّه استولى على المحلّ أيضًا، وحوّله إلى مكانٍ لبيع أنواع اللحوم. وبقيتُ، لأعوامٍ، أتخيّل أنّ المفكّ والمنشار والكمّاشة والمطرقة وألف ألف مسمارٍ تنصهر في ما بينها لتشكّل خليّة نحل معدنيّة داخل المادّة التي يتكوّن منها الدون آخيل؛ وأنّ اللحوم المقدَّدة وجبن البروفولون، وأصناف المرتديلّا وشحوم الخنزير، تخرج من جسده الخامّ والمحشوّ بموادّ مختلفة، وعلى شكل خليّة نحلٍ دومًا.

بعض الأحداث وقعتْ في أزمنة مظلمة. لا بدّ أنّ الدون آخيل أظهر كلّ ما أوتي من طبيعةٍ وحشيّة قبل أن نولد. «قبل وجودنا». كم كانت ليلا تستخدم هذه الصيغة، في المدرسة وخارجها. غير أنّها لم تكن تبدو مهتمّة بما وقع قبل وجودنا ـ أحداثٌ غامضة في غالبيّتها، لا يتحدّث الكبار بشأنها قطعًا، أو يتهامسون بها بتحفُّظٍ شديد ـ على قدْر اهتمامها بحقيقة وجود هذا الزمن الماضي أساسًا. هذا ما كان يعزّز ارتيابها ويوتّر أعصابها حينذاك. وعندما أصبحنا صديقتين، حدّثتني

مرارًا عن ذلك الشيء الرهيب ـ «ما قبل وجودنا» ـ حتى انتقلتْ إليّ عدوى التوتُّر. كان ذلك الزمن الطويل الذي لم نكن فيه موجودتين؛ الزمن الذي ظهر فيه الدون آخيل على حقيقته أمام جميع الناس: كائنٌ همجيٌّ، من المستحيل تحديد ملامحه الحيوانيّة والمعدنيّة، يسفك دماء الآخرين دون أن ينزف قطرة واحدة، وليس بمقدور أحدٍ أن يدنو منه ليؤذيه ولو بخدشٍ طفيف.

وربَّما كنّا في الصفّ الثاني، أي قبل أن نتحادث، حين انتشرتِ الأقاويل بأنّ السيِّد بيلوزو راح يصرخ غاضبًا في وجه الدون آخيل، قبالة كنيسة العائلة المقدَّسة تحديدًا، عند الخروج من الصلاة، حتى ترك الأخيرُ زوجته وابنه الأكبر ستيفانو، وبينوتشا، وألفونسو الذي كان في عمرنا، وانقضّ على بيلوزو ليُظهر أعتى أشكاله المريعة للحظاتٍ قصيرة، ثم رفعه وألقاه على إحدى أشجار الحديقة الصغرى، وتركه هناك، يفقد وعيه، والدماء تنزف من مائة جرحٍ في رأسه وكافَّة أنحاء جسمه، دون أن يتمكّن المسكين من لفظ كلمة واحدة: ساعدوني!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥

لا أحنّ إلى طفولتنا، بسبب العنف الذي اتّسمتْ به. كنّا نواجه شتّى أنواع المصائب، في البيت وفي الخارج، كلّ يوم، لكنّي لا أذكر أنّني فكّرتُ بأنّ الحياة، التي كُتبتْ عليّ، كانت في غاية الشقاء. الحياة كانت هكذا وكفى، وكنّا نكبر مرغمين على جعلها صعبة على الآخرين قبل أن يجعلها الآخرون صعبةً علينا. فالأساليب اللطيفة التي يعظ بها الخوريّ والمعلّمة كانت ستروقني حتمًا، لولا شعوري بأنّها لا تلائم حيّنا، ورغم كوني أنثى. كانت النساء يتنازعن ما بينهنّ أكثر من الرجال، تشدّ الواحدة شعر الأخرى، ويُلحقن الأذى بأنفسهنّ. إنّ إلحاق الأذى بالآخرين مرضٌ حقيقيّ. في طفولتي، كنتُ أتخيّل أنّ بعض الكائنات متناهية الصغر، تكاد لا تراها العين، تغزو حيّنا ليلاً؛ تخرج من المستنقعات، من بين عربات القُطر التي ولّت صلاحيّتها، فألقوها في آخر المحطّة، من الأعشاب كريهة الرائحة، من أفواه الضفادع والسمندل والذباب، من بين الصخور، من الغبار، فتنسلّ في المياه والطعام والهواء، لتجعل من أمّهاتنا وجدّاتنا عصبيّاتٍ كالكلاب

الجائعة. وكنّ يتأثّرن بها أكثر من الرجال، فالذكور يستشيطون غضبًا باستمرار، ولكنّهم يهدأون في النهاية؛ بينما الإناث، ورغم مظهرهنّ الهادئ واللطيف، كنّ يغرقن في أعماق الغضب، حين تعتليهنّ موجة الغيظ، دون أملٍ بالنجاة.

لقد تأثّرتْ ليلا كثيرًا بما أصاب ميلينا كابوتشو، قريبة أمّها. وأنا تأثّرتُ بمصابها أيضًا. كانت ميلينا تسكن في بنايتنا الصغيرة، نحن في الطابق الثاني، وهي في الثالث. تجاوزتْ مطلع الثلاثين من عمرها أمًّا لستّة أولاد، لكنّها كانت تبدو لنا عجوزًا. وكان زوجها في عمرها، يفرّغ الحمولات في سوق الخضروات. أذكره قصير القامة ومربّع البنية، لكنّه وسيمٌ ومشرق الوجه. ذات ليلةٍ، خرج من منزله كالعادة ومات، ربّما مقتولاً وربّما بسبب الإرهاق. أقيمتْ له جنازة حزينة، شارك فيها أبناء الحيّ كلّه، ووالداي ووالدا ليلا أيضًا. ومرّ وقتٌ قصير لا أحد يدري فيه ما الذي أصاب ميلينا. بقي مظهرها على حاله: امرأة قاسية الملامح بأنفٍ كبير وشعرٍ ينبت في ثناياه الشيبُ، وصوتٍ حادّ تنادي به على أولادها، إذا حلّ المساء، من النافذة، واحدًا واحدًا، كلٌّ باسمه، بمقاطع صوتيّة مطوّلة يشوبها اليأس الفظيع: آآآ ـ دااااا، ميييي ـ كيييي. في البدء، ساعدها دوناتو سارّاتوري، الذي كان يسكن في شقّة فوقها تمامًا، في الطابق الرابع والأخير. وكان دوناتو من المتردّدين الدؤوبين إلى كنيسة العائلة المقدّسة، ونظرًا إلى أخلاقه المسيحيّة الحسنى، كرّس نفسه ليجمع لها المال والملابس والأحذية المستعملة؛ وأدخل أنطونيو، ابنها الأكبر، ليعمل في ورشة غوريزيو، أحد معارفه. فكنّتْ له ميلينا من الامتنان ما تجاوز الحدود القصوى، وظلّ في صدرها يواسي وحدتها، فاستحال حبًّا وولعًا. ولا أحد يدري إن كان سارّاتوري قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتبه للأمر. كان رجلاً مهذّبًا وفي غاية الجدِّيّة: بيت، كنيسة وعمل. كان يعمل مع الطاقم المسافر على سكك الحديد الوطنيّة، ويتقاضى راتبًا ثابتًا يحفظ كرامته وكرامة زوجته ليديا وأبنائه الخمسة، نينو أكبرهم. وحين لا يكون مسافرًا على خطّ نابولي ـ باولا، ذهابًا إيابًا، يهب وقته لتصليح هذا الشيء وذاك في المنزل، أو يذهب لشراء الحاجيّات، ويأخذ وليده الأخير في نزهةٍ بالعربة. وهذه تصرّفات شاذّة في الحيّ. إذ لم يخطر في ذهن أحد أنّ دوناتو يتطوّع هكذا ليخفّف العبء عن زوجته. بل كان جميع الذكور في الحيّ، وأبي على رأسهم، يعتبرونه رجلاً يهوى التصرُّف كالإناث، ناهيك عن أنّه يكتب الشعر ويُلقيه بسرور على مسامع أيّ أحد. ولم يخطر هذا في ذهن ميلينا نفسها، إذ فضّلت الأرملة فكرة أنّه يخضع لسطوة زوجته، بسبب أخلاقه العالية، فقرّرت أن تصارع ليديا سارّاتوري بضراوة، كي تحرّر دوناتو منها ليرتبط بها رسميًّا. بدت لي الحرب بينهما ممتعة بادئ الأمر، كنّا نتحدّث بشأنها جميعًا، في البيت وفي الخارج، وغالبًا ما ترافقها قهقهاتٌ لئيمة. ليديا تنشر الأغطية بعد غسلها بالمنظِّفات، فتتسلّق ميلينا على حافّة النافذة لتوسّخ الأغطية بعود قصبٍ حرقتْ رأسه عمدًا. ليديا تمرّ تحت النافذة، فتبصق ميلينا على رأسها أو تسكب فوقها إناءً من المياه الآسنة. ليديا تثير الجلبة طوال النهار، مع أولادها المشاكسين، فوق رأس ميلينا، فتنهمك الأخيرة، طوال الليل، بضرب السقف بالمكنسة. حاول سارّاتوري، بشتّى السبل، أن يفرض السلام بينهما، لكنّه كان رجلاً مرهفًا ومحترمًا. وهكذا، بين النكد والنكاية، شرعت المرأتان بتبادل أقسى الإساءات وأشدّها إيلامًا، كلّما تقابلتا في الشارع أو على السلالم. أكثر المشاهد فظاعة في طفولتي يبدأ بصياح ميلينا وليديا على النوافذ

ثم يعبر إلى السلالم؛ ويستمرّ المشهد مع أمّي التي تهرع إلى باب البيت، تفتحه وتطلّ برأسها عند العتبة، ونحن الصغار وراءها؛ وينتهي المشهد بصورةٍ لا تزال تثقل على ذاكرتي حتى هذا اليوم: الجارتان تتعاركان نزولاً على السلالم، إلى أن يصطدم رأس ميلينا بأرض العتبة، على بعد سنتمتراتٍ من حذائي، كبطّيخة صفراء تفلت من بين يديّ.

من الصعب أن أشرح لماذا كنّا، نحن الصغار، ننحاز إلى جانب ليديا سارّاتوري. ربّما لأنّ تقاسيمها طبيعيّة وشعرها أشقر، أو لأنّ دوناتو كان زوجها، في حين بدا لنا أنّ ميلينا أرادت أن تسلبه منها. وربّما لأنّ أولاد ميلينا كانوا يرتدون ثيابًا رثّة ومتّسخة، بينما كان أولاد ليديا نظيفين وشعرهم مسرّحٌ، وكان نجلها نينو، الذي يكبرنا ببضعة أعوام، فتًى وسيمًا، ويعجبنا. أمّا ليلا، فكانت الوحيدة التي تميل إلى صفّ ميلينا، دون أن تكشف لنا عن الأسباب يومًا. كلّ ما قالته، في مناسبةٍ معيّنة، أنّ ليديا سارّاتوري تستحقّ ميتة شنيعة. وقد عزوتُ هذا إلى كونها شرّيرة بعض الشيء، ولأنّ ثمّة قرابة بعيدة تصلها بميلينا.

ذات يوم، في طريق عودتنا من المدرسة، كنّا أربع أو خمس صبيّات. كانت ماريزا سارّاتوري معنا، نرافقها بالعادة ليس حبًّا بصحبتها، بل لأنّنا كنّا نرجو أن نستعين بها للتواصل مع أخيها الكبير، نينو. وكانت هي أوّل من انتبه إلى ميلينا، التي تمشي على الجانب الآخر من الشارع العام بخطواتٍ بطيئة، وتحمل في يدها شيئًا مغلّفًا، وباليد الأخرى تقتطع منه جزءًا وتقضمه. أشارت ماريزا إليها ووصفتْها بالعاهرة، ولم تقصدِ الإهانة، إنّما كرّرت ما تسمعه من أمّها في البيت. فما كان من ليلا إلّا أن صفعتْها حتى رمتها على الأرض، رغم أنّ صديقتي كانت هزيلة وأقصر قامة. فعلتْها بتصميمٍ وبرودة أعصاب،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما اعتادت أن تفعل في مناسبات العنف، دون أن تصرخ قبلها أو بعدها، دون سابق إنذار، ودون أن يرفّ لها رمش.

سارعتُ إلى نجدة ماريزا التي كانت تبكي، وساعدتُها على النهوض ثانية، ثم استدرتُ لأرى ما تفعل ليلا. كانت قد نزلت عن الرصيف وتعبر الشارع العام، باتّجاه ميلينا، دون أن تكترث لمرور الشاحنات. رأيتُ حركاتهما أكثر من وجهيهما. وأزعجني شيءٌ ما لا أستطيع أن أعرِّفه إلى يومنا هذا، لكنّني الآن سأكتفي بقول التالي: كانت ثابتةً، مع أنّها تحرّكتْ لتقطع الشارع العام، بجسمها الصغير وعصبيّتها الشرسة، بكلّ ما أوتيتْ من إرادةٍ قاهرة. ثابتة بالنسبة إلى ما كانت قريبة أمّها تفعله، ثابتة من الألم، ثابتة كتماثيل الملح. التحمتْ كلِّيًّا مع ميلينا، التي كانت تحمل في يدها قطعة صابون ناعمٍ غامق اللون، حصلتْ عليه للتوّ من مستودع الدون كارلو، وتقتطع منه باليد الأخرى وتقضمه.

٦

في اليوم الذي سقطتْ فيه المعلّمة أوليڤييرو عن الطاولة وارتطمتْ عظام وجنتيها بالمقعد، توقَّعتُ أنا أنَّها ماتت، كما قلتُ سابقًا، ماتت أثناء تأديتها للعمل مثل جدّي وزوج ميلينا. وتوقَّعتُ أنّ ليلا ستموت بالتالي إثر العقاب الذي كان سيترتّب عليها. غير أنّ شيئًا من هذا لم يحدث؛ بل اكتفت المعلّمة والتلميذة، لمدّة لا أستطيع تحديدها الآن أكانت طويلة أم وجيزة، بالاختفاء من أيّامنا وذاكراتنا.

بدا كلّ شيء غريبًا حينها. عادت المعلِّمة أوليڤييرو إلى المدرسة، وما لبثت تنشغل بليلا، ليس لمعاقبتها ـ كما قد يبدو طبيعيًّا ـ بل لمكافأتها.

بدأت هذه المرحلة الجديدة حين استدعيت والدة ليلا، السيِّدة شيرولّو. ذات صباح، طرق الآذن باب الصفّ وصرّح عن قدومها. دخلت نونتسيا شيرولّو، ولم أكن لأعرفها. فهي كانت مثل معظم نساء الحيّ، شعرها أشعث، وترتدي ثيابًا قديمة مستهلكة وخفّين رديئين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكنّها، حين ظهرت في صفّنا، كانت ترتدي ثيابًا تصلح للمناسبات (حفل زواج، جنازة، عيد المناولة الأولى، عيد سرّ التثبيت). كان اللون الداكن يطغى على مظهرها، تحمل حقيبة يد سوداء لامعة، وتنتعل حذاءً ذا كعبٍ ترتعش ساقاها المنتفختان بسبب ارتفاعه. أعطت كيسين ورقيين للمعلّمة، أحدهما يحتوي على السكّر والآخر يحتوي على القهوة.

قبلت المعلِّمة تلك الهبة برحابة صدر، وقالت لها ولنا جميعًا كلامًا شتَّت معناه أفكاري، وهي تنظر إلى ليلا التي أخفضت بصرها لتحدِّق في المقعد. كنَّا في الصفّ الأوَّل الابتدائيّ، وما زلنا نتعلَّم الأبجديَّة والأرقام من واحد إلى عشرة. وكنت أنا أكثر التلميذات مثابرة في الصفّ، لأنَّني كنت أعرف كلّ الحروف، وأعرف العدّ: واحد اثنان ثلاثة أربعة.. إلخ. وغالبًا ما كنت أنال تقدير المعلِّمة في الإملاء، وأفوز بالأوسمة ثلاثيّة الألوان التي كانت تنسجها بنفسها. ولذا، فوجئتُ بأوليڤييرو تقول إنّ ليلا هي أفضل التلميذات عندها، مع أنَّها وقعتْ من خلف الطاولة، وأسعفت إلى المستشفى بسبب ليلا. صحيحٌ أنّها كانت أكثرنا لؤمًا. صحيحٌ أنّها ارتكبت تلك الفعلة المريعة بقذفنا بقطع الورق المتّسخة بالحبر. صحيحٌ أنّ المعلِّمة لم تكن لتقع ويتأذّى وجهها لولا سفاهة تلك الطفلة. صحيحٌ أنّها كانت مضطرَّة إلى تأديبها دومًا، بالعصا الخشبيَّة أو بإرسالها خلف السبّورة لتجثم على ركبتيها. لكنّ شيئًا ما كان يغمر قلبها بالفرح، كمعلّمة وإنسان عمومًا. شيء عجيب، اكتشفتْه من طريق الصدفة قبل عدّة أيَّام.

وحينها نهضتْ، كأنّ الكلام لا يكفيها، أو كأنّها أرادت أن تثبت لوالدة ليلا، ولنا بالمحصّلة، أنّ الأفعال دومًا أهمّ من الأقوال. أمسكتْ بقطعة من الطبشور وكتبت على السبّورة (لا أذكر، لم أكن

أعرف القراءة حينها، لذا سأختار كلمة لا على التعيين): «شمس». ثم سألت ليلا:

«ما هذه الكلمة يا شيرولّو؟»

حلّ صمتٌ يتّشح بالفضول على الصفّ. وارتسمتْ شبه ابتسامة على وجه ليلا، توحي بالغنج، وانحنت جانبًا لتلتصق برفيقة مقعدها التي أبدت انزعاجها. ثم قرأتْ بنبرة حادّة:

«شمس».

نظرت نونتسيا شيرولّو إلى المعلِّمة نظرة حيرةٍ وذعر. واستغربتْ أوليڤييرو من أنّ الوالدة لا تشاركها الحماس الذي تطاير من عينيها، ولعلّها أدركتْ على الفور أنّ نونتسيا كانت أمِّيَّة، أو أنَّها لم تكن متيقِّنة من الكلمة التي كُتبت على السبّورة. فتجهَّم وجهها إلى أن قالت، كي توضّح الحالة للسيِّدة شيرولّو، وكي تثني على رفيقتنا:

«أحسنتِ. هذه الكلمة تعني «شمس» حقًّا». ثم طلبتْ منها: «تعالي يا شيرولّو. تعالي إلى السبّورة».

اتَّجهت ليلا نحو السبّورة على مضض، فأعطتها المعلِّمة قطعة الطبشور، وقالت لها:

«اكتبي «gesso» ـ طبشورة».

ركّزت ليلا انتباهها، وكتبت «geso» بخطّ مرتعشٍ جعل من الكلمة حرفًا صاعدًا وآخر نازلاً.

أضافت أوليڤييرو الحرف الناقص «s»، فقالت السيِّدة شيرولّو لابنتها، بأسفٍ، بعد أن رأت التصحيح:

«لقد أخطأتِ».

وسرعان ما طمأنتْها المعلِّمة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لا ، لا . ليلا يجب أن تتمرَّن، هذا صحيح؛ لكنَّها تعرف القراءة والكتابة جيِّدًا. من علّمها؟».

أخفضت السيِّدة شيرولّو نظرها، وقالت:

«لستُ أنا».

«هل من الممكن أن يكون أحدٌ ما في بيتكم أو في البناية؟».

نفت نونتسيا بهزّ رأسها غير مرّة.

فالتفتت المعلِّمة نحو ليلا، وسألتها، أمامنا جميعًا، بإعجاب عفويّ:

«من علّمكِ القراءة والكتابة يا شيرولّو؟»

شيرولّو الصغيرة، واللون الأسود القاتم يزدان على شعرها وعينيها ومئزرها، وعقدة الفراشة الزهريّة تلتفّ حول عنقها؛ شيرولّو التي بلغت ربيعها السادس ليس إلَّا، أجابت:

«أنا».

٧

وفقًا لما قاله رينو، شقيق ليلا الأكبر، فإنّ الطفلة قد تعلّمت القراءة حين كانت في سنّ الثالثة تقريبًا، وهي تنظر إلى الحروف والأشكال في كتابه المخصَّص لقراءة الأبجديّة. كانت تجلس بجانبه في المطبخ بينما ينجز واجباته المنزليَّة، فتعلّمت أكثر ممَّا تعلّم هو نفسه.

رينو يكبر ليلا بستّ سنوات، وكان فتًى شجاعًا ومتألِّقًا في كلّ ألعاب الحيّ والشوارع، لا سيّما في رمي البلبل الدوّار. لكنّ القراءة والكتابة والحساب، أو حفظ الأشعار عن ظهر قلب، لم تكن من اختصاصه. قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، راح والده، فرناندو، يأخذه معه إلى محلّه الصغير الواقع في زقاقٍ خلف الشارع العام، كي يعلّمه مهنة تصليح الأحذية. وكنّا، نحن البنات الصغيرات، حين نلتقي به، نشتمّ رائحة الأقدام النجسة والأحذية القديمة والغراء تفوح من ثيابه، فنسخر منه ونلقّبه بعاشق الحذاء. ولعلّه، بسبب هذا، كان يدّعي الفضل في مهارة أخته. لكنّ الحقيقة أنّ رينو لم يكن لديه كتابٌ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخصّص لقراءة الأبجديَّة أبدًا، ولم يكن قد كرّس دقيقة واحدة لإنجاز واجباته. من المستحيل، والحال هذه، أن تكون ليلا قد تعلّمت بفضل جهوده المدرسيّة. بل من المحتمل أنَّها أدركت آليَّة الأبجديَّة، قبل الأوان، بفضل ورق الجرائد التي كان الزبائن يلفّون بها أحذيتهم القديمة، وكان فرناندو يجلبها إلى المنزل كي يقرأ الوقائع المهمَّة على مسامع عائلته.

بأيّ حال، ومهما كانت الأسباب، فإنّ الأمر الواقع هو التالي: كانت ليلا تُجيد القراءة والكتابة؛ وحين أخبرتنا المعلِّمة بهذا، في ذلك الصباح الرماديّ، تولّد في خاطري شعورٌ بالضعف على وجه الخصوص؛ إذ لطالما أحسستُ أنّ المدرسة مكانٌ أجمل من بيتنا بكثير، منذ اليوم الأوّل، بل كانت أكثر مكانٍ في الحيّ أقصده بكلّ سرور، لأنَّه يشعرني بالأمان. وكنت أُعير الدروس جلّ انتباهي، وأتابع باهتمام أيّ شيء أوصى بمتابعته، وأتعلّم. كنت أسعى لنيل تقدير المعلّمة وإعجاب الجميع. وفي البيت، كنت الابنة المفضَّلة عند والدي، وإخوتي يكنّون لي المحبَّة أيضًا. أمّا المشكلة، فكانت أمّي. لم تكن علاقتنا على ما يرام مطلقًا. كنت أشعر، منذ أن كنت في السادسة من عمري، أنَّها قد تفعل أيّ شيء لكي تُظهر لي أنَّني لا أساوي شيئًا في حياتها. لم تكن تستلطفني، وكان الشعور متبادلاً. بل كان جسدها يصيبني بالنفور، وربّما كانت تدرك ذلك. كانت صهباء وعيناها زرقاوين وبدنها مكتنزًا. وعينها اليمنى، لا أحد يعلم إلى أيّ جانبٍ تنظر. وساقها اليمنى لم تكن بخير أيضًا، وكانت تسمّيها بالساق الذليلة. كانت عرجاء، وخطواتها تسبّب لي القلق، خصوصًا في الليل حين يشتدّ عليها الأرق، فتمشي في الممرّ، وصولاً إلى المطبخ، ثم تعود لتنطلق من جديد. وأحيانًا، كنت أسمعها تدوس الصراصير التي

تندسّ من تحت باب البيت، بطرْقات كعبها العنيفة؛ وأتخيّل أنّ عينيها تحتدّان غيظًا حين تغضب منّي.

لم تكن سعيدة بالتأكيد، فأعمال المنزل تستنفد قواها، والمال لا يكفي. كانت غالبًا ما تغضب من والدي، البوّاب في البلديَّة، وتصرخ في وجهه أنّ عليه فعل شيء ما، وإلَّا ظلَّت حياتنا عسيرة. كانا يتشاجران. ولأنّ والدي لم يكن يرفع صوته حتى لو نفد صبره، فكنت أصطفّ دومًا إلى جانبه ضدّها، مع أنَّه كان يضربها بعض الأحيان ويتوعَّدني بالعقاب أحيانًا أخرى. كان هو من قال لي في أوَّل يوم من المدرسة: «كوني شاطرة في الصفّ يا لينوتشا. أريدك أن تكوني أكثر التلميذات مثابرة، وإلّا لن أسمح لك بمتابعة الدراسة، بل ستضطرِّين إلى العمل لأنَّني أحتاج إلى من يساعدني». كانت تلك الكلمات تثير فيّ الفزع، ورغم أنّه هو الذي نطق بها، فإنّني شعرتُ أنّ والدتي هي التي أمدّته بتلك الفكرة أو فرضتها عليه. وعدتُ كليهما بأنَّني سأحسن صنعًا في المدرسة، وسرعان ما جرت الأمور بأفضل ممّا يمكن، حتى إنّ المعلِّمة كانت غالبًا ما تقول لي:

«تعالي يا غريكو واجلسي قربي».

وهذه مكافأة كبرى، إذ كانت أوليڤييرو تدعو التلميذات المثابرات إلى الجلوس على كرسيٍّ بجانبها. وكانت تناديني أنا دومًا في البدء، وتمدحني بكلماتٍ مشجِّعة، وتحنو على ضفائري الشقراء فتحفِّزني على تقديم الأفضل: عكس والدتي تمامًا التي كانت توبّخني في البيت باستمرار، وتهينني أحيانًا، حتى أفكّر في الانزواء في ركنٍ مظلم، وأتمنَّى أن لا تجدني أبدًا. ثم حدث أن جاءت السيِّدة شيرولّو إلى صفّنا، وصرّحت المعلِّمة بأنّ ليلا كانت تسبقنا بمراحل. بل أكثر من ذلك: باتت تدعوها للجلوس إلى جوارها غالبًا. وهذا ما جعلني أشعر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالدونيَّة، لا أدري؛ الآن أستصعب البوح بصدقٍ ووضوح ما شعرتُ به حينها. ربّما لم يكن إحساسًا عميقًا، بل مجرّد غيرة مثل بقيّة التلميذات، ولكنّني أجزم أنّ الكثير من الهواجس الغريبة بدأت تساورني منذ تلك الحقبة. فكَّرتُ أنَّني عرضة للخطر الدائم بأن أصبح عرجاء، رغم أنّ ساقيّ كانتا على ما يرام. كنت أستيقظ وهذه الفكرة في رأسي، فأنهض من السرير قفزًا كي أتفحّص ساقيّ. ولعلّني، لهذا السبب، حاولتُ اتّباع ليلا، لأنّ ساقيها كانتا نحيلتين ورشيقتين، تحرّكهما دومًا، تؤرجحهما حتى عندما تجلس قرب المعلِّمة، وسرعان ما تثور أعصاب الأخيرة وتأمرها بالعودة إلى مقعدها. راودني شعورٌ يُفيد بأنّني، إن سرت خلف ليلا، على إيقاع مشيتها، سأتفادى عرج والدتي وخطوتها التي دخلت دماغي ولم تعد تخرج منه. قرَّرتُ أن أرتّب شؤوني انسجامًا مع أسلوب تلك الطفلة، وأن أضعها تحت عينيّ دومًا، حتى لو ضاقت ذرعًا بذلك واستبعدتني.

٨

من الوارد أنّني اتّبعت هذه الطريقة لأواجه الحسد والنقمة وأهزمهما. أو ربمّا كي أخفي إحساسي بالدونيّة وخضوعي لتأثيرها القويّ. وأسلمتُ نفسي للتكيّف مع تفوّق ليلا في جميع تصرُّفاتها، بما فيها تلك السلبيّة.

بيد أنّ المعلِّمة تصرّفت بحذر مدروس. ولئن كانت غالبًا ما تدعو ليلا للجلوس إلى جانبها، فإنّها كانت تفعل ذلك لوضعها تحت السيطرة أكثر من كونه تقديرًا، كما بدا لي. واستمرّت بالثناء على جهود ماريزا سارّاتوري، وكارميلّا بيلوزو، وأنا بالأخصّ. كانت تجعلني أتألَّق بنور جليّ، وتشجِّعني على أن أكون أكثر دقّة وانضباطًا واجتهادًا. فحين كانت ليلا تكفّ عن شغبها، وتغلبني بسهولة، كانت أوليڤييرو تبدأ بالثناء عليّ سريعًا ثم تحتفي بعظمة ليلا. كنت أتذوَّق مرارة الهزيمة إذا سبقتني سارّاتوري أو بيلوزو. أمّا إذا كنت بعد ليلا مباشرة، فأعبّر عن الرضا بإيماءةٍ دمثة. أعتقد أنَّني، في تلك الأعوام، كنت أخشى شيئًا واحدًا: أن أفقد اقتراني بليلا في الهرميّة التي وطّدتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوليڤييرو؛ وأن لا تقول المعلّمة بفخر: شيرولّو وغريكو هما أشطر الفتيات. كنت سأموت كمدًا لو سمعتها تثني على شيرولّو وسارّاتوري، أو شيرولّو وبيلوزو. ولذا، كرّستُ كلّ ما أوتيت من طاقة، ليس لأكون في المرتبة الأولى ـ فهذا كان يبدو لي مستحيلاً؛ وإنّما كي لا أتراجع إلى المرتبة الثالثة، أو الرابعة، أو الأخيرة. وهبتُ نفسي للدراسة، ولأمور أخرى لا تقلّ صعوبة، وأراها بعيدة عن مجالي، لا لشيء سوى للبقاء في مستوى تلك الطفلة الفظيعة والمتألّقة.

أنا الوحيدة التي كنت أراها متألّقة؛ أمّا باقي تلاميذ المدرسة، فكانوا يرونها فظيعة فقط. ظلّت ليلا، منذ الصفّ الأوّل حتى الخامس الابتدائيّ، أكثر طفلة مكروهة في المدرسة والحيّ، بسبب المدير، وبسبب المعلّمة أوليڤييرو أيضًا.

كان المدير يرغم الصفوف على التنافس، مرّتين خلال العام على الأقلّ، وذلك كي يحدّد التلاميذ الأكثر تألُّقًا، وبالتالي الأساتذة الأكثر كفاءةً. وكانت المعلّمة أوليڤييرو تحبّ هذه المنافسات؛ وتستخدمنا، أنا وليلا، كبرهان ساطع على كفاءتها، وهي التي كانت في مواجهة دائمة مع زملائها، قد تصل إلى الشجار أحيانًا، لتثبت أنّها أمهر معلّمي المدرسة الابتدائيّة في حيّنا. ولطالما اصطحبتنا معها إلى الصفوف الأخرى، بغضّ النظر عن المسابقات التي يقرّرها المدير، كي ننافس الأطفال الآخرين، ذكورًا أكانوا أم إناثًا. وكانت تدفعني إلى المقدّمة في العادة لاستكشاف مستوى الخصم؛ وكنت أفوز بشكل عام، ولكن دون مبالغة، أي دون أن أذلّ المعلّمين والتلاميذ. كنت طفلة شقراء جميلة، أحبّ الظهور، ولكن لا أصل إلى حدّ السفاهة، بل كنت أولّد انطباعًا بالرقّة يضخّ الحنان في قلوب الآخرين. فعلى سبيل المثال، إذا اتّضح أنّني أكثرهم قدرة على إلقاء الأشعار وحفظ جداول الضرب،

والقيام بالعمليّات الحسابيّة، وتصنيف سلاسل جبال الألب المتعدِّدة، كان المعلِّمون الآخرون يداعبون ضفائر شعري، بينما يقدّر التلاميذ جهودي في حفظ كلّ تلك المعلومات عن ظهر قلب؛ ولهذا لا يضمرون لي الكراهية.

أمّا ليلا، فلها وضعٌ مختلف. إذ كان مستواها أرفع من أيّ منافسة، منذ الصفّ الأوّل. بل قالت المعلِّمة مرارًا إنَّها لو بذلت جهدًا مضاعفًا لاستطاعت اجتياز امتحان الصفّ الثاني، وقد تُقبل في الصفّ الثالث وهي بنت السبعة أعوام. ما أدّى إلى ارتفاع الحاجز بيننا. كانت ليلا تُجري حساباتٍ في منتهى التعقيد ذهنيًا، ويتعذّر وجود خطأ واحد في إملائها؛ تتحدَّث مثلنا بالعامِّيَّة دائمًا، ولكنَّها، حين تقتضي الضرورة، كانت تجود بلغة إيطاليَّة جزلة، وتستخدم كلمات فصيحة مثل: «يتأقلم»، «ثراء»، «على الرحب والسعة». وهكذا، كلَّما ندبتها المعلِّمة إلى ساحة المعركة لتصريف الأفعال أو حلّ المسائل، تجهّمت الوجوه وبات من المستحيل التفاؤل والمتابعة. كانت ليلا، باختصار، أقوى من أن يضاهيها أحد.

وعلاوة على هذا، لم تكن تعطف على الآخرين بأيّ فرصة. بل كان الاعتراف بجدارتها يعني لنا، نحن الأطفال، أن نستسلم لجبروتها، ولا نرى أيّ جدوى للمنافسة؛ ويعني للمعلِّمين والمعلِّمات الاعتراف بأنَّهم كانوا أطفالاً بلا مزايا. فكانت نباهتها الذهنيَّة تشبه الأزيز الجارح أو الوثبة الحرّة أو الضربة القاضية. ولم يكن مظهرها ينسجم مع مواهبها أبدًا: فشعرها منفوش وثيابها متَّسخة، ولا تلبث ركبتاها ومرفقاها تهنأ بانقشاع الجروح حتى تزيد عليها جروحًا أخرى. عيناها واسعتان ومتَّقدتان، تتحوَّلان إلى ثقبين قبل أيّ إجابة برَّاقة، لتنبلج منهما نظرةٌ لا تكشف عن انعدام براءة الطفولة فحسب، بل عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كينونة تخلو من أيّ صفة بشريّة أيضًا. كانت أيّ حركة تفعلها تعني للآخرين أن لا سبيل لإيذائها، لأنَّها ستجد طريقة، لا محالة، لردّ الصاع صاعين، مهما كانت الظروف.

كانت النقمة منها عارمة، وكنت أنتبه إلى ذلك. فجميع التلاميذ يبدون استياءهم منها، الذكور والإناث على حدٍّ سواء، إلَّا أنّ الذكور أكثر صراحة ووضوحًا. وبالفعل، كانت المعلِّمة أوليڤييرو، لسبب مجهول، تستمتع لا سيّما باصطحابنا إلى صفوفٍ حيث يتسنّى لها إذلال المعلِّمين والتلاميذ أكثر من المعلِّمات والتلميذات. وكان المدير، بدوره، يفضّل مسابقاتٍ مثيرة من هذا النوع، لأسباب مجهولة أيضًا. ما حدا بي إلى الظنّ أنَّهم يستثمرون تلك المنافسات في مراهنات على مبالغ طائلة. لكنّني كنت أبالغ بطبيعة الحال، فربّما كان ذلك مجرّد أسلوب لتفريغ الصدأ القديم، أو فرصة يستغلّها المدير لإحكام قبضته على أقلّ المعلِّمين كفاءة وطاعة. ما يهمّ أنَّنا، نحن الاثنتين، كنّا ما نزال في الصفّ الثاني حين ذهبنا ذات صباح لننافس الصفّ الرابع، دفعة واحدة، صفّ المعلِّم فيرارو، حيث يدرس إنتسو سكانّو المشاكس، ابن بائعة الفواكه، ونينو سارّاتوري، شقيق ماريزا، الذي كنت مغرمة به.

كان جميعنا يعرف إنتسو: تلميذ معيد، جرّوه بين الصفوف ـ مرَّتين على الأقلّ ـ بعد أن ربطوا عنقه بلافتة كتب عليها المعلِّم فيرارو «هذا حمار». وكان المعلِّم فيرارو نحيلاً جدًّا وطويل القامة، وشعره رماديّ اللون ومسرّح إلى الخلف، ووجهه صغيرٌ ينضح بالشقاء، ونظرات عينيه شديدة الحذر. أمّا نينو، فكان في غاية اللطف والطيبة والهدوء، عزيزًا على قلبي ويستحوذ جلّ انتباهي. لم يكن إنتسو نافعًا في شيء، من الناحية المدرسيَّة، وكنّا نحذر منه، لأنَّه متأهِّب للعراك

ليس إلَّا. لذا، كنّا نعدّ نينو خصمنا في مسألة الذكاء، ثم اكتشفنا ألفونسو كارّاتشي، الابن الثالث للدون آخيل، وكان طفلاً مرهفًا، يدرس في الصفّ الثاني مثلنا، وعمره سبعة أعوام، مع أنَّه يبدو أصغر من ذلك بكثير. ومن الواضح أنّ المعلِّم استدعاه إلى الصفّ الرابع، لأنَّه يثق به أكثر ممَّا يثق بنينو الذي يكبره بنحو سنتين.

أحدث استدعاء كارّاتشي المفاجئ اضطرابًا بين أوليڤييرو وفيرارو، ثم بدأت المسابقة أمام كلّ الصفوف التي تجمَّعت في قاعة واحدة. سألونا عن الأفعال وجداول الضرب والعمليَّات الحسابيَّة الأربع، على السبُّورة أوَّلاً ثم عن ظهر قلب. ولم يبق في ذهني من ذلك الظرف الخاصّ سوى ثلاثة تفاصيل. أوّلها، أنّ الصغير ألفونسو كارّاتشي أربكني، إذ كان هادئًا ودقيقًا، لكنَّ طيبة قلبه لا تمنحه التلذُّذ بالفوز عليك. وثانيها، أنّني فوجئتُ بنينو سارّاتوري وقد بقي واقفًا مشدوهًا ولم يجب على أيّ سؤال تقريبًا، كأنّه لم يكن يفهم المعنى. وثالثها، أنّ ليلا لم تكن ترغب في منافسة ابن الدون آخيل، كأنّها لا تكترث إذا استطاع أن يغلبها. احتدمت المواجهة حين مررنا على الحسابات ذهنيًّا، الجمع والطرح والضرب والقسمة. راح ألفونسو يضيّع الفرص، ويخطئ بالضرب والقسمة على وجه الخصوص، رغم عدم اهتمام ليلا التي كانت تسكت أحيانًا كأنَّها لم تسمع السؤال. ومن جهة أخرى، بدت النتيجة تميل إلى التعادل بينهما، لأنّ ليلا لم تكن في مستواها المعهود، رغم عثرات ابن الدون آخيل. وفي لحظة ما، حدث شيء غير متوقَّع. سمعنا إنتسو سكانّو يصيح بالجواب الصحيح، من المقاعد الخلفيَّة، بازدراء، لمرّتين، حين سكتت ليلا وحين أخطأ ألفونسو.

وهذا ما أدهشني وليلا والتلاميذ والمعلِّمين والمدير. هل يُعقل أنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلميذًا كسولاً وعاجزًا ومشاكسًا مثل إنتسو، يعرف الحسابات المعقَّدة عن ظهر قلب أفضل منِّي ومن ألفونسو كارّاتشي ومن نينو سارّاتوري؟ استيقظت ليلا على حين غرّة؛ وسرعان ما خرج ألفونسو من المنافسة، وغيّر المعلِّمُ الفخور بطله بسرور، ليبدأ النزال بين ليلا وإنتسو.

اشتدّ الصراع بينهما، حتى تجاوز المديرُ المعلِّمَ، ونادى ابن بائعة الفواكه إلى المنصَّة ليقف قبالة ليلا. جاء إنتسو من المقعد الأخير وهو يقهقه بضحكته العصابيَّة، انسجامًا مع ضحكات رفاقه، ووقف إلى جانب السبُّورة، ليواجه ليلا، عبوسًا ومضطربًا. واستمرّ السباق بينهما على وقع حسابات ذهنيَّة في غاية الصعوبة. كان الطفل يُجيب بالعامِّيَّة، كأنَّه في الشارع وليس في قاعة دراسيَّة، فيصحِّح المعلِّم اللفظ، لكنَّ الناتج كان دقيقًا دومًا. وبدا إنتسو فخورًا بنفسه وهو يسطّر أمجاده أمام دهشة الجميع، حتى هو كان مندهشًا من قدراته. ثم بدأ يتدهور، حين استيقظت ليلا كلِّيًا، وتحوّلت عيناها إلى ثقبين يرسلان نظراتٍ حادَّةً ومصمّمة، وأجابت بدقَّة عالية. خسر إنتسو المنافسة في النهاية. خسر، لكنَّه لم يستسلم؛ بل راح يجدّف ويصرخ بألفاظ شنيعة ما دعا المعلِّم أن يعاقبه بالركوع على ركبتيه خلف السبُّورة. لكنَّه لم يخضع للأوامر، فضربه بالعصا على ظاهر يديه، وجرّه من أذنيه إلى زاوية العقاب.

وهكذا انتهى ذلك اليوم الدراسيّ؛ لكنّ عصابة الذكور بدأوا منذئذٍ يرموننا بالحجارة.

٩

لصباح تلك المنازلة بينها وبين إنتسو أهمِّيَّة كبيرة في حكاية صداقتنا الطويلة، إذ تلتها تصرُّفات كثيرة يصعب تفسيرها. رأينا بوضوح مثلاً أنّ ليلا كانت تستطيع استخدام قدراتها الكامنة وقتما تشاء. وهذا ما فعلته مع ابن الدون آخيل: لم تكن تريد النيل منه، وافتعلت لحظات سكوت وإجابات كي لا يهزمها. لم نكن حينها صديقتين، ولم يكن بوسعي أن أسألها لماذا تصرّفت على ذلك النحو. وفي الحقيقة، لم يكن من داعٍ لطرح السؤال، كنت قادرة على فهم السبب بمفردي. فهي، مثلي، تحذر في التعامل ليس مع الدون آخيل فقط، بل مع كلّ أفراد عائلته أيضًا.

كانت تلك هي الحال. لم نكن نعرف سرّ ذلك الخوف، الممزوج بالكراهية والنفور والمهانة، الذي كان ذوونا يبدونه إزاء آل كارّاتشي، وينقلونه إلينا. لكنَّه كان أمرًا واقعًا، مثل الحيّ وبيوته الصغيرة البيضاء، ورائحة البؤس التي تفوح من البنايات وغبار الطريق. وأغلب الظنّ أنّ نينو سارّاتوري قد آثر الصمت، هو أيضًا، كي يفسح المجال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لألفونسو لتقديم أفضل ما عنده. كان قد هذر ببعض الكلمات، وهو الرقيق والجذّاب والوسيم ذو الشعر المسرّح والرموش الطويلة، حتى سكت في النهاية. وكي أحافظ على حبِّي له، أرغمت نفسي على الظنّ بأنَّ الأمور جرت على هذا النحو. ولكنّ بعض الشكوك ما زالت تراودني: هل كان سكوته خيارًا، مثلما فعلت ليلا؟ لم أكن متأكِّدة. أنا تنحَّيت جانبًا، لأنّ ألفونسو كان أشطر منِّي حقًّا؛ ثم إنّ ليلا كانت ستهزمه في النهاية رغم أنّها اكتفت بنتيجة التعادل. ونينو؟ أربكني شعورٌ ما وآلمني كثيرًا: ليست حالة عجز أو تنازل، بل أعرّفها اليوم على أنّها استسلام. اللعثمة والذهول واللون البنفسجيّ الذي طغى فجأة على عينيه: كم كان وسيمًا وخاملاً، وكم أسفتُ على رضوخه.

وليلا أيضًا، في لحظة معيَّنة، بدت لي في غاية الجمال. بشكل عام، كنت أنا الجميلة، وهي ذات الملامح الفجّة مثل سمكة السردين المملَّحة. كان مظهرها يوحي بطباعٍ بريّة، وجهها مستطيلٌ يضيق عند صدغيها حتى ينغلق بين ضفيرتين من شعرها الناعم قاتم السواد. أمّا حين قرَّرت أن تقضي على ألفونسو وإنتسو، فقد أشرق وجهها لتبدو كقدِّيسة محاربة. تضرّجت وجنتاها باحمرارٍ يسبق اللهب الذي كاد يتطاير من كلّ أنحاء جسدها، فإذا بي أرى، للمرَّة الأولى، أنّ ليلا أجمل منِّي. كانت تتفوَّق عليّ في كلّ شيء إذن. وكم تمنّيتُ أن لا ينتبه أحدٌ إلى هذا الأمر إطلاقًا.

غير أنّ أكثر الأمور أهمِّيَّة في ذلك الصباح هو أنَّنا اكتشفنا عبارة، غالبًا ما كنَّا نستعملها لتجنُّب العقوبة، كانت تحتوي على شيء حقيقيّ، وبالتالي لا يسعنا السيطرة عليه، فهو شيء خطير إذن. العبارة هي: «لم أفعلها عمدًا». وبالفعل، لم يدخل إنتسو عمدًا في المنافسة الجارية، وأزاح ألفونسو دون قصد أيضًا. أمّا ليلا، فقد هزمت إنتسو عن سابق

إصرار، لكنَّها غلبت ألفونسو وأذلَّته عن غير قصد، فكان من الضروريّ أن تتجاوزه. وما ترتّب على ذلك من أحداث كان كافيًا ليقنعنا بأنّه علينا أن نفعل الأمور عمدًا، عن سابق إصرار وقصد، لنتأهّب لما سيلحق بنا بعدها.

وبما أنّ لا شيء تقريبًا حدث عمدًا، فقد غمرتنا موجة عاتية من أحداث مفاجئة ومتتالية، وداهمتنا بشكل غير متوقّع. عاد ألفونسو إلى البيت باكيًا بسبب الهزيمة. فظهر أخوه ستيفانو في اليوم التالي عند باب المدرسة، وأسمع ليلا كلامًا قاسيًا وصل إلى مستوى التهديد. كان عمر ستيفانو أربعة عشر عامًا حينها، يتدرَّب على مهنة الجزارة في الملحمة (محلّ النجّار بيلوزو سابقًا) المسجّلة باسم والده الذي لم يطأها بقدميه أبدًا. وحينئذٍ، وجَّهت ليلا شتيمة شنيعة إلى ستيفانو، فدفعها إلى الحائط، وحاول أن يفتح فمها بالقوَّة وهو يصيح بأنّه سيثقب لسانها بالدبّوس. عادت ليلا إلى المنزل وروت كلّ شيء إلى أخيها رينو، وكلَّما أسمعته مزيدًا، تضرّج وجهه غضبًا وقدح الشرر من عينيه. وبينما كان إنتسو يعود إلى منزله دون عصابته المكوَّنة من أبناء الريف، اعترض ستيفانو طريقه وأشبعه صفعًا ولكمًا ورفسًا. ذهب رينو في الصباح ليبحث عن ستيفانو، فتشاجرا بعنفٍ شديد، وكانا متعادلين تقريبًا. بعد عدَّة أيَّام، طرقت زوجة الدون آخيل، الخالة ماريًّا، باب شقَّة شيرولّو، ووبّخت نونتسيا بما استطاعت من صراخ مدجّج بالإهانات. مرّ زمن قصير حتى جاء يوم الأحد، بعد الصلاة، إذ اقترب فرناندو شيرولّو الإسكافيّ، والد ليلا ورينو، وكان رجلاً قصير القامة وهزيلاً جدًّا، اقترب صاغرًا من الدون آخيل، وطلب منه المعذرة دون أن يفصح عن السبب. لم أرَ المشهد، أو لا أذكره على الأقلّ، ولكنْ قيل حينها إنّ فرناندو جهر بالمعذرة كي يسمعه أهالي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحيّ جميعهم، مع أنّ الدون آخيل تابع سيره كما لو لم يكن الإسكافيّ يتحدَّث إليه. وبعد زمن قصير، جرحنا أنا وليلا كاحل إنتسو بالحَجَرة، فرمى ليلا بحَجَرة شرخت رأسها. وبينما كنت أصرخ من الذعر، وليلا تنهض والدم يقطر من تحت شعرها، هبط إنتسو عن الفاصل فجأة، وهو ينزف أيضًا، وأخذ يبكي أمامنا ولم نفهم لماذا. مرّ زمن آخر حتى وصل رينو، أخو ليلا المفضّل، عند المدرسة، وأشبع إنتسو ضربًا لم يمكّنه من الدفاع عن نفسه. فرينو كان أكبر سنًّا وأضخم قامة وأكثر اندفاعًا. ليس هذا فقط: لم يطلع إنتسو أحدًا عمّا جرى له، لا عصابته ولا أمّه ولا أباه ولا إخوته ولا أبناء عمومته، الذين كانوا يعملون في الريف ويبيعون الفواكه والخضروات على العربة. وهكذا بفضل إنتسو، توقَّف مسلسل الثأر.

١٠

وراحت ليلا تتبختر لزمنٍ معيّن، وهي فخورةٌ باللفّافة على رأسها، إلى أن نزعتها. وأخذت تُظهر الجرح الأسود، محمرّ الجوانب، لأيّ أحد يسألها، وكان الجرح على جبينها ينتأ تحت غرّة شعرها. وفي النهاية، نسيتْ ما حدث لها، وإذا نظر أحدهم إلى بقايا الجرح المبيضَّة، كانت تفعل حركة عنيفة تعني: «إلامَ تنظر؟! اهتمّ بشؤونك». لم تقل لي شيئًا أبدًا، ولا حتى كلمة شكر على الحجارة التي مرَّرتها لها، أو على اهتمامي بمسح دمائها بثنايا مئزري. ولكنَّها، منذ تلك اللحظة، بدأت تستدرجني إلى اختبارات في الشجاعة ليست لها أيّ علاقة بالمدرسة.

كنَّا غالبًا ما نلتقي في الفناء، كلٌّ منّا تحمل دميتها وتُريها للأخرى، ولكن دون أن نقصد ذلك، كأنّ كلّ واحدة منَّا تلعب بمفردها. ثم وضعنا الدميتين وجهًا لوجه كي نجرّب إذا ما كانتا تتواءمان. وهكذا، حتى جاء اليوم الذي كنَّا فيه جالستين عند كوَّة القبو ذات الشِباك الممزَّقة، وتبادلنا الدميتين: هي أخذت دميتي وأنا أخذت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دميتها، فأدخلت ليلا دميتي تينا في فجوة الشِباك، دون أيّ اكتراث، وتركتها تسقط.

شعرتُ بألم لا يُطاق. كنت أتعامل مع دميتي المصنوعة من السيلولويد على أنَّها أغلى ما أملك على الإطلاق. وكنت أعرف أنّ ليلا لئيمة جدًّا، لكنّني لم أتوقَّع أنَّها قد تفعل بي شيئًا همجيًّا كهذا. بالنسبة إليّ، كانت الدمية ما تزال حيّة، وأعرف أنَّها في قعر القبو، أسيرة لألف وحشٍ يعيش هناك، فأصابني اليأس. ولكنّني، بفضل تلك المناسبة، تعلَّمتُ حركة فنِّيَّة أصبحت بارعة فيها لاحقًا. كتمت يأسي في عينيّ المحتقنتين، حتى قالت لي ليلا بالعامِّيَّة:

«ألا يهمّك الأمر؟».

لم أُجبها. كنت أشعر بألم فظيع، ولكنّني رأيتُ أنّ الألم الناتج عن أيّ شجار معها سيكون أشدّ وطأة لا محالة. وكنت واقعة بين عذابين: الأوّل كان حاضرًا حينها وهو فقدان الدمية، والثاني من الوارد أن يحدث وهو أن أفقد ليلا. لم أقل شيئًا، واكتفيت بردّة فعلٍ دون نكاية، بل كأنَّها أمرٌ طبيعيّ، مع أنَّه لم يكن طبيعيًّا، وكنت أعرف أنَّني أخاطر جدًّا: رميتُ دميتها نو إلى القبو المظلم.

نظرتْ إليّ بذهول.

«أفعل مثلما تفعلين»، قلت بصوت مرتفع، بعد أن تملَّكني الخوف.

«ستذهبين الآن وتستعيدين دميتي»

«إن ذهبتِ أنتِ أوّلاً لاستعادة دميتي»

ذهبنا معًا. في الجانب الأيسر من مدخل البناية، هنالك بابٌ صغير يفضي إلى الأقبية، وكنّا نعرفه جيّدًا. كان مغلقًا بسلسلة صدئة

ترصّ مصراعيه كيفما اتّفق، وهذا لأنَّه كان مخلوعًا، وأحد المصراعين مسنودًا إلى مفصل واحد. لقد أغوى هذا الباب جميع الأطفال، وأرعبتهم إمكانيَّة دفعه ما يكفي للمرور إلى الجانب الآخر. ونحن فعلناها. دفعنا الباب بمقدار فسحة كافية يملص منها جسدانا الهزيلان والمرنان.

وما إن دخلنا، ليلا أوّلاً وأنا وراءها، حتى نزلنا خمس درجات حجريَّة في ذلك المكان الرطب، الذي تمسحه الشمس بفتات النور عبر الفتحات الصغيرة من مستوى الرصيف. كنت خائفة، حاولت أن أخطو خلف ليلا، لكنَّها بدت غاضبة وتمضي قُدُمًا لتبحث عن دميتها. تقدَّمتُ في الظلام وأنا أسمع قرقعة بعض الأغراض تحت صندلي: زجاج، صخور مفتَّتة، حشرات. ثمَّة أشياء حولنا يصعب التعرُّف إليها، أحجامها ضخمة وألوانها قاتمة، مدبَّبة أو مربّعة أو مستديرة. وكان الضوء الخافت الذي يجتاز الظلام يُنير أشياء مألوفة: هيكل كرسيّ ما، مقبض قنديل، صناديق الفواكه، أعماق بعض الخزن أو جوانبها، مفاصل حديديَّة. وفجأة، ألمّ بي ذعرٌ شديد ممَّا بدا لي وجهًا مترهِّلاً ذا عينين زجاجيّتين كبيرتين وذقن طويلة على شكل علبة ما. رأيته معلَّقًا على مشجب خشبيّ بتعبير عن الأسف، فصرختُ وأشرتُ إليه. التفتت ليلا على حين غرَّة، اقتربتْ منه بعد أن أدارت لي ظهرها، مدّت يدها بحذر، ونزعته عن المشجب. ثم التفتت. وضعتِ الوجه ذا العينين الزجاجيَّتين على وجهها، فبدا رأسها مريعًا ومدار عينيها بلا بؤبؤ، وليس لها فم، بل ذقن أسود يتأرجح على صدرها.

نُقشت تلك اللحظات في ذاكرتي. لست متأكِّدة، ولكنْ لا بدّ أنَّني صرخت بأعلى ما أوتيت من صوت مذعور حتى سارعتْ ليلا للقول، بصوت مضخّم، إنَّه ليس سوى قناع، قناع مضادّ للغاز، كما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان والدها يسمِّيه إذ كان قد وضع مثله في ركن المهملات في البيت. وما لبثتُ أرتجف وأنبح من الخوف، حتى اقتنعتْ أخيرًا أن تزيل القناع عن وجهها وترميه في إحدى الزوايا، ليُحدث فرقعة وغبارًا يتكثّف بين ألسنة الضوء الآتي من تلك النوافذ الصغيرة.

هدأتُ. نظرت ليلا حولها، حدَّدتِ الفتحة التي رمينا منها تينا ونو. اقتربنا من الحائط الخشن المدبَّب، ونظرنا في الظلِّ. لم نجد أيَّ أثر للدميتين. كرَّرت ليلا بالعامِّيَّة: ليستا هنا، ليستا هنا، ليستا هنا، وراحت تنبش الأرض بيديها بطريقةٍ لم تكن لديّ الشجاعة لتقليدها.

مرّت دقائق طويلة جدًّا. وبدا لي، لمرّة واحدة فقط، أنَّني رأيت تينا، فانحنيتُ بغصّة في القلب لكي أحملها، لكنّها لم تكن سوى أوراق جريدة قديمة متآكلة. ليستا هنا، كرَّرت ليلا، وابتعدتْ نحو المخرج. فشعرتُ حينها بالضياع والعجز عن البقاء هناك بمفردي لمواصِلة البحث، وتأسَّفت على الانصراف معها قبل أن أجد دميتي.

حين وصلتْ إلى أعلى السلّم، قالت:

«لقد سرقهما الدون آخيل، ووضعهما في حقيبته السوداء».

وفي تلك اللحظة نفسها، تخيَّلتُ أنَّ الدون آخيل يزحف كالأفعى بين تلك الأشياء المجهولة. فتركتُ دميتي تواجه مصيرها، وهربتُ كي لا أفقد ليلا التي كانت تتلوَّى بخفّة لتتملّص من ذلك الباب المخلوع.

١١

كنت أصدّق كلّ ما كانت تقول لي. ظلّ دماغي يلهج بجسم الدون آخيل المشوّه وهو يسير في دهاليز الأرض بذراعين متدلّيتين، ويمسك بين أصابعه الغليظة رأس نو من جانب ورأس تينا من الجانب الآخر. تعذّبتُ بشدّة. أصابتني الحمّى المتصاعدة حتى شفيت، ثم مرضتُ من جديد. وبتُّ عرضة لما يشبه الهلاك الملموس، وأسيرة لفكرة راودتني مرارًا: بينما كلّ الكائنات الحيّة من حولي تسرِّع من إيقاع حياتها، كانت الأشياء الصلبة ترتخي بين يديّ أو تنتفخ، لتترك مساحة فارغة بين كتلتها الداخليّة وسطحها الخارجيّ. بدا لي أنّ جسمي يتورّم أيضًا، إذا ما تحسّسته، وهذا كان يحزنني. كنت على يقين أنّ وجنتيّ تتحوّلان إلى كرتين مطّاطيتيْن فيما تمتلئ يداي بالنشارة، وتبدو شحمة أذني كأنّها حبّة زعرور ناضجة، وتتّخذ قدماي شكل الخبز المنفوخ. وحين عدت إلى الشارع والمدرسة، شعرتُ أنّ المجال الحيويّ يتغيّر أيضًا، إذ يبدو مكبّلاً بقطبين مظلمين، فقّاعة الهواء التي تضغط على جذور البيوت تحت الأرض، أي الكهف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرعب الذي سقطت فيه الدميتان من طرف، والكرة الضخمة في الأعلى، أي الطابق الرابع من البناية حيث يسكن الدون آخيل الذي سرق منّا الدميتين، من الطرف الآخر. كانت الكرتان كأنَّهما تدوران على طرفيْ عارضة حديديّة، تتلوّى في مخيِّلتي لتخترق البيوت والشوارع والريف والنفق وسكك الحديد. عارضةٌ تطوّق كلّ شيء وكلّ شخص، فتشعرني بالإعياء من شدَّة ذلك الضغط، فيما تعربد نكهة كريهة في فمي، وينتابني إحساس مستمرّ بالإنهاك يكاد يقضي عليّ، كما لو أنّ كلّ ما يحيط بي يضيّق خناقه أكثر فأكثر، ليطحنني ويحوّلني إلى قشدة مقزّزة.

كان شعورًا بالضيق لا يقاوم، وربّما دام أعوامًا، واستمرّ حتى بدايات المراهقة. لكنّه تزامن مع أوَّل تصريح بالحبّ تلقّيته في حياتي.

لم نكن، أنا وليلا، قد حاولنا الصعود لدى الدون آخيل بعد، فالحزن على فقدان تينا كان ما يزال حاضرًا. أرسلتني والدتي لشراء الخبز، فذهبتُ على مضض. وفي طريق العودة إلى البيت، حملتُ ما زاد من نقود بقبضة يدي كي لا يضيع، وسلّة الخبز ما تزال ساخنة على صدري، فإذا بي أنتبه إلى أنّ نينو سارّاتوري يمشي خلفي وهو يمسك بيد أخيه الصغير. كانت أمّه ليديا، في أيّام الصيف، تطلب منه أن يصطحب بينو الذي لم يكن قد بلغ ربيعه الخامس حينها، وتوصيه ألَّا يتركه أبدًا. عند إحدى زوايا الشارع، بعد ملحمة كارّاتشي بقليل، حاول نينو أن يجتازني، لكنّه بدل أن يتابع سيره قطع طريقي، فملت إلى الجدار، وأسند يده كحاجزٍ كي لا أفلت منه. قال شيئًا لم أفهمه، وكان شاحبًا، يبتسم، ثم ترتسم الجدِّيّة على ملامحه ثم يعاود الابتسام. وفي النهاية، قال بلغة إيطاليّة فصيحة:

«حين نصبح كبارًا سأتزوّجك».

وسألني إن كنت أودّ الارتباط به ريثما نكبر. كان أطول منّي بقليل وهزيلاً جدًا، وله عنقٌ طويل وأذنان نافرتان عن رأسه. شعره منثور، ونظراته مركّزة، ورموشه طويلة. وقد بذل جهدًا يثير الشفقة كي يخفي حياءه. ورغم أنّني كنت أريد الزواج به أيضًا، فقد أجبته:

«لا. لا أستطيع».

بقي فاغرًا فاه، هزّ نينو نفسه فجأة. فهربتُ بعيدًا.

ومنذ تلك اللحظة، بدأتُ أتهرّب كلّما صادفته. كم كنت معجبة بوسامته؛ وكم من مرّة لازمتُ أخته ماريزا بهدف التقرُّب إليه ليس إلّا، ومرافقتهما في طريق العودة إلى البيت. لكنّه صرّح لي عن حبّه في الوقت الخطأ طبعًا. ومن أين له أن يعرف أنّني كنت أشعر بالإعياء والكرب بسبب فقدان تينا، ودأبي الأليم على اتّباع ليلا دومًا، والضيق الذي يحبس أنفاسي من ذلك الضغط الذي يفتك بالفناء والبنايات والحيّ؟ بعد عدّة نظرات طويلة يتخلّلها الخوف تجاهي، راح يتجنّبني هو أيضًا. ولا بدّ أنّه كان يخشى أن أُطلع الفتيات الأخريات، وأخته خصوصًا، على العرض الذي اقترحه عليّ. ومن المعلوم لدى الجميع أنّ جيليولا سبانيولو، ابنة صانع الحلويات، تصرّفت على هذا النحو حين طلب إنتسو الارتباط بها. وعرف إنتسو بذلك وغضب، وصرخ في وجهها عند باب المدرسة واتّهمها بالكذب، وهدّدها بالقتل ذبحًا أيضًا. وكنت على وشك أن أقصّ ما جرى، لكنّني عدلتُ عن هذا ولم أقل شيئًا لأحد، ولا حتى لليلا بعد أن بتنا صديقتين. وشيئًا فشيئًا، نسيت الأمر برمّته.

وتذكّرتُ الأمر بعد زمن، حين انتقلت عائلة سارّاتوري بأكملها. ذات صباح، ظهرتْ في الحيّ عربة يجرّها حصان نيكولا، زوج آسونتا. وكان نيكولا يبيع الفواكه والخضروات متجوّلاً بين أزقّة الحيّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بتلك العربة وذلك الحصان، وهو يصيح ليروّج بضاعته. كان نيكولا ذا وجه جميل وممتلئ، وقد أورث عينيه الزرقاوين وشعره الأشقر لابنه إنتسو. ومن حينٍ لآخر، كان يعمل في نقل الأثاث، إضافة إلى بيع الفواكه والخضروات. وفي ذلك الصباح فعلاً، كان هو ودوناتو سارّاتوري ونينو، وليديا أيضًا، ينزلون بكلّ شيء إلى الأسفل، ويحملون الأسرّة والأثاث، وصناديق من كلّ حجم ونوع، ويرتّبونها في العربة.

أطلّت النساء برؤوسهنّ من النوافذ حين سمعن صوت العجلات في الحيّ، بمن فيهنّ أنا وأمّي. اعترانا فضولٌ كبير. كان يبدو أنّ دوناتو تسلّم بيتًا جديدًا من مديريَّة السكك الحديديَّة، قرب ساحة تُدعى بالساحة الوطنيَّة. لكنّ أمّي رأت أنّ زوجته أرغمته على الانتقال هربًا من اعتداءات ميلينا التي كانت تطمع بالسيِّد سارّاتوري. وهذا وارد. كانت أمّي دائمًا ترى الشرّ قبل ظهوره، وكان هذا الأمر يزعجني جدًّا. يبدو أنّ عينها لم تكن حولاء اعتباطًا، بل لتحديد التحرُّكات السرِّيَّة في الحيّ: كيف كانت ستتصرَّف ميلينا إذن؟ هل أنجبت طفلاً من سارّاتوري وقتلته فيما بعد، كما سمعتُهنّ يتهامسن ذات مرّة؟ وهل ستفضح أسرارًا في غاية الخطورة، بما فيها تلك الإشاعة؟ أطلّتْ جميع الإناث، الصغيرات والكبيرات، برؤوسهنّ من النوافذ، ربَّما لتوديع العائلة الراحلة، أو لمشاهدة ردَّة فعل تلك الأرملة القبيحة والقاسية. رأيتُ أنّ ليلا وأمّها أيضًا أطلّتا برأسيهما.

بحثتُ عن نظرات نينو، لكنَّه كان مشغولاً بالنقل. فاستولى عليّ الغثيان، كالعادة دون سبب مباشر، ليرتخي كلّ ما يحيط بي. فكَّرتُ أنَّه قد صرّح لي بحبّه، لأنَّه كان يعلم بأنَّه سينتقل من الحيّ، وأراد أن يفصح لي عمّا يدور في خلده تجاهي. نظرتُ إليه بينما كان يبذل جهدًا

في نقل الصناديق المليئة بالأغراض، وشعرتُ بالذنب والألم، لأنّني رفضتُ عرضه، بينما كان حينها يهرب كالعصافير.

وحين انتهت عمليَّة نقل الأثاث، بدأ نيكولا ودوناتو يمرِّران الحبال لتثبيت الأغراض على العربة. وظهرت ليديا سارّاتوري متأنِّقة كأنَّها ذاهبة إلى حفلة ما، وقد وضعت على رأسها قبَّعة صيفيَّة من قشّ أزرق. كانت تدفع عربة ابنها الصغير، وابنتاها، ماريزا التي كانت في عمري بين الثامنة والتاسعة من جانب، وكليليا ذات الستَّة أعوام من الجانب الآخر. سمعنا فجأة ضجَّة تأتي من تكسير بعض الأشياء في الطابق الثاني. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، بدأت ميلينا بالعويل. كانت صرخاتها حادّة، حتى رأيتُ أنّ ليلا أغلقت أذنيها بيديها. وانطلق صوت آدا، الابنة الثانية لميلينا، أليمًا وصارخًا: أمَّاه، لا يا أمَّاه. وبعد لحظة تردّد، أغلقتُ أذنيّ أنا أيضًا. وحينها، راحت بعض الأغراض تتطاير من النافذة، فشدّني الفضول إلى تحرير أذنيّ كما لو كنت في حاجة إلى سماع الأصوات ليتّضح المشهد. لكنّ ميلينا لم تكن تلفظ كلمات معيَّنة، بل: آآآآه، آآآآه، كأنَّها جريحة. لم نكن نراها، لم تظهر ذراعها ولا يدها التي تقذف الأغراض. بدت القدور النحاسيَّة، والكؤوس والقوارير والأطباق، تطير من النافذة بملء إرادتها. وفي الأسفل، كانت ليديا سارّاتوري تحني رأسها وظهرها على عربة الصغير، وابنتاها خلفها، فيما تسلّق دوناتو فوق العربة بين ممتلكاته، والدون نيكولا يمسك بلجام الحصان، بينما تنقضّ الأغراض على الإسفلت، تدوّي كالرعد وتتفتَّت إلى شظايا بين أطراف الدابّة الهائجة.

قلّبتُ بصري بحثًا عن ليلا، فرأيت وجهًا آخر، وجهًا تائهًا. ولا بدّ أنَّها انتبهت إلى أنَّني أراقبها، فاختفت عن النافذة. سارت العربة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أثناء ذلك. ومشت ليديا وأبناؤها الأربعة وهي تحتمي بالحائط، دون أن تودّع أحدًا، نحو البوَّابة. وكان نينو يمشي منوَّمًا، ويبدو بلا رغبة في الرحيل، وينظر إلى هدر الأغراض المكسّرة على الإسفلت.

وفي النهاية، رأيت ما يشبه البقعة السوداء تطير من النافذة. حديد المكواة: القبضة والقاعدة، حديد محض. عندما كانت تينا ما تزال عندي، كنت ألعب في المنزل، وأستخدم مكواة والدتي، المطابقة لتلك، مدبّبة الرأس كالحيزوم، وألعب بها على أنَّها سفينة في خضمّ العاصفة. هبطت تلك الكتلة الحديديَّة على الإسفلت، وأحدثتْ حفرة في الأرض ودويًّا منقبضًا، على بعد شبر ـ أو أقلّ ـ من نينو. كادت أن تقتله.

١٢

لم تتلقّ ليلا أيّ اعتراف بالحبّ من أيّ طفل، ولم تشتك من عناء ذلك يومًا. جيليولا سبانيولو كانت تتلقّى عروض الارتباط باستمرار، وأنا أيضًا كنت مطلوبة جدًّا. أمّا ليلا فلم تكن تعجبهم، لأنَّها كانت رفيعة كالعصا، متَّسخة الثياب وجلدها مسكون بالجروح؛ ولأنَّها كانت ذات لسان سليط أيضًا، وتبدع في ابتكار الألقاب المهينة. ورغم أنَّها تجود على المعلِّمة بمفردات فصيحة لم نكن نعرفها، فإنَّها كانت تحدّثنا بالعامِّيَّة الحادَّة كالسياط، تتخلَّلها الألفاظ السيِّئة، ما كان كافيًا لإجهاض أيّ إحساس بالحبّ تجاهها. إنتسو وحده فعل شيئًا ما، إن لم يكن طلبًا بالارتباط، فقد كان يعبّر عن الإعجاب والاحترام بأيّ حال. ذات مرَّة، بعد أن أدمى رأس ليلا بزمن طويل، وقبل أن ترفضه جيليولا سبانيولو كما يبدو لي، لحق بنا في الشارع العام، وقدّم لليلا إكليلاً من الزعرور أمام عينيّ اللتين لم تصدّقا ذلك المشهد.

«وماذا أفعل بها؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«تأكلينها».

«وهي حامضة؟»

«انتظريها كي تنضج».

«لا أريدها».

«ارميها إذن».

هذا كلّ شيء. استدار إنتسو وهرع إلى العمل. انفجرنا أنا وليلا بالضحك. كنَّا نتحادث قليلاً، لكنّنا نضحك جرّاء أيّ موقفٍ يعترضنا. قلت لها بابتهاج:

«أنا أحبّ الزعرور».

وفي الحقيقة، كنت أكذب. لم أكن أحبّ هذه الفاكهة. كان لونها المائل إلى الاحمرار، حين تكون حامضة، يجذبني وأعجب بقساوتها اللامعة في الأيَّام المشمسة. لكنّني لم أكن ألمسها حين تنضج على الشرفات، وتصبح بنّيّة اللون ورخوة مثل حبّات الإجَّاص الصغيرة الذابلة، وينقشع جلدها بسهولة ليظهر داخلها المستدير بمذاقٍ لا بأس به، لكنّه عفنٌ يذكّرني بروث الفئران في الشارع العام. إنَّما قلتُ ما قلت بدافع جسّ النبض، آملة أن تعطيني إيَّاها: هاك، خذيها أنتِ. شعرتُ أنّني سأكون أكثر سعادة لو أخذتُ الهديَّة التي قدّمها إليها إنتسو، من أن آخذ شيئًا يخصّها. لكنَّها لم تعطني إيّاها، وما زلتُ أذكر الخذلان الذي اعتراني حين أخذتِ الفاكهة معها إلى البيت. دقّتْ مسمارًا في النافذة بيديها، ورأيتها وهي تعلّق ذلك الإكليل.

١٣

لم يقدّم لها إنتسو أيّ هديَّة بعد تلك. وبعد شجاره مع جيليولا، التي أخبرت جميع البنات عن تصريحه بحبّه لها، قلّما كنَّا نصادفه. ورغم قدرته الخارقة على الحساب ذهنيًّا، كما رأينا، فقد كان لا يرغب في الدراسة، ما جعل المعلِّم يستثنيه من امتحان القبول إلى المرحلة المتوسِّطة. ولم يتأسَّف إنتسو لهذا، بل كان سعيدًا. لذا، تسجّل في مدرسة التجهيز للعمل، لكنَّه في الواقع كان قد بدأ العمل مسبقًا مع والديه. كان يستيقظ في الصباح الباكر ليرافق أبيه إلى سوق الخضروات والفاكهة، أو ليتجوَّل بالعربة ويبيع أهالي الحيّ منتجات الريف، فانتهت مسيرته المدرسيّة مبكّرًا.

أمّا نحن، حين كنّا على وشك إتمام الصفّ الخامس، فقد أخبرونا بأنَّنا نصلح لمواصلة الدراسة. استدعت المعلِّمة أبوَيَّ، وأبويْ جيليولا وأبويْ ليلا، كلّ على حدّة، لتخبرهم بأنَّه ينبغي علينا الخضوع لامتحان الشهادة الابتدائيَّة حتمًا، وامتحان القبول إلى المدرسة المتوسِّطة أيضًا. طرقتُ كلّ السبل كي لا يُرسل أبي أمّي إلى المعلِّمة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمِّي العرجاء ذات العين الراقصة، والطباع العصبيَّة خصوصًا، عسى أن يذهب هو بنفسه، إذ كان بوَّابًا في البلديَّة، ويعرف التصرُّف بلباقة.. لم ينجح مسعاي. ذهبت أمِّي وتحدَّثت مع المعلِّمة، وعادت إلى البيت مكفهرّة الوجه.

«المعلِّمة تريد المال. قالت إنّ من الأفضل أن تخضع البنت لدروس إضافيَّة، لأنَّ الامتحان صعب».

«وما فائدة هذا الامتحان؟» سأل والدي.

«كي تدرّسها اللاتينيَّة».

«ولماذا؟»

«لأنَّهم قالوا إنَّها مجتهدة».

«وإذا كانت مجتهدة، فما لزوم تلك الدروس الخصوصيَّة مدفوعة الأجر؟»

«كي تتحسَّن أحوال المعلِّمة وتسوء أحوالنا».

تناقشا طويلاً. في البدء، كانت أمِّي تعارض الأمر فيما كان والدي متردِّدًا، ثم أيّد والدي الفكرة بحذر، ولان موقف أمِّي. وفي النهاية، قرَّرا أن أجري هذا الامتحان، شرط أن أكون متفوِّقة، وإلَّا حالا دون متابعة دراستي.

أمَّا والدا ليلا، فرفضا الفكرة كلِّيًّا. قامت نونتسيا شيرولو بعدَّة محاولات فاشلة نوعًا ما لتقنع زوجها، لكنَّه كان يرفض النقاش في الموضوع، بل وصفع رينو حين قال له إنّه كان مخطئًا في قراره هذا. كان والداها يفكِّران في عدم الذهاب لدى المعلِّمة أصلاً، لكنَّها استدعتهما عبر المدير، وهكذا اضطرَّت نونتسيا إلى الذهاب. وهناك، بدت مذعورة، تعبّر عن رفضها بخجل وصراحة. لم تبد أوليفييرو

غضبها، بل حافظت على هدوئها، وراحت تريها مواضيع الإنشاء العجيبة التي كتبتها ابنتها، وحلولها الرائعة للمسائل الأكثر تعقيدًا، بل وحتى الرسومات الملوَّنة التي كانت تسحرنا بها جميعًا حين تطبّقها في الصفّ، لأنَّها إذ استعارت الرِيَش الملوَّنة، كانت ترسم، بواقعيَّة مبهرة، أميرات من وحي خيالها، وتبدع بتصوير ملامحهنّ وشعرهنّ المسرّح بعناية، وجواهرهنّ وفساتينهنّ وأحذيتهنّ التي لم نرها في أيّ كتاب، ولا حتى في سينما الكنيسة. لكنّ أوليڤييرو فقدت سكينتها حين أكَّدت نونتسيا رفضها، جرّتها إلى المدير كما لو أنَّها تلميذة مذنبة. لم يكن الأمر بيد نونتسيا، لم تستطع أن تحصل على إذن زوجها. فكرَّرت رفضها، حتى كاد يُغمى عليها وعلى المعلِّمة وعلى المدير.

في اليوم التالي، بينما كنَّا في الطريق إلى المدرسة، قالت لي ليلا بنبرتها المعتادة: لا بأس، فأنا سأجري الامتحان في كلِّ الأحوال. صدّقتها، كان من غير المجدي أن يمنعها أحدٌ من فعل شيء، كان هذا واضحًا لنا جميعًا. كانت تبدو أقوى طفلة بيننا، أقوى من إنتسو وألفونسو وستيفانو، أقوى من أخيها رينو، أقوى من جميع آبائنا وأمَّهاتنا، أقوى من كلِّ الكبار بمن فيهم المعلِّمة ورجال الشرطة القادرين على زجّك في السجن. ورغم ملامحها التي توحي بالضعف، فإنّ أيّ صدام معها كان بلا معنى، لأنَّها تستطيع اجتياز حدودها دون أن تتعرَّض لعواقب ذلك. وهكذا، كان الناس يستسلمون أمامها، ويضطرُّون، رغمًا عن أنوفهم، إلى غمرها بعبارات الثناء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٤

قرَّرت ليلا الصعود إلى بيت الدون آخيل، غير آبهة بمشاعر الخوف، وأنا مشيتُ وراءها. وكانت تلك المناسبة هي التي جعلتني أتيقّن من أنْ لا شيء يقف في طريقها، وأنّ عدم انصياعها للمخاوف يحبس الأنفاس لما فيه من العجب.

كنَّا نريد استرداد دميتينا من براثن الدون آخيل. ولهذا صعدنا تلك السلالم، وعند كلِّ درجة كنت أوشك على النزول إلى الفناء. ما أزال أشعر بيد ليلا تمسك بيدي، ويروق لي أن أفكِّر أنَّها قرَّرت أن تمسك بيدي، ليس لأنَّها كانت تراني عديمة الشجاعة للوصول حتى الطابق الأخير، بل لأنَّها هي أيضًا كانت تبحث عن قوَّة نفسيَّة كي تواصل الصعود. وهكذا، وصلنا إلى الدرجات الأخيرة، واحدة بجانب الأخرى، أنا من جانب الجدار وهي من جانب السياج، يدانا متشابكتان والعرق يتصبَّب من معصمينا. وأمام باب الدون آخيل، راح قلبي يخفق بشدَّة حتى سمعتُ نبضاته في أذنيّ، لكنّني واسيت نفسي بأنّ نبضات قلبها كانت تتناهى إلى مسامعي أيضًا. خلف الباب، كان

هنالك مزيجٌ من أصوات ألفونسو وستيفانو وبينوتشا. ضربت ليلا مقبض الجرس، بعد وقفة صامتة وطويلة جدًّا. دبّ الصمت في الداخل، ثم سمعنا صوت خفَّيْن يتقدَّمان نحونا. فتحت لنا السيِّدة ماريّا، وكانت ترتدي ثوبًا منزليًّا أخضر اللون. حين فتحتْ فمها لتتحدَّث، انتبهتُ إلى سنٍّ ذهبيّ شديد اللمعان. ظنَّت أنَّنا نبحث عن ألفونسو، وكانت مشدوهة بعض الشيء. قالت لها ليلا بالعامِّيَّة:

«لا. نريد التحدُّث إلى الدون آخيل».

«**قولي لي** ماذا تريدان».

«لا بدّ أن نتحدث إليه مباشرة».

صرخت المرأة: «يا آخيل».

سمعنا صوت خفّيْن آخريْن. تبدّى وجهه الجلف تحت الظلّ. كان جذعه أطول من ساقيه، وذراعاه تصلان حتى ركبتيه، والسيجارة في فمه وجمرتها ملتهبة. سأل بصوت أجش:

«من هناك؟».

«ابنة الإسكافيّ مع ابنة غريكو الكبرى».

وصل الدون آخيل إلى الضوء، وكانت أوَّل مرَّة نراه فيها بجلاء. لا وجود لأطراف معدنيَّة ولا ألسنة زجاجيَّة. كان وجهه طويلاً، ومن لحم بشريّ، وشعره ينمو فوق أذنيه فقط، بينما يسطع أعلى رأسه من شدَّة الصلع. عيناه تلمعان، وحول حدقتيه معشّقٌ بالأعصاب الحمراء، فمه عريض ورقيق، وذقنه ضخمة ومدقوقة في المنتصف. بدا لي قبيحًا، ولكن أقلّ قبحًا ممَّا تخيَّلتُ.

«وماذا تريدان؟»

«الدميتين»، قالت ليلا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أيّة دميتين؟»

«دميتانا».

«هنا لسنا في حاجة إلى دميتيْكما».

«لقد أخذتموهما من القبو».

التفت الدون آخيل، وصرخ نحو الداخل:

«هل أنتِ من أخذ دمية ابنة الإسكافي يا بينوتشا؟»

«لا، يا أبتِ».

«هل أخذتها أنت يا ألفونسو؟»

ضحك الصغار.

أصرّت ليلا، لا أعلم من أين كانت تستمدّ تلك الشجاعة:

«أنتم، أنتم من أخذهما. لقد رأيناكم».

هبط الصمت على تلك اللحظة.

«هل تقصدينني أنا؟» سأل الدون آخيل.

«أجل. وقد وضعتموهما في حقيبتكم السوداء».

قطّب الرجل حاجبيه مستاءً حين سمع تلك الكلمات الأخيرة.

لم أكن أصدّق أنَّنا كنَّا هناك، قبالة الدون آخيل، وليلا تتحدَّث إليه بتلك النبرة وهو يرمقها بنظرة مرتبكة، وخلفه كان ألفونسو وستيفانو وبينوتشا، والسيِّدة ماريّا تحضّر مائدة العشاء. لم أكن أصدّق أنَّه كان شخصًا عاديًّا، ربَّما أصلع وقصير القامة وأطرافه غير متناسقة، لكنَّه عاديّ. ولهذا، كنت أنتظر أن يتحوَّل إلى كينونة أخرى بعد لحظات.

كرَّر الدون آخيل، كأنَّه يحاول أن يفهم جيِّدًا معنى تلك الكلمات:

«أنا؟ أنا أخذت دميتيكما ووضعتهما في الحقيبة السوداء؟»

شعرتُ أنَّه لم يكن غاضبًا، ولكنَّه مضطرب، كما لو كان يبحث عن تأكيد لأمرٍ يعرفه مسبقًا. تفوَّه بشيء ما بالعاميَّة لم أفهمه. صرخت زوجته:

«العشاء جاهز يا آخيل».

«سآتي حالاً».

مدّ الدون آخيل يده الغليظة إلى جيوب سرواله الخلفيَّة، فأحكمنا الشدّ على يدينا، إذ توقَّعنا أنَّه سيستلّ سكِّينًا. لكنَّه أخرج محفظته، فتحها، ونظر إلى داخلها، وأعطى ليلا بعض النقود.. لا أذكر كم بالضبط.

«اذهبا لشراء دميتين»، قال.

أخذت ليلا النقود، وسحبتني إلى السلالم. فغمغم وهو يطلّ برأسه من السياج:

«وتذكّرا أنَّني أهديتكما دميتين».

فقلت بالإيطاليَّة، وأنا أحذر من الوقوع على السلالم:

«مساءً سعيدًا وشهيَّة طيِّبة!»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٥

بدأتُ، أنا وجيليولا سبانيولو، بالتردُّد إلى منزل المعلِّمة، تحضيرًا لامتحان القبول، حالما انتهى عيد الفصح. كانت المعلِّمة تسكن بمحاذاة كنيسة العائلة المقدَّسة تمامًا، ونوافذ منزلها تشرف على الحديقة الصغرى والريف في البعيد الذي تتشابك خلفه السكك الحديديَّة. كانت جيليولا تمرّ تحت نوافذ بيتنا وتناديني. وأنا أكون مستعدَّة، وأخرج مسرعة. كنت أحبّ تلك الدروس الخصوصيَّة، درسين في الأسبوع على ما أذكر. وكلَّما انتهى الدرس، قدّمت لنا المعلِّمة المياه الغازيَّة والحلوى المجفَّفة على شكل قلب حبّ.

لم تأت ليلا معنا أبدًا، إذ رفض أبواها أن يدفعا قرشًا واحدًا للمعلِّمة. لكنَّها، بعد أن بتنا صديقتين، ما فتأت تقول لي إنَّها ستجري ذلك الامتحان، وستأتي إلى الصفّ الأوَّل المتوسِّط، معي، في القاعة نفسها.

«والكتب؟»

«سأستعير كتبك».

وفي تلك الأثناء، اشترت رواية «نساء صغيرات» بالنقود التي أخذتها من الدون آخيل. كانت تعرف الرواية مسبقًا، وقد نالت إعجابها. فالمعلِّمة أوليڤييرو، في الصفِّ الرابع، كانت تعيرنا، نحن المتفوِّقات، كتبًا لنقرأها. أعطت ليلا «نساء صغيرات»، وقالت لها: «هذه رواية للكبار، لكنَّها ستلائمك». وأعطتني رواية «قلب» دون أن تشرح لي عمّا تتحدَّث. قرأتْ ليلا «نساء صغيرات» و«قلب» على حدٍّ سواء، وبزمن قياسيّ؛ وكانت تقول إنَّه لا مجال للمقارنة، فبالنسبة إليها «نساء صغيرات» رواية بديعة جدًّا. أمَّا أنا، فلم أستطع أن أقرأها. أنهيت بالكاد قراءة «قلب» ضمن المدَّة التي حدَّدتها المعلِّمة لاسترجاع الكتاب. كنت قارئة بطيئة، وما أزال كذلك حتى الآن. تأسَّفتْ ليلا حين أرجعت الكتاب إلى أوليڤييرو، لأنَّها لن تستطيع قراءة تلك الرواية كلَّما طاب لها، ولأنَّها لم تستطع أن تناقشني بشأنها. ولهذا، قرَّرت شراء الكتاب. ذات صباح، نادتني من الشارع، وذهبنا إلى المستنقعات، حيث كنَّا قد طمرنا علبة معدنيَّة صغيرة تحتوي على نقود الدون آخيل. أخذنا المال وذهبنا لدى إيولاندا، بائعة القرطاسيَّة، التي وضعت «نساء صغيرات» على واجهة المحلّ منذ زمن بعيد، ما أدّى إلى اصفرار تلك النسخة تحت أشعَّة الشمس. كان المال كافيًا. وحالما صار الكتاب ملكًا لنا، رحنا نلتقي في الفناء لنقرأ، الواحدة بجانب الأخرى، بصوت مرتفع تارة، وذهنيًّا تارة أخرى. قرأنا مرَّات كثيرة، على مدار أشهر، حتى تهشّم الكتاب ووصل العفن إلى صفحاته، وزال غلافه وانقشعت خيوطه وتأرجحت ملزمته. لكنَّه كان كتابنا، وأحببناه كثيرًا. كنت أحتفظ به أنا، في بيتي بين كتبي المدرسيَّة، لأنّ ليلا لم تكن قادرة على ذلك؛ فأبوها، في تلك الآونة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

راح يوبِّخها كلَّما قبض عليها وهي تقرأ.

وكان رينو يدافع عنها، ما أودى به إلى صدامٍ متواصل مع والده بشأن امتحان القبول. كان رينو قد بلغ حينها قرابةً السادسة عشرة من العمر، وكان شابًّا عصبيًّا جدًّا، إذ بدأ معركته لينال أجره من العمل الذي يقوم به. وكانت حجّته كالتالي: أنا أنهض في السادسة صباحًا، وأعمل في المحلّ حتى الثامنة مساء، أريد حقّي. لكنَّ كلماته كانت تُغضب أباه وأمّه على حدّ سواء. رينو كان لديه سرير ينام عليه، ووجبة تنتظره كلّ مساء، فلماذا يطالب بالنقود؟ واجبه أن يساعد العائلة لا أن يفقرها. لكنَّ الفتى كان لحوحًا، ويرى من المجحف أنَّه يكدّ مثل أبيه ولا يتقاضى قرشًا واحدًا. فيجيبه فرناندو شيرولّو متظاهرًا بالصبر: «إنّني أدفع لك أجرك يا رينو، وكيف لا. أدفع لك بسخاء، إذ أعلّمك المهنة بكلّ حذافيرها. في القريب، لن تقتصر على تصليح الكعوب والأطراف ودقّ الوجوه؛ فأنا أعلِّمك كلّ ما أعرفه عن هذه المهنة، وستكون قادرًا أنت أيضًا على صنع حذاء كامل بطريقة فنِّيَّة، قريبًا جدًّا». لكنْ رينو لم يكن يرضى بتعلّم الحرفة أجرًا؛ ولهذا، كانا يتهاتران وخصوصًا على العشاء. يبدأان بالحديث عن الأجر وينتهيان بالشجار من أجل ليلا.

«إن دفعتَ لي أجري سأهتمّ أنا بدراستها»، يقول رينو.

«دراستها؟ ولماذا؟ هل أنا درست؟»

«لا».

«وهل أنت درست؟».

«لا».

«فلماذا على أختك أن تدرس وهي أنثى أصلاً؟»

وغالبًا ما ينتهي النقاش بصفعة يتلقَّاها رينو على وجهه، بعد أن يسيء إلى مقام والده بطريقة أو بأخرى، دون قصد. وسرعان ما يعتذر الفتى، دون بكاء، بنبرة لئيمة.

كانت ليلا تظلّ صامتة أثناء تلك النقاشات. لم تقل لي، ولكنّني كنت أراها لا تضمر النقمة على أبيها رغم كلّ شيء، في حين كنت أكره والدتي حقًّا وبعمق. كانت تقول إنّه حنونٌ جدًّا، ويستنجد بها إذا ما توجّب عليه القيام بحساباتٍ معيَّنة، ولطالما سمعتْه يقول لأصدقائه إنّ ابنته أذكى من في الحيّ كلّه. وقالت إنّه هو الذي يجلب لها الشوكولاتة الساخنة إلى سريرها، مع أربع قطع من البسكويت، في يوم الاحتفال باسمها. لكنّه من المستحيل أن يتخيَّلها تتابع دراستها، سواءٌ من وجهة نظره للأمور أم من الناحية الاقتصاديَّة. فهو كان يعيل أسرة كبيرة، وكلّ أفرادها يحصلون على كفاف يومهم بفضل ذلك المحلّ الصغير بمن فيهم شقيقتاه العانسان ووالدي نونتسيا أيضًا. ولهذا، لم يكن من المجدي أن تناقشه بمسألة الدراسة، كأنَّك تتحدَّث إلى الحائط.. وأمّها تشاطر زوجها الرأي بالمحصِّلة. وحده أخوها كان يرى الأمر من زاوية مختلفة، ويواجه أباه بكلّ شجاعة. وكانت ليلا، لأسباب لم أكن أفهمها، تبدو مقتنعة بحتميَّة انتصار رينو: سيحصل على أجره، وسيرسلها إلى المدرسة بحرّ ماله.

«إن توجَّب عليّ دفع ضريبة ما، فسيدفعها هو»، كانت تشرح لي.

كانت متأكّدة من أنّ أخاها سيعطيها المال حتى لشراء الكتب المدرسيَّة والأقلام وحمَّالة الأقلام وريش الرسم وخريطة العالم والمئزر وربطة العنق. كانت تعبده. قالت لي إنَّها، حالما تنهي دراساتها، ستحصل على مالٍ كثير لغاية واحدة: أن تجعل أخاها أثرى شخص في الحيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بات الثراء شغلنا الشاغل في آخر سنة من المرحلة الابتدائيَّة، نتحدَّث بشأنه كما يبحثون عن الكنز في الروايات. كنَّا نقول: حين نصبح ثريَّتين، سنفعل هذا ونفعل ذاك. وكان يبدو أنّ الثراء مخبَّأ في أحد جوانب الحيّ، داخل خزنةٍ تنتظر أن نعثر عليها فقط، وستشعّ بريقًا ما إن نفتحها. ولا أدري كيف تغيَّرت الأشياء، وبدأنا نربط المال بالدراسة. فكَّرنا أنّ المثابرة في المدرسة ستسمح لنا بتأليف الكتب، وأنّ الكتب ستجعلنا ثريَّتين. كنَّا نتخيَّل الثراء دومًا في لمعان نقود ذهبيَّة داخل صناديق لا تُحصى، وكي نصل إليها يكفي أن ندرس ونؤلِّف كتابًا.

«سنؤلِّف كتابًا معًا»، قالت ليلا ذات مرَّة حتى ملأتني بالفرح.

ولعلّ هذه الفكرة سكنتْ رأسها، حين اكتشفت أنّ مؤلِّفة «نساء صغيرات» كانت قد أصبحت ثريَّة جدًّا ما سمح لها بتوزيع ثرائها على عائلتها. لكنّني لا أراهن على ذلك. قلّبنا الفكرة، وقلت إنَّنا نستطيع المباشرة بعد امتحان القبول فورًا، فوافقتْ. لكنَّها لم تقاوم. بينما كنت أدرس كثيرًا بسبب دروس المساء الخصوصيَّة مع سبانيولو والمعلِّمة، كانت ليلا حرّة ما يكفي لتنكفئ على العمل، وتنجز الرواية دون مساعدتي.

تأسَّفتُ جدًّا حين أعطتني إيَّاها لكي أقرأها، لكنّني لم أقل شيئًا، بل أخفيتُ إحباطي وهنّأتُها. كانت الرواية عبارة عن عشرات من تلك الأوراق المقسّمة إلى مربّعات صغيرة، مثنيَّة ومثبّتة بدبّوس خياطة. وغلافها مرسوم بالرِيَش الملوَّنة. أذكر العنوان: «الساحرة الزرقاء». كم كانت رواية ممتعة، وكم كانت تحتوي على الكلمات الصعبة. قلت لها إنّني سأطلع المعلِّمة عليها. لم تشأ. فرجوتها، وأخذت على عاتقي أن أحملها إلى المعلِّمة. فأومأتْ بالإيجاب على مضض.

ذات مرَّة، كنت عند المعلِّمة أوليڤييرو، انتهزتُ فرصة ذهاب سبانيولو إلى الحمّام، وأخرجتُ «الساحرة الزرقاء». قلت للمعلِّمة إنَّها رواية جميلة جدًّا، كتبتها ليلا وتودّ لو تطلعها عليها. لكنّ المعلِّمة، وقد كانت شديدة الحماس في الأعوام الخمسة الأخيرة على أيّ شيء تقوله ليلا أو تفعله، ما عدا الشغب، أجابت بفتور:

«قولي لشيرولّو إنَّها تحسن صنعًا لو درست للحصول على الشهادة بدل أن تهدر وقتها». أخذتِ الرواية، لكنَّها تركتها هناك على الطاولة دون أن تلقي عليها أيّ نظرة.

استغربتُ من ذلك التصرّف. ما الذي حدث؟ هل ما زالت المعلِّمة غاضبة من أمّ ليلا؟ هل امتدّ غضبها ليشمل ليلا نفسها؟ هل كان يؤسفها أنّ أهل ليلا لا يريدون إنفاق قرش واحد على الدروس الخصوصيَّة؟ لم أفهم. وبعد عدَّة أيَّام، سألتها بحذر إن كانت قد قرأت «الساحرة الزرقاء». فأجابتني بغموض ونبرة غير معهودة، كما لو أنّنا، أنا وهي، الوحيدتان القادرتان على إدراك ما كانت تقصده.

«هل تعلمين ما معنى الرعاع يا غريكو؟»

«أجل، الرعاع. محكمة الرعاع التي أنشأها الأخوان غراكوس».

«الرعاع كلمة سيِّئة جدًّا».

«أجل».

«وإن أراد أحد أن يبقى بين الرعاع، فهو لا يستحقّ شيئًا، لا هو ولا أولاده ولا أولاد أولاده. انسي أمر شيرولّو، وفكِّري بنفسك».

لم تنوّه بشيء عن «الساحرة الزرقاء». سألتني ليلا عن الأمر مرَّتين. ثم لم تعد مهتمَّة، وقالت باستياء:

«ما إن تسنّى لي الوقت حتى كتبتُ رواية أخرى، فتلك لم تكن جيِّدة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«بل كانت جميلة جدًّا».

«بل كانت مقزِّزة جدًّا».

لكنّ حيويّتها راحت تخفت، وخصوصًا في الصفّ. من المحتمل أنَّها أدركت عدم اهتمام أوليڤييرو بها كما في السابق، بل كانت تغضب أحيانًا من شطط ذكائها. وفي مسابقة نهاية العام، كانت ليلا هي الأفضل عمومًا، ولكن دون سفاهة كما في الماضي. في ختام النهار، فرض المدير على من بقي في المنافسة ـ أنا وجيليولا وليلا ـ مسألة في غاية التعقيد، وقال إنَّه هو من أعدّها شخصيًّا. بذلنا أنا وجيليولا قصارى جهدنا دون نتيجة. ركَّزت ليلا نظراتها كالعادة، لتصبح عينيها كثقبين غائرين، وراحت تطبّق المسألة. وكانت آخر من تحدّث. قالت بنبرةٍ خجول، لم نعتد سماعها منها، إنّ المسألة غير قابلة للحلّ، لأنّ ثمَّة خطأ ما، لكنَّها لم تستطع تحديده. يا ويلتاه، انقضّت عليها أوليڤييرو بموجة عاتية من التأنيب. كنت أرى ليلا مستضعفة، عند السبُّورة، والطبشور في يدها، شاحبة الوجه، تتعرَّض لذلك الوابل من الكلمات المهينة. شعرتُ بما كانت تعانيه، ولم أحتمل أن أشهد ارتجاف شفتها السفلى، فكدت أنفجر بالبكاء.

«حين لا تعرفين حلّ مسألة ما»، ختمت أوليڤييرو بفتور، «لا تقولي إنّ الخطأ في المسألة، بل اعترفي أنَّك لست قادرة على حلّها».

بقي المدير صامتًا. وانتهى النهار هكذا.. إن لم تخنّي الذاكرة.

١٦

قبل امتحان الشهادة الابتدائيَّة بقليل، دفعتني ليلا للقيام بإحدى تلك المغامرات التي لا تسعني الشجاعة على القيام بها بمفردي. قرَّرنا ألَّا نذهب إلى المدرسة، وأن نعبر حدود الحيّ.

لم يحدث هذا من قبل. منذ أن تشكَّل وعيي، لا أذكر أبدًا أنّني ابتعدتُ عن تلك البنايات البيضاء الصغيرة ذات الطوابق الأربعة، عن الفناء وعن الكنيسة وعن الحديقة الصغرى، ولم أشعر بضرورة ذلك أساسًا. كانت القطر تمرّ باستمرار خلف الريف، وتمرّ السيَّارات والشاحنات ذهابًا إيابًا في الشارعِ العام. ومع هذا، لا أذكر أبدًا أنّني تساءلت، أو سألت والدي أو معلِّمتي: إلى أين تمضي هذه السيَّارات والشاحنات والقطارات، إلى أيّ مدينة، إلى أيّ عالم يا ترى؟

حتى ليلا لم تظهر اهتمامها بهذا، لكنَّها رتَّبت الأمر بكلِّ تفاصيله، تلك المرّة. قالت لي أن أخبر أمِّي بأنّنا، بعد المدرسة، سنذهب كلّنا إلى بيت المعلِّمة احتفالاً بنهاية العام الدراسيّ. وألحّت عليّ أن أقول ذلك، مع أنّني ذكّرتها عبثًا بأن لم يسبق للمعلِّمات أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دعوْن كلِّ التلميذات إلى بيوتهنّ لحفلة ما. كان الحدث سيبدو استثنائيًا لدرجة أن لا أحد من الآباء سيجرؤ على الذهاب والسؤال في المدرسة عن الحقيقة. وثقتُ بها كالعادة، وجرت الأمور كما خطَّطت ليلا. في البيت، صدّقني الجميع، ليس أبي وإخوتي فحسب بل وأمّي أيضًا.

ولم يغمض لي جفنٌ طوال الليلة السابقة. تُرى ما الذي كان موجودًا خارج الحيّ، خارج نطاقه المألوف؟ خلفنا، تنهض تلّة بأشجارها الكثيفة، وأبنية قليلة خلف السكك اللامعة. وأمامنا، بعد الشارع العام، هنالك طريقٌ طويلة مليئة بالحفر تحاذي المستنقعات. وإلى يمين بوّابة البناية، يمتدّ جزءٌ من الريف بلا أشجار تحت سماء شاسعة. وإلى يسارها، يوجد نفقٌ بثلاثة منافذ. ولكنّنا إذا صعدنا إلى أعلى السكك الحديديَّة، يتراءى لنا، في الأيَّام المشمسة، جبلٌ في الأفق، ما بعد البيوت المنخفضة والجدران التي طالها العفن والنباتات الصغيرة؛ جبلٌ سماويّ اللون ذو قمّتين، الأولى منخفضة، والثانية شاهقة، ويُدعى بالفيزوف وهو عبارة عن بركان.

إلَّا أنّنا لم نكن نصاب بالذهول إذ رأينا ما يوجد تحت أعيننا كلّ يوم، أو ما كان بوسعنا رؤيته إذا تسلّقنا التلَّة. بل كان ما لا نستطيع رؤيته هو الذي يدهشنا، ربّما لأنَّنا تعلّمنا من الكتب المدرسيَّة أن نتحدّث، بطلاقة عالية، عمّا لم نكن نستطيع أن نراه. كانت ليلا تقول إنّ البحر يقع في جهة الفيزوف تمامًا. رينو ذهب إليه مرارًا، وقصّ لها أنّ المياه زرقاء وبرّاقة.. يا له من مشهد في غاية الجمال! كان يتَّجه إلى البحر مع أصدقائه للسباحة يوم الأحد، لا سيّما خلال الصيف، وفي الشتاء أيضًا، وكان قد وعدها بأن يأخذها لتراه. ولم يكن وحده من رأى البحر، بطبيعة الحال، بل الكثيرون ممَّن نعرفهم. ذات مرَّة، حدّثنا عن البحر نينو سارّاتوري وأخته ماريزا، بنبرة من اعتاد الذهاب بين الحين والآخر لتناول كعك التارالي وفواكه البحر. حتى جيليولا

سبانيولو ذهبت إلى البحر. كانت هي، ونينو وماريزا، ممَّن حالفهم الحظّ بآباء يأخذون أولادهم للتنزُّه بعيدًا جدًّا، ولا يكتفون بنزهة وجيرة عند الحديقة الصغرى قبالة الكنيسة. أمّا نحن، فلم يكن آباؤنا هكذا، إذ كان ينقصهم الوقت والمال والرغبة. ويبدو لي، رغم هذا، أنّ لديّ ذكرًى بعيدة عن البحر الأزرق، تدّعي أمِّي أنَّها أخذتني إلى الشاطئ حين كنت طفلة، وكان عليها أن تستحمّ بالرمل علاجًا لساقها الذليلة. لكنّني لم أكن أصدّق أمِّي دومًا. وبما أنّ ليلا لم تره مطلقًا، فكنت أسلّم بأنّني لا أعرف عن البحر شيئًا أنا أيضًا. وهكذا، خطَّطتْ أن تفعل مثل رينو، أن تمشي إلى البحر بمفردها؛ وأقنعتني بالمجيء معها، في الغد.

استيقظتُ باكرًا، وتصرّفت كما لو أنَّني ذاهبة إلى المدرسة، تناولتُ حساء الخبز مع الحليب الساخن، أعددتُ الحقيبة، وارتديتُ المئزر. انتظرتُ ليلا كالعادة أمام البوَّابة، وبدل أن نذهب ذات اليمين، عبرنا الشارع العام وذهبنا ذات الشمال، نحو النفق.

كان الصباح باكرًا والطقس حارًّا. وثمَّة رائحة قويّة تفوح من أعشاب الأرض التي تجفّفها الشمس. صعدنا بين أشجار باسقة، ودروب وعرة تفضي إلى السكك الحديديَّة. وما إن وصلنا إلى كابل الكهرباء الضخم، حتى نزعنا مئزرينا المدرسيين ووضعناهما في حقيبتينا، وأخفيناهما بين الأغصان المتشابكة. ثم انطلقنا صوب الريف الذي كنَّا نعرفه جيِّدًا، ورحنا نطير ببهجة فوق المنحنى الذي أدّى بنا إلى النفق. كان المنفذ الأيمن مظلمًا جدًّا، ولم نكن قد دخلناه من قبل. شبكنا أيدينا وتقدّمنا. كان الممرّ طويلاً، وفتحة المخرج تتراءى كدائرة بيضاء في البعيد. وحين اعتدنا على الظلام، وكاد صدى خطواتنا يثقب آذاننا، رأينا سطور الماء الفضِّيّ تنزلق على الجدران لتصبّ في برك كبيرة. تابعنا السير بتوتُّر شديد. ثم رمت ليلا بصرخة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضحكت من الصدى الذي عاد مضخَّمًا. ثم صرختُ أنا أيضًا وضحكتُ بدوري. ومنذ تلك اللحظة، لم نفعل شيئًا سوى الصراخ، معًا، أو كلّ واحدة على حدة: صرخة وضحكة، صرخة وضحكة، وكنّا مسرورتين بسماع الرجع مضخَّمًا. انخفض التوتُّر، وبدأت الرحلة.

ما زالت أمامنا ساعات طويلة لم يكن أهلنا ليبحثوا عنَّا خلالها. حين أفكِّر في بهجة الحرِّيَّة، أتذكَّر بداية ذلك النهار، إذ خرجنا من النفق ووجدنا نفسنا على طريق مستقيمة، لا ترى العين نهايتها، وهي الطريق التي تفضي إلى البحر، وفقًا لما قال رينو لليلا. شعرتُ أنَّني تحت رحمة المجهول، بكلِّ سرور. لا مجال للمقارنة بين تلك الرحلة وبين النزول إلى القبو، أو الصعود إلى بيت الدون آخيل. كانت الشمس ضبابيَّة، وتفوح رائحة أغراضٍ محروقة. مشينا على الطريق بين جدران منهارة غزتها الأعشاب الضارّة، وأبنية منخفضة تصدح منها أصوات تتكلَّم بالعامِّيَّة وقعقعة ما أحيانًا. رأينا حصانًا ينزل بحذر من بين إحدى الدعامات، ويعبر الشارع وهو يصهل. رأينا امرأة شابَّة تطلّ من شرفة صغيرة، وتسرِّح شعرها بالمشط الصغير المخصّص لانتشال القمل. رأينا الكثير من الأولاد الذين يسيل المخاط من أنوفهم، وكفّوا عن اللعب حالما رأونا، وصوّبوا إلينا نظرات التهديد. رأينا أيضًا رجلاً بدينًا يرتدي قميصًا داخليًّا ويخرج من بيت مدمَّر، أرخى سرواله وأظهر لنا عضوه. لكنّنا لم نجزع من هذه الرؤى؛ فالدون نيكولا، والد إنتسو، كان يسمح لنا بلمس حصانه أحيانًا، وكان أولاد الحيّ يهدِّدوننا أيضًا، وكان هنالك الدون ميمي العجوز، الذي يُظهر لنا عضوه المثير للاشمئزاز كلَّما عدنا من المدرسة. كان ذلك الشارع العام، الذي سرنا عليه حوالى ثلاث ساعات، لا يبدو لنا مختلفًا عن جزئه الذي نراه يوميًّا. ولم أشعر بالمسؤوليَّة عن صحَّة الاتِّجاه. كنَّا قد

شبكنا يدينا، ومضينا جنبًا إلى جنب، ولكنّني شعرتُ أنّ ليلا، كعادتها، تسبقني بعشر خطوات، وأنّها تعرف جيِّدًا ما تفعل وأين تذهب. كنت معتادة أن أشعر بأنّني الثانية في كلّ شيء، ولهذا كنت مطمئنّة أنّ الأمور واضحة لديها: المسير، المسافة الزمنيَّة المتبقّية للذهاب والعودة، درب الوصول إلى البحر. كنت أشعر أنَّها نظَّمت كلّ شيء في رأسها، بطريقة لا تسمح للعالم من حولها أن يكون عرضة للفوضى. فأسلمتُ نفسي بسعادة. أذكر ضوءًا خافتًا بدا آتيًا، ليس من السماء، بل من أعماق الأرض، لكنَّه كان يضعف كلَّما صعد إلى السطح.

ثم بدأنا نشعر بالتعب، والعطش والجوع. لم نأخذ هذا في الحسبان. أبطأت ليلا خطواتها، فأبطأت أنا أيضًا. رأيتها مرَّتين أو ثلاث تنظر إليّ كما لو أنَّها ندمت على إلحاق الأذى بي. ما الذي كان يحدث؟ لاحظتُ أنَّها كانت غالبًا ما تلتفت إلى الخلف، ما دعاني للالتفات أنا أيضًا. راحت يدها تتعرّق. اختفى النفق من ورائنا منذ حين، وهو الذي كان بمثابة حدود الحيّ. ولم تعد الطريق التي مشيناها تبدو أليفة. وكان يبدو أنّ الناس لا يهتمُّون لمصيرنا البتَّة، فيما بات المشهد حولنا يتّسم بالضياع: براميل مسحوقة، أخشاب محروقة، حطام سيّارة، عجلات عربةٍ ذات عيدان مهشَّمة، أثاث شبه تالف، حديد صدئ. لماذا كانت ليلا تنظر إلى الخلف؟ لماذا كفّت عن الكلام؟ ما الذي لم يكن يجري على قدم وساق؟

ركّزتُ نظري. السماء، التي كانت في البدء عالية جدًّا، صارت أكثر دنوًّا إلى الأرض. وخلف ظهرنا، طغى السواد على كلّ شيء. غيوم تتلبَّد وترسو بثقلها فوق الأشجار وأعمدة الإنارة. وأمامنا لا يزال الضوء مشعًّا، لكنّه محاطٌ بأطياف رماديّة وقاتمة تسعى إلى خنقه. سمعنا هزيم رعد بعيد. جفلتُ، ثم تملَّكني الخوف حين رأيت الحيرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصبغ وجه ليلا بما لم أره من قبل. كان فمها مفتوحًا وعيناها جاحظتين، وتتلفَّت بعصبيَّة إلى الخلف ثم إلى الأمام فإلى الجانبين، وتشدّ قبضتُها يدي. تساءلتُ: هل يُعقل أنّها خائفة؟ ما الذي يحدث لها؟

هطلت أولى حبّات المطر، وضربت غبارَ الطريق، لتترك بقعًا بنِّيَّة صغيرة.

«فلنعد»، قالت ليلا.

«والبحر؟»

«بعيد جدًّا».

«والبيت؟»

«بعيد أيضًا».

«فلنذهب إلى البحر إذن».

«لا».

«لماذا؟»

رأيتها متوتِّرة للمرَّة الأولى. ثمَّة سرٌّ ما يفرض عليها أن تجرّني إلى البيت جرًّا؛ سرٌّ على رأس لسانها، لكنَّها لن تبوح به. لم أكن أفهم: لماذا لا نتابع؟ ما يزال لدينا متّسعٌ من الوقت، ولا ينبغي أن يكون البحر بعيدًا جدًّا، وكنَّا سنتبلَّل إن اشتدّ هطول المطر، في الحالتين، سواء عدنا إلى البيت أم أكملنا الطريق. وهذا كان أسلوبها في التفكير، وقد تعلّمتُه منها، وكنت أستغرب أنَّها لا تطبّقه حينها.

مزّق الشعاع البنفسجيّ تلك السماء السوداء، ثم تلاه الرعد. هزّتني ليلا بشدَّة، ولم أكن مقتنعة بوجوب الركض نحو الحيّ. هبّت الريح، وانهمر المطر بغزارة أكبر، وتحوّل إلى شلَّال من المياه في

غضون ثوانٍ قليلة. لم يخطر في بالنا أن نبحث عن ملجأ من المطر. ركضنا والمطر يغشي أبصارنا، وسرعان ما ابتلّت ثيابنا، وكسا الوحل أقدامنا وكبّل صندلينا المستهلكين بما لا يساعد على الركض إطلاقًا. لكنّنا ركضنا حتى انقطعت أنفاسنا.

ثم فقدنا القدرة على المواصلة، فأبطأنا. كان جانبا الشارع العام يستحمّان بالأمطار، ويرزحان تحت سطوة البرق والرعد. والشاحنات المسعورة تمرّ مسرعة لترفع أمواجًا من طين المياه. سرنا بخطًى رشيقة، وقلبين نابضين، إلى أن خفّت الأمطار تدريجيًا حتى انقطعت؛ وساد اللون الرماديّ على السماء. كنّا مبلّلتين لدرجة أن التصق الشعر بالرأس، وترطّبت شفاهنا وأغشى الخوف أبصارنا. عبرنا النفق ثانية، واتّجهنا نحو الريف. واقشعرّ بدني كلّما لامستُ الأشجار المحمّلة بالمطر. وجدنا حقيبتينا، وارتدينا المئزر المدرسيّ فوق ثيابنا المبلّلة، واتّجهنا نحو البيت. ولم تشبك ليلا يدها بيدي، فكانت متوتّرة مطأطئة الرأس دومًا.

وسرعان ما أدركنا أن لا شيء جرى كما قد توقّعنا. اشتدّت حلكة السماء فوق الحيّ تزامنًا مع موعد الانصراف من المدرسة. كانت أمّي قد ذهبت إلى المدرسة، تحمل مظلّة، كي ترافقني إلى حفلة المعلّمة. واكتشفتْ أنّني لم أكن موجودة، ولم يكن هنالك أيّ حفلة. وكانت تبحث عنّي منذ ساعات. وحين رأيت وجهها المكفهرّ من مسافة بعيدة، وميّزتُ خطوتها العرجاء، تركتُ ليلا على الفور كي لا تنهرها، وركضتُ نحوها. لم تعطني الفرصة للكلام. صفعتني بيدها، وضربتني بالمظلّة أيضًا، وهي تصيح بأنّها ستقتلني لو ارتكبتُ هذه الفعلة مرّة أخرى.

نجت ليلا من القصاص، إذ لم يتنبه أهلها إلى شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المساء، قالت أمّي كلّ شيء لأبي، وأرغمته على تأديبي. فثارت أعصابه، ولم يكن يريد أن يضربني، فانتهى به الأمر إلى الشجار معها. صفعها في البدء ثم غضب من نفسه، وراح يضربني بأقسى ما عنده. وخلال الليل كلّه، حاولت أن أفهم ما الذي جرى حقًّا. كان علينا الذهاب إلى البحر ولم نذهب، تلقّيتُ عقابًا هكذا بلا سبب. والأغرب أنّ الأمور جرت على عكس العادة: كنتُ أحثّ ليلا على متابعة المشوار رغم هطول المطر، وكنت أشعر أنّني بعيدة عن الجميع وعن كلّ شيء، واكتشفتُ للمرّة الأولى أنّ الابتعاد يبدِّد في داخلي أيّ رباط وأيّ قلق؛ ليلا ندمت على الخطّة التي دبّرتها بنفسها؛ وتخلّت عن فكرة الوصول إلى البحر؛ وأرادت العودة داخل حدود الحيّ. لم أكن أستوعب شيئًا.

في اليوم التالي، لم أنتظرها عند بوّابة البناية، وذهبتُ بمفردي إلى المدرسة. التقينا عند الحديقة الصغرى، رأت الرضوض على ذراعيّ، وسألتني عمّا حدث لي. أبديتُ عدم اكتراثي، حسبي أنّ الأمور جرت على هذا النحو.

«هل اكتفوا بضربك؟»

«وماذا عليهما أن يفعلا أكثر من ذلك؟»

«ألن يعاقباك بِثَنْيك عن دراسة اللغة اللاتينيّة؟»

نظرتُ إليها بارتياب:

هل هذا معقول؟ هل جرّتني معها آملة أن يعاقبني والداي بعدم إرسالي إلى المدرسة المتوسّطة؟ أم أنّها أعادتني باكرًا، على عجل وحيرة، كي تجنّبني تلك العقوبة؟ واليوم يخطرني التساؤل: هل أرادت كِلَا الأمرين في لحظتين مختلفتين؟

١٧

أجرينا معًا الامتحان النهائيّ لنيل الشهادة الابتدائيَّة. وحين عرفتْ أنّني سأجري امتحان القبول إلى المرحلة المتوسِّطة، فقدتْ عنفوانها. وحدث ما أذهلنا جميعًا: أنا اجتزتُ الامتحانين بعلامة عشرة من عشرة، وليلا حازت على الشهادة الابتدائيَّة بدرجة تسعة في كلّ المواد وثمانية في الحساب.

لم توجّه إليّ أيّ كلمة تنمّ عن غيظ أو امتعاض؛ لكنَّها أخذت توطِّد صداقتها مع كارميلّا بيلوزو، ابنة النجَّار المقامر، كأنّني لم أعد أكفيها. وفي غضون أيَّام معدودة بتنا ثلاثيًّا، وكنتُ أميل إلى أن أكون في المرتبة الثالثة، مع أنّني كنت الأولى على المدرسة برمّتها. كانتا تتحادثان وتتمازحان باستمرار، أو بالأحرى كانت ليلا تتحدَّث وتمزح وكارميلَّا تصغي وتستمتع. حين كنَّا نخرج للتنزُّه بين الكنيسة والشارع العام، كانت ليلا تتوسَّطنا دومًا. وكم كنت أعاني إذا لاحظتُ أنّ ليلا تتقرَّب أكثر إلى كارميلَّا، فتنتابني رغبة في العودة إلى المنزل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أواخر تلك الحقبة، كانت كأنّها تعاني من صداع مزمن، وتبدو ضحيَّة لضربة شمس. كان الطقس حارًّا جدًّا، وغالبًا ما نبلِّل رؤوسنا عند النافورة. أذكر شعرها المبلّل يقطر على وجهها، ورغبتها في الحديث دومًا عمّا كانت ستفعله حين نذهب إلى المدرسة في العام المقبل. بل أضحى هذا الموضوع هاجسها المفضّل، تلهج به كأنَّه إحدى تلك الحكايات التي ترغب في كتابتها لتصبح ثريَّة. وكانت تتوجّه بكلامها إلى كارميلَّا بيلوزو التي حصلت على الشهادة بمعدّل سبعة من عشرة، ولم تخضع لامتحان القبول أيضًا.

كانت ليلا بارعة في القصّ، حتى يبدو كلّ ما تحكيه حقيقيًّا: المدرسة التي كنَّا سنذهب إليها، الأساتذة. وكانت تضحكني تارة، وتربكني تارة أخرى. ذات صباح، قاطعتها.

«ليلا»، قلت لها، «أنت لن تذهبي إلى المدرسة المتوسِّطة، لأنّك لم تجري امتحان القبول. لا أنت ولا بيلوزو».

غضبتْ. قالت إنّها ستذهب بكلِّ الأحوال، بامتحان وبغير امتحان.

«وكارميلَّا أيضًا؟»

«أجل».

«هذا ليس ممكنًا».

«سترين».

لا بدّ أنّ كلامي سبَّب لها صدمة قويَّة. منذئذ، كفّت عن الحكايات التي تستبشر مستقبلنا الدراسيّ، وعادت إلى هدوئها. ثم راحت تعذّب أهلها، بتصميمٍ لا يلين، وتصرخ في وجوههم بأنَّها تريد أن تدرس اللاتينيَّة مثلي أنا وجيليولا سبانيولو. غضبتْ من أخيها رينو

الذي كان قد وعدها بأن يساعدها، لكنَّه لم يفعل شيئًا. ولم يكن من المجدي أن يشرحوا لها بأنّ الأمر انقضى، وما عاد بالإمكان فعل شيء، فهكذا تغدو أكثر عبثيَّة ولؤمًا.

في بداية الصيف، اكتنفني شعور من الصعب أن أترجمه إلى كلمات. كنت أراها عصبيَّة وانفعاليَّة مثلما كانت في السابق، وكنت سعيدة برؤيتها كما عرفتُها. ومن جهة أخرى، كنت أشعر أنَّها تنجرّ إلى أساليبها القديمة بسبب ألم ما. وهذا ما كان يزعجني، لم يكن يروق لي أن أراها تتألَّم. كنت أفضِّل أن تكون مختلفة عنِّي، تترفَّع عن كمائن القلق التي كنت أقع فيها. أسفتُ لاكتشافي بأنّ ضعفها يزوّدني، بشكل غامض، بالرغبة في التفوّق عليها. فحالما تسنح الفرصة، وخصوصًا حين لا ترافقنا كارميلّا، كنت أبحث بحذر عن طريقة تذكّرها بأنّ صحيفتي المدرسيَّة أفضل من صحيفتها. أو أن أنوِّه لها، بحذرٍ أيضًا، أنّني سأذهب إلى المدرسة المتوسِّطة دونها. كان اجتيازها، والتخلّص من الشعور بالدونيَّة، يبدو لي نجاحًا للمرَّة الأولى. ولا بدّ أنَّها انتبهت لهذا، فأصبحت أكثر قسوة، ولكن ليس معي، بل مع أهلها.

وغالبًا ما كنتُ أسمع صياحها ينطلق من النافذة، بينما أنتظرها في الفناء. كانت تقذف أهلها بإساءاتٍ تفوق لهجة الشوارع سوقيَّةً، لاذعة لدرجة أنّني أفكّر في النظام والاحترام حين أسمعها. إذ كنت أعيب عليها أن تعامل الكبار على هذه الشاكلة، بمن فيهم أخاها. ولا شكّ أنّ فرناندو الإسكافيّ يصبح رجلاً شرّيرًا حين تجتاحه دقائق الغضب الخمس. لكنّ هذه النوبة تجتاح جميع الآباء؛ وأبوها يبدو رجلاً لطيفًا ومحترمًا، وكادحًا في عمله، حين لا تستفزّه ابنته. كان وجهه يشبه وجه ممثّل يدعى راندولف سكوت، لكنّه لا يتحلّى بالرقّة نفسها. بل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ملامحه قاسية، وعيناه تخلوان من الصفاء، ولحيته كثَّة سوداء تنمو أعلى وجنتيه، ويداه غليظتين وقصيرتين مكسوَّتين بالوسخ بين الثنايا وتحت الأظفار. كان يمزح بكلٍّ سرور أحيانًا. وحين أذهب إلى بيت ليلا، كان يمسك أنفي بين سبَّابته والوسطى، ويتظاهر بأنَّه خلع أنفي من مكانه، كي أصدِّق أنَّه سرق أنفي الذي ينازع بين أصابعه محاولاً الهرب والعودة إلى وجهي مجدَّدًا. وكنت أجده مسلِّيًا. ولكنَّه يصيبني بالفزع، عندما أسمع صراخه من الشارع، إذا أغضبه رينو أو ليلا أو أبناؤه الآخرون.

لا أعرف ما الذي طرأ ذات عصر. كنَّا قد اعتدنا في الفصل الحارّ على البقاء في الهواء الطلق حتى ساعة العشاء. لكنَّ ليلا لم تظهر تلك المرَّة، فذهبتُ لأناديها من تحت نوافذ بيتها، إذ كانت تسكن في الطابق الأرضيّ. صحت: «ليلي، ليلي!» وكان صوتي متواضعًا بالنسبة إلى صراخ فرناندو وصوت زوجته المرتفع، وصوت صديقتي الحادّ. اتَّضح لي أنّ شيئًا ما كان يحدث ويبثّ فيّ الرعب. كانت اللهجة النابوليتانيَّة تنبثق من النوافذ بأشدّ ما فيها من فظاظة، إضافة إلى قعقعة بعض الأغراض المتكسِّرة. وفي الظاهر، لم يكن ذلك المشهد مختلفًا عمّا كان يجري في بيتنا حين تغضب أمّي بسبب نفاد المال، فيغضب أبي لأنَّها أنفقت جلّ راتبه الشهريّ الشحيح. ولكنْ، ثمَّة فرق جوهريّ. كان أبي يحافظ على ضبط أعصابه حتى إذا استبدّ به الغضب، ويتجلّى عنفه خفيضًا، بلا صوت، رغم انتفاخ الشرايين في عنقه، ولمعان عينيه بكلٍّ الأحوال. أمّا فرناندو، فكان يصرخ، ويكسّر الأغراض، وغضبه كالنار تتغذّى على نفسها، لا يتمالك أعصابه. وكلَّما حاولتْ زوجته أن تخمد اهتياجه صار أكثر عصبيَّة وانتهى به الأمر إلى تعنيفها، حتى لو لم تكن هي سبب

المشكلة. كنت ألحّ في مناداة ليلا كي أخرجها من ذلك الجوّ المأزوم بالصراخ والإساءات وضوضاء التكسير. كنت أصرخ: «لي لي لي» لكنَّها لم تكفّ عن إهانة أبيها.

كنَّا في سنّ العاشرة، وسنبلغ الحادية عشرة عمّا قريب. وبينما كنتُ أصبح بدينة، ظلَّت ليلا محافظة على قصر قامتها وخفّة عودها. وفجأة، توقَّف الصراخ؛ وبعد ثوانٍ قصيرة، رأيتُ صديقتي تطير من النافذة، مرّت فوق رأسي وهبطت خلفي على الإسفلت.

وقفتُ مشدوهة. أطلّ فرناندو برأسه، وما زال يتوعَّد ابنته صارخًا بأفظع العقوبات؛ بعد أن رماها كأنَّها غرض ما.

نظرتُ إليها مذهولة، بينما كانت تحاول النهوض وهي تقول بغنج كأنَّها تتسلّى:

«لم أُصب بأيّ أذى».

لكنَّها كانت تنزف دمًا، وقد كُسر ذراعها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٨

كان بوسع الآباء فعل هذا وأكثر ردًّا على تطاول بناتهنّ. ازداد عبوس فرناندو بعد تلك الحادثة، وانطوى على عمله أكثر من المعتاد. وكنّا طيلة الصيف نمرّ أمام محلّه الصغير، أنا وكارميلًّا وليلا، وبينما يحيينا رينو بابتسامة، كان الإسكافيّ يحيد نظراته عن ابنته ما بقي التجبير على ذراعها. كان واضحًا أنّه نادم على فعلته؛ إلّا أنّ عنفه كوالد لا يقارن مع العنف المستشري في الحيّ. في مقهى سولارا، كان الزبائن، بين خسارتهم في القمار وإسرافهم في الشرب وتعرّضهم لحرارة الصيف، يستسلمون للإحباط (وهي كلمة تعني فقدان الأمل، كما تعني خسارة الأموال كلّها أيضًا) وهذا ما يؤدّي بهم إلى الصدام. وكان سيلڤيو سولارا، صاحب المقهى، وهو رجل مكتنز، ويتميَّز بضخامة كرشه وزرقة عينيه وعلوّ جبينه، لديه عصا قاتمة اللون يضعها خلف المصطبة، ولا يتردّد باستخدامها في ضرب من لا يدفع ثمن مستهلكاته، ومن يستدين ولا يوفي ديونه في الموعد، ومن يقطع عهدًا ما ثم لا يصونه. وغالبًا ما يستعين بابنيه، مارتشيلو وميكيلي، فَتَيان في

عمر رينو، شقيق ليلا، فيضربان بقسوة تفوق قسوة والدهما. كان الرجال هناك يوجِّهون اللكمات ويتلقُّونها؛ ثم يعودون إلى بيوتهم مكفهرّين من الخسارة بالقمار، من الكحول، من الديون، من موعد التسديد، من الضربات العنيفة؛ وعند أوَّل كلمة كدرة، يصبُّون جامّ غضبهم على أهاليهم. مسلسل من الأذى لا يولِّد إلّا الأذى.

وفي منتصف ذلك الفصل الطويل، حدث أمرٌ صدم جميع سكّان الحيّ، لكنَّ ليلا تلقّتْ تأثيره بشكل مختلف. الدون آخيل، المريع، لقي مصرعه في بيته بعد ظهر يوم ماطرٍ من أغسطس، للمفارقة.

كان في المطبخ، فتح النافذة لتوّه كي يُدخل هواء الأمطار المنعش. لقد قطع قيلولته ونهض عن سريره لهذا القصد. كان يرتدي ثياب نوم زرقاء رثّة، ولا ينتعل سوى جوارب صفراء فاقعة اسودّت عند الكعبين. وما إن فتح النافذة حتى لفحتْ حبّات المطر وجهه، وطعنة سكّين على يمين عنقه، بين الشدق والترقوة تمامًا.

نفرت دماؤه من عنقه، وصبّت في قِدر نحاسيّ معلّق على الجدار. وكان النحاس لامعًا حتى بدت الدماء كبقعة حبرٍ تخطّ سطرًا أسود بشكل غير مألوف، كما حدَّثتنا ليلا. دخل المجرم ـ لكنَّها كانت تميل إلى فرضيّة أنَّها مجرمة ـ دون أن يخلع الباب، في ساعةٍ يكون فيها الأولاد والفتية في الشارع، فيما يستريح الكبار، إن لم يكونوا في أعمالهم. فتح الباب بمفتاح مزيَّف طبعًا. وكان ينوي طعنه في قلبه بينما يغفو، لكنَّه وجده مستيقظًا، فأوغل سكِّينه في عنقه. استدار الدون آخيل، ونصل السكِّين شبه غارق في عنقه، جاحظ العينين، ودماؤه تسيل أنهارًا تلطّخ ثيابه المخصَّصة للنوم. سقط أرضًا على ركبتيه ثم على وجهه.

ألهب المجرمُ عقلَ ليلا، وراحت تضيف كلّ يومٍ تفصيلاً جديدًا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بجدّيّة قلّ مثيلها. كانت تروي لنا القصّة كما لو أنّها حدثت على مرأى عينيها؛ وتجلد مسامعنا، أنا وكارميلّا، بسياط الرعب لدرجة أنّ كارميلّا لم تكن تنام الليل. وحين تصل إلى مشهد الدم الأسود وهو يسيل على القدر النحاسيّ، كانت عيناها تتحوّلان إلى ثقبين وتحتدّ نظراتها، وتستحيل أكثر شراسة. ولا بدّ أنّها كانت تتخيَّل المجرم أنثى ليسهل عليها تقمّص الدور.

في تلك الحقبة، كنّا نذهب إلى بيت بيلوزو لنلعب الداما والإكس ـ أو، بناءً على رغبة ليلا التي كانت شغوفة بهاتين اللعبتين حينها. وكانت أمّ كارميلّا تسمح لنا بدخول صالة الطعام، حيث جميع الأغراض من صنع زوجها، قبل أن يسطو الدون آخيل على عدّة النجارة والمحلّ. كنّا نجلس للعب إلى المائدة، بين خزانتين مكسوّتين بالمرايا. لم أكن أستلطف كارميلّا أبدًا، لكنّني تظاهرت بالمودّة نحوها كما كنت أودّ ليلا، بل كنت أبالغ في بعض الأحيان، وأوهمها بالميل إليها أكثر. كنت أستلطف أمّها جدًّا. كانت قد خسرت عملها منذ أشهر في مصنع التبغ، لتبقى في المنزل طوال الوقت. وبغضّ النظر عن سوء حظّها، كانت بهيجة ومكتنزة، صدرها كبير ووجنتاها محمرّتان بشدَّة. ورغم أنّ النقود بالكاد تكفي، فكانت تغدق علينا الأطعمة اللذيذة دومًا. حتى زوجها بدا أكثر سكينة؛ إذ كان يعمل حينها نادلاً في مطعم بيتزا، ويبذل قصارى جهده كي لا يتردّد إلى مقهى سولارا، عسى أن لا يلعب الورق فيخسر القليل الذي يتقاضاه.

ذات صباح، كنّا في صالة الطعام نلعب الداما، أنا وكارميلّا ضدّ ليلا. كنّا جالسات إلى المائدة، نحن الاثنتين من جهة وليلا من الجهة الأخرى. وكنّا مطوّقات بالمرايا، والأثاث المتطابق من خشب داكن ومنقوش بزخارف لولبيّة. كنت أنظر إلى انعكاساتنا بين المرايا

المتقابلة، ولم أستطع التركيز باللعبة، سواء بسبب النفور من انعكاساتنا المتتالية إلى ما لانهاية، أم لصراخ ألفريدو بيلوزو الذي كان غاضبًا يومها ويتشاجر مع زوجته جوزيبينا.

وفي لحظة ما، طُرق الباب، وذهبت السيِّدة بيلوزو لتفتح. سمعنا صياحًا يتخلَّله الاستنكار، فأطللنا برؤوسنا، نحن الثلاثة، نحو الممرّ، ورأينا رجال الشرطة الذين كنَّا نهابهم جدًّا. أمسكوا بألفريدو وسحبوه معهم. وكان هو يلوِّح بذراعيه ويصرخ، وينادي أبناءه بالاسم، واحدًا واحدًا، باسكوالي، كارميلّا، شيرو، إيماكولاتا، ويستجير بالأثاث الذي صنعته يداه، وبالكراسي، وبزوجته جوزيبينا، ويقسم أنّه بريء ولم يقتل الدون آخيل. وكانت كارميلّا تبكي من الإحباط، وبكى جميعهم، فبكيتُ أنا أيضًا. لكنَّ ليلا لم تبك، بل رمت بالنظرة نفسها التي رمتها منذ عدَّة أعوام من أجل ميلينا، بفارقٍ وحيد، وهو أنَّها كانت تبدو تتحرَّك، رغم ثباتها، إيماءً لحركات ألفريدو بيلوزو الذي رفع صوته الأجشّ، وأطلق صرخاته المفزعة آآآآآه.

كان هذا أكثر موقف فظيع شهدناه في طفولتنا، وترك لديّ انطباعًا سيِّئًا. انشغلت ليلا بكارميلّا وراحت تواسيها. كانت تقول لها إنّ أباها أحسن صنعًا بقتل الدون آخيل، لو ثبت أنّه القاتل حقًا، لكنّه كان بريئًا في رأيها، وسيهرب من السجن حتمًا، وعلى الفور. كانتا تغمغمان على انفراد باستمرار؛ وكلَّما اقتربتُ منهما، ابتعدتا عنِّي قليلاً كي لا أسمع حديثهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المراهقة

حكاية الأحذية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١

في الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٥٨، شهدتْ ليلا أوَّل حادثة من «انحلال الهوامش». لست أنا صاحبة هذا المصطلح، بل هي التي لطالما استخدمته بتحريف المعنى الشائع للكلمة. كانت تقول إنّها ترى، في لحظاتٍ معيّنة، كيف تتحلَّل حوافّ الأشياء وأطراف الأشخاص فجأة. وفي تلك الليلة، حين كنَّا نحتفل بقدوم العام ١٩٥٩، على السطح، صدمها شعورٌ عنيف من هذا النوع، أصابها الذعر واحتفظت بهذا الشعور سرًّا في قلبها، ولم تكن بعد قادرة على منحه اسمًا معيّنًا. ولم تحدّثني عنه إلَّا بعد مرور أعوام طويلة، ذات مساء من نوفمبر عام ١٩٨٠ ـ وقد بلغنا السادسة والثلاثين، وكنَّا متزوِّجتين ولدينا أولاد ـ روت لي بالتفصيل ما راودها في تلك المناسبة، وما الذي كان ما يزال يراودها حينئذ، واستخدمت ذلك المصطلح للمرَّة الأولى.

كنَّا في الهواء الطلق، على قمّة إحدى بنايات الحيّ. وقد ارتدينا ثيابًا خفيفة ومكشوفة لنظهر جمالنا، مع أنّ الطقس كان شديد البرودة.

كنَّا ننظر إلى الذكور وابتهاجهم وعصبيّتهم، كأنَّهم أطياف سوداء أنهكها الحفل والطعام والمشروب. كانوا يشعلون فتيل الألعاب الناريَّة، احتفاءً بالعام الجديد، وهي عادةٌ واظبتْ ليلا على المشاركة فيها، كما سأتحدَّث لاحقًا، وكانت حينها تشعر بالسعادة فعلاً، وهي تنظر إلى خطوط النار في السماء. قالت لي إنّها، رغم البرد، أخذتْ تشعر بالعرق يكسو جسمها على حين غرَّة. بدا لها أنّ جميعهم يبالغون بالصراخ، ويتحرَّكون بسرعة شديدة ومزعجة. شعورٌ رافقته حالة غثيان، تولّد لديها انطباعٌ بأنّ شيئًا ما، لا شكّ في وجوده الملموس، حاضرٌ حولها، وحول جميع الأشخاص، وجميع الأشياء، منذ الأزل، لكنّها لم تكن تعي ماهيّته، يسعى إلى تمزيق حوافّ الأشياء وأطراف الأشخاص، ويحاول الظهور.

راح قلبها يخفق بما يستعصي السيطرة. واستباحها الرعب من الصراخ الصادر من أفواه جميع أولئك الذين كانوا يتحرَّكون على السطح، بين الدخان والنيران، كما لو أنّ أصواتهم تخضع لقوانين جديدة ومبهمة. غلبها الإعياء، وفقدت اللهجة أيّ ألفة، وبدت لا تحتمل الطريقة التي تتمرّغ فيها الكلمات بسائل اللعاب داخل أفواهنا الرطبة. وغمر شعورها بالاشمئزاز كلّ الأجسام المتحرِّكة، وهياكلها العظميّة، ونوبة العصبيّة التي تؤلّبها. كم نحن مشوَّهون، فكَّرتْ، كم نحن ناقصون. الأكتاف العريضة، والأذرع، والسيقان، والآذان والأنوف والعيون، بدت لها أعضاء كائناتٍ مرعبة، هبطت من إحدى زوايا تلك السماء السوداء. تركّز شعورُها بالقرف على جسم أخيها رينو، ومن يدري لماذا، علمًا بأنّه الشخص المحبّب إلى قلبها، والشخص المفضّل لديها.

بدا لها أنّها تراه على حقيقته للمرّة الأولى: كائنٌ حيوانيّ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جلفٌ، وشكله عديم التناسب، يفوق الحاضرين صياحًا وضراوة وجشعًا وزيفًا. أنهكها خفقان القلب، وأحسّت بالاختناق إزاء تصاعد الدخان وانبعاث الرائحة الثاقبة، وإشعاع البريق الناري حولها في ذلك الطقس البارد. حاولتْ أن تهدِّئ من روعها، وقالت لنفسها: عليّ أن أمسك بهذا السهم الذي يخترقني، وأنزعه عنِّي وأرميه بعيدًا. لكنّها سمعتْ حينذاك صوتًا يشبه الانفجار الأخير، يعلو فوق ضوضاء الحفل، وأحسّتْ بشيء ما يمرّ بقربها كرفّ جناح. كان أحدهم قد استبدل تلك الصواريخ المصطنعة بأعيرةٍ ناريّة حقيقيَّة تنطلق من مسدّس ما. وكان رينو، أخوها، يصرخ بكلمات شنيعة مزلزلة تجاه الومضات الصفراء.

حين روت لي ليلا هذه الحكاية، قالت أيضًا إنّ ما تسمّيه بـ «انحلال الهوامش» لم يكن حدثًا جديدًا بالمطلق، مع أنّه تجلّى بأوضح صوره في تلك المناسبة فقط. إذ كانت غالبًا ما تشعر بأنَّها تتحوّل إلى شخص آخر، أو شيء ما، أو رقم معيّن، أو مقطع صوتيّ منفرد، يحلّ أطرافها لأجزاء من الثانية. وفي اليوم الذي رماها والدها من النافذة، شعرتْ، وهي تطير نحو الإسفلت، بأنَّها على يقينٍ من وجود حيواناتٍ حمراء، صغيرة وأليفة، تحلِّل كينونة الإسفلت وتحوّله إلى مادَّة ناعمة وطريَّة. ولكنّها، خلال ليلة رأس تلك السنة، رأت للمرَّة الأولى كائناتٍ مجهولةً تحلّ هوامش هذا العالم، وتُظهر طبيعتَها الهمجيّة. صُدمتْ ليلا بهذه الرؤية جدًّا.

٢

حين نزعت ليلا التجبير، بدا ذراعها مبيضًّا بعض الشيء، لكنَّه في صحَّة تامَّة. وتوصّل أبوها فرناندو إلى اتِّفاق مع نفسه، صرّح عنه بطريقة غير مباشرة، عبر زوجته نونتسيا وابنه رينو، يسمح لابنته بالتسجيل في مدرسةٍ لا أعلم لدراسة ماذا بالضبط، ربّما التنضيد أو المحاسبة أو الاقتصاد المنزليّ، أو الموادّ الثلاثة معًا.

راحت تتردَّد إلى تلك المدرسة دون رغبة. واستدعيت نونتسيا، من قِبل الأساتذة، لأنّ الفتاة كانت غالبًا ما تتغيَّب بلا مبرِّر، وكانت تشاغب في الصفّ، ولا تجيب على الأسئلة؛ وإن أوجبوها على حلّ بعض التمارين أنجزتها بخمس دقائق لتعود إلى إزعاج رفيقاتها. في فترة معيَّنة، أُصيبت بحمّى شنيعة من نوعها، وهي التي لم تكن تمرض أبدًا، وبدت كأنَّها رضختْ لتأثيرها، واستنفد الڤيروس كلّ طاقاتها. كانت الأيَّام تمرّ دون أن تستطيع ليلا استرداد صحَّتها. وكلَّما كادت تشفى عاودتها الحمّى، لتزيد وجهها شحوبًا أكثر من المعتاد. ذات يوم، صادفتُها في الشارع، وبدت لي كأنَّها روح طفلةٍ قد تناولتْ حبوبًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مسمَّمة، كرسم رأيته في أحد كتب المعلِّمة أوليڤييرو. وعندها، شاع في الحيّ أنَّهاً توشك على الموت، ما سبّب لي قلقًا لا يُطاق. ثم استردّت عافيتها، رغمًا عنها تقريبًا. ولكنّها ما فتأت تتغيَّب عن المدرسة، بذريعة قواها الخائرة، إلى أن رسبت في نهاية العام.

وأنا أيضًا لم أكن على ما يرام في الصفّ الأوّل المتوسِّط. في البدء، كانت لديّ تطلُّعات كبيرة، وكنت سعيدة لأنّني دخلتُ تلك المدرسة مع جيليولا سبانيولو بدلاً عن ليلا، حتى لو لم تظهر هذه السعادة على وجهي. ففي أعماق نفسي، كنت أتلهَّف لمدرسةٍ لا يُسمح لليلا التردُّد إليها، لأنّني سأتفوَّق في غيابها، وكنت سأتباهى أمامها بمنجزاتي، كلَّما سنحت لي الفرصة. وسرعان ما رحت أتعثّر فيما بدا أنَّ الكثير من التلاميذ يضاهونني باجتهادهم. بتّ أشعر أنَّنا، أنا وجيليولا، كأنَّنا حيوانات صغيرة، نغرق في مستنقع، مذعورتين من زيف كفاءتنا، لذا رحنا نناضل طيلة العام كي لا يتراجع مستوانا. حزنتُ كثيرًا، وبدأتُ أفكِّر أنّني، دون ليلا، لم أكن لأنتمي إلى قلائل المتفوِّقين أبدًا.

وفي بعض الأحيان، عند مدخل المدرسة، كنت ألتقي بألفونسو، أصغر أبناء الدون آخيل، ولكنّنا كنَّا نتصرَّف كأنّ أحدنا لا يعرف الآخر. لم أكن أعرف بما أكلِّمه، إذ لطالما ظننتُ أنّ ألفريدو بيلوزو قد أحسن صنعًا بقتل والد ألفونسو، ولم أجد من الكلمات ما أواسيه بها. لم أتأثّر حتى لكونه بات يتيمًا، وكأنّه يتحمّل وزر الرعب الذي كان الدون آخيل يسبِّبه لي طيلة سنوات. كان يضع عصبة سوداء منسوجة على سترته، ولم يكن يضحك أبدًا، ويظلّ منعزلاً في شؤونه الخاصَّة. كان يدرس في صفّ آخر، ويقال إنَّه شاطر جدًّا. وفي نهاية العام، عرفنا أنَّه نجح بمعدّل ثمانية من عشرة، فأحبطني هذا. جيليولا

رسبت في اللاتينيَّة والرياضيَّات، وأنا تدبّرت أموري بمعدّل ستَّة.

استدعت المعلِّمةُ والدتي إبَّان خروج صحفنا المدرسيَّة، وقالت لها، بحضوري، إنّني نجوتُ من اللاتينيَّة بفضل كرمها ليس إلَّا، وكنت عرضة للرسوب في العام المقبل لا محالة، إن لم يسعفوني بدروس خصوصيَّة. شعرتُ بمذلّة مزدوجة: أوّلاً، لأنّني لم أقدّم من المثابرة ما اعتدتُ عليه في الابتدائيَّة؛ وثانيًا، لأنّني رأيتُ الفرق الكبير بين أناقة المعلِّمة وزهوّ هندامها وطلاقتها في بليغ الكلام بأسلوبٍ رفيع يشبه الإلياذة نوعًا ما، وبين مظهر أمِّي القميء، وحذائها القديم، وشعرها الباهت، والعامِّيَّة الظاهرة في محاولتها التحدُّث بإيطاليَّةٍ فصيحة تعجّ بالأخطاء النحويَّة.

ولا بدّ أنّ والدتي أيضًا شعرتْ بالعار. عادت إلى البيت متجهِّمة، وقالت لوالدي إنّني لم أكسب رضا المعلِّمين، وإنَّها تحتاج إلى من يساعدها في تدبير أمور المنزل، ولذا يجدر بي التخلّي عن فكرة الدراسة. تناقشا طويلاً، وتشاجرا، حتى رأى أبي أنّني أستحقّ الاستمرار، طالما أنّني نجحت بكلِّ الأحوال، بينما رسبتْ جيليولا في مادَّتين مهمَّتين.

قضيت صيفًا مزعجًا، في الفناء، وقرب المستنقعات، بصحبة جيليولا عمومًا، وكانت تصدِّع رأسي بالشابّ الجامعيّ الذي يأتي إلى منزلها ليدرّسها، وكان يحبّها على حدّ زعمها. كنت أصغي إليها، ولكنّني سرعان ما أشعر بالملل. وبين الفينة والأخرى، أجد ليلا تتمشَّى مع كارميلّا بيلوزو التي ارتادت إحدى المدارس هي الأخرى، ورسبت أيضًا. وكلَّما أحسستُ بأنّ ليلا لم تعد تريد صداقتي، اكتنفني الإرهاق كأنّني أشعر بالنعاس. وأحيانًا، كنت أستلقي على السرير، آملة أن لا تراني أمِّي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وذات عصر، غفوتُ بعمق، وحينما استيقظت شعرتُ بأنّني مبلَّلة. ذهبتُ إلى المرحاض لأرى ما الذي حصل لي، فاكتشفتُ أنّ سروالي ملطّخ بالدماء. أفزعني أمرٌ ما، لا أعرف ما هو بالضبط، ربّما احتمال أن تؤنّبني والدتي لأنّني تأذّيتُ بين ساقيّ. غسلتُ السروال بعناية، وعصرتُه جيّدًا، ثم لبستُه مبلَّلاً مثلما كان. وخرجتُ إلى الفناء الحارّ، وقلبي يخفق من شدّة الخوف.

التقيتُ بليلا وكارميلّا، ورحت أتنزَّه معهما حتى الكنيسة. أحسستُ أنّني أتبلَّل من جديد، لكنّني حاولت أن أطمئن نفسي معلِّلة البلل برطوبة السروال. وحين تملّكني الخوف، همستُ في أذن ليلا:

«لا بدّ أن أطلعك على شيء ما».

«وما هو؟»

«أريد أن أخبرك به وحدك».

أمسكتُ بذراعها، وحاولت أن أجرّها بعيدًا عن كارميلّا، لكنَّها تبعتنا. وبلغ بي القلق حدّ أنّني اعترفتُ لهما معًا، ولكنْ بالتوجُّه نحو ليلا فقط.

«ما سبب هذا؟» سألتُ.

كانت كارميلّا تعرف كلّ شيء. فالدماء كانت تأتيها مرّة في الشهر منذ عام.

قالت: «إنَّه أمر طبيعيّ. الإناث، تأتيهنّ هذه الدورة بشكل طبيعيّ. تنزفين دمًا لبضعة أيَّام، تشعرين بألم في البطن والظهر، وسرعان ما يتلاشى».

«متأكِّدة؟»

«أجل».

دفعني صمت ليلا نحو كارميلّا. طمأنتني العفويَّة التي استخدمتْها في التعبير عن معارفها القليلة، وبتّ أستلطفها. وقضيتُ طول فترة العصر أتحدَّث معها، حتى ساعة العشاء. لم يكن ذلك قاتلاً، استنتجتُ. بل إنَّه «يعني أنَّك كبيرة، وبوسعك إنجاب الأطفال إذا أدخل أحد الذكور عضوه في أحشائك».

كانت ليلا تصغي إلينا دون أن تنبس ببنت شفة. سألناها إذا ما كانت الدماء تأتيها مثلنا، فرأيناها محتارة، ثم أجابتنا بالنفي على مضض. وفجأة، بدت لي أنَّها طفلة، وأصغر ممَّا كنت أراها دومًا. كانت أقصر منِّي بستَّة سنتمترات أو سبعة، جلدًا على عظم، وبشرتها ناصعة البياض، رغم قضائها معظم الوقت في الخارج. وكانت راسبة أيضًا. ولم تكن تعرف ما هي الدماء. ولم يعترف أيّ ذكر بحبّه لها.

«ستأتيك الدماء أنت أيضًا»، قلنا لها بمواساة مزيّفة.

«وما الذي يهمّني أتت أم لم تأت» قالت، «أنا لا أريد أن تأتيني الدورة، لأنِّني أتقزَّز منها. وأتقزَّز ممَّن تحيض أيضًا».

تأهّبتْ للانصراف، ثم توقَّفتْ وسألتني:

«كيف اللغة اللاتينيَّة؟»

«جميلة».

«وهل أنت مجتهدة؟»

«جدًّا».

فكَّرتْ قليلاً، ثم غمغمت:

«أنا رسبت عمدًا. لم أعد أريد الذهاب إلى أيّ مدرسة».

«وماذا ستفعلين إذن؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«سأفعل ما يروق لي».

تركتنا هناك وسط الفناء، وانصرفتْ.

ولم نعد نراها خلال الصيف. توطَّدتْ صحبتي بكارميلّا بيلوزو، ورغم أنّها كانت تزعجني بمبالغتها في الضحك والنواح على حدّ سواء، فإنّها أبهرتني بامتصاصها أسلوب ليلا حتى أوشكتْ أن تكون نسخة بديلة عنها. كانت كارميلّا تقلّد نبرات ليلا في الحديث، وتستخدم بعض تعابيرها المعهودة، وتحرِّك يديها بطريقة مشابهة، وحين تمشي تحاول أن تقلِّد مشيتها، مع أنّ جسمها يكاد مطابقًا لجسمي: مشرقة الوجه ومكتنزة البدن ومفعمة بالعافية. كانت تتملّك صفات ليلا بما يؤسفني تارةً ويجذبني تارة أخرى. وكنت أتقلّب بين النفور من تشويهها لأساليب ليلا، كأنَّها نسخة كاريكاتوريَّة عنها، وبين الذهول، إذ لطالما أعجبتني أساليب ليلا. واستطاعت كارميلّا أن تربطني بها عبر تلك الأساليب المنسوخة. حدّثتني عن قبح مدرستها الجديدة، كانت تتلقّى الإهانات من الجميع؛ والمعلِّمون لا يعيرونها انتباهًا. كما حدّثتني عن زيارتها إلى سجن بوجوريالي، مع أمّها وإخوتها، للاطمئنان على أبيها، وعن الدموع التي انهمرتْ هناك. وقالت لي إنَّ أباها كان بريئًا، وإنّ قاتل الدون آخيل كائنٌ قبيح أسود اللون، له صفاتٌ أنثويَّة أكثر من صفاته الذكريَّة يعيش مع الفئران، ويخرج من مجاري الصرف في النهار أيضًا، ويفعل من الفظائع ما يشاء ثم يختفي تحت الأرض. وفجأة، أخبرتني، بابتسامة ساذجة، أنَّها كانت مغرمة بألفونسو كارّاتشي. وسرعان ما انزلقت ابتسامتها بفيضٍ من البكاء: كان هذا الحبّ يعذّبها، ابنة المجرم مغرمة بابن الضحيَّة. ويكاد يُغمى عليها ما إن تراه يعبر الفناء، أو يمشي في الشارع العام.

كان هذا سرًّا، أشعرني بالشفقة ومتّن علاقتنا. أقسمتْ كارميلّا

أنَّها لم تطلع أحدًا عليه، حتى ليلا نفسها. لكنَّها فتحتْ لي قلبها، لأنَّها ضاقت بسرّها ذرعًا. أعجبتُ بنبرتها المأسويَّة. حلَّلنا كلّ التداعيات المحتملة لذلك العشق، حتى فتحت المدرسة أبوابها، ولم يعد لديّ الوقت لأسمعها.

يا لها من حكاية! لعلّ ليلا، بكلٍّ مواهبها، عاجزة عن تأليف قصَّة كهذه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣

دخلتُ في مرحلةٍ من الكرب. كان جسمي يسمن، وفي صدري نتأتْ دجاجتان كبيرتان قاسيتان، ونما الزغب تحت إبطيّ وعند العانة، فأصبحتُ حزينة وعصبيّة أيضًا. في المدرسة، كنت أبذل جهدًا أكثر من السنين الماضية، ولم تكن حلول تمارين الرياضيّات مطابقة لكرّاس الأمثلة، فيما تبدو الجمل باللاتينيّة بلا رأس أو ذيل. وكلّما تسنّى لي، أغلقتُ على نفسي في الحمّام لأنظر إلى جسدي العاري في المرآة. كنت أستغرب ممّا أرى، وتوجّستُ أنّني سأظلّ أتغيّر حتى تظهر أمّي العرجاء، ذات العين الحولاء، من بين ضلوعي؛ وأنّني لن أحظى بمحبّة أحد. وغالبًا ما كنت أبكي فجأة. وكان صدري الضخم حينها يتحوّل من قاسٍ إلى طريّ. وكنت أشعر أنّني فريسة قوًى غامضة تتفاعل داخل جسدي، ما سبّب لي القلق الدائم.

ذات يوم، أثناء الانصراف من المدرسة، تبعني جينو، ابن الصيدلانيّ، وقال لي إنّ أصدقاءه يخمّنون أنّ نهديّ اصطناعيّان، أو أنّني أضع البطانة تحتهما. كان يضحك وهو يتحدّث. قال أيضًا إنّه،

على عكسهم، يعتقد أنّ نهديّ حقيقيّان، وقد راهن على ذلك بعشرين ليرة. وقال في النهاية إنّه مستعدّ لتقاسم المبلغ معي إذا فاز هو، شرط أن أظهِر الحقيقة على أبصاره.

أخافني هذا الطلب كثيرًا. وحين احترتُ بما عليّ فعله، استعرتُ نبرة ليلا الوقحة عمدًا:

«أعطني العشر ليرات».

«لماذا؟ هل أنا على حقّ؟»

«أجل».

فهرب جينو، وأكملتُ طريقي مستاءةً. لكنّه عاد بعد أيَّام ومعه أحد رفاق صفِّه، فتًى نحيف لا أذكر اسمه، ينمو خطٌّ من الزغب الداكن فوق شفتيه. قال لي جينو:

«لا بدّ أن يكون حاضرًا، وإلّا لن يصدّق الآخرون أنّني فزت».

استعرتُ نبرة ليلا ثانية:

«النقود أوّلاً».

«وإن وجدنا البطانة؟»

«أنا لا أضع البطانة».

أعطاني عشر ليرات، وصعدنا نحن الثلاثة، بهدوء، حتى الطابق الأخير من بناية تقع قرب الحديقة الصغرى. وهناك، عند الباب الصغير لسطح البناية، وكانت خيوط الضوء الرقيقة تتخلَّل فتحاته بنقاءٍ ملحوظ، نزعتُ كنزتي وأظهرتُ نهديّ. ذُهل الفَتَيان وهما ينظران غير مصدّقين ما ترى أعينهما. ثم التفتا وهرعا نحو السلالم.

تنفَّستُ الصعداء، وذهبت إلى مقهى سولارا كي أشتري قطعة من المثلّجات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نُقشتْ تلك الحادثة في ذاكرتي: جرّبتُ للمرَّة الأولى قوَّة جسدي الخارقة على الذكور، وأدركتُ أنّ تأثير ليلا لا يقتصر على كارميلّا فحسب، بل يمتدّ إليّ أيضًا ويؤثّر فيّ كطيفٍ لحوح. ما الذي كنت سأفعله لو كُتب عليّ اتّخاذ قرار في لحظةٍ من فوضى الحواسّ العارمة؟ كنت سأهرب بعيدًا. ولو كنت بصحبة ليلا؟ كنت سأمسك بذراعها، وأهمس بأذنها: فلنذهب من هنا؛ ثم كنت سأبقى كالعادة، لأنّها، هي، كالعادة، قرَّرت أن تبقى. ولكنّني، في غيابها، وضعتُ نفسي مكانها بعد تردُّد وجيز. أو بالأحرى وضعتُها مكاني. وكلّما فكّرتُ في اللحظة التي تقدّم فيها جينو بهذا الطلب، شعرتُ بدقّة كيف تجاوزت نفسي، وكيف قلّدت نظرات ليلا ونبراتها وحركاتها، حين تنبري سفاهتها لخوض صدام ما.. وكنت راضية عمّا فعلتُ. لكنّني كنت أتساءل بارتباك: هل أنا أفعل مثلما تفعل كارميلّا؟ كان يبدو لي أنّني مختلفة عنها، دون أن أعرف كيف أشرح هذا الاختلاف، فيزداد ارتباكي. حين مررتُ قبالة محلّ فرناندو، وقطعة المثلّجات بيدي، ورأيتُ ليلا مشغولة في ترتيب الأحذية على رفّ طويل، رغبتُ أن أناديها لأقصّ عليها كلّ شيء، وآخذ رأيها. لكنَّها لم ترني، فتابعتُ طريقي.

٤

كانت مشغولة دومًا. أرغمها رينو في ذلك العام أن تسجَّل في المدرسة ثانية، ولكنَّها كانت بالكاد تداوم، حتى رسبت عمدًا هذه المرَّة أيضًا. كانت والدتها تطلب مساعدتها في المنزل، ووالدها يطلب عونها في المحلّ؛ وهي، على عكس المتوقَّع، بدل أن تناهض، كانت تبدو سعيدة في العمل في البيت والمحلّ معًا. في الصدف النادرة التي التقيتُ بها ـ يوم الأحد بعد الصلاة أو خلال نزهة بين الحديقة الصغرى والشارع العام ـ لم تظهر أيّ فضول لمدرستي، وسرعان ما كانت دومًا تشرع في الحديث عن مهنة أبيها وأخيها، بإعجاب كبير.

لقد علمتُ أنّ أباها، حين كان شابًّا، أراد أن يستقلّ، فهرب من محلّ جدّها، الذي كان إسكافيًّا هو الآخر، وذهب ليعمل في مصنع للأحذية، في كازوريا، حيث صنع أحذية لجميع الناس، حتى لأولئك الذاهبين إلى الحرب. واكتشفتُ أنّ فرناندو كان يعرف صناعة الحذاء يدويًّا، من الألف إلى الياء، بل ويتقن استخدام الآلات أيضًا، وكان يعرفها كلّها. . القطّاعة والطرَّازة والصقَّالة. حدَّثتني عن أنواع المخمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ووجوه الأحذية وصنّاع الجلود وصناعة الجلديّات، عن الكعب الكامل ونصف الكعب، عن تجهيز الخيوط، والضبان، وعن كيفيَّة تحضير أسفل الأحذية ودبغ وجوهها وتلميعها. استعملتْ كلمات المهنة كأنَّها كلمات خياليَّة، وكأنّ والدها تعلَّمها في عالم مسحور ـ كازوريا، المصنع ـ وعاد من ذلك العالم كمكتشفٍ متشبّع بالمعرفة، لدرجة أنَّه اكتفى بمحلّ العائلة الصغير، المصطبة الساكنة، والمطرقة والقدم الحديديَّة، ورائحة الصمغ الزكيَّة الممزوجة برائحة الأحذية المستعملة. أغرقتني في فيض تلك المفردات بحماسٍ متأجِّج، فبدا لي أنّ أباها وأخاها هما أفضل سكّان الحيّ، بفضل قدرتهما على منح أقدام الناس أحذية متينة ومريحة. وكنت أعود من لقائي بها إلى المنزل بانطباع سيِّئ، أي أنّني كنت أخسر ميزة نادرة لعدم قضاء أيَّامي في محلٍّ إسكافيّ، وأنَّني بنت بوَّاب في البلديَّة لا فائدة تُرجى منه.

ورحتُ أشعر أنْ لا فائدة تُرجى من التردُّد إلى المدرسة. وبدا لي، لوقتٍ طويل، أنّ الكتب المدرسيَّة كانت بلا أمل أو عنفوان. وحين أنصرف من المدرسة، والتعاسة تلفّني، كنت أمرّ بمحلّ فرناندو كي أرى ليلا في مكان عملها، تجلس إلى طاولة صغيرة في آخر المحلّ، وما يزال عنقها ناعمًا، وجذعها يخلو من أيّ دلالة على نهدٍ يانع، ووجهها هزيل جدًّا. لا أعلم ما الذي كانت تفعله بالضبط، لكنَّها كانت تبدو نشيطة، خلف الباب الزجاجيّ، بين رأس أبيها المحنيّ ورأس أخيها المحنيّ. لا كتب، لا دروس، ولا واجبات منزليَّة. كنت أتوقَّف أحيانًا لأفحص الواجهة، كأنَّني زبونة ولي غاية في تلك البضاعة، وأنظر إلى علب الطلاء اللمَّاع، والأحذية القديمة المرمَّمة، وتلك الجديدة ذات الشكل الأنيق والجلد الواسع الذي يجعلها مريحة أكثر. وكنت أبتعد على مضض حين تراني ليلا

وتحيِّيني، فأردّ التحيَّة، بينما أراها تعود للتركيز في عملها. وغالبًا ما كان رينو ينتبه إلى وجودي قبلها، ويفعل حركاتٍ هزليَّة بوجهه كي يضحكني. فأرتبك وأهرب قبل أن تراني ليلا.

وفي يوم أحد، فوجئتُ بأنّني أتكلَّم على الأحذية، بشغف كبير، مع كارميلَّا بيلوزو. كانت بيلوزو تشتري مجلَّة «حلم»، وتلتهم القصص المصوَّرة. شعرتُ في البدء أنّني أهدر وقتي، ثم بدأتُ ألقي نظرة على تلك القصص، وبتنا نقرأ معًا، في الحديقة الصغرى، ونعلِّق على كلام الشخصيَّات كلٌّ على حدة، المكتوب بحروف بيضاء على خلفيَّة سوداء. وكانت هي تنتقل، دون مقدّمات، من التعليق على قصص الحبّ المتخيّلة إلى التعليق على قصّة حبّها الحقيقيَّة، حبّها لألفونسو. وذات مرَّة، حدّثتُها عن جينو، ابن الصيدلانيّ، وادَّعيتُ أنَّه يحبّني، كي لا أشعر بالدونيّة. لم تصدّقني. كان ابن الصيدلانيّ في رأيها كأمير يسكن في برج عاجيّ، وريث الصيدليَّة لاحقًا، سيّدًا لم يكن ليتزوَّج بابنة بوَّاب. وحينها، أوشكتُ أن أطلعها على طلبه برؤية صدري، وأنّني وافقتُ وقبضتُ عشر ليرات. لكنّ مجلَّة «حلم» كانت ترقد على ركبتينا، فوقع نظري على حذاء جميل جدًّا، ذي كعب مرتفع، تنتعله إحدى الممثِّلات. بدا لي هذا الموضوع أكثر أهمِّيَّة من قصَّة نهديّ. لم أقاوم، ورحت أُبدي إعجابي بالحذاء وتقديري لمن صنعه بتلك الأناقة، وقلت إنّنا لو كان لدينا حذاء جميل كهذا، لأغوينا جينو وألفونسو بسحره الفتّاك. وكلَّما تحدّثتُ، انتبهتُ بحياء أنّني أحاول استملاك شغف ليلا الجديد. أصغتْ إليّ كارميلَّا دون اهتمام، ثم استأذنتْ بالانصراف. لم تكن لتهتمّ بالأحذية وصانعيها؛ فرغم تقليدها لأساليب ليلا، كانت، خلافًا عنّي، تبقى ضمن حدود الأشياء التي تستهويها، كالقصص المصوَّرة والحبّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥

جرت تلك الحقبة على هذا المنوال؛ وسرعان ما سلّمتُ لفكرة أنْ لا شيء يستحوذ إعجابي إذا ما فعلتُه بمفردي. وتصبح الأمور قميئة ولا معنى لها إذا لم تدلِ ليلا برأيها فيها. المدرسة المتوسّطة، اللاتينيَّة، المعلِّمون، الكتب، ولغة الكتب بدت لي بالمجمل أقلّ أهمِّيَّة من أناقة حذاء ما. وكان هذا يضايقني كثيرًا.

وفي يوم أحدٍ، تغيّر كلّ شيء من جديد. كنَّا ذاهبات، أنا وكارميلّا وليلا، إلى دروس الدين، وعلينا أن نتجهّز للمناولة الأولى. وحين خرجنا، قالت ليلا إنّ عليها فعل شيء ما، وذهبت. لكنّني رأيت أنَّها لم تتَّجه صوب المنزل، بل دخلت إلى مبنى المدرسة الابتدائيَّة فجأة.

تمشَّيتُ مع كارميلّا، وعندما مللتُ انصرفتُ عنها، واستدرت حول المبنى وعدت إلى الخلف. كانت المدرسة مغلقة يوم الأحد، فما الذي دعا ليلا للدخول؟ ساورتني الشكوك عند الردهة. لم أكن قد

دخلت إلى مدرستي القديمة منذ زمن، فتأثّرتُ كثيرًا؛ تذكَّرتُ رائحتها، وتملَّكني شعورٌ بالطمأنينة كنتُ قد فقدتُه. دخلت من الباب الوحيد المفتوح في الطابق الأوَّل. كانت هنالك صالة واسعة، مضاءة بالنيون، وجدرانها مكسوَّة برفوف كتب قديمة. رأيتُ العشرات من اليافعين والكثير من الأطفال والفتية. كانوا يأخذون كتابًا ما، يتصفَّحونه ثم يُعيدونه إلى مكانه، ويأخذون كتابًا آخر. ثم يقفون في طابور أمام منضدة يجلس خلفها عدوّ المعلِّمة أوليڤييرو القديم، المعلِّم فيرارو النحيل، ذو الشعر الرماديّ المسرّح إلى الخلف. كان فيرارو يتفحّص الكتاب المختار، يسجّل إشارة ما في الملفّ، فيخرج الأشخاص متأبّطين كتابًا أو أكثر.

نظرتُ حولي: لم أجد ليلا، ربَّما كانت قد انصرفت. تُرى ما الذي كان يأتي بها إلى هناك؟ فهي لم تعد تتردَّد إلى أيّ مدرسة، وكانت مولعة بالأحذية الجيِّدة والرديئة؛ ومع هذا، كانت تأتي إلى ذلك المكان لتستعير الكتب، دون أن تخبرني شيئًا بهذا الخصوص. هل كان المكان يعجبها؟ ولماذا لم تدعُني لمرافقتها؟ لماذا تركتني مع كارميلَّا؟ لماذا كانت تحدّثني عن صبغ أسفل الأحذية، وتخفي عنِّي ما تقرأ؟

غضبتُ وانصرفتُ.

ولفترةٍ ما، بات الدوام المدرسيّ يبدو لي عديم الجدوى، أكثر من المعتاد. ثم غرقتُ في كمِّيَّة الواجبات والمذاكرات آخر العام، وخشيت النتائج المتدنِّية، لذا كنت أدرس كثيرًا رغم شرودي. وعلاوة على ذلك، اجتاحني قلقٌ من نوع آخر. إذ قالت لي أمِّي إنّ صدري الكبير يوحي بعدم الحشمة، واصطحبتني معها لشراء حمّالة صدر. كانت أكثر عبوسًا وتجهّمًا، وتبدو كأنَّها شعرتْ بالعار من نهديّ البارزين ومن دورتي الشهريَّة. وجَّهتْ إليّ تعليماتٍ قاسية، على عجل،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وغير كافية، كأنَّها غمغمات. وما إن أحاول أن أطرح عليها بعض الأسئلة حتى تدير لي ظهرها، وتبتعد بخطوتها العرجاء.

وساء الوضع مع حمّالة الصدر التي جعلتْ من نهديّ أكثر بروزًا. في آخر أشهر المدرسة، راح الذكور يضايقونني، وأدركتُ السبب في حينها. إذ أشاع جينو ورفاقه أنَّني كنت أعرض مفاتن جسدي بلا مشكلة، فأخذ الذكور يأتونني بين الفينة والأخرى، ويطلبون منّي إعادة ذلك العرض. كنت أهرب وأشبك ذراعيّ على صدري، وأشعر أنَّني متَّهمة بجرم مبهم، وما من أحد يشدّ من أزري. وصل الإلحاح بهم للحاق بي إلى الشارع، والفناء أيضًا. وكانوا يضحكون، ويسخرون منّي. حاولتُ أن أبعدهم مرَّة أو اثنتين بوسائل ليلا، لكنّني لم أنفِّذها بشكل صحيح، وفقدتُ القدرة على المقاومة، فانفجرت باكية. وهكذا، حجزتُ نفسي في البيت، خوفًا من اعتداءاتهم. كنت أدرس كثيرًا، ولا أخرج سوى للذهاب إلى المدرسة، على مضض.

ذات صباحٍ من شهر مايو، لحق بي جينو وسألني، دون تكبُّر، بل كان مضطربًا، إن كنت أرغب في الارتباط به. فأجبته بكلَّا، بسبب النقمة أو الانتقام أو الحياء، وكنت فخورة عمومًا بأنّ ابن الصيدلانيّ يطلب منّي الارتباط. عاود الطلب في اليوم اللاحق، ولم يكفّ حتى يونيو، حين أجريت المناولة الأولى، بتأخيرٍ مردّه حياة آبائنا المعقَّدة، وارتدينا تلك الفساتين البيضاء كأنَّنا مجموعة من العرائس.

وبعدها، جلسنا في باحة الكنيسة، بفساتيننا، لنرتكب خطيئة الحديث عن الحبّ فورًا. لم تكن كارميلَّا تصدّق أنّني رفضت عرض ابن الصيدلانيّ، وأخبرتُ ليلا بهذا. فأذهلتني الأخيرة باهتمامها بالأمر، بدل أن تبتعد كالعادة قائلة: وما همّني. تحدَّثنا نحن الثلاثة بالموضوع.

«لماذا ترفضين طلبه؟» سألتني ليلا بالعامِّيَّة.

فأجبتها فجأة باللغة الفصحى، كي أُذهلها، كي أجعلها تُدرك أنَّه لا ينبغي أن تعاملني مثل كارميلّا، حتى لو كنت أقضي الوقت في التفكير بالشبّان:

«لأنّني لست متأكِّدة من مشاعري».

كنت قد قرأتُ هذه الجملة في مجلّة «حلم»، وبدا لي أنّ ليلا استغربت. ثم خضنا نقاشًا، يشبه مسابقات المرحلة الابتدائيَّة، ترتقي لغته إلى مفردات القصص المصوَّرة والكتب، ما جعل كارميلّا تكتفي بدور المستمع فقط. ألهبت تلك اللحظات قلبي وعقلي: أنا وليلا نتحدَّث بتلك الكلمات الرفيعة. كان نقاشًا جميلاً، ولم يحدث لي أنَّني تحدَّثت إلى أحدٍ هكذا في المدرسة المتوسِّطة، لا مع التلاميذ ولا مع المعلِّمين. ومن حديثٍ لآخر، أقنعتني ليلا أنّنا في الحبِّ نحصل على القليل من الأمان إذا أخضعنا الشابّ لامتحانات صعبة جدًّا. عدنا إلى الحديث بالعامِّيَّة بغتة، ونصحتني بأن أرتبط بجينو، شرط أن يشتري المثلَّجات، طوال الصيف، لي ولها ولكارميلّا.

«إن لم يوافق على شرط كهذا، فهذا يعني أنَّه ليس حبًّا حقيقيًّا».

فعلتُ ما أوصتني به ليلا، فاختفى جينو. لم يكن حبًّا حقيقيًّا إذن، ولم أتألَّم رغم هذا. لكنّني حصلتُ على متعة مكثَّفة جرّاء تبادل الأفكار مع ليلا، ما جعلني أفكِّر في أن أكرِّس جلّ وقتي لها، لا سيّما خلال الصيف المليء بالوقت الفارغ. كنت أرغب أن يكون ذلك النقاش أنموذجًا للقاءاتنا القادمة كلّها. شعرت أنّني متفوِّقة مجدَّدًا، كما لو أنّ شيئًا ما اصطدم برأسي فأخرج منه أبدع الصور والكلمات.

لكنّني لم أحصل على النتائج التي كنت أنتظرها. بدل أن يوطّد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك النقاش علاقتي بليلا، ويجعلها محصورة بيني وبينها فقط، دعا كثيرًا من الفتيات حولها. فكارميلّا بيلوزو، بعد أن تأثّرت بالنقاش ونصيحة ليلا وتداعياتها، راحت تقصّ ما جرى على جميع البنات. فكانت النتيجة أنّ ابنة الإسكافيّ، التي لم يبرز نهداها بعد، ولا تعرف ما معنى الدورة الشهريَّة، ولم تتلقّ أيّ مصارحة بالحبّ من أحد، باتت، في غضون أيَّام، أفضل مستشار موثوق يُقدِّم النصائح عن الهوى ومسائل الغرام. وأذهلتني مجدَّدًا بأنَّها قبلت هذا المنصب. وحين لا تكون منهمكة في البيت أو المحلّ، كنت أجدها تثرثر مع هذه تارة ومع تلك تارة أخرى. كنت أمرّ بجانبها، وأحيِّيها، لكنَّها من شدّة التركيز لا تنتبه لتحيَّتي. وكنت أسمع عباراتها الأخّاذة، وأعاني منها.

٦

وجاءتني الأيَّام العصيبة بمذلّةٍ كان عليّ أن أتوقَّعها، لكنّني تظاهرتُ بأنَّها ليست ذات معنى: ألفونسو كارّاتشي نجح بمعدّل ثمانية، جيليولا سبانيولو نجحت بمعدّل سبعة.. وأنا نجحت في جميع الموادّ بمعدّل ستَّة، وعلامة أربعة باللاتينيَّة؛ رسبتُ بهذه المادَّة الوحيدة، وكان عليّ أن أُعيد الامتحان في سبتمبر.

وحينها، كان والدي من قال إنّه من غير المجدي أن أتابع الدراسة. فأسعار الكتب المدرسيَّة باهظة أساسًا. قاموس اللاتينيَّة، كامبانيني كاربوني، كان غالي الثمن حتى لو اشتريناه مستعملاً. لم يكن لديه ما يكفي لدفع نفقات الدروس الخصوصيَّة في الصيف. ثم بات واضحًا أنّني لستُ مجتهدة: ابن الدون آخيل الأصغر نجح وأنا لم أنجح، ابنة سبانيولو صانع الحلويات نجحت وأنا لم أنجح. عليّ أن أستسلم.

بكيتُ ليل نهار، ورحتُ لا أهتمّ بمظهري عمدًا. كنت الابنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكبرى، وبعدي صبيّان وأنثى أخرى، إيليزا الصغيرة. كان بيبي وجانّي، الذكران، يتناوبان على مواساتي ويحملان إليّ بعض الفواكه تارة، ويطلبان منّي اللعب معهما تارة أخرى. لكنّني كنت أشعر بالوحدة رغم هذا، وأنّ مصيرًا أسود ينتظرني ولم أنعم بالراحة. إلى أن أحسستُ ذات مساء بخطوات أمّي تتقدّم خلف ظهري. قالت بالعاميَّة، بنبرتها الحادّة:

«ليس بمقدورنا أن ندفع ثمن الدروس الخصوصيَّة، ولكنَّك قد تجرّبين الدراسة بمفردك، لعلّك تجتازين هذا الامتحان». نظرت إليها مستغربة. كان مظهرها نفسه، لم يتغيَّر: الشعر المنفوش، العين الراقصة، الأنف الضخم، الجسد الثقيل. أضافت: «ليس مكتوبًا عليك أنّك ستخفقين».

اكتفتْ بهذا القول، أو هذا ما أذكره على الأقلّ. وبدأتُ أدرس ابتداءً من اليوم التالي، وفرضتُ على نفسي عدم الذهاب إلى الفناء أو الحديقة الصغرى.

ولكنّني، ذات صباح، سمعتُ أحدًا يناديني. إنَّها ليلا، وقد أقلعتْ عن هذه العادة كليًّا منذ أن أنهينا المرحلة الابتدائيَّة.

«لينووو» كانت تناديني.

أطللتُ برأسي.

«ماذا هناك؟»

«انزلي».

نزلتُ على مضض، لم أكن أرغب في أن أعترف لها برسوبي. تمشَّينا قليلاً في الفناء، تحت الشمس. سألتها بفتور عن آخر أخبار الغرام. أذكر أنَّني سألتها مباشرة عن تطوُّرات الوضع بين كارميلّا وألفونسو.

«أيّ تطوُّرات؟»

«هي تكنّ له المودّة».

احتدّت نظرتها. حين كانت تحدّق بتلك النظرة الجدِّيّة، دون ابتسامة، وتجعل من عينيها ثقبين صغيرين يسمحان لها بتركيز النظر، كانت تذكِّرني بالطيور الجارحة، إذ شاهدت فيلمًا عنها في سينما الكنيسة. ولكنَّها بدت حينذاك كأنَّها تحدِّد شيئًا ما يغضبها ويخيفها أيضًا.

«هل قالت لك شيئًا عن والدها؟» سألتني.

«قالت إنَّه بريء».

«ومن القاتل إذن؟»

«كائنٌ نصفه ذكر ونصفه أنثى، يختبئ في الصرف ويخرج من المجاري كالفئران».

«صحيح إذن»! قالت بتعبير استياء مفاجئ، وأضافت إنّ كارميلّا تصدّق أيّ شيء تقوله لها، وكلّ فتيات الحيّ يفعلن هكذا. «لم أعد أطيق الحديث إليها، لم أعد أريد الحديث إلى أحد» غمغمت باستياء، لكنَّها لم تقل ذلك بازدراء، ويبدو أنَّها لا تشعر بالسموّ في تفوّقها علينا. لذا، لم أفهم بادئ الأمر؛ لو كنت مكانها لشعرتُ بالكبر، فإذا هي تنمّ عن ضيق ممزوج بالخوف من المسؤوليَّة.

«جميلٌ أن نتحدَّث إلى الآخرين»، قلت لها.

«أجل. شرط أن يكون هنالك من يجيب».

شعرتُ بالفرح يلفح قلبي. ما الذي كانت تقصد بتلك الجملة البديعة؟ هل كانت تنوّه أنَّها تفضّل الحديث إليّ فقط، لأنّني لا أصدّق كلّ ما تتفوَّه به، بل أردّ عليها؟ هل كانت تقول لي إنّني، أنا وحدي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من يفهم الأفكار التي تمرّ في رأسها؟

أجل. وكانت تعرب عن هذا بنبرة غير معهودة، ضعيفة رغم حدّتها المعتادة. قصّت عليّ أنَّه في إحدى الروايات، أو أحد الأفلام، تقع ابنة المجرم في غرام ابن الضحيّة. وكان هذا احتمالاً واردًا: ولكي يصبح أمرًا واقعًا، لا بدّ أن يولد حبّ حقيقيّ. لكنّ كارميلّا لم تفهم، وراحت في اليوم اللاحق تقول للأخريات إنَّها مغرمة بألفونسو، وتكذب كي تتفاخر بنفسها أمامهنّ، ومن يدري ما كانت تداعيات ذلك! تمعّنَّا في الموضوع. كنَّا في سنّ الاثني عشر عامًا، ونتمشّى في دروب الحيّ الملتهبة، بين الغبار والذباب الذي تخلّفه الشاحنات القديمة وراءنا، كأنَّنا عجوزين يستدركان حياتهما المليئة بخيبات الأمل، فتشدّ الواحدة من عزم الأخرى. كنت أفكِّر في أنّ أحدًا لا يفهمنا، وأنّنا، نحن الاثنتين فقط، من تفهم الواحدة ما يدور في ذهن الأخرى. نحن الاثنتين فقط، كنَّا نعرف أنّ الغمامة التي ترزح فوق الحيّ منذ الأزل، أي منذ أن وعينا على الدنيا، كانت ستبالغ في هبوطها لولا أنّ بيلوزو، النجّار سابقًا، لم يغرس سكّينه في عنق الدون آخيل، وأنّ المجرم هو الكائن الذي يسكن في مياه الصرف، وأنّ ابنة القاتل ستتزوَّج ابن الضحيَّة. ثمَّة شيء ما لا يُطاق في الأحداث والأشخاص والبنايات والشوارع، ولا يسعنا تقبّله إلّا إذا ابتكرناه ثانية كلعبة ما. لكنّ العنصر الجوهريّ هو إتقان اللعبة، وهذا ما كان حكرًا علينا، أنا وهي فقط.

سألتني حينها، دون رابط واضح، كما لو أنَّ كلّ تلك النقاشات لا يمكن لها إلّا أن تصل إلى ذلك السؤال:

«هل نحن ما نزال صديقتين؟»

«أجل».

«هلَّا أسديتِ لي معروفًا إذن؟».

كنت سأفعل لأجلها أيّ شيء في ذلك الصباح الذي شهد عودة صداقتنا: الهرب من المنزل، الهجرة من الحيّ، النوم في الأكواخ، تناول جذور الأرض، الهبوط إلى الصرف عبر المجاري، عدم العودة إلى الخلف مطلقًا، حتى لو أمطرت أو كان الطقس باردًا. لكنّ طلبها أحبطني، لأنَّني اعتبرته لا شيء. كانت ببساطة تريد أن نلتقي مرّة واحدة في اليوم، في الحديقة الصغرى، لساعةٍ إن أمكن، قبل العشاء، وأن أحمل إليها كتب اللاتينيَّة.

«لن أزعجك»، قالت.

كانت تعرف مسبقًا أنّني رسبت، وأرادت أن تذاكر معي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٧

في تلك الأعوام من المدرسة المتوسّطة، كانت أشياء كثيرة تتغيَّر أمام أعيننا، ولكن تدريجيًا، يومًا بعد يوم، حتى إنَّها لم تبدُ لنا تحوُّلاتٍ حقيقيَّة.

توسّع مقهى سولارا، وبات مكانًا لبيع الحلوى يقصده جميع أهالي الحيّ، وكان والد جيليولا سپانيولو هو صانع الحلوى الماهر؛ وفي يوم الأحد، يكتظّ المقهى بالرجال، كهولاً وشبّانًا، يشترون المعجَّنات لعائلاتهم. واشترى ابنا سيلڤيو سولارا، مارتشيلو البالغ من العمر قرابة العشرين عامًا وميكيلي الذي يصغره بقليل، سيَّارة «فيات ألف ومائة»، بيضاء وزرقاء، وكانا يتبختران بها، يوم الأحد، ذهابًا إيابًا في شوارع الحيّ.

أمّا محلّ النجارة السابق لصاحبه بيلوزو، ذاك الذي استولى عليه الدون آخيل وحوّله إلى ملحمة، فقد امتلأ بالمأكولات اللذيذة التي شغلت جزءًا من الرصيف أيضًا. وحين كنَّا نمرّ بجانبها، كنَّا نشتمّ

روائح البهار والزيتون واللحوم المقدَّدة والخبز الطازج ودهون الخنزير وشحومه، فنشعر بالجوع. وساعدت وفاة الدون آخيل، شيئًا فشيئًا، على إبعاد شبحه القاتم عن ذلك المكان وعن العائلة بأكملها. السيِّدة ماريّا، الأرملة، أصبحت تتكلَّم بنبرة رقيقة ومهذَّبة، وكانت تدير الملحمة شخصيًّا مع بينوتشا، ابنتها ذات الخمسة عشر عامًا، وستيفانو الذي أمسى رصينًا وذا نظرة جذَّابة وابتسامة رقيقة، بعدما كان فتًى شقيًّا حاول أن ينزع لسان ليلا ذات مرَّة. ازدادت أعداد زبائنهم. وكانت أمِّي أيضًا تُرسلني إليهم لشراء الحاجات، ولم يكن أبي يعترض، وذلك لأنّ ستيفانو، حين نمرّ في ضائقة، كان يسجّل كلّ الديون على دفتر ملاحظات صغير، ونسدِّدها آخر الشهر.

آسونتا، التي كانت تبيع الفواكه والخضروات في الشوارع مع زوجها نيكولا، اعتزلت العمل بسبب مرض خطير ألمّ بظهرها؛ وبعد عدَّة أشهر، كاد التهاب الرئة يغيِّب زوجها. ورغم حظّهما العاثر، فقد كان لديهما كنزٌ عظيم: آنئذٍ تكفّل العمل ابنُهما الأكبر، إنتسو، الذي كان يضربنا بالحجارة، لكنَّه لم يرث من شقاوة طفولته شيئًا، بل أصبح شابًّا محترمًا ذا بنية قويَّة وشعر أشقر مجعّد وعينين زرقاوين وصوتٍ صدّاح يروّج البضاعة. كان يقود الحصان الذي يجرّ العربة كلّ صباح، ويجول في شوارع الحيّ، غير آبهٍ بجحيم الصيف أو زمهرير الشتاء، تحت الشمس وتحت المطر. وكانت بضاعته ممتازة، وكلّ تصرّفاته توحي بالطمأنينة والنزاهة في خدمة الزبونات. كان يستخدم الميزان بمهارة؛ وتعجبني خفّته في وضع المثقال على الكفّ حتى يحقِّق التوازن الصحيح، ثم، بلمح البصر تزامنًا مع قرقعة الحديد بالحديد، يغلّف البطاطا أو الفاكهة بالكيس، ويهرع لوضعها في سلَّة السيِّدة سپانيولو أو في سلَّة ميلينا أو في سلَّة أمِّي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت المبادرات تزدهر في أرجاء الحيّ. تعاقدتْ خيّاطة شابّة مع محلّ الخياطة الذي بدأتْ كارميلّا بيلوزو العمل فيه كبائعة منذ زمن قريب؛ وتوسّع المحلّ، إذ كان يتطلّع للتحوّل إلى ورشة خياطة كبرى لأزياء السيِّدات. كما كانت الورشة، حيث يعمل أنطونيو، ابن ميلينا، تسعى لأن تصبح مصنعًا صغيرًا للمحرِّكات الآليَّة، وذلك بفضل جنتيلي غوريزيو ابن صاحب الورشة العجوز. كان كلّ شيء يتّقد بالحيويَّة، ويجنح لتغيير معالمه المميَّزة، ويتجاوز الأحقاد المتراكمة والتوتُّرات والنقاط السلبيَّة ليظهر في وجه جديد تمامًا. حتى الفسحة النقيّة والبسيطة التي كانت تحيط بنا، أنا وليلا، بينما كنّا ندرس اللاتينيَّة في الحديقة الصغرى، كانت في طور التغيّر، بما فيها النافورة والأدمة على جانب الشارع. وكانت روائح القطران تفوح باستمرارٍ مع هدير المرداس، الذي يُصدر محرِّكه دخانًا فوق العمّال عراة الصدور، أو بقمصانهم الداخليَّة، يعبّدون أرضيَّة الشارع العام، والشوارع الأخرى، بالإسفلت. حتى الألوان كانت تخضع للتغيير. كلّفوا باسكوالي، شقيق كارميلّا الأكبر، في اقتلاع النباتات عند السكَّة الحديديَّة؛ وظلّ يقتلع حتى رافق ضوضاءُ عمله أيّامَنا طويلاً: كانت النباتات ترتعش، وروائح الخضرة والخشب تنبعث منها، تمزّق الهواء، ثم تصطدم بالأرض بعد هدهدة طويلة تبدو كتنهيدة؛ بينما باسكوالي والآخرون، يقطعون ويهشّمون وينتزعون الجذور، فتضوع رائحة ما تحت الأرض فوقها. تلاشت البقعة الخضراء، وحلّ مكانها بساط مصفرّ اللون. وجد باسكوالي هذا العمل بضربة حظّ. قبل زمن قصير، قال له أحد أصدقائه إنّ بعض الرجال جاؤوا إلى مقهى سولارا بحثًا عن شبّان يقطعون أشجار ساحة في وسط نابولي ليلاً. باسكوالي الذي لم يكن يطيق سيلڤيو سولارا ولا أبناءه، كان يتردَّد إلى المقهى الذي خسر فيه

والده كلّ شيء؛ وافق على هذا العمل، لأنَّه كان مؤتمنًا على العائلة. وعاد في الفجر متعبًا للغاية، ورائحة الخشب الحيّ، والأوراق اليابسة والبحر، تنخر أنفه. فتح أمامه هذا العمل دروبًا أخرى، ونادوه لمزاولة المهمَّة ذاتها. وحينذاك، كان يرتدي قميصه الداخليّ خلف السكك الحديديَّة، وكنَّا نراه أحيانًا يتسلَّق دعامات البنايات الحديثة، التي تحمل محاور الطوابق، واحدًا فوق الآخر، يضع قبّعة على رأسه صنعها من ورق الجرائد، يأكل شطيرة النقانق والبروكولي، تحت الشمس، خلال استراحة الغداء.

كانت ليلا تغضب إن شردتُ ونظرتُ نحو باسكوالي. صُعقتُ حين اتَّضح لي أنَّها كانت تعرف الكثير عن اللغة اللاتينيَّة. كانت تعرف الأفعال، وكلّ تصاريفها. سألتُها بحذرٍ عن السبب، فارتسمتْ على وجهها ملامح الصبيّة اللئيمة التي لا تريد هدر وقتها، واعترفت بأنَّها استعارت كتاب القواعد من المكتبة العامَّة التي يديرها المعلِّم فيرارو، منذ أن دخلتُ أنا الصفّ الأوَّل المتوسِّط، ودرستْه بدافع الفضول. كانت المكتبة تشكّل لليلا منهلاً عظيمًا. وبعد أن تعمّقنا في الدردشة، تفاخرتْ بإظهار البطاقات الأربع التي كانت بحوزتها: واحدة لها والأخرى باسم رينو، والثالثة باسم والدها والرابعة باسم أمّها. وكانت تستعير كتابًا على كلّ بطاقة، أي أربعة كتب دفعة واحدة. تلتهمها التهامًا ثم تعيدها، يوم الأحد اللاحق، وتستعير أربعة كتب أخرى.

لم أسألها أبدًا عن الكتب التي قرأتها، والتي كانت تقرأها. لم يكن لدينا وقت كافٍ، وعلينا أن ندرس. كانت تستجوبني وتغضب إن لم أردّ؛ وذات مرَّة، ضربتني على ذراعي بقوَّة، بيدها الطويلة النحيلة، ولم تعتذر، بل قالت إنَّها ستضربني مجدَّدًا، وبقوَّة أكبر، إن أخطأتُ. وكان قاموس اللاتينيَّة الضخم، ذو الصفحات الكثيرة، يسحرها؛ لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن قد رأت مثله من قبل. تبحث فيه عن الكلمات باستمرار، ليست تلك التي تظهر في التمارين فحسب، بل كلمات أخرى تخطر في بالها. وتجدّد لي الواجبات بنبرة المعلِّمة أوليڤييرو. وتفرض عليّ ترجمة ثلاثين جملة يوميًّا، عشرين جملة من اللاتينيَّة إلى الإيطاليَّة وعشرًا أخرى من الإيطاليَّة إلى اللاتينيَّة. وكانت تترجم هي أيضًا، لكنْ أسرع منِّي بكثير. وفي نهاية الصيف، حين اقترب الامتحان، راقبتْ طريقتي في البحث عن الكلمات، التي لا أعرفها، في القاموس: كنت ألتقط الكلمات كما أراها في الجملة، وأسجّل المعاني الأساسيَّة. وهكذا، أبذل جهدًا قاسيًا في فهم المعنى العام. قالت لي بحذرٍ يغمره الشكّ:

«هل قالت لك المعلِّمة أن تفعلي هكذا؟»

لم تكن المعلِّمة تقول شيئًا، كانت تشير إلى التمارين ليس إلَّا. فاتّبعتُ تلك الطريقة بمفردي.

سكتت قليلاً، ثم نصحتني:

«اقرئي الجملة باللاتينيَّة أوَّلاً، ثم ابحثي عن الفعل. سيتَّضح أمامك الفاعل بحسب تصريف الفعل. ثم ابحثي عن المفعول به المباشر إن كان الفعل متعدِّيًا، وإلَّا فابحثي عن المفعول غير المباشر. جرِّبي هذه الطريقة».

جرّبتُ، فبدت لي الترجمة الآنيَّة سهلة. وفي سپتمبر، ذهبتُ إلى الامتحان. اجتزتُ الامتحان الكتابيّ دون خطأ واحد، وأجبتُ عن كلّ الأسئلة في الامتحان الشفويّ.

«من علّمك؟» سألتني المعلِّمة بدهشة.

«صديقتي».

«جامعيَّة؟»

لم أكن أعرف ما معنى تلك الكلمة، فأجبتُ بنعم.

كانت ليلا تنتظرني في الخارج تحت الظلّ. وحين خرجتُ عانقتها، وقلت لها إنّني اجتزت الامتحان بشكل جيِّد جدًّا، وسألتها إن كانت ترغب في أن ندرس معًا طوال العام التالي. بدا لي جميلاً أن أدعوها لمواصلة الدراسة، بما أنَّها هي التي اقترحت أن نلتقي للدراسة فقط؛ فهكذا أُعرب لها عن فرحي وامتناني. فانسحبتْ بطريقة توحي بالاستياء، وقالت إنَّها لم تكن تبتغي سوى معرفة هذه اللغة التي يدرسها المتميِّزون.

«وماذا بعد؟»

«فهمتُ اللاتينيَّة. هذا يكفي».

«ألا تعجبك؟»

«بلى. سأستعير كتابًا ما من المكتبة».

«باللاتينيَّة؟»

«أجل».

«ولكن علينا أن ندرس الكثير من الأشياء الأخرى».

«ادرسي أنت لأجلي، وإذا اعترضتني صعوبة ما، سأطلب مساعدتك. أمَّا الآن، فأنا لديّ ما أفعله مع أخي».

«وما هو؟»

«سأريكِ لاحقًا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٨

بدأ العام الدراسيّ مجدَّدًا، ووجدتُ نفسي أثابر في جميع الموادّ. وكنت أتلهَّف أن تطلب ليلا مساعدتي في اللاتينيَّة أو أيّ مادَّة أخرى، ولذا أعتقد أنّني لم أكن أدرس للمدرسة بقدر ما كنت أدرس لها. تفوَّقتُ في الصفّ، وأبليتُ بلاءً حسنًا أكثر من المرحلة الابتدائيَّة.

في ذلك العام نفسه، شعرتُ أنّني أتمدَّد مثل عجين البيتزا. أصبحتُ أكثر امتلاءً في الصدر والفخذين والمؤخّرة. وذات يوم أحد، كنت ذاهبة إلى الحديقة الصغرى لموعدٍ مع جيليولا سبانيولو، فاقترب منّي الأخوان سولارا بسيَّارتهما. كان مارتشيلو الأكبر على المقود، وميكيلي الأصغر يجلس بجانبه. كانا في غاية الوسامة، وشعرهما قاتم السواد وشديد اللمعان، ووجهاهما مضاءان بابتسامة صافية. لكنّني كنت معجبة بمارتشيلو أكثر، إذ كان يشبه هكتور ـ وهو مرسومٌ في النسخة المدرسيَّة من الإلياذة. رافقاني على طول الطريق، أنا على الرصيف وهما، بمحاذاته، في السيَّارة.

«هل ركبت في سيَّارة من قبل؟»

«لا».

«اصعدي إذن لنأخذك في نزهة قصيرة».

«أبي لا يوافق».

«لن نخبره بشيء. متى تتسنَّى لك الفرصة في ركوب سيَّارة كهذه؟»

أبدًا، قلت في نفسي. لكنّني ظللتُ أرفض عرضهما حتى وصلت إلى الحديقة؛ وحينها، أسرعت السيَّارة واختفت، بسرعة البرق، خلف البنايات في طور التشييد. رفضتُ العرض لأنّ أبي، لو بلغه أنّني ركبت في تلك السيَّارة، كان سيشبعني ضربًا حتى الموت، رغم طيبة قلبه وسماحة خلقه. ومن جهة أخرى، كان أخواي بيبي وجاني، رغم صغر سنّهما، سيشعران بالنقمة حتى يقتلا الأخوين سولارا، على الفور أو عندما يكبران. لم تكن ثمَّة قواعد مكتوبة، لكنّنا نعرف أنّ الأمور ستجري هكذا، وكفى. حتى الأخوان سولارا كانا يعيان ذلك، لذا كانا لطيفين معي، واكتفيا بدعوتي إلى الركوب.

لم يكونا لطيفين، منذ وقت مضى، مع آدا ابنة ميلينا كابوتشو العجوز الأرملة المجنونة التي تسبَّبت بفضيحة لآل سارّاتوري إبّان انتقالهم من الحيّ. كانت آدا قد بلغت الرابعة عشرة من العمر، وفي أيَّام الأحد، تضع أحمر الشفاه، خلسة عن والدتها، لتبدو أكثر جمالاً وشبابًا، ناهيك عن ساقيها الطويلتين والممشوقتين، وصدرها الذي يفوق صدري ضخامة. تكلَّم معها الأخوان سولارا بلهجة سوقيّة، وتجرّأ ميكيلي على الإمساك بذراعها وغصبها على ركوب السيَّارة. ثم أعادوها، بعد ساعة، إلى المكان نفسه؛ وكانت آدا تتأرجح بين مشاعر الغضب والبهجة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأى أحدُهم الشابَّين يغصبان الفتاة على ركوب السيَّارة، ونقل الخبر إلى أنطونيو، أخيها الأكبر، الميكانيكيّ في ورشة غوريزيو. كان أنطونيو عاملا ماهرًا، مهذبًا وشديد الحياء، وعلى وجهه تتَّضح آثار موت والده المبكِّر ولوثة أمه. ودون أن يقول كلمة واحدة لأصدقائه أو أقاربه، وقف قبالة مقهى سولارا لينتظر مارتشيلو وميكيلي. وحين ظهر الأخوان، واجههما باللكم والرفس دون أن يتفوَّه بحرفٍ واحد عن أسباب غضبه. وكاد يهزمهما معًا لولا تدخّل سولارا الأب وأحد العاملين في المقهى. تكالب عليه أربعة رجال حتى نزفت دماؤه، دون تدخّل المارّة أو الزبائن لمساعدته.

انقسمنا، نحن الفتيات، حول هذه الحادثة. كانت جيليولا سبانيولو وكارميلَّا بيلوزو تؤيِّدان الأخوين سولارا، لا لشيء سوى لأنَّهما شابّان وسيمان ولديهما سيَّارة «فيات ألف ومائة». أمَّا رأيي، فكان يتأرجح: كنت أنحاز للأخوين سولارا في حضور صديقتيّ، وكأنَّنا في تنافسٍ على من تعشقهما أكثر من الأخرى، لأنَّهما كانا في منتهى الجمال حقًّا، ومن المستحيل ألَّا تتخيَّل الواحدة منَّا نفسها تجلس بجوار أحدهما في تلك السيَّارة. لكنّني كنت أشعر أنَّهما تصرَّفا مع آدا بأسلوب غير لائق، وأنّ أنطونيو، رغم أنَّه لم يكن وسيمًا، ولم تكن عضلاته مفتولة مثلهما، وهما اللذان يتردَّدان إلى صالة كمال الأجسام ويرفعان الأثقال يوميًّا، فإنّه كان على قدرٍ من الشجاعة لمواجهتهما بمفرده. ولذا، كنت أُبدي بعض التحفُّظات حين تكون ليلا موجودة، وهي التي كانت تعبّر عن موقفها بحزمٍ وبسالة.

احتدم النقاش ذات مرَّة، واستعرتْ ليلا أكثر من المعتاد قائلة إنَّها، لو حدث لها ما حدث لآدا، كانت ستتصرَّف شخصيًّا مع ذينك الوقحين كي تجنِّب والدها وأخاها المشاكل. ربّما لأنَّها لم تكن قد نمت مثلنا، ولم تكن لتدرك سرّ المتعة الملفوفة بالرهبة من تلقّي

نظرات الأخوين سولارا.

«مارتشيلو وميكيلي لا ينظران إليك أساسًا»، قالت جيليولا سبانيولو.. وظنّنا أنّ ليلا ستغضب، لكنّها أجابت بجدِّيّة:

«وهذا أفضل».

كانت هزيلة كالعادة، لكنّ العنفوان يشعّ من كلّ جوانحها. كنت أنظر إلى يديها باستغراب شديد، وقد باتتا بزمنٍ قصير كيديْ رينو وفرناندو؛ غلظ جلد أناملها ومال إلى الاصفرار. ذلك لأنَّها كرّست نفسها لبعض الأعمال، مع أنّ أحدًا لم يجبرها، فتلك لم تكن وظيفتها في المحلّ: كانت تحضّر الخيوط، وتفتق وتصمّغ وتنقش، وتستعمل عدّة أبيها مثل أخيها تقريبًا. ولهذا السبب، لم تسألني شيئًا عن اللاتينيَّة ذلك العام. بل كلّمتني، في لحظة ما، على مشروع كان ينمو في رأسها، ليس له علاقة بالكتب: كانت تحاول إقناع والدها بصنع أحذية جديدة. لكنّ فرناندو كان معارضًا قلبًا وقالبًا. وكان يقول لها: «صناعة الأحذية يدويًّا مهنة ليس لها مستقبل. فاليوم توجد الآلات والآلات تكلِّف الكثير من المال، والمال إمّا في المصارف وإمّا في حوزة المرابين، وليس في جيوب عائلة شيرولّو». لكنَّها تصرّ على موقفها وتغمره بأصفى عبارات المديح: «لا أحد يضاهيك في صناعة الأحذية يا أبي»؛ فيجيبها، بغضّ النظر عن ثنائها، أنّ المصانع تؤمّن كلّ شيء، بإنتاج ضخم وسعر منخفض، وبما أنَّه جرّب العمل في المصانع، فإنَّه يعرف سوء البضاعة التي تجتاح السوق، ولكنْ ليس باليد حيلة، فالناس لم تعد تتوجَّه إلى إسكافيّ الحيّ إذا احتاجوا إلى حذاء جديد، بل إلى محلّات الريتيفيلو؛ وبالتالي، لم يكن ليربح شيئًا إنَّما سيهدر رأسماله وجهده عبثًا، ويخسر كلّ شيء، حتى لو أراد تطبيق المهنة على أصولها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تقتنع ليلا، فراحت تستنهض أخاها كالعادة. وكان رينو مستاءً من والده، لأنَّه يسمح للطفلة بحشر أنفها في شؤون المحلّ، حيث لا كتب ولا دراسة، وكان هو أعلم منها. ثم سحرته ليلا شيئًا فشيئًا، إلى أن بات يتشاجر مع فرناندو بشكل شبه يوميّ، ويكرِّر على مسامعه ما تدسّه ليلا في رأسه.

«دعنا نحاول على الأقلّ».

«أبدًا».

«هل رأيت سيَّارة الأخوين سولارا؟ هل رأيت كيف تطوَّرت ملحمة كارّاتشي؟»

«بل رأيت أنّ الخيَّاطة، التي كانت تفكِّر في افتتاح ورشة خياطة، تخلّت عن فكرتها. ورأيت أنّ غوريزيو وسّع الورشة دون أن يحسب تداعيات ذلك، بسبب سذاجة ابنه».

«لكنّ آل سولارا يتطوَّرون دومًا».

«فكِّر بشؤونك يا رينو وانس أمر سولارا».

«الحيّ الجديد، قرب المحطَّة، يوشك على النهوض».

«وما شأننا بهذا؟»

«الناس لديهم نقود ويرغبون في الإنفاق يا أبي».

«الناس ينفقون نقودهم في شراء الطعام، لأنَّهم مجبرون على الأكل كلّ يوم. لكنّ الأحذية لا تؤكل أوّلاً؛ وثانيًا، حين تتلف بإمكانك تصليحها، فتقاوم عشرين عامًا. في الوقت الراهن، نحن نعمل في تصليح الأحذية. نقطة انتهى».

كان ذلك الفتى يدهشني بكونه لطيفًا معي، وقادرًا في الوقت نفسه على إظهار قسوته التي تفزع والده أحيانًا. ويعجبني أنَّه كان يساند أخته

في كلِّ مناسبة. كنت أحسدها على أخيها ذي الطبع الحازم، ولطالما فكّرتُ أنّ الفرق بيني وبينها هو أنّ لي إخوة صغارًا، غير قادرين على مساندتي ضدَّ أمِّي لأفعل ما يخطر في رأسي، في حين كانت ليلا تعتمد على رينو، ويدافع رينو عنها ضدّ أيّ أحد، مهما كانت الفكرة التي تجول في بالها. ورغم هذا، كنت أرى فرناندو محقًّا، فأميل إلى صفِّه. وحين ناقشتُ ليلا، اكتشفتُ أنَّها توافقني الرأي هي أيضًا.

ذات مرَّة، كانت تريني تصاميم الأحذية التي أرادت تطبيقها مع أخيها، تصاميم للذكور والإناث على حدّ سواء. كانت الرسوم، على أوراق ذي أسطر مربّعة، جميلة وغنيَّة بالتفاصيل، وألوانها في غاية الدقَّة، كما لو أنَّها تمكَّنت من تفحّص تلك الأحذية عن قرب في عالم موازٍ لعالمنا، ثم رسمتْها على الورق. لقد رسمتْها بنفسها، جملة وتفصيلاً، كما كانت ترسم الأميرات، في الابتدائيَّة؛ ورغم أنّها تصاميم لأحذية عاديَّة، فإنَّها لا تُشبه تلك التي كنَّا نراها في الحيّ، ولا تلك التي كانت في أقدام شخصيَّات القصص المصوَّرة.

«هل أعجبتكِ التصاميم؟»

«إنَّها أنيقة جدًّا».

«رينو يقول إنَّها صعبة التحقيق».

«وهل هو قادر على صنعها؟»

«إنَّه يقسم على ذلك».

«وأبوك؟»

«أبي قادر بالتأكيد».

«فاصنعوها إذن».

«أبي لا يريد».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لماذا؟»

«قال إن كانت غايتي التسلية فلا بأس، ولكن ليس لديهما وقت يضيِّعانه».

«وماذا يعني هذا؟»

«يعني أنّ من الضروريّ حيازة الوقت والمال، إذا أردنا تحقيق أفكارنا».

كانت ستطلعني على الحسابات التي قامت بها، خلسة عن رينو، لترى كم يلزمها من المال كي تصنع تلك الأحذية. ثم عدلتْ عن ذلك، وطوت الأوراق المتهالكة، وقالت إنّ من غير المجدي هدر الوقت، فوالدها على صواب.

«وما العمل إذن؟»

«علينا أن نحاول عمومًا».

«أبوك سيغضب».

«لن يتغيَّر شيء إن لم نحاول».

ما زالت تلك الفكرة تستحوذ عليها: نحن الفقيرات لا بدّ أن نصبح ثريّات، ومن لا شيء علينا أن نصل لامتلاك كلّ شيء. حاولتُ أن أذكِّرها بمشروعنا القديم، كتابة الروايات، كما فعلتْ مؤلِّفة «نساء صغيرات». كنت ما أزال متشبِّثة بتلك الفكرة، وأجتهد في اللاتينيَّة لأتمكَّن من تحقيقها؛ كما كنت على يقين أنَّها تستعير تلك الكتب، من المكتبة العامَّة التي يديرها المعلِّم فيرارو، إنَّما لتأليف رواية معي، تساعدنا على جنْيِ الأرباح، رغم كفّها عن الدراسة وانشغالها بالأحذية. لكنَّها أبدت عدم اكتراثها، على طريقتها، وأعادت «نساء صغيرات» إلى حجمها الطبيعيّ. وشرحت لي «كي نصبح ثريَّتين حقًّا

علينا أن نزاول نشاطًا تجاريًا». وهكذا، فكّرتْ أن تبدأ بصنع حذاء واحد كي تُظهر أناقته وجودته لوالدها، وحالما يقتنع فرناندو، تشرع في عمليّة الإنتاج: اليوم حذاء، أربعة غدًا، ثلاثين في الشهر، أربعمائة في السنة، وهكذا.. حتى تشيّد، في وقت قصير، مع أبيها وأمّها ورينو وإخوتها الآخرين، مصنع أحذية مجهّزًا بالآلات، وفيه خمسون عاملاً على الأقلّ: مصنع شيرولّو للأحذية.

«مصنع أحذية؟»

«أجل».

حدّثتني عن المشروع باقتناعٍ تامّ، كما كانت تفعل دومًا، بجمل فصيحةٍ ترسم أمام عينيّ لافتة المصنع: شيرولّو؛ والعلامة المطبوعة على وجوه الأحذية: شيرولّو. أحذية شيرولّو بالمطلق، تشعّ بالأناقة واللمعان، تمامًا كما تبدو في رسوماتها، ما إن ينتعلها الناس حتى يرفضوا نزعها في المساء، ويخلدوا فيها إلى النوم لشدّة ارتياحهم بها وإعجابهم بجمالها.

ضحكنا واستمتعنا.

وفجأة، تجمّدت ليلا. كأنّها شعرتْ بأنّنا نلعب كما حين كنّا صغيرتين، مع دميتيْنا، تينو ونو، قرب كوّة القبو منذ أعوام خلت. وقالت لي، كأنّ هاجسًا باغتها فاتّخذتْ ملامحُها ملامح «الطفلة العجوز» التي كانت تستولي على شخصيّتها بالمجمل:

«أتعلمين لماذا يظنّ الأخوان سولارا نفسيهما سادة الحيّ؟»

«لأنّهما متجبّران».

«لا، بل لأنّ لديهما المال».

«أهذا رأيك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«طبعًا. هل لاحظت أنَّهما لم يزعجا بينوتشا كارّاتشي أبدًا؟»

«أجل».

«وهل تعلمين لماذا تصرّفا على ذلك النحو مع آدا؟»

«لا».

«لأنَّ آدا يتيمة، تساعد أمّها في تنظيف سلالم البنايات. وأخوها أنطونيو لا يساوي شيئًا».

في النهاية، إمَّا نحصل على المال، مثل آل سولارا وأكثر، وإمَّا توجّب علينا أن نستعدّ لإلحاق الأذى بهما دفاعًا عن أنفسنا. أرتني سكِّينًا حادّة النصل، كانت قد أخذتها من محلّ والدها.

«إنَّهما لا يقتربان منِّي، لأنّني قبيحة، ولا تأتيني الدورة» قالت، «ولكن قد يقتربان منك. إن حدث هذا، أخبريني».

نظرتُ إليها باستغراب. كنَّا في الثالثة عشرة من العمر تقريبًا، ولا نعرف شيئًا عن المؤسَّسات والقوانين والعدالة. كنَّا نقلِّد، أو بالأحرى نفعل عن اقتناع، ما نسمعه ونراه حولنا منذ طفولتنا المبكرة. ألم تكن العدالة تطبّق بالعراك؟ ألم يقتل بيلوزو الدون آخيل؟ عدت إلى المنزل. أدركتُ أنَّها كانت تريد أن تكون قريبة منِّي، بحسب كلماتها الأخيرة، فسررت بذلك.

٩

اجتزت امتحان الشهادة المتوسِّطة بعلامة ثمانية في جميع الموادّ، وتسعة في اللغة الإيطاليَّة وتسعة في اللاتينيَّة. وكنت المتفوِّقة في المدرسة: أفضل من ألفونسو الذي حصل على معدّل ثمانية، وأفضل من جينو بكثير. وتلذَّذت بمتعة ذلك النصر الساحق لأيَّام طويلة. أثنى أبي عليّ كثيرًا، وتفاخر، أمام الجميع، بابنته الفتاة التي حصلت على علامات عالية في الإيطاليَّة، واللاتينيَّة على وجه الخصوص. وفوجئتُ بأمّي، وقد كانت في المطبخ واقفة عند المغسلة تنقّي الخضروات، تقول لي دون أن تستدير:

«بوسعك أن تتزيَّني بسواري الفضّيّ يوم الأحد، ولكن إيّاكِ أن تضيِّعيه».

وكانت أصداء نجاحي في الحيّ ضئيلة، فهناك لا يعلو شيء في الأهمِّيَّة عن مواضيع الغرام والارتباط. حين قلت لكارميلّا بيلوزو إنّني تفوَّقتُ على تلاميذ المدرسة برمّتهم، غيّرت مجرى الحديث، وراحت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحدّثني عن ألفونسو ونظراته التي يرميها نحوها كلّما مرّت بقربه. واستاءت جيليولا سبانيولو كثيرًا لأنَّها رسبت باللاتينيَّة والرياضيَّات، وحاولت أن تعوّض تلك الخسارة بالحديث عن جينو الذي كان يتبعها أينما ذهبت، لكنَّها لا ترغب في الارتباط به، لأنَّها كانت مغرمة بمارتشيلو سولارا، وربَّما كان الأخير يبادلها الحبّ أيضًا. وليلا أيضًا لم تبدِ سرورها بنجاحي. حين فصَّلتُ العلامات مادَّةً مادَّة، قالت لي، بنبرتها اللئيمة، وهي تضحك:

«ألم تحصلي على علامة عشرة؟»

شعرتُ بالأسف. فالعلامة التامَّة كانت تُمنح للسلوك المدرسيّ، ولم يكن المعلِّمون يمنحونها لأحد في الموادّ المهمَّة. ولكنّ هذه الجملة كانت كافية لتوضّح لي شكوكي الكامنة في أعماقي: لو كانت ليلا معي في المدرسة، لحصلتُ على علامة عشرة في جميع الموادّ. كنت أعرف هذا مسبقًا، وتعرفه هي أيضًا، وكانت حينها تعذّبني به.

عدتُ إلى البيت وأنا أتألَّم من كوني الأولى عن غير جدارة. وعلاوة على ذلك، تهامس أبواي بمصيري بعد أن حصلتُ على الشهادة المتوسِّطة. كانت أمِّي تريد أن تطلب من بائعة القرطاسيَّة أن تعيِّنني عندها كمساعدة: بالنسبة إليها، لم تكن شطارتي تتعدّى بيع أقلام الحبر والرصاص والدفاتر والكتب المدرسيَّة. وكان أبي يفكِّر في الإفادة من معارفه في البلديَّة مستقبلاً كي أدخل ذلك السلك بمنصب مرموق. انتابني حزنٌ عميقٌ لا يوصف، وتنامى، حتى لم يعد يطيب لي الخروج يوم الأحد.

لم أعد سعيدة من نفسي، كان كلّ شيء يبدو لي ضبابيًّا. كنت أنظر إلى نفسي في المرآة، فلا أرى ما أودّ رؤيته. أخذ شعري الأشقر يميل إلى اللون الكستنائيّ، وأنفي يتضخّم بغير انسجام، وجسمي يتمدَّد

عرضًا لا طولاً. حتى جلدي كان يتلف، وغالبًا ما ينتفخ جبيني، وذقني وفكّي، ببثور حمراء تتحوَّل إلى بنفسجيَّة لتضمر كحبوب صفراء. بدأتُ أساعد أمِّي طواعيَّة في تنظيف المنزل، والطبخ، وترتيب الفوضى التي يخلّفها إخوتي وراءهم، والعناية بإيليزا الصغيرة. وأثناء ذلك، لم أكن أخرج بل أتقوقع في زاوية ما، وأقرأ الروايات التي أستعيرها من المكتبة: غراتسيا ديليدا، بيرانديلو، تشيخوف، غوغول، تولستوي، دوستويفسكي. وكنت أشعر بالحاجة الملحّة إلى البحث عن ليلا في المحلّ لأناقشها في الشخصيَّات التي كنت أُعجب بها، وفي العبارات التي حفظتها عن ظهر قلب، لكنّني سرعان ما أعدل عن ذلك. كانت ستجيبني بإحدى جملها اللئيمة، أو تندفع في الحديث عن مشاريعها مع رينو، عن الأحذية ومصنع الأحذية والثراء، حتى أشعر تدريجيًّا بعدم جدوى الروايات التي أقرأها، وتنتابني التعاسة من الحياة، وتذبحني الخيبة من مصيري: بائعة قرطاسيَّة، بدينة، ووجهها مليء بالبثور، تعمل في محلّ بائس قبالة الكنيسة؛ أو ربَّما موظَّفة في البلديَّة، عانس، حولاء وعرجاء عاجلاً أم آجلاً.

خرجتُ ذات يوم أحد، وذلك بعد أن تلقَّيت رسالة، وصلت في البريد باسمي، يدعوني فيها المعلِّم فيرارو إلى المكتبة صباحًا. قرَّرتُ أن أتفاعل أخيرًا، وبذلتُ قصارى جهدي لأظهر جميلة كما كنت أظنّ نفسي منذ طفولتي. قضيتُ وقتًا طويلاً في قلع البثور حتى صار وجهي أكثر احمرارًا، لبستُ سوار أمِّي الفضّيّ، ونثرتُ شعري. لكنّني لم أكن مقتنعة بمظهري على أيّ حال. ومشيتُ بإحباط على درب المكتبة، تحت القيظ الذي كان يضيّق خناقه على حيّنا منذ الصباح، كيدٍ ثخينة تشتعل من وهج الحرارة.

وسرعان ما أدركتُ أنّ هنالك شيئًا غير طبيعيّ، حين رأيت جموع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآباء، وتلاميذ الابتدائيَّة والمتوسِّطة، تكتظّ عند المدخل الرئيس. دخلتُ. ثمَّة صفوفٌ من الكراسي المحجوزة، والشرائط الملوَّنة، والخوري والمعلِّم فيرارو ومدير المدرسة الابتدائيَّة، والمعلِّمة أوليڤييرو أيضًا. واكتشفتُ أنّ المعلِّم ابتكر فكرة بمكافأة الأشخاص الذين يتّضح من ملفّاتهم أنّهم نهمون في القراءة، وذلك بإهدائهم كتابًا ما. جلستُ في آخر الصالة حين أوشك الحفل على الافتتاح، وأجَّلت استعارة الكتب آنيًا. بحثتُ عن ليلا، لكنّني وجدتُ جيليولا سپانيولو مع جينو وألفونسو. عدّلتُ جلستي على الكرسيّ باضطراب. وبعد قليل، جاءت كارميلَّا بيلوزو وأخوها باسكوالي، وجلسا بقربي. مرحبًا، أهلاً. غطّيتُ خدَّيّ المحمرّين بجدائل شعري المنثورة.

بدأ الحفل الصغير. وكان الرابحون: رافايلا شيرولّو في المرتبة الأولى، فرناندو شيرولّو في الثانية، نونتسيا شيرولّو ثالثًا، رينو شيرولّو رابعًا، وإيلينا غريكو، أنا، خامسًا.

شعرتُ أنّني سأنفجر من الضحك، وباسكوالي أيضًا. تبادلنا نظرة، وكدنا نختنق من الضحك، بينما كانت كارميلَّا تهمس باستمرار: «علامَ تضحكان؟» لم نجبها، تبادلنا نظرة أخرى، وأغلق كلّ منا فمه بيده لكبت الضحكة. وهكذا.. حتى ارتجّت الضحكة في عينيّ، وانتابني إحساسٌ بالهناء لم أتوقّعه. وبعد أن سأل المعلِّم عبثًا إن كان أحدٌ من عائلة شيرولّو حاضرًا في الصالة، نادى باسمي، ذي المرتبة الخامسة، لأستلم مكافأتي. أعطاني فيرارو رواية «ثلاثة رجال في قارب»، لجيروم ك. جيروم، وغمرني بالتهاني. شكرته وسألته بتنهيدة:

«هل بوسعي استلام مكافآت آل شيرولّو كي أحملها إليهم؟»

أعطاني المعلِّم الكتب، جوائز آل شيرولّو. وبينما كنَّا نخرج، اتّجهت كارميلَّا إلى جيليولا وهي ناقمة عليها، لأنَّها كانت تدردش

بسرور مع ألفونسو وجينو، وقال لي باسكوالي، بالعامِّيَّة، نكاتٍ كادت تقتلني من الضحك. مثلاً، أنّ رينو كان سيفقد بصره من شدَّة القراءة، وفرناندو الإسكافيّ لا ينام الليل من شغفه بالقراءة، والسيِّدة نونتسيا تقرأ واقفة أمام الفرن بينما تطبخ الباستا بالبطاطا، تحمل الملعقة بيدٍ ورواية باليد الأخرى. قال لي أيضًا، وعيناه تدمعان من الضحك، إنَّه، في المرحلة الابتدائيَّة، تقاسم مع رينو المقعد من الصفّ نفسه؛ ورغم تعاونهما خلال ستّة أو سبعة أعوام، بما فيها الأعوام المُعادة، كانا بالكاد قادرين على قراءة: تبغ وموالح، ملحمة، بريد وبرقيَّات. وسألني حينها عن جائزة زميله السابق في المدرسة.

«بروج، المدينة الميِّتة».

«هل فيها أشباح؟»

«لا أعلم».

«هل بوسعي المجيء معك حين تسلّمينه الجائزة؟ بل هلّا سلَّمتها له بيدي؟»

انفجرنا من الضحك مجدَّدًا.

«أجل».

«رينو العزيز حاز على جائزة. يا للجنون. بينما كانت لينا هي التي تقرأ كلّ شيء. يا إلٰهي ما أروع هذه الفتاة».

أسعدني باسكوالي بيلوزو باهتمامه بالحديث إليّ، وأضحكتني طرائفه الهزليّة. ربَّما لم أكن في منتهى القبح، فكَّرتُ، ربَّما أنا لا أنظر إلى نفسي جيِّدًا.

في تلك اللحظة، سمعت أحدًا يناديني. المعلِّمة أوليڤييرو.

اتّجهتُ إليها، كانت ترمقني بنظرتها المعتادة التي تقيّم الأشياء،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقالت لي ما يكشف عن رأيها الصادق بمظهري:

«كم أنت جميلة يا عزيزتي، ها قد كبرت».

«ليس صحيحًا يا معلِّمتي».

«بل صحيح، أنت جميلة كالنجمة، مفعمة بالصحَّة والاكتناز والجمال. ومجتهدة أيضًا. عرفتُ أنَّك تفوَّقتِ في المدرسة».

«أجل».

«وماذا ستفعلين الآن؟»

«سأباشر العمل».

اكفهرّ وجهها.

«بل عليك الاستمرار في الدراسة، هذا أمرٌ غير قابل للنقاش إطلاقًا».

نظرتُ إليها مصعوقة. ما الذي كان ما يزال علينا أن ندرسه؟ لم أكن أعرف شيئًا عن النظام التعليميّ، ولا عمّا يوجد بعد الشهادة المتوسِّطة، للدقَّة. كلماتٌ كالمدرسة الثانويَّة أو الجامعة، لم يكن لها معنًى جوهريّ في نظري، ككثير من الكلمات التي تصادفني في الروايات.

«لا أستطيع. والداي لا يريدان».

«ما كانت علامتك في اللاتينيَّة؟»

«تسعة».

«حقًّا؟»

«أجل».

«دعي الأمر لي إذن. سأفاتح والديك بنفسي».

أعترف أنّني كنت على وشك الانصراف مذعورة بعض الشيء. لو تحدّثت المعلِّمة حقًّا مع أبي وأمّي لتقنعهم بمواصلة دراستي، لاندلع شجار جديدٌ لم أكن أرغب في مواجهته. كنت سأتقبّل الأمور كما هي: أساعد أمّي في المنزل، وأعمل في محلّ القرطاسيّة، أتغاضى عن البثور التي تضخّ القبح في وجهي، أنعم بالعافية، والاكتناز والجمال، كما قالت أوليڤييرو، وأكدح ضدّ الشقاء. ألم تكن ليلا تعيش هكذا منذ ما لا يقلّ عن ثلاثة أعوام، بصرف النظر عن جموح أحلامها التي تلائم ابنة وأخت إسكافيّ ما؟

«شكرًا يا معلّمتي»، قلتُ «إلى اللقاء».

لكنّها أمسكت بذراعي.

«لا تهدري وقتك مع ذاك»، أشارت إلى باسكوالي الذي كان ينتظرني. «إنّه عامل بناء، ولن يذهب أبعد من هذا. ثم إنّه سليل عائلة سيِّئة السمعة، أبوه شيوعيّ وقد قتل الدون آخيل. لا أريد أن أراك معه مطلقًا، فهو شيوعيّ كأبيه حتمًا».

أومأتُ بنعم، وابتعدتُ دون أن أحيّي باسكوالي الذي تسمّر في مكانه، ثم سررتُ بأنّه كان يتبعني على بعد عشر خطوات. لم يكن شابًّا وسيمًا، ولكنّني أنا أيضًا لم أعد فتاة جميلة. كان شعره مجعّدًا وأسود اللون، جلده أسمر بسبب الشمس، وفمه عريض. وكان ابن قاتل، وربّما يكون شيوعيًّا أيضًا.

قلّبت تلك الكلمة في رأسي، «شيوعيّ». بالنسبة إليّ كانت كلمة بلا معنى، لكنّ المعلِّمة سرعان ما صبغتها بطابعٍ سلبيّ. شيوعيّ، شيوعيّ، شيوعيّ. يا للهول. شيوعيّ وابن قاتل.

وحالما انعطفتُ عند التقاطع، جاءني باسكوالي. مشينا الطريق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معًا حتى أمتار قليلة من المنزل، وضحكنا ثانية، وتواعدنا لليوم التالي كي نذهب إلى محلّ الإسكافيّ ونسلِّم الهدايا لليلا ورينو. قبل أن نفترق، قال لي إنّه سيذهب الأحد القادم بصحبة أخته، وكلّ من يشاء، إلى بيت جيليولا ليتعلّموا الرقص. سألني إن كنت أودّ المجيء، مع ليلا مثلاً. تردَّدتُ في الإجابة، إذ كنت أعلم مسبقًا أنّ أمّي لن تسمح لي بالذهاب أبدًا إلى هناك. لكنّني قلت عمومًا: حسنًا، سأفكّر في الأمر. وحينها، مدّ يده إليّ، ولم أكن معتادة على مصافحةٍ من هذا النوع. ارتبكتُ، وبالكاد لامستُ يده المتينة والغليظة، وانسحبتُ.

«هل ما تزال تعمل في البناء؟» سألته مع أنّني كنت أعرف الجواب.

«نعم».

«وهل أنت شيوعيّ؟»

نظر إليّ مرتبكًا.

«أجل».

«وتذهب لزيارة أبيك في بوجوريالي؟»

اتَّخذ نبرة جدِّيّة:

«متى استطعت».

«وداعًا».

«وداعًا».

١٠

حضرت المعلِّمة أوليڤييرو إلى منزلنا، عصر ذلك اليوم نفسه، دون إيعاز مسبق، لتسبِّب القلق الكبير لوالدي، ولتؤلِّب قسوة أمِّي. أرغمتهما على القَسَم بأنَّهما سيسمحان لي بالتسجيل في أقرب ثانويّة أدبيّة. وعرضت خدماتها في تأمين الكتب التي سأحتاج إليها. وقالت لأبي، وهي ترمقني بحزم، إنَّها رأتني وحيدة مع باسكوالي بيلوزو، وهذه صحبةٌ لا تناسبني أنا صاحبة الطموحات الباهرة.

لم يجرؤ والداي على معارضتها. وأقسما لها بحفاوة أنَّهما سيسِّجلانني في المرحلة الأولى من الثانويّة، وقال أبي غاضبًا: «إيَّاك أن تتحدَّثي إلى باسكوالي بيلوزو يا لينوتشا». وقبل أن تنصرف المعلِّمة، سألتني عن ليلا، بحضور والديّ دومًا. وفوجئتْ بأنَّها كانت تساعد أباها وأخاها، وتنظِّم الحسابات وشؤون المحلّ. تنهَّدتْ مستاءة وسألتني:

«هل تعلم أنّكِ نلت درجة عالية باللاتينيَّة؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أومأتُ بنعم.

«قولي لها إنَّك ستدرسين الإغريقيَّة أيضًا. قولي لها ذلك».

وانصرفتْ مرفوعة الهامة.

«هذه الفتاة ستحقِّق نجاحاتٍ كبيرة»، هتفتْ.

في المساء نفسه، كانت أمِّي غاضبة لأنَّها سترسلني عنوة إلى مدرسة الأكابر، كي لا تصبّ أوليڤييرو جامّ غضبها على إيليزا الصغيرة، وتعمد إلى ترسيبها انتقامًا، فيما كان والدي يتوعّدني ببتر ساقيّ الاثنتين إذا عرف أنّني قابلتُ باسكوالي بيلوزو، وكأنّ هذه هي المشكلة الأساسيَّة. وفجأة، سمعنا صياحًا عاليًا قطع كلامنا. كانت آدا، ابنة ميلينا، تطلب النجدة.

هرعنا إلى النوافذ لنسمع الضوضاء تملأ الفناء. كانت ميلينا، بعد انتقال سارّاتوري، قد تصرَّفت على نحو جيِّدٍ نوعًا ما، لا شكّ أنَّها ظلَّت تعيسة وشاردة بعض الشيء، لكنّ غرائبها باتت نادرة وسطحيَّة في الواقع، كأن تغنِّي بصوت مرتفع وهي تنظِّف سلالم البنايات، أو ترمي سطول المياه القذرة إلى الطريق دون أن تنتبه إلى المارَّة. ورغم هذا، كانت حينذاك تمرّ بنوبة جنون جديدة. شيءٌ ما يشبه جنون السعادة. كانت تضحك، وتقفز على سريرها في البيت، وترفع تنُّورتها لتظهر سروالها وفخذيها الهزيلين على مرأى أبنائها المذعورين. هذا ما فهمته أمِّي، إذ سألت، عبر النافذة، النسوة اللواتي أطللن برؤوسهنّ من النوافذ أيضًا. رأيتُ نونتسيا شيرولّو وليلا يهرعان لرؤية ما الذي يقع، وحاولتُ أن أصل إلى الباب كي أذهب إليهما، لكنَّ أمِّي منعتني. رتّبتْ شعرها وذهبتْ، بخطوتها العرجاء، لتقييم الحالة بنفسها.

عادت مستاءة جدًّا. كان أحدٌ ما قد أرسل إلى ميلينا كتابًا.

أجل، أجل، كتاب. إلى ميلينا التي بالكاد وصلت إلى الصفّ الثاني الابتدائي، ولم تكن قد قرأت كتابًا واحدًا في حياتها. وكان غلاف الكتاب يحمل اسم دوناتو سارّاتوري. وفي الصفحة الأولى، ثمَّة إهداء بخطّ اليد إلى ميلينا، فضلاً عن الإشارة، بالحبر الأحمر، إلى القصائد التي كتبها خصِّيصًا لأجلها.

وعندما سمع والدي هذا الخبر الغريب، شتم عاملَ القطار ـ الشاعر بأقذع الشتائم. وقالت أمِّي أن لا بدّ من فاعل خير يأخذ على عاتقه قطع رأس ذلك الرجل الحقير. وبقينا طوال الليل نسمع ميلينا وهي تغنِّي من هول السعادة، سمعنا أصوات أبنائها، ولا سيّما أنطونيو وآدا اللذين حاولا أن يهدِّئا من روعها، ولكن هيهات.

أمَّا أنا، فكنت مصدومة من ذلك اليوم العجيب. إذ حزت على اهتمام شابّ غامض مثل باسكوالي، وانفتحت أمامي أبواب مدرسة جديدة، واكتشفتُ أنّ شخصًا ما، كان يسكن الحيّ في وقتٍ مضى، في بنايتنا بالضبط، قد أصدر كتابًا. أظهر لي الأمر الأخير صواب فكرة ليلا بأنَّنا قد نؤلِّف كتابًا نحن أيضًا. لقد تخلّتْ عن فكرتها بالتأكيد، ولكنّني كنت سأستطيع تأليف كتابٍ بمفردي، كما فعل سارّاتوري، إن التحقتُ بتلك المدرسة الصعبة، التي يسمّونها بالثانويَّة، وإن أسعدني باسكوالي في حال وقعنا في الغرام. ومن يدري، إن سار كلّ شيء على ما يرام، فقد أصبح ثريَّة قبل ليلا صاحبة تصاميم الأحذية وحلم المصنع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١١

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى موعدي مع باسكوالي بيلوزو خلسة. وصل منهكًا، يتصبَّب عرقًا، ويرتدي ثياب العمل المتّسخة بالجصّ الأبيض. قصصتُ عليه، في الشارع، حكاية دوناتو وميلينا. قلت له إنّ ما حدث برهانٌ على أنّ ميلينا لم تكن مجنونة، وأنّ دوناتو كان وما زال يعشقها حقًّا. ولكنّني لاحظتُ حينها، بينما كنت أتحدَّث وباسكوالي يُظهر تأثُّره في قصص الحبّ ليثني على رأيي، لاحظتُ أنّ أكثر ما كان يعجبني، في تلك التطوُّرات الأخيرة، هو أنّ دوناتو سارّاتوري قد أصدر كتابًا، وهذا ليس أمرًا سخيفًا. الموظَّف في السكك الحديديَّة أصبح مؤلِّفًا لكتابٍ قد يضعه المعلِّم فيرارو في المكتبة ويعرضه للإعارة. قلت لباسكوالي إنَّنا جميعًا كنَّا نعرف شخصًا ليس اعتياديًّا، ورغم رضوخه لسطوة زوجته ليديا، فإنَّه كان شاعرًا. وقد شهدنا بأعيننا ولادة حبّه المأسويّ، فيما كان يستلهم شعره من امرأة نعرفها جيِّدًا، أي ميلينا. تأثَّرتُ جدًّا بما قلت، وخفق قلبي. لكنّني أدركتُ أنّ باسكوالي لم يكن يركِّز على كلامي في هذا

الموضوع، كان يكتفي بترديد نعم، نعم، كي لا يعارضني. وفعلاً، سرعان ما راوغ، وراح يسألني عن ليلا: كيف كانت في المدرسة، وكيف كنت أراها، وكيف كانت صداقتنا؟! فأجبته بكلّ سرور، إذ كانت المرَّة الأولى التي يسألني فيها أحدهم عن علاقتي بليلا، فتحدَّثتُ بهذا الشأن بحماسٍ شديد، طوال مسيرنا. وكانت المرَّة الأولى التي بحثتُ فيها عن كلماتٍ لأصف شيئًا لم يكن عندي فيه كلامٌ جاهز؛ وشعرتُ أنّني أميل إلى غمر علاقتنا بتعبيراتٍ تصدح بالإيجابيّة والحماس.

وكنّا ما نزال في الحديث عنها حين وصلنا إلى محلّ الإسكافيّ. كان فرناندو قد ذهب إلى البيت للقيلولة، لكنّ ليلا ورينو كانا يجلسان كلٌّ بجوار الآخر، بوجهين عابسين، ينحنيان على شيء ما، وينظران إليه بتركيز. وحالما ظهرنا عليهما من خلف الباب الزجاجيّ، حتى سارعا بإخفاء ما كان تحت أبصارهما. أعطيتُ هدايا المعلِّم فيرارو لصديقتي، بينما كان باسكوالي يهزأ بصديقه، ويفتح الهديَّة قائلاً له: «وحالما تنتهي من قراءة قصَّة «بروج الميِّتة»، قل لي إذا أعجبتك كي أقرأها أنا أيضًا». ضحكا كثيرًا، وكانا يتهامسان عن «بروج» بعبارات شنيعة حتمًا. لكنّني لاحظتُ أنّ باسكوالي، وهو يمازح رينو، كان يرمي ليلا بسهام نظراته. لماذا كان ينظر إليها هكذا، ما الذي كان يبحث عنه، وما الذي كان يرى فيها؟ كانت نظراته طويلة ومكثَّفة لم تلقَ انتباه ليلا مطلقًا، بينما بدا لي أنّ رينو انتبه إليه أكثر منّي، ما دفعه إلى سحب باسكوالي خارج المحلّ، كأنَّه أراد أن يوفِّر علينا معرفة ما الذي كان يمتّعه بـ «بروج». لكنّه في الحقيقة كان مستاءً من نظرات صديقه إلى أخته.

رافقتُ ليلا إلى المستودع الخلفيّ وأنا أنظر إليها كي أفهم ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي حاز فيها على انتباه باسكوالي. بدت لي كما كانت دومًا، هزيلة، جلدًا على عظم، شاحبة. ربّما أُعجب بعينيها الواسعتين ونتوء صدرها الطفيف. وضعت الكتب بين كتبها الأخرى، وسط الأحذية القديمة وبعض الدفاتر ذات الأغلفة المتّسخة. أشرتُ لها إلى جنون ميلينا، وحاولتُ أن أُبدي فخرًا بأنّنا كنّا نعرف رجلاً أصدر لتوّه كتابًا، دوناتو سارّاتوري. غمغمتُ لها بالإيطاليّة الفصيحة: «تخيّلي، ابنه نينو كان معنا في المدرسة. تخيّلي أن يصبح آل سارّاتوري أثرياء». افتعلتْ ليلا شبه ابتسامةٍ تملأُها الشكوك.

«بهذا؟» قالت وهي تظهر لي كتاب سارّاتوري.

أعطاها الكتاب أنطونيو، نجل ميلينا، كي يبعده عن متناول أمّه وبصرها. أمسكتُ به وتفحّصته. كان يحمل «براهين الصفاء» عنوانًا، وغلافه مائل إلى الحمرة بشمس مشعّة مرسومة فوق قمم أحد الجبال. كان من المؤثّر قراءة اسمه فوق العنوان تمامًا: دوناتو سارّاتوري. فتحتُه، وقرأت الإهداء المخطوط، بصوت مرتفع: «إلى ميلينا التي ألهمتْ نشيدي. دوناتو. نابولي، ١٢ يونيو ١٩٥٨». تأثّرت جدًّا بما قرأتُ، وارتعشتْ رقبتي أسفل شعري، قلت:

«سيكون بوسع نينو شراء سيّارة أجمل من سيّارة الأخوين سولارا».

صوّبت ليلا إحدى نظراتها المركّزة، وشعرتُ أنّها تستخفّ بالكتاب الذي كنت أحمله.

«سنعلم بذلك، إن حصل»، غمغمت. «حتى الآن، لم تجلب تلك القصائد إلّا الضرر».

«لماذا؟»

«سارّاتوري لم يكن شجاعًا للذهاب إلى ميلينا شخصيًّا، فأرسل الكتاب نيابة عنه».

«أوليس هذا شيئًا جميلاً؟»

«ومن يدري. ميلينا تنتظره الآن. وإن لم يأت سارّاتوري، ستعاني أكثر ممّا عانته حتى الساعة».

يا لهذا النقاش الرائع! نظرتُ إلى جلدها ناصع البياض، ناعمًا لا يشوبه الزغب. نظرتُ إلى شفتيها، وطراوة أذنيها. أجل، فكَّرتُ، لا بدّ أنَّها تتغيَّر، ليس جسديًّا فحسب، بل وحتى في طريقتها بالتعبير. بدت لي ـ إن قلناه بكلمات يومنا هذا ـ قادرة على قول ما تفكّر فيه، وليس هذا فحسب، بل كانت تطوِّر موهبة كنت أعرفها عنها منذ طفولتها: كانت تستوعب الوقائع ثم تملأها بالشكوك بعفويَّة تامّة، وتعزِّز الواقع بتحويله إلى كلمات، وتغمره بالحيويَّة. ولكنّني انتبهتُ أيضًا إلى أنّني أشعر بالقدرة على فعل هذا، أحاول فيه وأنجح. فسررتُ جدًّا، إذ إنّ هذا ما يميّزني عن كارميلّا بيلوزو والأخريات جميعهنّ: أنا كنت أتفاعل معها في اللحظة ذاتها التي تحدِّثني فيها. يا ليديها القويّتين، يا لحركاتها الجميلة، يا لنظراتها!

ولكنّ خاطرًا سيِّئًا راودني، بينما كنت، أنا وهي، نتحدَّث عن الحبّ. اضمحلّ السرور وأدركتُ فجأة أنّني أخطأت: باسكوالي عامل البناء، الشيوعيّ، ابن القاتل، كان يرغب في مرافقتي إلى هناك ليس من أجلي، بل من أجلها، ليحظى بمناسبةٍ تمكّنه من اللقاء بها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٢

ضاقت أنفاسي وأنا أفكِّر في هذا الأمر لوهلة. قطع الشابّان حديثنا بدخولهما، واعترف باسكوالي ضاحكًا أنَّه هرب من الورشة دون أن يستأذن المسؤول، وعليه أن يعود إلى العمل بأقصى سرعة. لاحظتُ أنَّه ما زال يركِّز نظراته الطويلة نحو ليلا، كأنَّه مرغمٌ على ذلك، أو أراد أن يلمِّح لها: إنّني أغامر بالطرد من العمل لأجلك فقط. ثم قال متوجِّهًا إلى رينو:

«هل نذهب يوم الأحد جميعًا للرقص عند جيليولا؟ ستأتي لينوتشا أيضًا. هل ستأتيان أنتما معها؟»

«ما يزال الأحد بعيدًا، سنفكِّر في الأمر»، أجاب رينو.

رمى باسكوالي نظرة أخيرة إلى ليلا التي لم تعره أدنى انتباه، ثم انصرف دون أن يسألني إن كنت أودّ الذهاب معه.

شعرتُ بالانزعاج حتى كدت أنفجر من العصبيَّة. رحتُ أتلمّس وجنتيّ بأناملي، تمامًا في الناحية المليئة بالبثور الملتهبة؛ وحين انتبهتُ

إلى نفسي، توقَّفتُ عن ذلك. وبينما كان رينو يُخرج الأغراض من تحت المصطبة ـ الأغراض التي كان يعمل عليها قبل وصولنا، ويدرسها بحيرةٍ شديدة ـ حاولتُ أن أفتح موضوع الكتب وقصص الحبّ ثانية مع ليلا. بالغنا في نفخ شخصيَّة سارّاتوري، وجنون الوله الذي أشعل قلب ميلينا، وتأثير ذلك الكتاب. ما الذي كان سيقع بعدها؟ ما هي ردود الفعل التي كانت ستنتج، ليس عن قراءة الأشعار، بل عن الكتاب بحدّ ذاته، وغلافه وعنوانه، واسم وكنية الرجل الذي ألهب فؤاد المرأة من جديد؟ تكلَّمنا بشغفٍ حتى نفد صبر رينو فجأة، وصرخ فينا:

«هلَّا كففتما عن هذا؟ وأنتِ يا ليلا، تعالي لنعمل وإلَّا عاد والدنا ولن نتمكَّن من فعل شيء».

كففنا عن الحديث. ألقيتُ نظرة إلى ما كان يشغلهما: مجسَّمٌ خشبيّ مطوّقٌ بالكثير من رقائق الخشب والشرائط الجلديَّة وقطع الدباغة المحصورة بين سكاكين ودبابيس حديديَّة من أحجام متعدِّدة. قالت لي ليلا إنَّها وأخاها كانا يحاولان صنع حذاء سفريّ للرجال؛ وسرعان ما ارتبك رينو، وجعلني أقسم برأس أختي إيليزا إنّني لن أبوح بهذا السرّ لكائنٍ من كان. كانا يعملان خلسة عن فرناندو، وقد حصل رينو على تلك الجلود من أحد أصدقائه الذي يعمل في مدبغة عند جسر كازانوڤا. وكانا يكرِّسان لهذا العمل خمس دقائق في اليوم، وعشر دقائق في اليوم التالي، لأنَّه ما من وسيلة لإقناع فرناندو بمساعدتهما؛ بل كلّما طرحا عليه الموضوع استشاط غضبًا وطرد ليلا إلى البيت، وهو يصرخ بأنَّه لا يودّ رؤيتها ثانية في المحلّ، وهدّد رينو بالقتل لأنَّه عديم الاحترام، إذ فكَّر بتخطّي والده في المهنة قبل أن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظاهرتُ بالاهتمام بذلك المشروع السرِّيّ، لكنّني في الحقيقة شعرتُ بمرارة عميقة. فرغم أنّ الأخوين ائتمناني على سرّهما، وجدتُ نفسي بكلّ الأحوال أمام تجربةٍ لا تسمح لي بالمشاركة فيها مطلقًا: ليلا كانت ستحقّق أحلامها العظيمة بمفردها في هذا المجال، وأنا لن أكون إلّا شاهدة على ذلك. وتساءلتُ، بالأحرى، كيف لها أن ترافقني إلى الباب بعفويَّة، بعد أن تناقشنا بشغف عن الحبّ والشعر، لتنغمس كلّيًا في ذلك الجوّ المتوتّر من أجل حذاء؟ كان حديثنا عن سارّاتوري وميلينا رائعًا. ولم أكن أصدّق أنّها لن تشاركني القلق الذي اعتراني بشأن تلك المرأة التي تعاني من الحبّ، حتى لو غيّرت الموضوع لتخبرني عن تلك الكومة من الجلود والدبابيس. ما الذي كان يعنيني من الأحذية؟ كانت عيناي تفضحان اهتمامي بذلك العشق المهدور والمحفوف بالولع والأسرار، بتلك الأناشيد التي استحالت كتابًا؛ بل وكنت أتخيَّل نفسي مع ليلا كأنَّنا نقرأ رواية رومانسيَّة، أو كأنَّنا نشاهد فيلمًا عاطفيًّا، في المستودع الخلفيّ، وليس في سينما الكنيسة. تألَّمتُ كثيرًا لهدر تلك المشاعر الجيَّاشة؛ تألَّمتُ لأنّني كنت مرغمة على الانصراف؛ ولأنَّها كانت تفضِّل مغامرة الأحذية على نقاشاتنا؛ ولأنَّها قادرة على الاكتفاء بذاتها، بينما كنت أنا في أمسّ الحاجة إليها؛ تألَّمتُ لأنّ لديها شؤونًا تخصّها لا أستطيع اقتحامها؛ ولأنّ باسكوالي، الناضج والكبير في السنّ، كان سيبحث حتمًا عن مناسبة أخرى ليلتقي بها ويستجديها، ويحاول إقناعها بالارتباط سرًّا ليداعبها ويقبّل ثغرها، كما كنَّا نسمع عن تفاصيل الارتباط؛ تألَّمتُ لأنّها بالمحصّلة لم تكن ترى أيّ ضرورة لوجودي.

لذا، قلت لها بغتة إنّني سألتحق بالمدرسة الثانويَّة. أخبرتها بذلك، لأنّني أردتُ التخلُّص من هول تلك الأفكار التي تشعرني

بالاستبعاد، ولأنّني أردتُ إبراز أهمّيَّتي وإعلاء شأني. ورويتُ لها، وأنا أخرج من باب المحلّ، بل حين أصبحتُ على الرصيف، كيف فرضت المعلِّمة أوليڤييرو الأمر على والديّ، وأنَّها وعدتني بالحصول على الكتب المستعملة مجَّانًا. أجل، أردتُ أن أثبت لها أنّني فريدة ومميَّزة؛ وأنَّها لن تستطيع التخلِّي عنِّي، حتى لو باتت ثريّة بصناعة الأحذية مع رينو، كما لم أكن أستطيع التخلّي عنها.

نظرتْ إليّ بارتباك:

«وما هي المدرسة الثانويَّة؟» سألتْ.

«إنَّها مدرسة أهمّ وأعلى من المدرسة المتوسِّطة».

«وماذا ستفعلين هناك؟»

«سأدرس».

«ماذا ستدرسين؟»

«اللاتينيَّة».

«اللاتينيَّة فقط؟»

«والإغريقيَّة أيضًا».

«الإغريقيَّة؟»

«أجل».

ارتسمت على وجهها ملامح تعبّر عن الضياع، كأنّها استسلمتْ للسكوت.. لكنَّها في النهاية غمغمتْ، دون أيّ رابط:

«جاءتني الدورة الشهريَّة، الأسبوع الماضي».

ثم دخلتْ إلى المحلّ، مع أنّ رينو لم ينادها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٣

كانت تنزف دمًا هي أيضًا إذن. وباتت عرضة لحركات الجسم الباطنيَّة، التي اجتاحتني قبلها، ولا بدّ أن تجتاحها كزلزال عنيف يغيِّر معالمها. وبالفعل، كانت تتغيَّر. فكَّرتُ أنّ باسكوالي كان قد فطن لذلك قبلي، هو وغيره من الفتية الآخرين. وهكذا، فقدتُ الهالة التي أحاطتني بفضل الالتحاق بالمدرسة الثانويَّة. ولأيَّامٍ عديدة، انشغلتُ بالتفكير في أمر واحد لا غير: التغيّرات المجهولة التي كانت ستطرأ على ليلا. هل كانت ستصبح جميلة مثل بينوتشا كارّاتشي أو جيليولا أو كارميلَّا؟ هل كانت ستصبح قبيحة مثلي؟ عدتُ إلى المنزل، وتفحَّصتُ جسدي في المرآة. كيف كنت أبدو في الحقيقة؟ وكيف كانت هي ستبدو، عاجلاً أم آجلاً؟

بدأتُ أعتني بمظهري أكثر من السابق. في ظُهر يوم أحد، ارتديتُ فستاني الأزرق الأنيق، المكشوف عند الصدر، ووضعتُ سوار أمِّي الفضِّيّ أيضًا، بمناسبة النزهة المعتادة بين الشارع العام والحديقة الصغرى. وحين التقيتُ بليلا، غمرني شعورٌ بالتألُّق، إذ رأيتها كما

كانت تبدو كلّ يوم، بشعرها الأسود المنفوش، وثوبها المستهلك باهت الألوان. لم يكن من شيء يميِّزها عن ليلا المعهودة، الطفلة العصبيَّة والهزيلة، سوى أنَّها بدت لي تشبّ طولاً، وباتت أقصر منِّي بسنتمترٍ واحد تقريبًا. ولكن ما قيمة هذا التغيير بالمقارنة مع صدري الكبير وجسدي الذي ينمّ عن امرأة ناضجة؟

وصلنا إلى الحديقة الصغرى، عدنا إلى الخلف، ثم سرنا ثانية على درب الحديقة. كان الوقت باكرًا، ولم يزدحم الحيّ بعد بباعة البندق واللوز المحمّص والترمس، الذين يضيفون ليوم الأحد طابعًا خاصًّا. سألتني ليلا ثانية، وبحذر، عن المدرسة الثانويَّة. فأخبرتها بالقليل الذي كنت أعرفه، بعد أن نفختُه بأقصى ما يمكن. كنت أريد أن أحفّز فضولها، لأشعل فيها الرغبة في مشاركتي هذه المغامرة، من الخارج على الأقلّ. لعلَّها تشعر بأنَّها تخسر شيئًا منِّي كما كنت أخشى أن أخسر منها الكثير. كنَّا نمشي على الرصيف، أنا من جانب الشارع، أتحدَّث وهي تُصغي إليّ باهتمام.

وحينها، دنت منّا سيَّارة سولارا التي يقودها ميكيلي، ومارتشيلّو جالسٌ بجانبه. راح الأخير يقول ترّهات طريفة، ويوجِّهها لكلينا، وليس لي فحسب. يتفوّه بالعامِّيَّة عباراتٍ مثل: ما أجمل هاتين الآنستين! ألا تتعبان من السير ذهابًا وإيابًا! أودّ أن أخبركما بأنّ نابولي كبيرة جدًّا، وهي أجمل مدينة في العالم، جميلة مثلكما، تعالا واصعدا، سنأخذكما بنزهة ونُعيدكما إلى هنا بعد أقلّ من نصف ساعة.

لم يكن عليّ أن أردّ عليه، لكنّني فعلتها. بدل أن أتابع سيري كأنَّه ليس موجودًا، لا هو ولا أخوه ولا سيَّارتهما؛ بدل أن أتابع حديثي مع ليلا وأتجاهله، كي أشبع دافع الظهور كفتاة جذَّابة توشك على الالتحاق بمدرسة الأكابر، حيث سألتقي، أغلب الظنّ، بتلاميذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لديهم سيَّارة أجمل من سيَّارة سولارا؛ استدرتُ وقلت باللغة الفصيحة: «شكرًا، لكنّنا لا نستطيع».

مدّ مارتشيلُّو ذراعه. رأيت يده الثخينة والقصيرة، مع أنَّه كان شابًّا طويلاً متناسق البنيان. اجتازت يده النافذة وحطَّت على معصمي، بينما كان يقول:

«توقّف يا ميكي، ألا ترى كم جميلٌ سوار بنت البوّاب؟»

توقَّفت السيَّارة. ارتعش جلدي من ملمس أصابعه، سحبتُ ذراعي تقزُّزًا. فانفكّ السوار وهوى بين الرصيف والسيَّارة.

«يا إلٰهي. انظر ماذا فعلتَ بي»، هتفتُ وأنا أفكِّر في غضب والدتي.

«اهدئي»، قال وفتح الباب ونزل من السيَّارة. «سأصلّحه لك الآن».

كان مارتشيلو مرحًا ومحترمًا، حاول أن يمسك بمعصمي ثانية ليطمئنني، فإذ بليلا، التي كانت أقصر منه بكثير، تهبّ لتدفعه على السيَّارة، وتستلّ سكِّينها وتثبّته على عنقه.

قالت بالعاميَّة، بنبرة هادئة:

«المسها مرَّة أخرى وسترى ماذا أفعل بك».

تسمّر مارتشيلّو مذهولاً. فنزل ميكيلي من السيَّارة، وهو يقول بنبرة ساكنة:

«لن تصبك بأذى يا مارتشيلُّو، فهذه الفأرة ليست شجاعة كفاية».

«تعال»، قالت ليلا، «اقتربْ لتتأكَّد من شجاعتي».

التفّ ميكيلي حول السيَّارة، بينما رحتُ أجهش بالبكاء. كنت،

من زاويتي، أرى جيِّدًا أنّ نصل السكِّين اخترق جلد مارتشيلو، وأحدث فيه خدشًا أحمر طفيفًا. ما يزال المشهد جليًّا في ذاكرتي: كان الطقس حارًّا جدًّا، والشارع يخلو من المارّة إلَّا قليلاً، وليلا تنقضّ على مارتشيلُّو، كأنَّها رأت حشرة خبيثة على وجهه وأرادت أن تزيلها عنه. ما زلتُ أذكر، حتى الساعة، توقّعاتي المؤكّدة حينئذ: لم تكن لتتردَّد في جزّ عنقه، وهذا ما أدركه ميكيلي أيضًا.

«حسنًا يا شاطرة» قال. وبالنبرة الساكنة نفسها، كأنَّه يلهو، عاد إلى السيَّارة قائلاً: «اصعد يا مارتشيلُّو، واطلب المعذرة من الصبيّتين، فلنذهب.. هيّا».

أبعدت ليلا نصل السكِّين عن عنق مارتشيلُّو بحذر. فأرسل لها ابتسامة خجولاً، وكانت نظراته مشتَّتة.

«لحظة واحدة»، قال.

جثا على ركبتيه عند الرصيف، أمامي، كأنَّه أراد أن يطلب العفو بخنوعٍ مفرط. نبش تحت السيَّارة، أمسك بالسوار، تفحّصه وأصلحه وهو يضغط بأظفاره على الخاتم الذهبي المفكوك. قدّمه إليّ وهو ينظر نحو ليلا، وليس نحوي؛ ووجّه كلامه إليها: «المعذرة». ثم ركب قرب أخيه، وانطلقت السيَّارة كالبرق.

«لقد بكيتُ لمّا وقع السوار، وليس خوفًا منهما»، قلتُ لها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٤

تلاشت حدود الحيّ خلال ذلك الصيف، حين اصطحبني والدي معه ذات صباح بمناسبة التسجيل في المدرسة الثانويَّة. كان يريد أن أتعلَّم الطرق التي سأمشيها، والمواصلات التي ينبغي أن أستقلّها، من أجل الذهاب إلى المدرسة الجديدة في شهر أكتوبر.

وكان ذلك النهار جميلاً وصافيًا وكثير الرياح. وشعرتُ بأنّني محبوبة ومدلَّلة، وازداد والدي في عينيّ تقديرًا ومودَّة أكثر من قبل. كان ملمًّا بفضاء المدينة الرحب، ويعرف محطَّات المترو والترام والحافلات. وكان يتصرَّف في الشارع بألفة واحترام لم يكن يظهرهما في البيت مطلقًا. إذ يبادر في الحديث مع أيّ شخص، في وسائل النقل العامَّة وفي المكاتب، وينجح دومًا في التلميح إلى عمله في البلديَّة، واستطاعته على تعجيل المعاملات وفتح الأبواب.

قضينا ذلك النهار كلّه معًا، النهار الوحيد في حياتنا كلّها على ما أذكر. فرّغ وقته لأجلي، كأنَّه أراد أن ينقل إليّ بساعات قليلة كلّ

الأشياء المفيدة التي تعلّمها خلال حياته. أظهر لي ساحة غاريبالدي والمحطَّة التي كانوا يشيّدونها. بالنسبة إليه، كانت المحطَّة حديثة لدرجة أنّ اليابانيين جاؤوا من اليابان خصِّيصًا لدراسة هندستها، ولا سيّما الدعامات، وتشييد واحدة مثلها في بلادهم. لكنَّه اعترف لي أنّه يحبّ المحطَّة القديمة أكثر. ولكنْ صبرًا. فهو يرى نابولي هكذا دائمًا: تتقشَّر، تنشطر ثم تعود كما كانت، والمال يدرّ الخير والشقاء في آن واحد.

أخذني معه إلى شارع غاريبالدي، حيث تقع مدرستي الجديدة. وراح يدردش في أمانة السرّ بوداعة شديدة، إذ كان موهوبًا في إظهار خفّة ظلِّه، وهي موهبة أتقن إخفاءها في البيت والحيّ. راح يتفاخر بصحيفتي المدرسيَّة الممتازة مع الآذن بعد أن اكتشف أنَّه يعرف أحد الشهود على زواجه. وغالبًا ما سمعتُه يكرِّر: كلّ شيء على ما يرام؟ أو: سنفعل ما بوسعنا فعله. ثم أخذني إلى ساحة كارلوس الثالث، وأراني فندق الفقراء والحديقة البيئيَّة وشارع فوريا والمتحف. وأخذني إلى شارع القسطنطينيَّة وباب الفجر، ثم ساحة دانتي وشارع طليطلة. ذُهلتُ برنين تلك الأسماء، وضوضاء الزحام، والأصوات والألوان، وأجواء الاحتفال التي كانت طاغية على كلِّ شيء. أجهدتُ نفسي في حفظ ما أرى لكي أرويه فيما بعد على مسامع ليلا. أدهشني والدي بقدرته على الثرثرة مع الفرّان الذي اشترى لي من عنده قطعة بيتزا ساخنة بجبن الريكوتا، ومع بائع الفواكه الذي اشترى لي من عنده درّاقة صفراء. هل يعقل أنّ حيّنا وحده الذي يعيش أجواء العنف والتوتُّر، فيما تنعم باقي أنحاء المدينة بالسلام والرخاء؟

ثم اقتادني ليعرِّفني على المكان الذي يعمل فيه، والذي كان في ساحة البلديَّة. وهناك أيضًا، حسبما قال لي، كان كلّ شيء جديدًا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد أن قطعوا النباتات وأزالوا كلّ شيء: والآن، انظري إلى هذا الفراغ، الشيء الوحيد الذي بقي على حاله هو تلك القلعة التي بناها أنجو الفحل.. يا لجمالها! في ناپولي كلّها لا وجود إلّا لفحلين: أبيكِ وباني تلك القلعة. اتّجهنا إلى مبنى البلديَّة حيث ألقى والدي تحيَّاته على هذا وذاك، وكان جميع الموظَّفين يعرفونه. رأيته مبتهجًا مع أكثرهم، يقدِّمني إليهم وهو يكرِّر للمرَّة الألف أنّني في المدرسة، حصلت على تسع علامات في الإيطاليَّة وتسع أخرى في اللاتينيَّة. لكنَّه كان شبه أخرس مع بعضهم، لا يجيبهم سوى: أجل، حسنًا، أنتم تأمرون وأنا أنفِّذ. وفي النهاية، قال إنَّه سيريني البحر وبركان الفيزوف عن قرب.

كانت تلك لحظة خالدة. ذهبنا نحو شارع كاراتشولو، وهناك اشتدّ هبوب الرياح، وشعّت الشمس أكثر. كان الفيزوف يبدو كشكل مرسوم بالألوان المتدرِّجة، تتكوَّم أسفل سفحه أحجار المدينة البيضاء، ويقطِّعه اللون البنِّيّ لقلعة ديل أوفو، ثم البحر. وأيّ بحر. كان هائجًا جدًّا، ويضرب بشدّة، ورياحه تقطع الأنفاس وتلصق الثياب بالأجساد، وتسرق القبَّعات من على الرؤوس. وقفنا على الجانب الآخر من الشارع بصحبة مجموعة من الناس يراقبون المشهد. كانت الأمواج تتدحرج مثل براميل معدنيَّة زرقاء، وتحمل الزبد الأبيض في صفوتها، ثم تنفجر في ألف شظيَّة برَّاقة، وتبلغ الشارع لتثير إعجاب الناظرين وفزعهم. كم أَسِفْت لعدم وجود ليلا معي. وكم أذهلتني ديمومة ذلك الصخب الغاضب. كان لديّ انطباعٌ بأنّ الكثير من التفاصيل ستفوتني، مهما حاولتُ أن أتشرّب المشهد.

أَحْكَم والدي قبضته على يدي، كأنَّه خشي أن أطير بعيدًا. وفي الحقيقة، كانت لديّ رغبة في الابتعاد والتنقُّل والركض وعبور الشارع

حتى تغمرني شظايا ذلك البحر المتأجِّج. في تلك اللحظة المريعة، المليئة بالشمس والصخب، تظاهرتُ أنَّني وحيدة في هذه المدينة الجديدة، فشعرتُ أنَّني جديدة أيضًا والحياة كلّها أمامي، أواجه هيجان الأشياء المتحرِّكة، لكنّني أنتصر بالتأكيد: أنا، بل أنا وليلا، نحن الاثنتين بتلك القدرة التي لا يملكها أحد سوانا، نمتصّ كلّ الألوان معًا ـ معًا فقط ـ والأصوات والأشخاص والأشياء، ثم نسردها ونمدّها بعنفوان الحكاية.

عدتُ إلى الحيّ كما لو أنّني سافرتُ إلى بلاد بعيدة. وها هي الأزقَّة المألوفة من جديد، ها هي ملحمة ستيفانو وأخته بينوتشا، وها هو إنتسو يبيع الفواكه، وها هي سيَّارة سولارا مركونة أمام المقهى، والتي كنت سأدفع أيّ ثمن كي أراها تُمحى من على وجه الأرض. خيرًا أنّ أمِّي لم تعلم شيئًا عمّا وقع لسوارها الفضِّيّ. خيرًا أنّ أحدًا لم يخبر رينو بما حدث.

رويتُ لليلا عن الشوارع وأسمائها، عن الصخب والضوء المبهر. وسرعان ما شعرتُ بالانزعاج. لو كانت هي التي تروي قصَّة ذلك النهار، لانسجمتُ معها حتمًا؛ ولم يكن غيابي ليمنعني من التفاعل. كنت سأطرح عليها الأسئلة، وأُثير الجدل حول النقاط المهمَّة؛ كنت سأحاول أن أثبت لها أنّ من الأفضل لو قمنا بتلك الرحلة معًا، لا غنى لها عنِّي لإثراء حكايتها بالتفاصيل؛ وكانت ستفضّلني رفيقة درب أحسن من أبيها بكثير. أمّا هي، فكانت تستمع إليّ بلا فضول يشدّها، حتى ظننتُ أنَّها تفعل ذلك لؤمًا، لتثبّط من عزيمتي ليس إلَّا. وسرعان ما اقتنعتُ أنّ السبب لم يكن كذلك، إنَّما لطريقة تفكيرها الذي يتغذَّى على الأشياء الملموسة، كالكتاب والنافورة. كانت تصغي بأذنيها، لكنّ عينيها، كانتا ترسوان على الشارع ونباتات الحديقة القليلة، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جيليولا التي تتنزَّه مع ألفونسو وكارميلّا، على باسكوالي الذي يحيينا من على الرافعة، على ميلينا التي تتحدَّث عن دوناتو سارّاتوري بصوت مرتفع، بينما تحاول آدا أن تجرّها إلى المنزل، على ستيفانو، ابن الدون آخيل، الذي اشترى لتوّه سيَّارة عائليَّة وأمّه جالسة بجانبه وأخته بينوتشا في المقعد الخلفيّ، على ابنيْ سولارا اللذين كانا يمرّان بسيَّارتهما، وفيما يتظاهر ميكيلي بأنَّه يتجاهلنا، كان مارتشيلُّو يرسل إلينا نظرة ودّ. كانت تفكِّر خصوصًا في المشروع السرِّيّ الذي سينجب مشروع مصنع الأحذية. لم تكن قصَّتي، بالنسبة إليها، سوى مجموعة من الإشارات والأماكن التي لا طائل من ورائها. كانت ستنشغل بهذه الأجواء، حينما تسنح لها الفرصة بالتجوُّل فيها فقط. وفعلاً، بعد أن ثرثرتُ كثيرًا، اكتفت بالقول:

«عليّ أن أخبر رينو بأنّه لا بدّ لنا من قبول دعوة باسكوالي بيلوزو».

هكذا إذن. أنا كنت أروي لها عن مركز مدينة نابولي، وهي كانت تجعل من بيت جيليولا مركزًا لأفكارها، مجرّد بيت يقع في إحدى بنايات الحيّ، حيث أراد باسكوالي أن يدعونا للرقص فيه. أسفتُ كثيرًا. كنَّا نقبل دومًا دعوات بيلوزو، لكنّنا لم نذهب ولا لمرَّة واحدة. أنا، تجنُّبًا للصدام مع والديّ؛ وليلا، لأنّ رينو لا يوافق. وغالبًا ما كنَّا نتجسَّس على باسكوالي، في أيَّام العطل، بينما كان ينتظر أصدقاءه، الكبار والصغار، بكامل نظافته. كان شابًّا سخيًّا، لا يميّز بين الأعمار، يصطحب أيًّا كان. وغالبًا ما ينتظر قبالة محطَّة الوقود حتى يصل، واحدًا تلو الآخر، إنتسو وجيليولا وكارميلّا ـ التي باتت تسمّي نفسها كارمن ـ وأحيانًا رينو أيضًا، وأنطونيو إذا استطاع التملُّص من عبء والدته، وإن كانت ميلينا تنعم بالسكينة، تأتي أخته آدا أيضًا،

تلك التي جرّها الأخوان سولارا إلى سيّارتهما وأخذاها لساعة من الزمن لا أحد يدري إلى أين. حين يكون النهار صافيًا يتّجهون إلى البحر، ويعودون بوجوه حمّرتها الشمس. أو يجتمعون كلُّهم عند جيليولا، وهذا ما كان يحدث غالبًا، لأنّ والديها كانا مضيافين أكثر من كلّ آبائنا، وهناك يرقص من يعرف الرقص، ويتعلَّم الآخرون.

بدأت ليلا تأخذني معها إلى تلك الحفلات الصغيرة، ولا أعلم كيف استحوذ الرقص على اهتمامها. برز باسكوالي ورينو فجأة كراقصين خبيرين، وعلّمانا التانغو والفالس والبولكا والمارسوكا. وعليّ أن أقول بأنّ رينو لم يكن خير معلّم، إذ كان سريع الغضب لا سيّما مع أخته، بينما كان باسكوالي معلِّمًا صبورًا. في البدء، درّبنا على الرقص ونحن نقف على قدميه كي نتعلَّم الخطوات بشكل جيِّد. وحالما نَمَت خبرتنا، رحنا نطوف في أرجاء البيت رقصًا.

اكتشفتُ أنّ الرقص يعجبني كثيرًا، ووددتُ لو أرقص دومًا. أمَّا ليلا، فكانت ترى الحالة بعين من يريد إتقان الأمر بشكل تامّ، وبدا أنّ متعتها بالرقص تتركَّز على تعلُّم الرقص أوّلاً وأخيرًا، حتى إنَّها كانت غالبًا ما تكتفي بالجلوس لتنظر إلينا وتدرس حركاتنا، وتصفِّق للثنائيّ الأكثر اندماجًا. ذات مرَّة، ذهبتُ إلى بيتها، وأرتني كُتَيِّبًا استعارته من المكتبة: كان يحتوي على كلّ شيء عن الرقص وطرائقه، وكانت الحركات مبيّنة بأشكال غامقة توحي بذكر وأنثى يرقصان. كانت ليلا مرحة جدًّا في تلك الحقبة خلافًا للعادة. أمسكت بخصري فجأة، وأدّت دور الرجل، وأجبرتني على رقص التانغو وهي تدندن الألحان. أطلّ رينو برأسه، رآنا، وانفجر ضاحكًا. أراد أن يرقص هو أيضًا، معي أوّلاً ثم مع أخته، من دون موسيقى. وبينما كنّا نرقص، حكى لي أنّ ليلا مهووسة باحتراف الرقص ما يرغمها على التمرّن باستمرار، مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنَّهم لا يملكون الغراموفون. وما إن قال تلك الكلمة ـ غراموفون، غراموفون، غراموفون ـ حتى صرخت ليلا باتِّجاهي من إحدى زوايا الغرفة، وهي تضيّق حدقة عينيها:

«أتعلمين ما هذه الكلمة؟»

«لا».

«إنَّها إغريقيَّة».

نظرتُ إليها محتارة، في حين تركني رينو وانتقل ليرقص مع أخته التي صاحت بصوتها الحادّ، وأعطتني كُتَيِّب الرقص، وراحت تحوم في الغرفة مع رينو. وضعتُ الكُتَيِّب بين كتبها. ماذا قالت؟ غراموفون كلمة إيطاليَّة وليست إغريقيَّة. وأثناء ذلك، رأيتُ، تحت «الحرب والسلم»، كتابًا باليًا تنتأ منه شارة مكتبة المعلِّم فيرارو، بعنوان «قواعد اللغة الإغريقيَّة». قواعد اللغة. اللغة الإغريقيَّة. سمعتُها تعدني بصوت منهك:

«سأعلِّمكِ كيف تكتبين «غراموفون» بالأحرف الإغريقيَّة».

فقلتُ إنّ لديّ ما أفعله، وانصرفتُ.

١٥

هل بدأتْ بدراسة الإغريقيَّة قبل أن ألتحق أنا بالمدرسة الثانويَّة؟ وهل فعلتْ ذلك بمفردها، بينما لم أفكِّر في الموضوع أساسًا، خلال الصيف، أثناء العطلة؟ هل كانت تفعل ما يتوجّب عليّ فعله، قبلي وأفضل منِّي؟ هل كانت تتهرَّب منِّي حين كنت أتبعها، وفي الوقت نفسه تقفز فوقي لتجتازني؟

حاولتُ أن أكفّ عن اللقاء بها بعض الوقت، لأنّني كنت غاضبة. ذهبتُ إلى المكتبة لأستعير بدوري كتابًا عن قواعد الإغريقيَّة، ولكن لم يكن ثمَّة كتاب آخر سوى الذي استعارته ليلا، وكانت عائلة شيرولّو كلّها تتناوب على قراءته. لعلّني مرغمة على محو ليلا من ذهني كما يُمحى الرسم من على السبُّورة، قلتُ لنفسي، وكانت تلك المرَّة الأولى التي تنتابني فيها فكرة كهذه على ما أعتقد. كنت أشعر بالضعف والعجز إزاء أيّ شيء؛ لا يُعقل أنّني سأقضي الوقت كلّه في اللحاق بها، ثم أكتشف أنَّها تلحق بي، وفي كلتا الحالتين، أشعر أنَّها تسبقني بمراحل. لكنّني لم أقاوم، وسرعان ما عدت أبحث عنها. رضيتُ بأن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعلّمني رقصة الكوادريليا الجماعيَّة. رضيتُ بأن تريني مهارتها بكتابة الكلمات الإيطاليَّة بالأبجديَّة الإغريقيَّة. أرادت أن تعلّمني تلك الأبجديَّة قبل أن تفتح المدرسة أبوابها، وأجبرتني على كتابتها وقراءتها. في حين ازدادت البثور على وجهي؛ وكنت أذهب للرقص عند جيليولا بإحساس دائم بالنقص والخزي.

تمنَّيتُ أن تنقشع تلك الغمامة، لكنّ النقص والخزي لازماني. ذات مرَّة، أدّت ليلا رقصة فالس مع أخيها. كانا يرقصان بإتقان وانسجام قلّ مثيلهما، حتى إنَّنا أفسحنا لهما المجال كلَّه، ووقفتُ مسحورة أنظر إليهما. أدركتُ جيِّدًا أنَّها كانت توشك على تجاوز مظهرها الذي يوحي بالطفلة العجوز، كما يسقط لحنٌ موسيقيّ معروف أوان تأديته ببراعة خارقة. شرع جسمها يتلوّى. جبينها العالي، وعيناها الواسعتان اللتان تضيقان فجأة، وأنفها الصغير، ووجنتاها وشفتاها وأذناها، كلّ شيء فيها يبحث عن تلاؤم جديد، ويبدو قريبًا من بلوغ غايته. عندما كانت تسرّح شعرها كذيل الحصان، يبرز عنقها بنقاوة تسحر الأنظار. وبات نهداها واضحين كتفّاحتين صغيرتين متجانستين. وظهرها يهيم بانحناءة عميقة قبل أن يصل إلى قوس مؤخّرتها المثير. أمَّا قدماها فكانتا ما تزالان هزيلتيْن، كأنَّهما قدما طفلة؛ ولكنَّها لم تكن لتستغرق وقتًا طويلا كي تتّخذا شكلاً يوحي بالنضج. انتبهتُ إلى أنّ الذكور يرون فيها أكثر ممَّا أرى، وهم يتمعَّنون أطرافها بينما ترقص مع رينو. باسكوالي على وجه الخصوص، وأنطونيو وإنتسو أيضًا. كانت عيونهم مسلّطة عليها، كأنَّنا نحن الأخريات لسنا هناك. مع أنّ صدري كان أضخم. مع أنّ جيليولا كانت شقراء تبهر الأبصار، وتقاسيمها أكثر انتظامًا وساقاها نموذجيَّتيْن. مع أنّ كارميلّا لها عينان جميلتان وتتمايل بحركات أكثر إثارة. ولكن ما باليد حيلة، إذ حاز

جسد ليلا الراقص على إعجاب الذكور، وكان يشعّ عنفوانًا يغوي ألبابهم، كأنَّه أصداء معجزة تدنو إليهم رويدًا رويدًا. ولو لم تنقطع الموسيقى من تلقاء نفسها لما عاد إليهم الرشد، ورسم على وجوههم ابتسامات متوجِّسة، ودفعهم إلى التصفيق الحارّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٦

ليلا كانت شرِّيرة؛ كنت أحتفظ بهذه الفكرة في مكان عميق من نفسي. لقد أثبتت لي أنَّها قادرة بكلماتها على إلحاق الأذى، بل وعلى القتل دون تردُّد أيضًا. لكنّ هذه القدرات بدت لي عاديَّة بالمقارنة مع ما كنت أقول لنفسي: ليلا تنوي إظهار المزيد من الشرّ الذي يكمن في قلبها، ولطالما استعنتُ بكلمة «الشرّ»، مفردة تهوّل الأحداث أذكرها من أقاصيص الطفولة. ولئن كانت مخاوفي الطفوليَّة هي التي تدفعني إلى مثل تلك الأفكار، فهذا لا يعني أنَّها كانت تخلو من الحقيقة. وبالفعل، فإنّ التوتُّر المتدفِّق من حضورها لم يكن يتميَّز بالإغواء فقط، بل بالخطورة أيضًا؛ وهذا ما أخذ يتَّضح شيئًا فشيئًا على مرأى الجميع، بعدما كنت ألاحظه بمفردي منذ أن كنَّا في الصفّ الأوَّل الابتدائيّ.

قبل نهاية الصيف، بدأت الضغوطات على رينو تتضاعف، لأنَّه كان يصطحب أخته حين يذهب مع رفاقه خارج الحيّ للتنزُّه وتناول البيتزا. رينو كان يريد إحكام قبضته على ذلك المجال. بدا لي أنَّه كان

يتغيَّر هو أيضًا؛ فليلا كانت قد أخصبت مخيِّلته، ورفعت من سقف آماله. إلَّا أنّ النتيجة لم تكن بالمستوى المنشود إذا ما نظرنا إلى تصرُّفاته وأصغينا إلى كلامه. لقد أصبح أكثر غطرسة من السابق، لا يفوِّت مناسبة دون التلميح إلى براعته في العمل وثرائه الوشيك. كان يكرِّر عبارة تعجبه كثيرًا: ما إن يحالفني القليل من الحظّ حتى أتبوّل على وجوه آل سولارا. لكنّ هذا النوع من الغرور يقتضي عدم حضور ليلا طبعًا، لأنَّه كان يرتبك في وجودها، ويقول ما عنده، ثم يغيّر الموضوع برمّته. كان ينتبه إلى أنَّها ترميه بنظرة حادّة، كأنَّه ينكث عهد شرفٍ سرِّيًا أو يفسخ عقد عمل بينهما. لذا كان يفضّل أن تكون بعيدة عن مجاله، حسبه أنَّها تقبع في وجهه طيلة النهار في المحلّ. وهكذا، كان يبتعد لينفخ ريشه كالطاووس أمام أصدقائه؛ لكنَّه اضطرّ إلى الاستسلام في بعض الأحيان.

ذات يوم أحد، بعد الكثير من المجادلات مع آبائنا، خرجنا مساءً أيضًا. وقد تحدَّث رينو إلى والديّ، وتحمّل المسؤوليَّة عن سلامتي برحابة صدر. رأينا المدينة إذ تُنيرها أضواء الشارات، والشوارع المزدحمة بالناس، واشتممنا رائحة السمك النافق بسبب القيظ، وروائح الأطعمة الشهيَّة التي تنبعث من المطاعم ومحلَّات الوجبات المقليَّة والمقاهي التي تقدّم الحلويات، والتي كانت أكثر بهاءً من مقهى سولارا. لا أذكر إن كانت الفرصة قد تسنّت لليلا كي تتنزَّه في وسط المدينة، مع أخيها أو سواه؛ لكنّني على يقين من أنَّها لم تكن لتحدِّثني عن هذا، إن حصل. كلّ ما أذكره أنَّها كانت خرساء كلِّيًا في تلك المناسبة. اجتزنا ساحة غاريبالدي، بينما كانت هي تبقى خلفنا، تطيل النظر إلى ماسح الأحذية، إلى امرأة مكتنزة بفستان ملوَّن، إلى الشبّان والرجال السمر. كانت تركّز بصرها على الأشخاص باهتمام شديد،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على وجوههم مباشرة، حتى إنّ بعضهم كانوا يضحكون، وآخرين يحرِّكون أيديهم بمعنى: «ماذا تريدين؟» كنت غالبًا ما أدفعها بقوَّة، وأجرّها خلفي خشية أن نتوه عن رينو وباسكوالي وأنطونيو وكارميلّا وآدا.

ذلك المساء، ذهبنا إلى مطعم پيتزا يقع في شارع ريتيفيلو، وتناولنا الطعام بابتهاج. وبدا لي أنّ أنطونيو يميل نحوي، متجاوزًا حياءه، فسررتُ بهذا، علّه يعادل اهتمام باسكوالي بليلا. وفجأة، راح الفرّان، الذي يناهز الثلاثين عامًا، يلوّح بالپيتزا في الهواء ثم يعجنها بمهارة تفوق العادة، فيما يتبادل ابتسامات مع ليلا التي كانت تنظر إليه بإعجاب.

«كفّي عن هذا»، قال لها رينو.

«لم أفعل شيئًا» أجابته، والتفتت على مضض إلى الجانب الآخر.

وسرعان ما تعقّد الوضع. قال لنا باسكوالي ضاحكًا إنّ هذا الفرَّان ـ الذي بدا لنا، نحن الفتيات، متقدِّمًا في السنّ ما دام خاتم الخطوبة في إصبعه ولا بدّ أنَّه أبٌ لأولاد ـ أرسل قبلة مخفيّة إلى ليلا وهو ينفخ على رؤوس أنامله. فاستدرنا جميعًا لنرى؛ كان الرجل منهمكًا في عمله ليس إلَّا. لكنّ باسكوالي سأل ليلا، وهو يضحك دومًا:

«أليس صحيحًا أم أنّني أخطأتُ؟»

أطلقتْ ليلا ضحكة غنج مستفزَّة ضدّ ابتسامة باسكوالي السخيّة، وأجابت:

«لم أَرَ شيئًا».

«انسَ الأمر يا باسكوالي»، قال رينو، وأمطر أخته بنظرة شرر ملتهبة.

فما كان من بيلوزو إلَّا أن نهض، واتَّجه نحو مصطبة الفرن، التفّ حولها، بابتسامته الصافية على شفتيه، وصفع الفرّان على وجهه، فارتمى الأخير على حافَّة الفرن.

هرع صاحب المطعم، وكان رجلاً في الستِّين من عمره، قصير القامة وشاحب الوجه؛ فشرح له باسكوالي بهدوء أنَّه ما من داع للاضطراب، فهو لم يفعل شيئًا سوى أنّه قوّم السلوك الأعوج لهذا العامل وحُلّت المشكلة. أنهينا طعامنا دون كلام، بأعين منخفضة، وببطء كأنّ البيتزا مسمَّمة. وحين خرجنا، أخذ رينو ينهر ليلا بأقصى ما عنده، حتى انتهى بتهديدها: استمرّي هكذا كي لا أصحبك معي أبدًا.

ما الذي قد حدث؟ كان الذكور الذين يصادفوننا في الشارع، على اختلاف أعمارهم، شبَّانًا أم راشدين، ينظرون إلينا جميعًا، نحن الإناث الجميلات والقبيحات على حدّ سواء. كانت الأمور تجري هكذا في الحيّ وفي الخارج، حتى استوت غريزتنا، آدا وكارميلَّا وأنا ـ خصوصًا بعد المشكل مع الأخوين سولارا ـ على خفض النظر، والتظاهر بعدم سماع تلك التحرُّشات التي يتفوَّهون بها، والمضيّ قُدُمًا. أمّا ليلا فلا. صار المشي معها يوم الأحد مصدرًا للتوتّر. إذا نظر إليها أحدهم، بادلته النظرة بمثلها. إذا قال لها أحدهم شيئًا، توقَّفتْ مرتبكة كأنَّها لا تصدِّق أنَّه يتكلَّم إليها، وغالبًا ما كانت تُجيب باستغراب. وما يفوق المألوف أنَّهم كانوا يستثنونها من تلك الإهانات التي يوجِّهونها إلينا دائمًا.

ذات مساء من آخر أيَّام أغسطس، وصلنا حتى القصر البلديّ، ودخلنا إلى مقهى، لأنّ باسكوالي، الذي كان في تلك الحقبة يحسب نفسه من نبلاء إسپانيا، أراد أن يدعونا لتناول مثلَّجات السبوموني. كان هنالك عائلة تجلس أمامنا حول طاولة ما، وتتناول المثلَّجات مثلنا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبٌ وزوجته، وثلاثة أبناء ذكور تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة. ويبدو أنّهم أسرة محترمة، فهيئة الأب، الذي كان رجلاً بدينًا، في الخمسين من العمر، توحي بأنّه أستاذ جامعيّ. أجزم أنّ ليلا لم تكن تعتني بمظهرها، إذ كانت ترتدي تلك الثياب البالية التي خاطتها أمّها، ولا تضع أحمر الشفاه؛ وكنّا نحن بقيّة الإناث أكثر أبّهة منها، وخصوصًا كارميلّا. لكنّ ذلك السيِّد لم يحد نظره عن ليلا - انتبهنا جميعًا إليه هذه المرّة. وليلا، التي كانت تحاول أن تسيطر على نفسها، ردّت على نظراته، كأنّها لا تصدّق أنّها محطّ إعجاب الرجال. وفي النهاية، بينما كان الغيظ يستفحل برينو وباسكوالي وأنطونيو، نهض الرجل ووقف قبالة ليلا، دون أن يعي خطورة ما يفعل، وتوجّه بلطيف كلامه إلى الذكور، قائلاً:

«يا لسعادة حظّكم! أنتم برفقة حسناء، ستصبح أجمل من عذراء بوتيشيلي. عذرًا على الإزعاج، لكنّني قلت رأيي لزوجتي وأبنائي، وشعرتُ بضرورة أن أطلعكم عليه أنتم أيضًا».

انفجرتْ أعصاب ليلا بقهقهة مزلزلة. فابتسم الرجل بدوره، وانحنى لها باحترام، وكان على وشك العودة إلى طاولته، فإذ برينو ينقضّ على قذال الرجل، ويجرّه من الخلف على الدرب التي مشاها، ويرميه بعنف على كرسيّه؛ ثم وبّخه، أمام زوجته وأبنائه، بأشنع الإهانات التي نتبادلها في الحيّ. غضب الرجل حينذاك، وصاحت زوجته وهي تفصل بينهما، إلى أن تدخّل أنطونيو وأبعد رينو؛ وهكذا أُفسِدت نزهة أخرى كسابقاتها.

غير أنّ الأسوأ وقع ذات مرّة لم يكن رينو حاضرًا فيها. ولم يذهلني الحدث بحدّ ذاته، إنّما كثافة التوتُّر، المتدفّق من أشخاص متعدِّدين، تجاه ليلا؛ وذلك حينما نظّمت والدة جيليولا سهرة للاحتفال

بعيد اسمها (كانت تدعى روزا على ما أذكر)، وكان المدعوّون من مختلف الأعمار. وبما أنّ زوجها هو صانع الحلويّات في مقهى سولارا، فقد كانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات: من حلويّات الشيو إلى مكّعبات الراڤولي النابوليتانيَّة، ورقائق العجين المنفوش، وحلوى اللوز؛ إضافة إلى المشروبات الروحيَّة وتلك الغازيَّة للصغار؛ فضلاً عن الأسطوانات الموسيقيَّة الملائمة لكلِّ الرقصات، بدءًا بالتقليديَّة حتى آخر صرعات ذلك العصر. وحضر بعض الأشخاص الذين لم يكونوا ليأتوا إلى حفلاتنا الصغيرة، كالصيدلانيّ وزوجته وجينو ابنهما الأكبر الذي كان في طريقه إلى الثانويَّة مثلي؛ والمعلِّم فيرارو وعائلته كبيرة العدد؛ وماريًا، أرملة الدون آخيل، وابنها ألفونسو وابنتها بينوتشا التي كانت تزدهي بالألوان؛ وستيفانو أيضًا.

وكان يبدو أنّ هذه الدعوات ستحدث مشكلة بادئ الأمر، فمن الجانب الآخر ثمَّة باسكوالي وكارميلَّا بيلوزو، ابنا قاتل الدون آخيل. لكنّ الأمور سرت على ما يرام؛ فألفونسو كان فتًى محترمًا (سيلتحق بالمرحلة الثانويَّة هو أيضًا، في مدرستي ذاتها) وتجاذب أطراف الحديث مع كارميلَّا. وكانت بينوتشا مسرورة جدًّا بالذهاب إلى حفلة ما، علَّها تغيّر جوّ الملحمة التي تهبها كلّ وقتها يوميًّا؛ بينما كان ستيفانو قد أدرك في وقت مبكر أنّ التجارة مبنيَّة على الترفُّع عن المشاكل، ويعتبر كلّ سكَّان الحيّ زبائن كرام سينفقون أموالهم في محلِّه. لذا اكتفى بألَّا تلتقي نظراته بنظرات باسكوالي ولو للحظة عابرة. أمَّا ماريًا، التي اعتادت أن تُدير وجهها إلى الجانب الآخر إذا رأت السيِّدة بيلوزو، تجاهلت ابنيْ بيلوزو كلِّيًّا، وراحت تثرثر مطوَّلاً مع أمّ جيليولا. وقد فعل الرقص فعله في تهدئة النفوس سريعًا، إذ علت الضجَّة، ولم يعد أحد ينتبه إلى أيِّ شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت البداية مع الرقصات التقليديَّة، ثم جاء دور رقصة جديدة، الروك أن رول، التي أثارت فضول الجميع، صغارًا وكبارًا. شعرتُ بالحرّ، فابتعدتُ إلى زاوية ما. كنت أعرف رقصة الروك أن رول جيِّدًا، وغالبًا ما أدّيتها في منزلي مع أخي بيبي، ويوم الأحد في منزل ليلا، لكنّني كنت أشعر بأنّني بدينة لدرجة لا تسمح لي بتنفيذ تلك الحركات الرشيقة والمثيرة، ولذا قرّرتُ رغمًا عنِّي أن أكتفي بمشاهدة الراقصين. حتى ليلا لم تبدُ لي أنَّها أجادت تلك الرقصة، إذ كانت تتحرَّك بطريقة مضحكة نوعًا ما، وقد أخبرتها بذلك، فما كان منها إلَّا أن تلقّت النقد كتحدٍّ، وراحت تنكبّ على التمرين بمفردها، لأنّ رينو كان يرفض تأدية تلك الرقصة. وبما أنّها كانت تنشد الاحتراف في كلّ شيء، ارتضتْ في تلك السهرة أن تقف جانبًا، هي أيضًا، لتشاهد براعة باسكوالي وكارميلّا بيلوزو في الرقص.

ثم دنا منها إنتسو في لحظة معيَّنة. إنتسو الطفل الذي كان يرمينا بالحجارة، والذي فجّر مفاجأة في منافسة ليلا في الحساب، والذي أهداها ذات مرَّة إكليل الزعرور؛ وقد كبر على مرّ السنوات بقامة قصيرة وبنية قويَّة، لاعتياده على شقاء العمل. كان يعطي الانطباع بأنَّه أكبر حتى من رينو الذي كان أكبرنا. كان واضحًا في تقاسيم وجهه أنَّه يستيقظ باكرًا في الفجر، وأنّ له صلات بمافيا سوق الخضروات والفاكهة، وأنَّه كان يكدّ في كلّ الفصول، في البرد، وتحت المطر، ليبيع الفواكه والخضار على العربة متجوّلاً في أزقَّة الحيّ. ورغم هذا، كان لا يزال يحتفظ بصفات الطفل الشقيّ الذي أتعبنا، في وجهه ناصع البياض، وحاجبيه ورموشه الشقراء، وعينيه الزرقاوين. كما أنَّه كان مقلًّا في الكلام الرزين، يتحدَّث بالعامِّيَّة دومًا، ولم يخطر في بال أيّ منّا أن نمازحه، أو نفتح معه نقاشًا ما. وكان هو الذي أخذ زمام

المبادرة؛ سأل ليلا لماذا لا ترقص. فأجابته: لأنّني لا أتقن هذه الرقصة. صمت لوهلة، ثم قال: ولا أنا. وما إن بدأت أغنية روك إن رول جديدة، حتى أمسك بذراعها بعفويَّة، واقتادها إلى وسط الصالة. لم تنفعل ليلا، وهي التي كانت تصيح بأعلى صوتها، كأنّ دبُورًا لسعها، إذا ما لامسها أحد دون إذنها؛ كانت توَّاقة للرقص إذن. نظرتْ إليه بامتنان، وأسلمت جسدها للموسيقى.

اتَّضح سريعًا أنَّ لا علاقة لإنتسو بالرقص. قلّما حرّك جسمه، وبأسلوب جدّي ورصين، لكنَّه كان شديد الانتباه إلى ليلا، ويحرص على نيل إعجابها، ويسمح لها بأداء أفضل ما عندها. فحازت مباشرة على إعجاب الجميع، مع أنَّها لم تكن أمهر من كارمن. إنَّها تنال إعجاب إنتسو أيضًا، قلتُ لنفسي متأسِّفة. وانتبهتُ إلى أنّها تحظى باهتمام ستيفانو، اللحّام؛ لم يحد بصره عنها طوال الوقت كلّه، كمن يشاهد نجمة في السينما.

وصل الأخوان سولارا حينما كانت ليلا في عزّ رقصتها.

كان يكفيني أن أراهما كي أرتعد. اتّجها لتحيَّة صانع الحلوى وزوجته، وربّتا بمودّة على كتف ستيفانو، ثم وقفا لمشاهدة الراقصيْن. وفي البدء، كما كان يحلو لهما الظهور كسادة الحيّ، وجَّها نظرة ثقيلة إلى آدا التي التفتت إلى الجانب الآخر. تهامسا قليلاً، ثم أشارا إلى أنطونيو، ووجَّها إليه تحيَّة احترام مزيّف، لكنَّه تظاهر بأنَّه لم يرهما. وأخيرًا، انتبها إلى ليلا، ونظرا إليها طويلاً. تهامسا بشيء ما ثانية، فهزّ ميكيلي رأسه بإيماءة عن قبول عارم.

ظللتُ أراقبهما. وسرعان ما أدركتُ أنّ مارتشيلو ـ الذي كان محطّ إعجاب البنات ـ لا يبدو غاضبًا من حادثة السكِّين. على العكس، في غضون ثوانٍ قليلة، سحره جسد ليلا المنساب ذو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحركات الأنيقة، ووجهها الذي لا مثيل له في الحيّ، وربّما في ناپولي بأسرها. لم يحد بصره عنها، كما لو أنَّه فقد ذلك الرشد القليل الذي يتّسم به. وظلّ ينظر إليها حتى بعدما انتهت الموسيقى.

وبعد لحظة، أراد إنتسو أن يقتاد ليلا إلى الزاوية حيث كنتُ واقفة، فاندفع كلٌّ من ستيفانو ومارتشيلو معًا لدعوتها إلى الرقص؛ لكنّ باسكوالي سبقهما. قفزت ليلا بغنج كدلالة على القبول، وصفّقت بيديها مسرورة. تقدّم لها أربعة ذكور في آن واحد، من أعمار مختلفة، واثقين من فحولتهم، كلٌّ على طريقته، وهي ما تزال بنت الرابعة عشرة. أُديرت الأسطوانة على الفونوغراف، وانطلقت الموسيقى ثانية. تقهقر ستيفانو ومارتشيلو وإنتسو مرتبكين. بدأ باسكوالي يرقص مع ليلا؛ ونظرًا إلى مهارته، أسلمتْ جسدها ثانية للرقص.

في تلك اللحظة، قرَّر ميكيلي سولارا أن يعقّد الوضع على طريقته الخاصَّة، دفاعًا عن أخيه، أو ربَّما لشغفه في اختلاق المشاكل. وكز ستيفانو، وقال له بصوت مرتفع:

«ألا تخجل من نفسك؟ هذا ابن قاتل أبيك، وهو شيوعيّ حقير، وأنت تكتفي بالنظر إليه وهو يراقص الفتاة التي أردتَ أن ترقص معها؟»

لم يسمع باسكوالي ذلك الكلام، لأنَّ الموسيقى كانت عالية جدًّا، وهو كان منهمكًا في استعراض بهلوانيَّاته مع ليلا. لكنّنا، أنا وإنتسو، سمعناه، لأنَّنا كنَّا قريبين. أمَّا ستيفانو، فكان شابًّا يعرف طريقه: الملحمة تدرّ عليه الأرباح، وكان ينوي شراء محلٍّ مجاور ليوسِّعها، كان يشعر بأنَّه محظوظ، بل متأكِّد من أنّ الحياة ستمنحه كلّ ما يتمنَّى. قال لميكيلي بابتسامة شرسة:

«فلندعه يرقص! إنَّه يرقص جيِّدًا»؛ وعاد ينظر إلى ليلا كأنَّها الشيء الوحيد الذي يهمّه في تلك الآونة. تأفَّف ميكيلي متقزِّزًا، وراح

يبحث عن صانع الحلويّات وزوجته.

ماذا يريد أن يفعل الآن؟ رأيته يتحدَّث مع أصحاب البيت بأسلوب متوتِّر، ويشير إلى ماريًّا الجالسة في إحدى الزوايا، ثم إلى ستيفانو وألفونسو وبينوتشا، وأخيرًا إلى باسكوالي المنهمك في الرقص وأخته كارميلّا التي ترقص مع أنطونيو. ما إن توقَّفت الموسيقى حتى تقدّمتْ أمّ جيليولا، وأمسكت بذراع باسكوالي باحترام، واتَّجهت به إلى الزاوية، وراحت تهمس في أذنه.

«اذهب»، قال ميكيلي لأخيه وهو يضحك، «الطريق سالكة». فزحف مارتشيلو سولارا ثانية نحو ليلا.

كنت على يقين من أنَّها سترفض طلبه لكثرة ما كانت تمقته؛ ولكنْ لم يحدث شيء من هذا القبيل. انطلقت الموسيقى مجدَّدًا، وخطفت ليلا نظراتها بحثًا عن باسكوالي، إذ كانت كلّ أطرافها تتوق للرقص؛ وحين لم تجده أمسكتْ بيد مارتشيلو كما لو أنَّه مجرّد يد، ليست لها ذراع أو جسم كامل. واندفعت، والعرق يتصبَّب منها، لتقوم بما كان يشغل ذهنها في تلك الفترة: الرقص.

نظرتُ إلى ستيفانو وإنتسو، وأحسستُ بالتوتُّر يضغط عليهما. وبينما كان قلبي يخفق من القلق، اتّجه باسكوالي متجهِّمًا نحو كارميلّا، وقال لها شيئًا ما. اعترضت كارميلّا بصوت خفيض، فأخرسها هو بصوت خفيض أيضًا. اقترب منهما أنطونيو وتحدّث مع باسكوالي. نظر الاثنان بعداء صوب ميكيلي سولارا الذي كان يغمغم مع ستيفانو، وصوب مارتشيلو الذي كان يرقص مع ليلا: يسحبها إليه، يرفعها ثم يدفعها. ثم ذهب أنطونيو لينتشل آدا من الرقص. انتهت الموسيقى؛ وعادت ليلا إلى جانبي. قلت لها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«وقع شيء ما، علينا أن نذهب».

ضحكتْ وهتفتْ:

«لن أنصرف قبل أن أرقص مرَّة أخرى، حتى لو وقع الزلزال» ونظرت إلى إنتسو الذي كان مستندًا إلى الجدار. وحينها دعاها مارتشيلو لرقصة أخرى فعادت للرقص من جديد.

جاء باسكوالي إليّ، وقال لي عابسًا بأنَّنا يجب أن نذهب حالاً.

«فلننتظر أن تنتهي ليلا من الرقص».

«كلَّا، بل حالاً»، قال مستاءً بنبرة حاسمة لا تقبل الردّ. ثم اتَّجه مباشرة نحو ميكيلي سولارا، وصدمه بكتفه. فضحك الأخير، وشتمه بصوت منخفض. أكمل باسكوالي طريقه نحو باب البيت، تتبعه كارميلَّا متمنِّعة، وأنطونيو الذي يجرّ آدا خلفه.

التفتُّ كي أرى ما الذي سيفعله إنتسو، لكنَّه ظلّ مستندًا إلى الجدار ينظر إلى رقصة ليلا. انتهت الموسيقى، فتحرَّكت ليلا تجاهي مخلِّفة وراءها مارتشيلو الذي لمعت عيناه من السعادة.

«علينا أن نرحل»، كدتُ أصرخ متوتِّرة.

كان لا بدّ أن أحقن صوتي بالذعر كي تستيقظ ليلا من سكرتها، وتنظر حولها.

«حسنًا، فلنذهب إذن»، قالت باضطراب.

اتَّجهتُ نحو الباب دون أن أنتظر شيئًا آخر، فيما انطلقت الموسيقى ثانية، وأمسك مارتشيلو سولارا بذراع ليلا، وقال لها بين الضحك والرجاء:

«ابقي قليلاً، سأصحبك بنفسي إلى البيت».

نظرتْ إليه ليلا بعينين جاحظتين، كأنَّها عرفته لتوِّها، وتذكَّرتْ فجأة أنَّها لا تسمح لوغد مثله أن يمسّها بثقة عالية. حاولت أن تحرِّر ذراعها، لكنّ مارتشيلو ضغط أكثر، وقال:

«رقصة واحدة فقط».

انتفضْ إنتسو من على الجدار، وأمسك بمعصم مارتشيلو دون أن يقول كلمة واحدة. ما يزال ماثلاً أمامي: كان هادئًا، وبدا أنَّه لا يبذل أيّ جهد، رغم كونه أقصر قامة وأصغر سنًّا. اتّضحت قوَّة قبضته على وجه مارتشيلو، إذ ترك ليلا متأفِّفًا من الألم، ووضع يده الأخرى على معصمه الموجوع. ذهبنا، بينما كانت ليلا تقول لإنتسو بكرامة مجروحة، وبلهجتنا الضيِّقة:

«أرأيت كيف لمسني ذلك الوغد؟ حمدًا لله أنّ رينو ليس موجودًا. سيموت حتمًا إن كرَّر فعلته».

في الخارج، وجدنا باسكوالي وأنطونيو وكارميلّا وآدا. لم نَرَ باسكوالي خارجًا عن طوره كما رأيناه حينها. كان يجهر بالشتائم بأعلى ما أوتي من صياح، وعيناه جاحظتان كالمجانين، وما من وسيلة لتهدئة روعه. كان غاضبًا من ميكيلي طبعًا، لكنَّه خصّص غيظه لمارتشيلُّو وستيفانو. تفوّه بأشياء فوق مستوى إدراكنا. قال إنّ مقهى سولارا كان دومًا ملتقى لزعماء مافيا الكامورا المرابين، وقاعدة للتهريب وجمع الأصوات لصالح تنظيم «التاج والنجمة» الموالي للملكيّة. قال إنّ الدون آخيل لطالما عمل جاسوسًا لصالح النازي ـ فاشيين، وإنّ الأموال التي يستخدمها ستيفانو لتطوير الملحمة إنَّما اختلسها والده بفضل السوق السوداء، أو الحقيبة السوداء. كان يصرخ: «لقد أحسن والدي صنعًا بقتل ذلك اللعين». ثم يصرخ: «أمَّا آل سولارا، الأب وأبناؤه، سأفكِّر في ذبحهم بنفسي، سأمحو ستيفانو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكلّ عائلته عن وجه الأرض». وفي النهاية، وجّه صياحه إلى ليلا، كأنّ هذا هو الموضوع الأكثر خطورة: «وأنتِ، أنتِ، لقد رقصتِ أيضًا مع ذلك السافل».

ألهب اهتياج باسكوالي نقمة الآخرين، راح أنطونيو يصرخ هو الآخر، وكان منزعجًا من باسكوالي، لأنَّه سيحرمه من فرحة كبرى: فرحته بقتل الأخوين سولارا بنفسه انتقامًا لما فعلاه مع آدا. فشرعتْ آدا بالبكاء، ولم تتمالك كارميلّا نفسها، فانفجرت باكية بدورها. حاول إنتسو أن يقنعنا جميعًا بالابتعاد عن الطريق. «فلنذهب للنوم»، قال. لكنّ باسكوالي وأنطونيو أخرساه، كانا ينويان البقاء لمواجهة الأخوين سولارا. كرَّرا على مسامعه أكثر من مرَّة، بنبرة توحي بالسكينة: «اذهب أنت، نلتقي في الغد». فأجابهما إنتسو بهدوء: «إن بقيتم أنتم فأبقى أنا أيضًا». وحينها، انفجرتُ في البكاء أنا أيضًا، وبعد لحظة ـ وهذا ما أثّر فيّ كثيرًا ـ انضمّت ليلا إلى نواحنا، ولم أكن قد رأيتها تبكي من قبل، أبدًا.

كنّا أربع فتيات نذرف الدموع، دموع التوسُّل. رقّ قلب باسكوالي فقط حينما رأى دموع ليلا. قال مستسلمًا: «حسنًا، لن نفعل شيئًا هذا المساء، سأحلّ المشكلة مع أبناء سولارا مرَّة أخرى، فلنذهب الآن». مشينا، أنا وليلا، على جانبيه ونحن نجهش بالبكاء. ورحنا نواسيه بكلمات تهاجم آل سولارا؛ وفي الوقت نفسه، اقترحنا عليه أنّ أفضل ردّة فعل هي أن يتجاهل وجودهم كلِّيًا. ثم سألته ليلا، وهي تمسح دموعها بظاهر يدها:

«من هم النازي ـ فاشيُّون يا باسكوالي؟ من هم أنصار الملكيَّة؟ ما هي الحقيبة السوداء؟»

١٧

من الصعب الإفصاح عن مدى تأثُّر ليلا بإجابات باسكوالي؛ أخشى أن أقصّ تأثّرها بطريقة خاطئة، لأنّني لم أتأثَّر بتلك الإجابات بشكل ملموس في تلك الحقبة. أمّا هي، كعادتها، تأثّرت بكلامه، وراحت تحوّره بما يناسب تعبيرها، إلى أن صدّعتْ رأسي، حتى آخر الصيف، بمقولة لم أكن أطيقها. سأستخدم لغة اليوم، وأحاول أن ألخّصها على الشكل التالي: لا إشارات أو كلمات أو آهات تستوعب كلّ ما ارتكب ـ ويرتكب ـ الجنس البشريّ من جرائم.

كانت ليلا تعبِّر عن ذلك بطريقة أخرى. لكن ما يهمّ أنّها أُصيبت بهوس كشف المستور. كانت تشير لي، إلى الناس في الشارع، إلى الأماكن والدروب، وتقول:

«هذا شارك في الحرب وقُتل. ذاك كان بلطجيًّا واستخدم زيت الخروع. هذا وشى بالكثير من الرجال. ذاك لم تسلم أمّه من جشعه. في ذلك البيت، عذّبوا واغتالوا. على هذه الطريق، أدّوا المشية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العسكريَّة وألقوا التحيَّة الرومانيَّة. في تلك الزاوية، قُتلوا ضربًا بالهراوة. أموال هؤلاء آتية من جوع هؤلاء. هذه السيَّارة، اشتروها بخلط فتات الصخر بالخبز وبيع اللحم الفاسد في السوق السوداء. تلك الملحمة، أُسِّست من سرقة النحاس وتفريغ القطارات البائدة. تلك المقهى، تموّلها مافيا الكامورا إضافة إلى التهريب والربا».

ولم تعد إجابات باسكوالي تكفيها. كان كأنَّه أعطى الدفعة الأولى لآلة تعمل في رأسها، ثم بات واجبها أن تنظِّم الكثير من الإيحاءات المتضاربة. ازداد توتّرها، واشتدّت بها الوساوس، وربَّما فوجئت هي نفسها من شعورها الطارئ بالانعزال في رؤية مكثَّفة، بلا هوادة، فراحت توثّق معلومات باسكوالي الضحلة بكتابٍ عثرت عليه في المكتبة. وهكذا، استطاعت تقديم أسباب ملموسة ومظاهر مألوفة لأجواء الحيّ المليئة بالتوتُّر الذي كنَّا نستنشقه منذ طفولتنا. الفاشيَّة، النازيَّة، الحرب، الحلفاء، الملكيَّة، الجمهوريَّة: أحالت ليلا هذه العناصر إلى شوارع وبيوت ووجوه؛ الدون آخيل والحقيبة السوداء والسوق السوداء، بيلوزو الشيوعيّ، جدّ سولارا المافيويّ، الأب سيلڤيو الفاشيّ، أسوأ من ابنيه مارتشيلُّو وميكيلي، ووالدها فرناندو الإسكافيّ، ووالدي. . الجميع بلا تمييز كانوا في عينيها مذنبين حتى النخاع بارتكاب خطايا مبهمة، جميعهم قتلة مجرمون أو خونة متواطئون، جميعهم يُباعون ويُشترون بأبخس الأثمان. أقفلتْ عليّ، هي وباسكوالي، في عالم مريع لا أمل في الخروج منه.

ثم كفّ باسكوالي نفسه عن الكلام، بعد أن أذهلته قدرة ليلا على ترتيب الأحداث واحدًا تلو الآخر، كعقد سلسلة تطوّق المرء حتى تخنقه. وكنت غالبًا ما أراهما يتنزَّهان معًا، وظلَّت تصغي إليه حتى بات يصغي إليها. إنَّه مغرم بها، كنت أفكّر. كنت أفكِّر أيضًا: ستغرم

به هي أيضًا، سيرتبطان، سيتزوَّجان، سيتحدَّثان دومًا في هذه الأمور السياسيَّة، سينجبان أولادًا يتحدَّثون بدورهم عن الأمور نفسها. حين فتحت المدارس أبوابها، تألَّمتُ من جهة، لأنّ الوقت لن يسمح لي بلقائها دومًا، وأملتُ من جهة أخرى أن أنشغل عن حديثها المستمرّ عن آثام الناس الذين نعرفهم، وخنوع الأشخاص الذين نبجّلهم، وخسّة من نحمل دماءهم، نحن جميعًا ـ أنا وهي وباسكوالي والجميع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٨

كانت أوَّل سنتين من المرحلة الثانويَّة أكثر صعوبة من المتوسِّطة. التحقتُ بصفّ يتكوَّن من اثنين وأربعين تلميذًا، وكان الصفّ مختلطًا، وهو شيء نادر في تلك المدرسة. غير أنّ عدد الإناث قليل جدًّا، ولم أكن أعرف أيّ فتاة. انتهى المطاف بجيليولا في مساعدة والدها في مقهى سولارا، وذلك بعد استعراض للغرور دام طويلاً («أجل، وأنا أيضًا سألتحق بالثانويَّة بالتأكيد، وسنتقاسم المقعد نفسه»). أمَّا الذكور، فكنت لا أعرف منهم سوى ألفونسو وجينو اللذين جلسا في أحد المقاعد الأماميَّة، جنبًا إلى جنب، مذعورين بعض الشيء، وتظاهرا بأنَّهما لا يعرفانني. كانت الرائحة الكريهة تنبعث من القاعة، مزيج ثاقب من روائح العرق والأقدام المتَّسخة والخوف.

قضيتُ الأشهر الأولى من حياتي المدرسيَّة في سكون، يداي على جبيني وعلى فكّي الذي غزاه حبّ الشباب. كنت أجلس في المقاعد الخلفيَّة، حيث أستصعب رؤية الأساتذة، وما يكتبون على السبُّورة؛ لم يكن أحد يعرفني، حتى رفيقة مقعدي. وبفضل المعلِّمة أوليڤييرو،

حصلتُ سريعًا على الكتب اللازمة، وكانت متّسخة للغاية ومستعملة جدًّا. وفرضتُ على نفسي خطّة دراسيّة، كنت قد تعلّمتُها في المدرسة المتوسِّطة: أدرس كلّ المساء حتى الحادية عشرة ليلاً، ومن الخامسة فجرًا حتى السابعة صباحًا، حين ينبغي عليّ الذهاب إلى المدرسة. وأثناء خروجي من البيت، محمّلة بالكتب، يحدث غالبًا أن ألتقي بليلا وهي تهرع لفتح المحلّ وكنسه وتنظيفه وترتيبه، ريثما يصل أبوها وأخوها. كانت تستجوبني عن الموادّ التي سأدرسها في النهار، وعمّا درستُ في الأمس، وتطلب منّي إجابات دقيقة. وعندما لا أُجيب بدقّة، ترميني بوابل من أسئلةٍ، تضعني عرضة الشكّ بجودة ذاكرتي، والقلق من أنّني لن أستطيع الإجابة عن أسئلة الأساتذة ما لم أُجب عن أسئلتها. وفي بعض الأيّام، حين كنت أنهض في الفجر شديد البرودة، وأراجع الدروس في المطبخ، كنت أشعر كالعادة أنّني أضحّي بالنوم الدافئ والقرير كي أحصل على ثناء ابنة الإسكافيّ أكثر من تقدير الأساتذة في مدرسة الأكابر. كنت أتناول الفطور على عجالة بسببها أيضًا. أرتشف القهوة بالحليب، وأسرع للخروج إلى الشارع، كي لا أخسر مترًا واحدًا من الطريق التي كنّا نمشيها معًا.

كنت أنتظر أمام البوّابة؛ وأراها تصل من البناية الصغيرة حيث تسكن، وأراقب التغيّرات المستمرّة على مظهرها. باتت أطول منّي. ولم تعد تمشي كالطفلة الهزيلة كما كانت حتى بضعة أشهر خلت؛ بل كأنّ خطواتها أصبحت أكثر نعومة بالتوازي مع تكوّر جسمها. مرحبًا، أهلاً؛ ويبدأ النقاش. وحين كنّا نتوقّف عند التقاطع للوداع، هي نحو المحلّ وأنا نحو محطّة المترو، كنت ألتفت باستمرار لألقي عليها نظرة أخيرة. ورأيتُ باسكوالي، لمرّتين أو ثلاث، يصل مقطوع الأنفاس، يرافقها يدًا بيد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المترو يكتظّ بالشبّان والشابّات، وما يزال النعاس ودخان السجائر الأولى يهدهد وجوههم. أنا لم أكن أدخِّن، ولا أتحدَّث مع أحد. وأثناء الرحلة القصيرة، كنت أراجع الدروس بتخوُّف شديد، وتتصارع في رأسي لهجات غريبة ونبرات مختلفة عن تلك التي تصدح في الحيّ. كنت فزعة من الفشل الدراسيّ، وظلّ والدتي العرجاء والتعيسة، ونظرات المعلِّمة أوليڤيرو المؤنِّبة. لكنّ هذا لا يساوي شيئًا أمام الفكرة الحقيقيَّة التي كانت تشغلني حينها: ينبغي أن أرتبط بشابّ ما فورًا، قبل أن تخبرني ليلا بأنَّها ارتبطت بباسكوالي.

كلّ يوم يمضي يحمل معه مزيدًا من القلق بأنّني سأتأخَّر في تحقيق أمنيتي. وكنت أخشى أن أعود من المدرسة ذات مرَّة وألتقي بها، فتخبرني، بنبرتها الحادّة، أنَّها كانت تمارس الحبّ مع باسكوالي، أو مع إنتسو مثلاً، أو مع أنطونيو، أو ربَّما مع ستيفانو اللحَّام. ومن يدري، ربَّما مع مارتشيلُّو سولارا! لا يمكن التكهّن بقراراتها أبدًا. فالذكور الذين يحومون حولها، كانوا طموحين وناضجين تقريبًا. وبالتالي، لن يتسنّى لها وقت للقاء بي، ما بين مشروع الأحذية والخطوبة والقراءات المتعمِّقة عن هذا العالم الفظيع الذي قُدِّر لنا أن نولد فيه. أحيانًا، في العودة من المدرسة، كنت أقوم بدورة طويلة كي لا أمرّ أمام محلّ والدها. وإذا كنت أراها، من مسافة بعيدة، كنت أغيّر وجهتي لشدَّة اضطرابي. لكنّني لم أكن أقاوم طويلاً، فأراني أسارع للقائها كأنَّها مصيري المحتوم.

كنت أنظر إلى الشبّان، في ساعة الدخول أو الانصراف من المدرسة، التي كانت عبارة عن بناية رماديَّة ضخمة ومظلمة وظروفها سيِّئة للغاية. كنت أنظر إليهم بإلحاح، عسى أن ينتبهوا إليّ ويبادلونني النظرة بمثلها. كان بعض أترابي، في المرحلة الثانويَّة، يرتدون

السراويل القصيرة كالأطفال، وآخرون يرتدون بزّات المجنَّدين أو سراويل طويلة. كنت أنظر إلى الكبار، تلاميذ المرحلة المتقدِّمة من الثانويَّة، الذين كان أكثرهم يرتدون السترة وربطة العنق بلا معطف، كأنَّهم يثبِّتون، لا سيَّما لأنفسهم، بأنَّهم لا يعانون من البرد. كانوا يسرِّحون شعرهم إلى الخلف، ورقابهم متدرِّجة الألوان. كنت أفضّل الكبار، ولكن لا بأس بشابٍ من المرحلة الأولى، شرط أن يكون سرواله طويلاً.

ذات يوم، أذهلني أحد التلاميذ بمشيته الطليقة؛ كان هزيل البدن وشعره منفوشًا وداكن اللون. بدا لي وجهه يشعّ وسامة، وأليفًا نوعًا ما. تُرى كم عمره؟ ستَّة عشر عامًا، سبعة عشر؟ تمعنّتُ فيه، نظرتُ إليه ثانية، فتوقّف قلبي عن النبض: إنَّه نينو سارّاتوري، ابن دوناتو سارّاتوري، الموظَّف في قطاع السكك الحديديَّة، الشاعر. بادلني بنظرة شاردة، لم يعرفني. كانت سترته كالحة عند مرفقيه وتضيق على كتفيه، وسرواله مستهلكًا وحذاؤه باليًا. لم يكن يعبّر عن أيٍّ من مظاهر الرخاء التي كانت تفيض بوجه ستيفانو، والأخوين سولارا على الأخصّ. بالطبع، لم يصبح والده ثريًّا بعد، رغم أنّه ألّف ديوان شعر.

تشتّت ذهني من هذه الرؤية غير المتوقَّعة. عند الانصراف، فكَّرتُ أن أهرع لقصّ ما رأيتُ على ليلا، إذ كنت في أوجّ توتّري؛ ثم غيّرتُ الفكرة. فلو أخبرتُها بذلك، لطلبتْ منِّي حتمًا أن أصطحبها معي إلى المدرسة لكي تراه. وكنت أعلم مسبقًا ما الذي سيقع: ما دام أنَّه لم ينتبه إليّ، ولم يتعرَّف على الطفلة الشقراء والناعمة ـ التي كنت عليها خلال المرحلة الابتدائيَّة ـ في تقاسيم الفتاة البدينة طافحة البثور ذات الأربعة عشر عامًا ـ التي أصبحتُ عليها حينئذ ـ فإنَّه سيتعرَّف حالاً على ليلا، وقد تغويه كما فعلتْ بالآخرين. قرَّرتُ أن أحتفظ لنفسي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بصورة نينو سارّاتوري، الذي كان يخرج بكلٍّ هدوء من المدرسة، مطأطئ الرأس بمشية متأرجحة، متوجِّهًا نحو شارع غاريبالدي. ومنذ ذلك اليوم، باتت مجرَّد رؤيته هي الشيء الوحيد الذي يمنح معنًى للذهاب إلى المدرسة، بالنسبة إليّ.

مرّ الخريف مسرعًا. ذات صباح، دُعيتُ للمرَّة الأولى إلى المنصَّة للمساءلة عن ملحمة «الإلياذة». انفجر الأستاذ جيراتشي ضاحكًا، حين لفظتُ «أوراكولو» بدلاً عن «الأوراكل». كان يناهز الستِّين عامًا، فاقد الهمّة، ويكثر من التثاؤب بصوت مرتفع. لم يخطر في ذهنه أنَّني كنت أعيش في عالم لا أحد يستخدم فيه هذه الكلمة، رغم أنّني أعرف معناها. ضحكَ جميع التلاميذ، لا سيَّما جينو، الذي يجلس بجانب ألفونسو في المقعد الأوَّل. شعرتُ بالإهانة. ثم مرّت الأيَّام، وأنجزنا أوَّل واجب منزليّ باللاتينيَّة. وحين صحَّح الأستاذ واجباتنا وعاد بها، سأل:

«من هي غريكو؟»

رفعتُ يدي.

«تعالي».

طرح عليّ مجموعة من الأسئلة حول النحو والتصريف. كنت أجيب بارتباك، ذلك لأنَّه كان ينظر إليّ باهتمامٍ لم يبده من قبل بأيّ تلميذ آخر. ثم أعطاني الورقة بلا تعليق. حصلتُ على تسع درجات.

ومنذئذ، بدأتُ أرتقي. أعطاني ثماني درجات في واجب اللغة الإيطاليَّة؛ في مادَّة التاريخ، لم أخطئ بأيّ حدث؛ وفي الجغرافيا، كنتُ أجيب بدقَّة عن الأراضي والشعوب والثروات الباطنيَّة والزراعة. لكنّني أذهلته في مادَّة اللغة الإغريقيَّة خصوصًا. بفضل ما تعلّمتُه مع

ليلا. أظهرتُ أريحيَّة بكتابة الأبجديَّة، وبراعة في القراءة، ونباهة في اللفظ؛ واستطعت بذلك أن أنتزع ثناء الأستاذ على الملأ أخيرًا. وأخذ صيتي يمتدّ كاليقين حتى شمل بقيّة الأساتذة؛ بمن فيهم أستاذ التربية الدينيَّة الذي كلّمني على انفراد، ذات صباح، وسألني إن كنت أودُّ التسجيل في دورة مجَّانيَّة عن العلوم اللاهوتيَّة والعقائد الروحانيَّة. أجبته بنعم. وقبل أعياد الميلاد بقليل، بات جميعهم يسمّونني «غريكو»، وبعضهم بـ «إيلينا». وبات جينو يتأخَّر في الانصراف كي ينتظرني، لنعود معًا إلى الحيّ. وذات يوم، عاد يطلب منِّي فجأة إن كنت أودّ الارتباط به؛ ورغم أنَّه كان يبدو لي صبيًّا، فإنّني تنفَّستُ الصعداء: يبقى أفضل من لا شيء. وافقتُ.

لكنّ عطلة أعياد الميلاد جاءت لتبتلع نشاطي المتأجِّج؛ وانغمستُ في شؤون الحيّ خلال ذلك الوقت الفارغ، وغالبًا ما التقيتُ بليلا. كانت قد اكتشفتْ أنّني أدرس الإنكليزيَّة، وطبعًا تدبّرتْ لنفسها كتاب قواعد. وكانت حينها قد تعلّمتْ الكثير من المفردات، وتلفظها بشكل تقريبيّ، أسوأ من طريقتي في اللفظ بالطبع. لكنَّها كانت تباغتني قائلة: حين تعودين إلى المدرسة، اسألي الأستاذ كيف تُلفظ هذه الكلمة، وكيف تُلفظ تلك! وذات يوم، اصطحبتني إلى المحلّ وأرتني علبة معدنيَّة مليئة بقصاصات الورق، كانت قد كتبت ـ على كلّ واحدة منها ـ كلمة إيطاليَّة على جانب ونظيرتها الإنكليزيَّة على الجانب الآخر. «Matita/Pencil قلم رصاص»، «Capire/To understand يفهم»، «Scarpa/Shoe حذاء». كانت هذه نصيحة المعلِّم فيرارو، خير وسيلة لتعلُّم المفردات. كانت تقرأ عليّ الكلمة الإيطاليَّة، وتطلب منِّي أن ألفظ مقابلها بالإنكليزيَّة. لكنّني كنت بالكاد أعرف بعض الكلمات. أدركتُ أنَّها تسبقني في كلّ شيء، كأنَّها تتردَّد إلى مدرسة سرِّيَّة. غير أنّني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شعرتُ أنّها مهووسة في ادّعاء معرفتها في الأشياء التي كنتُ أدرسها. كنتُ أفضِّل الحديث عن موضوع آخر، لكنَّها استجوبتني عن تصريف الأفعال الإغريقيَّة، ما جعلها تستنتج أنَّها تسبقني بمراحل في هذه المادَّة أيضًا. سألتني عن الإلياذة. كانت مولعة بهذه الملحمة؛ قرأتها كلّها في غضون أيَّام، بينما لم أكن قد وصلت في المدرسة إلى نصف المجلَّد الثاني. حدّثتني بالتفصيل عن ديدون، ملكة قرطاج، التي لم أكن أعرف عنها شيئًا. وذات مساء، رمتني بجملة مذهلة. قالت: «لولا الحبّ لذبلتْ حياة البشر، وحياة المدن أيضًا». لا أذكر العبارة بدقَّة، لكنّ المغزى كان هذا. وسرعان ما ربطتُه بدروبنا الوسخة والحديقة القذرة، والريف الذي التهمته البنايات الجديدة، والعنف الذي ينبري في كلّ بيت ويفتّت كلّ أسرة. خشيتُ أن تفتح موضوع الفاشيَّة والنازيَّة والشيوعيَّة. لم أقاوم، أردتُ إيهامها بأنَّني أعيش مرحلة سعيدة، قلت لها دفعة واحدة إنّني ارتبطتُ بجينو أوّلاً، وإنَّني ثانيًا صادفتُ نينو سارّاتوري في مدرستي، وبات أكثر وسامة من ذي قبل.

ضيّقتْ حدقة عينيها، فخشيتُ أن تقول لي: وأنا أيضًا ارتبطتُ. لكنَّها راحت تسخر منِّي قائلة: «تمارسين الحبّ مع ابن الصيدلانيّ. أحسنتِ. لقد استسلمتِ. وقعتِ في الغرام كما حدث لعشيقة إينياس، ملك طروادة». ثم وثبتْ بالحديث عن ديدون إلى ميلينا، وكلّمتني عنها طويلاً، نظرًا إلى انقطاعي عن مجريات الحيّ وانشغالي في الدراسة من الصباح الباكر حتى ساعة متأخِّرة من المساء. حدّثتني عن قريبتها كما لو أنَّها تراقبها باستمرار. كان البؤس يقوّضها، وأولادها، ما دعاها لمواصلة العمل في تنظيف سلالم البنايات مع ابنتها آدا؛ فالمال الذي يأتي به أنطونيو لم يكن يكفي لتدبير المنزل. ولم يعد أحد يسمعها تغنّي، رحلتْ عنها البهجة، وباتت حركاتها آليَّة. وصفتها بدقَّة متناهية:

تبدأ التنظيف من الطابق الأعلى، مثنيَّة الجذع، وتمرِّر الخرقة المبلَّلة بين يديها، عتبة بعد عتبة، درجة بعد درجة، بنشاط لا يقوى عليه أحد أقسى منها عودًا. كلَّما نزل أحد الجيران أو صعد، شتمته بصوتها الصارخ، ورمت الخرقة في وجهه. روت لها آدا أنَّها رأت أمّها ذات مرَّة تمرّ في أشدّ نوبات الجنون، بعد أن وسَّخوا السلالم بأحذيتهم، تشرب من ماء السطل الآسن، حتى أبعدته عنها. هكذا، من حديث إلى حديث، انتقلتْ من جينو إلى ديدون، ثم إلى إينياس الذي هجر ديدون، وصولاً إلى الأرملة المجنونة. وحينها فقط، نوَّهتْ عن نينو ساراتوري، في إشارة إلى أنَّها كانت تصغي إلى حديثي باهتمام. أفصحتْ: «أخبريه عمّا جرى لميلينا. وأخبريه أن يبلِّغ والده بالأمر». ثم أضافت بلؤم: «وإلَّا من السهل أن نكتب الأشعار». وفي النهاية، انفجرتْ ضاحكة، وأقسمتْ بكبرياء: «لن أعشق أحدًا أبدًا؛ ولن أكتب القصائد أبدًا أبدًا أبدًا».

«لا أصدِّق هذا».

«هذه هي الحقيقة».

«لكنّهم سيغرمون بكِ».

«يا لسوء حظوظهم».

«سيعانون مثل الملكة ديدون».

«لا. بل سيرتبطون بأخرى، تمامًا كما فعل إينياس الذي ارتبط في النهاية بابنة ملك».

أظهرتُ عدم اقتناعي. ذهبتُ ثم عدتُ، فتلك النقاشات عن العشّاق باتت تروقني، خصوصًا بعد أن حظيتُ بعشيق. سألتها ذات مرَّة، بحذر:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ما أخبار مارتشيلُّو سولارا، هل ما زال يتبعك؟»

«أجل».

«وأنت؟»

ارتسمتْ على وجهها شبه ابتسامة نافرة، كأنَّها تعني: إنّني أشمئزّ من مارتشيلُّو سولارا.

«وإنتسو؟»

«نحن صديقان».

«وستيفانو؟»

«وهل ترين أنَّهم جميعًا يفكِّرون بي؟»

«أجل».

«ستيفانو يبيعني الأغراض قبل الجميع، حتى لو كان محلّه مزدحمًا بالزبائن».

«أرأيت؟»

«لا أرى أيّ شيء في هذا».

«وباسكوالي، ألم يعترف بحبّه لك؟»

«هل جننتِ؟»

«رأيته يرافقك في الصباح إلى المحلّ».

«كي يروي عليّ الأحداث التي وقعت قبل وجودنا».

عادت إلى موضوع «ما قبل وجودنا»، ولكنْ بطريقة مختلفة عن المرحلة الابتدائيَّة. قالت إنَّنا لا نعرف شيئًا، لا حينما كنَّا صغيرات ولا حينذاك.. ولهذا لم نكن على درجة تسمح لنا بفهم أيّ شيء، لأنَّ كلّ شيء في الحيّ، كلّ صخرة وكلّ قطعة خشب، كلّ شيء، كان

موجودًا قبل أن نولد، لكنّنا كنّا نكبر دون أن نأخذ هذا في الحسبان، بل دون أن نُعيره أدنى انتباه. ولسنا نحن فقط، بل كان والدها يتظاهر بأنّه لم يحدث شيء في السابق؛ وأمّها تتصرّف كذلك.. وأمّي، وأبي، بل وحتى رينو. مع أنّ ملحمة ستيفانو كانت «في الماضي» محلّ نجارة بيلوزو، والد باسكوالي؛ وأموال الدون آخيل قد تراكمت «في الماضي». وأموال آل سولارا أيضًا. أجرت ليلا تجربة على أبيها وأمّها؛ كانا يجهلان كلّ شيء، ولا يريدان الحديث في أيّ شيء. لا وجود للفاشيّة، لا وجود للملك، لا جور ولا إجحاف ولا استغلال. كان أهلنا يكرهون الدون آخيل ويخافون من آل سولارا، لكنّهم يتجاهلون الأمر، وينفقون أموالهم سواء عند أبناء الدون آخيل أم عند سولارا، ويرسلوننا لشراء الحاجيات من عندهم نحن أيضًا. وكانوا يصوّتون لصالح الفاشيين وأنصار الملكيّة، كما يشاء آل سولارا. كانوا يعتقدون أنّ ما حدث في السابق مضى وانقضى، وينبغي أن ندفنه لنعيش بسلام؛ لكنّهم كانوا ما يزالون في قلب تلك الأحداث، ويحجزوننا فيها نحن أيضًا؛ وهكذا، على غفلة منهم، كان الماضي يبقى على قيد الحياة.

استوقفني ذلك النقاش عن «الماضي» أكثر من كلّ النقاشات الغامضة التي شغلتني بها طوال الصيف. مرّت عطلة الميلاد ونحن نتحدّث دون انقطاع، في محلّ الإسكافيّ، في الدرب وفي الفناء. بحنا لبعضنا بعضًا بكلّ شيء، بما فيها الأشياء الصغيرة.. وكنّا في أحسن حال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٩

شعرتُ بأنّني قويَّة في تلك الحقبة. حقَّقتُ تقدّمًا ملموسًا في المدرسة، وأخبرتُ المعلِّمة أوليڤييرو بذلك، فهنّأتني. وكنت أقابل جينو، ونتنزّه يوميًّا حتى مقهى سولارا؛ كان يشتري لي قطعة من المعجَّنات لنأكلها معًا، ثم نعود أدراجنا. وفي بعض الأحيان، كان يتولّد لديّ انطباعٌ بأنّ ليلا هي التي تتعلّق بي، وليس العكس. إذ كنت قد اجتزتُ حدود الحيّ، وأتردَّد إلى مدرسة ثانويَّة، وأقضي الوقت مع التلاميذ الذين يدرسون اللاتينيَّة والإغريقيَّة، وليس مع عمَّال بناء وميكانيكيِّين وبائعي فواكه ولحّامين وإسكافيِّين مثلها. وعندما تحدّثني عن ديدون، أو عن طريقتها بتعلُّم المفردات الإنكليزيَّة، أو عن تصريف الفاعل الثالث، أو عن التخيّلات التي تبنيها بالحديث مع باسكوالي، كان يتَّضح لي أنَّها تفعل ذلك تلهُّفًا لوجهة نظري، كأنَّها مضطرَّة للإثبات دومًا باستمرار أنّ تفكيرها من مستوى تفكيري. حتى إنّني لم أعد أشعر بأنَّها تسكن عالمًا غرائبيًّا من دوني؛ إذ قرَّرتْ ذات مساء، بعد تردُّد، أن تريني إلى أيّ مرحلة وصلتْ بالحذاء السرِّيّ الذي كانت

تصنعه مع رينو. بل وبدا لي أنّها وشقيقها يتردَّدان في الحديث عن أمر لا يحمل أيّ قيمة بالنسبة إليّ.

وربّما أنا من بدأ يشعر بفوقيّتي عليهما. راحا ينبشان في ركنٍ للمهملات، ثم أخرجا كومة من الأوراق المثنيَّة. تظاهرتُ بتشجيعهما؛ لكنّ ذلك الحذاء الرجّاليّ كان خارج المألوف حقًّا، مقاسه ٤٣ من مقاس رينو وفرناندو، بنّيّ اللون مثل تصاميم ليلا تمامًا، ويوحي بأنَّه متين ومريح في آن واحد. لم أكن قد رأيت حذاء من ذلك النوع في قدميْ أحد. وبينما أعطياني إيَّاه كي أتلمَّسه، وهما يستعرضان عليّ جودته، رحت أحثّهما بكلمات حماسيَّة. «المسي هنا» قال رينو، وكان متَّقدًا من كلماتي، «وأخبريني إن أحسستِ بأثر الخياطة». «لا» أجبته، «لا أثر للخياطة». ثم أخذ الحذاء من بين يديّ، وراح يثنيه ويمطّه ليظهر مناعته. وكنت أستحسن النتيجة، وأقول أحسنتما كما كانت تقول المعلِّمة أوليڤييرو لتشجيعنا. لكنّ ليلا لم تكن تبدو راضية، وكلَّما عدّد شقيقها مزايا الحذاء أظهرتْ عيوبه، وهي تقول له: «كم سيستغرق أبي ليكشف هذه الأخطاء؟» باغتته بنبرة جدِّيَّة: «فلنجرّب بالماء ثانية». تجهّم وجه رينو فيما كانت ليلا تملأ السطل بالماء، ثم وضعت يدها داخل فردة الحذاء، كأنَّها قدمٌ، وأغرقتها بالماء قليلاً. «تحبّ اللهو»، قال لي رينو كشقيق أكبر، يضيق ذرعًا بصبيانيَّة أخته الصغيرة. وحين رآها تُخرج الحذاء، اضطرب وسألها:

«وماذا الآن؟»

أخرجت يدها، حكّت أصابعها، ومدّت إليه الحذاء.

«المس».

أدخل رينو يده، قال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«إنَّه جافّ».

«بل إنَّه رطب».

«المسي يا لينو. هل تحسِّين بالرطوبة؟»

لمستُ.

«رطب بعض الشيء»، قلت.

تأفَّفتْ ليلا باستياء.

«أرأيت؟ إنَّه يبتلّ ما إن نضعه دقيقة واحدة في الماء. هذا غير ناجز. علينا أن نفكّ الصمغ والخيوط كلِّيًّا، ونبدأ من جديد».

«وما الذي يعنيه قليل من الرطوبة، ها؟»

غضب رينو. وليس هذا فحسب، بل شعرتُ أنَّه يتحوَّل أمام عينيّ. احمرّ وجهه، وانتفخ ما حول عينيه ووجنتيه، ولم يتمالك أعصابه، فخرج عن طوره وهو يلعن ويجدّف في وجه أخته. وتذمّر قائلاً بأنَّهما لن ينتهيا من هذا العمل إذا استمرّا هكذا. ووبّخها لأنَّها تثبّط من عزيمته، بعدما اعتمد على تشجيعها في البداية. وصاح بأنَّه لم يكن ينوي البقاء إلى الأبد داخل ذلك المحلّ المشؤوم ليعمل عبدًا عند أبيه، بينما يرى كيف يبلغ الآخرون الثراء. أمسك بالقدم الحديديَّة، وأراد أن يرميها نحو أخته، وكان سيقتلها حتمًا لولا أنَّه عدل عن هذا.

انصرفتُ مشتَّتة الذهن من ذلك الغضب الذي أبرزه شابٌّ، اعتدتُ أن أراه لطيفًا، وكنت ـ من جهة أخرى ـ فخورة بنفسي، لأنَّ رأيي كان حاسمًا ومهمًّا.

وفي الأيَّام اللاحقة، اكتشفتُ أنّ البثور على وجهي كانت تجفّ.

«هذا يعني أنّك بخير، إنَّها علامة عن سرورك بالحبّ ورضاك عن المدرسة»، قالت لي ليلا؛ وشعرتُ بأنَّها حزينة قليلاً.

٢٠

كلّما اقترب احتفال رأس السنة، تفاقم هوس رينو في إطلاق الألعاب الناريَّة أكثر من الجميع، ولا سيّما أكثر ممَّا سيطلقه أبناء سولارا. وكانت ليلا تسخر منه أحيانًا، وتحتدّ أحيانًا أخرى. قالت لي إنّ أخاها، بالنسبة إليها، وإن كان يستخفّ بمشروع الأحذية، صار يبالغ بربطه ببلوغ الثراء. بات يظنّ نفسه صاحب مصنع شيرولو للأحذية، ولم يعد يرتضي بلقب الإسكافيّ. وهذا ما كان يُشعرها بالقلق، لأنَّها كانت تجهل فيه هذه الطباع. إذ لطالما كان في نظرها مجرّد شابّ نزق، وعصبيٍّ أحيانًا، ولكنَّه لم يكن متعجرفًا. وبدا لها منذئذ دعيًّا ومستعليًا، يحسَب أنَّه قاب قوسين أو أدنى من الغنى. كأنَّه عرّاب صغير، سيمنح الحيّ أولى علامات الحظّ السعيد بدءًا برأس السنة، وذلك بإطلاق أكبر عدد ممكن من الألعاب الناريَّة؛ أكثر من الأخوين سولارا اللذين كان يراهما أنموذجًا للشابّ المهاب، لا بدّ أن يحتذي بهما ويتجاوزهما أيضًا. كان يحسدهما، وينظر إليهما كخصمين ينبغي أن ينال منهما ليسحب البساط من تحت أقدامهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تبح ليلا بشيء عن أوضاعها، كما فعلتْ كارميلّا وباقي فتيات الحيّ. وربّما ألهبتُ خيالها الذي لا تستطيع السيطرة عليه. كانت على يقين من تصوُّراتها، وتشعر أنَّها قابلة للتحقيق، وأنّ أخاها عنصرٌ أساسيّ في هذا. ثم إنَّها كانت تريد له الخير، ولم تشأ أن تودي به إلى صبيّ أخرق، لا يعرف إدارة أحلامه وهو الذي يكبرها بستَّة أعوام. لكنَّها كانت غالبًا ما تقول إنّ رينو عديم الإحساس بالواقعيَّة، ويعجز عن مجابهة الصعاب بعقلانيَّة، ويشطّ في أوهامه. كتلك المنافسة مع أولاد سولارا، على سبيل المثال.

«لعلّه يغار من مارتشيلُّو»، قلت لها ذات مرَّة.

«ماذا تعنين؟»

ضحكتْ وهي تتصنَّع السذاجة، لكنَّها قصّتْ عليّ ما حدث بعظمة لسانها. كان مارتشيلُّو سولارا يمرّ ويتسكَّع قبالة محلّ الإسكافيّ كلّ يوم، سواء على قدميه أم بالسيَّارة. فطن رينو للأمر، وقال لأخته غير مرَّة: «إيَّاكِ أن تتقرّبي من هذا الحقير». ومن يدري، ربَّما أراد أن يُظهر قوَّته لمارتشيلو بالألعاب الناريَّة، لأنَّه لم يكن قادرًا على فقء عينيه اللتين تصوّبان نحو ليلا.

«ألستُ على حقّ في هذا؟»

«فيم؟»

«في أنَّه أصبح دعيًّا. من أين له المال لشراء الألعاب الناريَّة؟»

حقًّا؛ ليلة رأس السنة أشبه بمعركة يخوضها أهالي الحيّ ونابولي بأسرها. الأضواء المبهرة وأصوات الانفجار، والدخان الكثيف الصادر عن البارود يطحن الأجواء بالضباب، يقتحم البيوت ويسيّل الدموع ويسبِّب السعال. إلَّا أنّ دويّ القنابل الاصطناعيَّة، وأصداء

المفرقعات، لها ثمن؛ وكالعادة، فإنّ الأكثر ثراءً يتباهون بإطلاق أكبر عدد من الألعاب الناريَّة. كانت لعائلتي مشاركة متواضعة في نيران رأس السنة، إذ كان أبي يشتري علبة من المفرقعات الخفيفة، وأخرى من النيران الملوَّنة، وعلبة صواريخ واهنة. وإذا حان منتصف الليل، وضع في يدي ـ لأنّني الأكبر سنًّا ـ عود النجوم المتلألئة أو تلك المستديرة، وأشعلها؛ فأظلّ متسمِّرة في مكاني، متوتِّرة ومذعورة، أركِّز النظر في تلك الألسنة المتطايرة والوميض الناريّ على مسافة قصيرة من أصابعي. وأثناء ذلك، كان يسرع ليثبّت سارية الصواريخ في قارورة زجاجيَّة، ويضعها على رخام النافذة؛ يشعل الفتيل بجمر سيجارته، وينظر بحماس إلى الصاروخ المشعّ الذي ينطلق نحو السماء. وفي النهاية، كان يرمي القارورة إلى الشارع.

وأهل ليلا أيضًا، كانوا بالكاد يشاركون في الاحتفال. حتى إنّ رينو سرعان ما ثار على هذا؛ واعتاد، منذ أن كان في سنّ الثانية عشرة، على الخروج منتصف الليل مع شبّان أكثر جسارة من أبيه. كان مشهورًا في جمع القنابل التي لم تنفجر، يلتقطها حال انتهاء الفوضى العارمة، ويفرّغها كلّها في منطقة المستنقعات، ثم يضرم فيها النار، ويستمتع بمشهد اللهيب المرتفع والفرقعة المحتدمة والانفجار النهائيّ. وكانت يده قد أُصيبت بندوب داكنة اللون كبقعة عريضة، لأنَّه ذات مرَّة لم يرجع إلى الخلف قبل الأوان.

لذا، ينبغي أن نضيف انتقام رينو من طفولته التعيسة إلى قائمة الأسباب الواضحة والمبطَّنة التي دفعتْه إلى ذلك التحدّي في نهاية العام ١٩٥٨. أخذ على عاتقه أن يجمع النقود من هنا وهناك كي يشتري المفرقعات. وكان أكثرنا دراية، رغم جنون العظمة الذي أصابه، بأنَّه ما من إمكانيَّة لتحدّي آل سولارا. إذ كان الشقيقان، كما في كلّ عام،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يمضيان ذهابًا إيابًا بالسيَّارة المحمّلة بالمتفجّرات التي ستقتل الكثير من العصافير، في ليلة رأس السنة، وتُفزع الكلاب والقطط والفئران، وترتجّ بسببها البنايات من القبو حتى السطح. كان رينو يراقبهما من محلّ أبيه مغتاظًا، ويرتّب الوضع مع باسكوالي وأنطونيو، وإنتسو خصوصًا، لأنَّه كان أكثرهم تمويلاً، وذلك لتحضير ترسانة ناريَّة تعطي انطباعًا حسنًا على الأقلّ.

انقلبت الأمور عبر حادثة بسيطة وغير متوقَّعة، حين ذهبتُ أنا وليلا إلى ملحمة ستيفانو كارّاتشي، بطلبٍ من والدتينا، لنشتري حاجات العشاء الكبير. كان المحلّ مكتظًّا بالزبائن؛ وستيفانو وبينوتشا خلف المصطبة، يساعدهما ألفونسو الذي وجّه إلينا ابتسامة مرتبكة. وقفنا ننتظر دورنا في الطابور؛ إلَّا أنّ ستيفانو حيّاني أنا ـ لا لبس في ذلك ـ وهمس في أذن أخيه شيئًا ما. ترك رفيقي في المدرسة مكانه خلف المصطبة، وسألني إن كانت بحوزتنا لائحة بالأغراض التي نودّ شراءها. أعطيناه اللائحة، وانصرف. وبعد خمس دقائق، كانت أغراضنا جاهزة.

وضعنا كلّ شيء في الحقيبتين، دفعنا ما توجّب علينا للسيِّدة ماريّا، وخرجنا. وبعد خطوتين أو ثلاث، ناداني ستيفانو، ستيفانو وليس ألفونسو، بصوته الجميل والناضج:

«لينو».

وصل إلينا. كان تعبير وجهه هادئًا، وابتسامته لطيفة، كامل الهيئة لولا مئزره الأبيض المتَّسخ بالشحوم والدهون. تحدّث إلينا معًا، بالعامِّيَّة، لكنَّه كان ينظر نحوي:

«هل تودَّان المجيء لاحتفال رأس السنة في بيتي؟ ألفونسو يعوِّل

كثيرًا على حضوركما».

بعد مقتل الدون آخيل، اقتصرت حياة زوجته وأولاده على حياة ضيِّقة: كنيسة، ملحمة وبيت، وربَّما حفلة صغيرة ـ في أحسن الأحوال ـ لا يمكن التغيّب عنها. كانت تلك الدعوة حدثًا جديدًا إذن. أجبتُه وأنا أشير إلى ليلا:

«لقد دعينا إلى حفلة أخرى، مع أخيها والكثير من الأصدقاء».

«بلِّغا رينو أيضًا، وبلِّغا أبويكما. منزلنا كبير، وسنصعد إلى السطح كي نطلق المفرقعات».

تدخّلتْ ليلا بنبرة حادّة:

«سيحتفل معنا باسكوالي وكارميلّا بيلوزو، وستأتي أمّهما أيضًا».

كان ينبغي لهذه الجملة أن تمحو المحادثة من أساسها، فألفريدو بيلوزو سجينٌ في بوجوريالي، لأنَّه قتل الدون آخيل، وابن الدون آخيل لن يستطيع دعوة أبناء ألفريدو ليشربوا نخب العام الجديد في بيته. لكنّ ستيفانو صوّب إليها نظرة مكثَّفة، كما لو أنَّها لم تكن موجودة حتى تلك اللحظة، وقال بنبرة من اعتاد على قول البديهيّات:

«حسنًا، تعالوا جميعًا. نشرب النخب، ونرقص. عام جديد وحياة جديدة».

تأثَّرتُ بتلك الكلمات. نظرتُ إلى ليلا، فوجدتها مشتَّتة هي أيضًا. غمغمتْ:

«علينا أن نتحدَّث مع أخي».

«أبلغوني قراركم إذن».

«والألعاب الناريَّة؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ماذا تقصدين؟»

«نحن نأتي بألعابنا الناريَّة، وأنت؟»

ابتسم ستيفانو:

«كم من المفرقعات تريدين؟»

«الكثير الكثير».

اتَّجه الشابّ إليّ ثانية:

«تعالوا جميعكم إلى منزلي، وأعدكم بأنّنا سنظلّ نطلق الألعاب الناريَّة حتى يبزغ الفجر».

٢١

على درب العودة، لم نفعل شيئًا سوى الضحك عاليًا ونحن نتبادل عبارات كهذه:

«لقد فعلها لأجلكِ».

«لا، بل لأجلكِ».

«لقد وقع في غرامكِ، وهو مستعدٌّ لدعوة الشيوعيِّين، وقتلة أبيه، كي يحظى بكِ».

«ما الذي تقولين؟ لقد انتبه بالكاد إلى وجودي».

رفض رينو تلبية دعوة ستيفانو حالما سمع بها. لكنَّه تأرجح في قراره لرغبته في سحق الأخوين سولارا، وتحدّث بالأمر مع باسكوالي الذي استاء كثيرًا. أمَّا إنتسو، فغمغم: «حسنًا، سآتي إن استطعت». وبالنسبة إلى آبائنا، فقد أُسعدوا جدًّا بتلك الدعوة، التي تعني لهم أنّ الدون آخيل لم يعد له وجود، وأنّ زوجته وأولاده كانوا أناسًا طيِّبين وموسرين، ومن المشرّف حقًّا أن يكونوا أصدقاءهم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليلا كانت مشدوهة في البدء، وكأنَّها نسيت أين كانت، نسيت الحيّ والأزقّة ومحلّ أبيها؛ ثم جاءت إليّ في وقت متأخِّر من عصر يوم ما، بملامح مَن أدرك كلّ شيء، وقالت:

«لقد أخطأنا. ستيفانو لا يريدني ولا يريدك».

فكّرنا كعادتنا، بمزج الوقائع مع بعض الخيال. ما الذي كان يريده، إن لم تكن واحدة منّا؟ ارتأينا أنّ ستيفانو أيضًا كان يتوق لتلقين ابنيْ سولارا درسًا لا ينسيانه. تذكّرنا ميكيلي حين استطاع بطريقته طرد باسكوالي من حفلة والدة جيليولا، إذ أقحم نفسه في شؤون آل كارّاتشي ما بدا أنّ ستيفانو لا يستطيع الدفاع عن ذكرى والده. ولو تمعّنّا في الموضوع لوجدنا أنّ الأخوين سولارا لم يهينا باسكوالي وحسب، بل ستيفانو أيضًا. ما دعا الأخير أن يبتلع السمّ نكاية بهما: يطبّع العلاقات كلّيًّا مع عائلة بيلوزو، بل ويدعوهم إلى حفلة رأس السنة أيضًا.

«وما الذي سيستفيده؟»

«لا أعلم. إنَّه ينوي الإقدام على خطوة لا يجرؤ أحد في الحيّ كلّه على تنفيذها».

«أن يصفح عنهم؟»

هزّت ليلا رأسها، وازدادت شكوكها. كانت تحاول أن تستوعب، كلتانا نحاول أن نستوعب، وكان الاستيعاب بمثابة تمرينٍ يعجبنا للغاية. لا يبدو أنّ ستيفانو من النوع القادر على الغفران. كان يصبو إلى شيء آخر. بالنسبة إلى ليلا، شعرتْ أنَّها وجدت الحلّ، شيئًا فشيئًا، انطلاقًا من بعض أفكارها التي أرّقتها في الآونة الأخيرة؛ أي منذ أن راحت تناقش باسكوالي.

«هل تذكرين حين قلتُ لكارميلّا إنّها تستطيع الارتباط بألفونسو؟»

«أجل».

«شيء كهذا ما يخطر في بال ستيفانو».

«أن يزوِّج كارميلّا لنفسه؟»

«بل أكثر من ذلك».

كان ستيفانو، في رأيها، يحاول تسوية الخلافات كلّها؛ سعيًا للخروج من «الماضي». لم يكن ينوي التصرُّف وكأنَّ شيئًا لم يكن، كما كان آباؤنا يفعلون، بل أن يطبِّق المبدأ التالي: أعرف أنّ أبي كان سيِّئ السمعة، ولكنّ اليوم لي، أنا موجود، ونحن جميعنا أبناء اليوم، وكفى. بالمحصّلة، أراد أن يُفهم جميع سكّان الحيّ أنَّه لم يكن الدون آخيل، وأنّ النجّار بيلوزو القاتل لا يمثّل عائلة بيلوزو. أعجبتنا هذه الفرضيَّة، وباتت يقينًا على الفور، ما حذا بنا إلى احترام الشابّ كارّاتشي كثيرًا. وقرَّرنا أن نصطفّ إلى جانبه.

ورحنا نبيّن رأينا لرينو وباسكوالي وأنطونيو؛ ونقول لهم بأنّ تلك كانت أكثر من دعوة، كانت خطوة تحمل معاني غاية في الأهمِّيَّة. وكأنّ ستيفانو يقول: لقد وقعت أحداث مريرة قبل وجودنا، وتعامل آباؤنا معها ـ كلّ على طريقته ـ بأسلوب سيِّئ؛ ولكنّنا سنطوي صفحة الماضي من الآن وصاعدًا، لنثبت أنّنا، نحن الأبناء، أفضل منهم.

«أفضل من آبائنا؟» سأل رينو مبديًا اهتمامه.

«أجل»، قلتُ له، «خلافًا للأخوين سولارا اللذين يتصرَّفان أسوأ من والدهما وجدّهما».

ظهرتْ مشاعري الجيّاشة على كلامي، وتحدّثت بالإيطاليَّة الفصيحة، كما لو كنت في المدرسة. ليلا نفسها رمتني بنظرة متعجِّبة، بينما تهامس رينو وباسكوالي وأنطونيو بارتباك. حاول باسكوالي أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجيبني بالإيطاليَّة، لكنَّه عزف عن هذا سريعًا. وقال متشائمًا:

«إنّ الأموال التي ينمّيها ستيفانو هي في الأصل أموال أبيه التي حصل عليها بفضل الحقيبة السوداء. والملحمة كانت محلّ والدي النجّار ذات يوم».

ضيّقتْ ليلا حدقة عينيها، حتى أوشكتْ أن تغمضهما.

«هذا صحيح. ولكنْ هل تفضِّلون أن تنحازوا إلى جانب من يسعى إلى التغيير أم إلى جانب سولارا؟»

فأجابها باسكوالي بكبرياء، إيمانًا بما يقول وبسبب الغيرة من ستيفانو الذي حاز على أهمِّيَّة غير متوقَّعة في كلام ليلا:

«أنا أنحاز إلى جانبي. نقطة انتهى».

لكنَّه كان شابًا طيِّب القلب. فكَّر في الموضوع مليًّا، وراح يحدّث أمّه ويناقش أفراد العائلة أيضًا. كانت جوزيبينا عاملة كادحة وكريمة ومحترمة وعزيزة النفس، اتَّشحت بالأسى والكآبة والشقاء بعد سجن زوجها. اتَّجهتْ حينها إلى الخوري. واتَّجه الخوري بدوره إلى ملحمة ستيفانو، حاور ماريًا مطوَّلاً، ثم عاد ليناقش جوزيبينا بيلوزو. وفي النهاية، اقتنع جميعهم بأنّ الحياة كانت صعبة في الأساس، وبأنّ من مصلحة الجميع أن تخفّ التوتُّرات في مناسبة العام الجديد. وهكذا، في الحادية عشرة والنصف ليلاً من الحادي والثلاثين من ديسمبر، بعد العشاء الكبير، توافدت العائلات، كلّ على حدة، عائلة النجّار السابق وعائلة البوّاب وعائلة الإسكافي وعائلة ميلينا التي هذّبتْ مظهرها للمناسبة، وصعدوا حتى الطابق الرابع، ليحتفلوا بالعام الجديد في البيت المكروه، الذي كان يسكن فيه الدون آخيل.

٢٢

استقبلنا ستيفانو بحفاوة فائقة. أذكر أنَّه كان مسرّح الشعر بعناية، واحمرّ وجهه قليلاً من شدَّة التأثُّر، ويرتدي قميصًا أبيض اللون وربطة عنق وسترة أنيقة زرقاء بلا كمّين. رأيته في منتهى الوسامة، كأنَّه أمير ما. كان يكبرنا، أنا وليلا، بسبعة أعوام تقريبًا؛ لذا شعرتُ بالاستياء من ارتباطي بجينو الذي كان في عمري: حين طلبتُ منه المجيء معي إلى بيت كارّاتشي، أجابني بأنَّه لا يستطيع، فوالداه لا يسمحان له بالخروج بعد منتصف الليل خوفًا عليه. وأنا كنت أودّ الارتباط بشابّ ناضج، وليس بصبيّ صغير، بواحد من أولئك الشبّان: ستيفانو، باسكوالي، رينو، أنطونيو، إنتسو. نظرتُ إليهم، ورحت أرمقهم طوال السهرة. كنت أتلمَّس، بعصبيّة، أقراط أذنيّ وسوار أمّي الفضّيّ. استعدتُ ثقتي بجمالي في تلك الآونة، وأردتُ أن أحظى بالبرهان من أعينهم. لكنَّهم كانوا منشغلين بتحضير الألعاب الناريَّة لإطلاقها منتصف الليل. كانوا متأهِّبين لخوض معركتهم الذكوريَّة، وحتى ليلا لم تلق اهتمامًا منهم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبدى ستيفانو لطفه خصوصًا مع السيِّدة بيلوزو وميلينا التي لم تنبس ببنت شفة؛ كانت نظراتها متوتِّرة وأنفها طويلاً، لكنّ شعرها مسرّح جيِّدًا، وقد زيّنت أذنيها بالأقراط، وظهرت كسيِّدة مجتمع بثوب الحداد الأسود. إبّان منتصف الليل، سكب صاحب البيت الشمبانيا في كأس أمّه أوّلاً، ثم في كأس والدة باسكوالي ثانيًا. شربنا النخب، وتبادلنا الأمنيات بعامٍ جديد يحمل البشرى، وصعدنا مباشرة إلى السطح. كان الشيوخ والصغار يرتدون معاطفهم، ويلفُّون رقابهم بالشال اتِّقاءَ برودة الطقس. لاحظتُ أنّ ألفونسو كان الوحيد الذي يصعد على مضض. فناديته بمودّة، لكنَّه لم يسمعني، أو تظاهر بذلك. هرعتُ إلى الأعلى. وجدتُ فوق رأسي سماءً مريعة، تغصّ بالنجوم والظلام والبرودة.

لم يمنع الطقسُ الشبّان من ارتداء ثياب قطنيّة، حتى إنّ باسكوالي وإنتسو اكتفيا بالقميص لا غير. أنا وليلا وآدا وكارميلّا ارتدينا ثيابًا خفيفة، كنَّا نخصِّصها لحفلات الرقص، ما جعلنا نرتجف من البرد والإثارة. سمعنا أوّل دفعة من الصواريخ تنطلق نحو السماء، وتنفجر على شكل أزهار ملوَّنة. وسمعنا دويّ الأغراض القديمة التي يقذفها السكَّان من النوافذ وهم يصيحون ويضحكون مبتهجين. كانت الضوضاء تفور في أرجاء الحيّ تزامنًا مع إطلاق الألعاب الناريَّة. أشعلتُ المفرقعات الخفيفة والمدوّرة للأطفال. يعجبني أن أرى في أعينهم الدهشة والذعر اللذين شعرتُ بهما في طفولتي. ليلا أقنعت ميلينا بمساعدتها في إشعال فتيل البنغال. أبرق الوميض وانطلق الصاروخ مخلِّفًا خطًّا ملوَّنًا. صرخت الاثنتان فرحًا، وتعانقتا.

انشغل رينو وستيفانو وباسكوالي وإنتسو وأنطونيو بنقل الصناديق والعلب والأكياس التي تحتوي على المتفجِّرات، وكانوا فخورين

بنجاحهم في جمع هذا العدد الهائل من الموادّ. شمّر ألفونسو عن ساعديه، لكنَّه كان يساعدهم بلا رغبة، واستجاب لطلب أخيه المستعجل بشكل يدلّ على الانزعاج. ومن جهة ما، بدا لي خجولاً من رينو الذي كان مسرورًا حقًّا، فراح يدفعه بعصبيَّة وينزع الأغراض من بين يديه، ويعامله كطفل صغير. وبدل أن يغضب ألفونسو، اكتفى بالانسحاب وعدم الاختلاط مع الآخرين. وفي تلك الأثناء، تلألأ الوميض من عيدان الثقاب، وشرع الأكبر سنًّا بإشعال السجائر بيد، وصدّ الهواء باليد الأخرى، وراحوا يتحدَّثون بأسلوب جدِّيٍّ ولائق. ففكَّرتُ لو أنّ الحرب الأهليَّة اندلعت، كتلك، ما بين رومولوس وريموس، ماريوس وسولا، يوليوس قيصر وبومبي، لكانت وجوه أولئك الأبطال كوجوه هؤلاء الشبّان، ولكانت نظراتهم متشابهة ووقفاتهم متطابقة.

ملأ جميع الذكور قمصانهم بالمفرقعات والقنابل الاصطناعيَّة، ما عدا ألفونسو، ورتَّبوا الصواريخ في صفوف من القوارير الفارغة. وكان رينو، الذي فاق الآخرين توتُّرًا وصياحًا، قد أوكلني، أنا وليلا وآدا وكارميلَّا، مهمَّة إمداد الشبَّان بالموادّ حالما يطلبونها. ثم راح الآخرون يتحرَّكون، الصغار والفتية والكهول على حدّ سواء ـ كأخويّ بيبّي وجانّي، وأبي، وانضمّ إليهم الإسكافيّ أيضًا وهو الذي كان أكبرهم سنًّا ـ راحوا يتحرَّكون في البرد والظلام ليشعلوا الفتيل، ويرموا النار صوب السماء أو خلف السياج، ضمن جوّ احتفاليّ عارم، وحماس متصاعد، وصراخ بعبارات مثل: أرأيت الألوان، يا إلٰهي ما أقوى هذا الدويّ، هيّا هيّا. وحدث أن نغَّصت ميلينا الأجواء بفزعها وعويلها، ورينو بسلب المفرقعات من أخويّ ليستعملها بنفسه، موبّخًا بأنَّهما يهدرانها، إذ يرميانها دون انتظار أن تشبّ النار في الفتيل جيِّدًا!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انخفض الغضب البرّاق في المدينة تدريجيًا حتى تلاشى، ليفسح المجال لضوضاء السيَّارات ومزاميرها. وظهرت مساحات واسعة من الظلام في السماء مجدَّدًا. وبتنا نرى شرفة آل سولارا بوضوح، رغم كثافة الدخان ما بين الوميض اللامع.

كانوا على مسافة قصيرة منَّا، وكنَّا نراهم جيِّدًا. لا يختلفون عنَّا في شيء: أفقدتهم الرغبة في إحداث الفوضى رشدهم جميعًا، أبًا وأبناءً وأقارب وأصدقاء. وكان أهالي الحيّ يعلمون أنّ ما حدث حتى تلك اللحظة لا شيء، مقارنة بما سيحدث، حين ينهي البؤساء احتفالهم المتواضع، ويكفّون عن ضرب المفرقعات الواهية والألعاب الشحيحة التي تنهمر كالرذاذ الفضِّيّ والذهبيّ، حين تشهد اللحظة أنّهم وحدهم نجوم الحفل بلا منازع.

وهذا ما حصل. تكاثفت النيران بشكل مريع على شرفة سولارا، وأخذت المتفجِّرات تعلو الشوارع والسماء. وكانت الألفاظ الشنيعة الجيَّاشة ترافق كلّ ضربة، خصوصًا تلك التي تشبه التدمير الشامل. وللمفاجأة، ها هو ستيفانو وباسكوالي وأنطونيو ورينو يردُّون بالمثل على ضربات سولارا بالنار والشتائم. كانوا يرمون صاروخًا مقابل كلّ صاروخ من شرفة سولارا، والمفرقعات بالمفرقعات، لتصبح السماء ملعبًا لأزهار ناريَّة مبهرة، تُنير الشارع من تحتها وتزلزله، حتى إنّ رينو، في لحظة معيَّنة، تسلّق السياج وهو يصيح بالإساءات، ويرمي المفرقعات الثقيلة، بينما تصرخ أمّه من الفزع قائلة: «انزل وإلَّا سقطتَ».

حينذاك، التفّ الهلع بميلينا، وراحت تنوح بعويل حادّ ومستمرّ. تأفَّفت آدا، إذ عليها أن تصطحب أمّها إلى المنزل؛ لكنّ ألفونسو لوّح بيده، واهتمّ بنفسه في الأمر لينسحب إلى الأسفل مع المرأة. وسرعان

ما تبعتهما أمّي وهي تعرج، والنساء الأخريات حملن أولادهنّ الصغار. أصبحت متفجِّرات سولارا أكثر همجيَّة، حيث إنّ أحد صواريخهم، بدل أن يتَّجه إلى السماء، اصطدم بسياج سطحنا، وأحدث إشعاعًا أحمر مدوّيًا ودخانًا خانقًا.

«لقد فعلوها عنوة»، صاح رينو في وجه ستيفانو، مستوحشًا.

بدا ستيفانو كظلّ في ذلك الصقيع، وأشار إليه بأن يهدأ. هرع إلى زاوية ما، حيث أودع بنفسه صندوقًا، وكانوا قد طلبوا منّا، نحن الفتيات، ألّا نمسّه. وشرع بتفريغه داعيًا الآخرين لمساعدته.

«إنتسو، باسكوالي، رينو، أنطونيو، هيّا بسرعة، تعالوا إلى هنا. فلنرهم ما عندنا»، صاح بنبرة لا توحي بأنَّه كان بائعًا لطيفًا.

ركض الجميع ضاحكين وهم يردِّدون: أجل، فلنرهم ما عندنا. خذ أيُّها السافل، خذ. وكانوا يرسلون إشارات مسيئة بأيديهم إلى شرفة سولارا. كنّا ننظر إلى أشكالهم الهستيريَّة، ونرتعش بردًا. بقينا وحيدات، بلا أيّ وظيفة. حتى والدي كان قد نزل مع الإسكافيّ؛ فيما كانت ليلا صامتة تراقب المشهد، كأنَّه لغزٌ ذو غموض محيّر.

كانت قد دخلت في تلك الحالة التي أشرتُ إليها مسبقًا، والتي أسمتها بنفسها فيما بعد بـ «انحلال الهوامش». وصفتْها لي على أنَّها مثل ليلة مزيّنة ببدر بهيّ، يسمو فوق البحر، وإذا بزوبعة هوجاء شديدة السواد تتقدَّم نحو السماء وتبتلع الأنوار، ثم تطيح بهالة القمر الدائريَّة، فتشوّه ذلك القرصَ المضيء وتعيده إلى طبيعته الحقيقيَّة: مادَّة خامّ لا معنى لها. ليلا تخيّلتْ، ورأت وشعرتْ، أنّ أطراف شقيقها تتآكل حقًّا. على مرأى عينيها، فقد رينو ملامحه المعهودة التي اعتادت عليها ليلا، ملامح ذلك الفتى الشهم النزيه؛ فقد الإخلاص المنقوش على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقاسيم وجهه الأنيس، بعد أن كان شقيقها المحبوب الذي عهدتْه طيّب القلب، منذ أن تشكّلت ذاكرتها، يسلّيها ويساعدها ويدافع عنها. أمَّا هناك، وسط الانفجارات العنيفة، والصقيع، والدخان الذي يحرق العيون، ورائحة الكبريت الثاقبة التي تنخر الأنوف، رأت ليلا أنّ شيئًا ما يطحن بنية أخيها، ويعرِّضه لضغط مكثّف كي يهشّم جوانحه، فيذوب مظهره وينسكب مثل الصهارة، ليظهر أمام عينيها على حقيقته. وكلَّما مرَّت ثانية من تلك الليلة الاحتفاليَّة، ازداد رعبها، وتولّد لديها انطباعٌ بأنّ حركات رينو السريعة، وذوبانه حول نفسه، تعرّض كلّ ما يحيط به إلى الانحلال؛ حتى هي نفسها شعرتْ بأنّ أطرافها ترتخي وتوشك على الانصهار في ذلك الجوّ المحموم. بذلتْ جهدًا كبيرًا كي تضبط أعصابها، ونجحتْ في ذلك لدرجة أنّها لم تُظهر شيئًا من الاضطراب الذي استفحل في سريرتها. صحيحٌ أنّني لم أعبأ بها طوال ذلك الصخب العنيف متعدِّد الألوان؛ لكنّني أعتقد أنَّني صُدمتُ بتعابيرها التي توحي بالرعدة المتصاعدة. لاحظتُ أنَّها تطيل النظر بتقزُّزٍ في ظلّ أخيها، والذي كان أكثر الشبّان طيشًا وعنجهيَّة ومبالغة في الصياح بالشتائم الدمويَّة تجاه شرفة سولارا. كانت تبدو مذعورة وهي التي لم تكن تخشى شيئًا بشكل عام. في تلك اللحظة، لم تستوقفني حالتها، كنت أشعر بالميل أكثر إلى كارميلًا وآدا؛ إذ كان يبدو أنَّها كالعادة لا تُقيم اعتبارًا باهتمام الذكور؛ أمّا نحن، فكنَّا لا نرى أيّ معنًى لوجودنا، في تلك الفوضى العارمة والليلة الزمهرير، دون لفت انتباه الذكور. لو عاد الأمر إلينا، لفضّلنا أن يوقف ستيفانو أو إنتسو أو رينو تلك الحرب، ويمرِّروا أذرعهم على أكتافنا، ويضغطوا جذوعهم على خصورنا، ويتغزّلوا بنا. ولكنّنا في الواقع، كنَّا واقفات جنبًا إلى جنب كي ننعم بالدفء، منزويات؛ بينما كان الذكور

يسرعون للإمساك بالفتيل الثخين وهم مصعوقون من ذخيرة ستيفانو التي لا تنضب، ويثنون على سخائه، ويحسدونه ـ في الآن ذاته ـ على نقوده التي حوّلها إلى شهب ناريَّة وأزهار مشعّة وانفجارات عنيفة ودخان كثيف، لا لشيء سوى للتلذُّذ بالانتصار.

تعادل الطرفان لوقت لا أستطيع حصره، انفجارٌ من هنا يليه انفجار من هناك، كما لو أنّ السطح والشرفة خندقان، وكلّ الحيّ يرزح تحت رحمة ذلك العصف الأهوج. لم نعد نفهم شيئًا لشدَّة الضجيج وشظايا الزجاج تحت السماء الممزَّقة. صاح إنتسو: «لقد أنهوا كلّ ما بحوزتهم»، لكنّ هذا لم يمنع رفاقنا، لا سيّما رينو، عن الاستمرار حتى لم يتركوا فتيلاً ينتظر الاشتعال. وحينها، التفّ الجميع بجوقة تتغنَّى بالنصر وهم يقفزون ويتعانقون، ثم استراحوا.. وحلّ الهدوء.

لكنّ الهدوء لم يدم طويلاً، وسرعان ما قطعه بكاء طفل في البعيد، وصياح وشتائم، وسيَّارات تتقدَّم في الشوارع المكتظَّة بفتات البارود. رأينا خطوطًا من البرق تنبثق من شرفة سولارا، ووصلت إلينا أصواتٌ جامدة.. بووف بووف. صرخ رينو محبطًا: «لقد استأنفوا». لكنّ إنتسو أدرك ما الذي يحصل في اللحظة ذاتها، وكان أوّل من دفعنا إلى الداخل، وانضمّ إليه باسكوالي وستيفانو أيضًا. وظلّ رينو وحيدًا يطلق أرذل الشتائم محاولاً تسلّق السياج من جديد؛ حتى تخلّصت ليلا من قبضة باسكوالي، وأسرعت لتسحب شقيقها إلى الداخل وهي تمطره بدورها بشتائم مدوِّية. هرعنا نحن الفتيات إلى الأسفل نصرخ ذعرًا. كان آل سولارا، رغم انتصارهم، يطلقون علينا الرصاص.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٣

فاتني الكثير من أحداث تلك الليلة، كما قلت سابقًا. لا سيّما أنّني تجاهلتُ ليلا بسبب انشغالي بأجواء الحفل والمخاطر، وهياج الذكور الذين شعّت أجسادهم أكثر من تلك النيران في السماء. ومع هذا، كانت تلك الليلة شاهدة على أوّل التغيّرات الباطنيَّة التي طرأت على ليلا.

سبق وأشرتُ إلى أنّني لم أنتبه لما حدث لها، إذ كان من الصعب استيعاب خواطرها في تلك اللحظات الصاخبة. لكنّني استنتجتُ ذلك بسرعة، بعد أن رأيتُ التداعيات. باتت ليلا أكثر كسلاً. أمَّا أنا، بعد مضيّ يومين، فقد نهضتُ باكرًا، رغم أنَّ المدرسة لم تفتح أبوابها بعد، وذلك لأرافقها إلى المحلّ، وأساعدها في التنظيف؛ لكنَّها لم تأت. وصلتْ متأخِّرة، مكفهرَّة الوجه؛ وتمشّينا في الحيّ، وتجنّبنا درب المحلّ.

«ألا تذهبين إلى العمل؟»

«لا».

«ولماذا؟»

«لم يعد يعجبني».

«والحذاء الجديد؟»

«في حالة يُرثى لها».

«وماذا ستفعلين؟»

بدا لي أنَّها لا تدري ما الذي تنوي فعله. الأمر الوحيد المؤكَّد أنَّها بدت قلقة بشأن أخيها، أكثر من قبل بكثير. ما حذا بها إلى تعديل أفكارها عن الثراء. لم تتخلّ عن ضرورة أن نصبح ثريّتين. لا نقاش حول هذا، لكنّ الغاية لم تعد كما كانت عليه في طفولتنا: لم يعد ثمّة صناديق تحتوي على أحجار كريمة ودنانير ذهبيَّة برَّاقة، بل كان يبدو أنّها باتت ترى المال كالإسمنت المسلَّح: المال يثبّت ويدعم ويصلح هذا وذاك. يصلح رأس رينو على وجه الخصوص. إذ كان يعتبر ذلك الحذاء الذي صنعاه معًا، تامًّا، ويريد أن يُريه لفرناندو. لكنّ ليلا كانت على يقين من أنّ الحذاء مليء بالعيوب والنقائص، (وبرأيها أنّ رينو أيضًا متيقِّن من هذا)، وأنّ والدها كان سيتفحّص الحذاء ثم يرميه حالاً. لذا، كانت تقول له أنْ لا بدّ من التجريب وإعادة التجريب، وإنّ الطريق إلى مصنع الأحذية كانت وعرة؛ إلَّا أنّ رينو لم يعد بوسعه الانتظار أكثر، كان يستعجل الثراء ليصبح كالأخوين سولارا، وستيفانو أيضًا، وأخفقتْ ليلا في إقناعه هذه المرَّة. وبدا لي فجأة أنّ الثراء بحدّ ذاته لم يعد يهمّها. كانت تتكلَّم على المال بلا تشويق، كأنَّه مجرّد علاج يجنّب رينو الوقوع في مصيبة ما. «الذنب كلّه ذنبي»، اعترفتْ لي على الأقلّ. «أنا التي أقنعته بأنّ الحظّ السعيد خلف أقرب زاوية».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبما أنّ خلف الزاوية لم يكن ثمّة شيء، كانت تتساءل، وعيناها تقدحان، ما الذي بإمكانها فعله لتهدّئ من روعه.

كان رينو متوتّرًا حقًّا. على سبيل المثال، لم يؤنّب فرناندو ابنته على انقطاعها عن المجيء إلى المحلّ، بل أفهمها أنّه سيكون سعيدًا لو بقيت في المنزل لتساعد أمّها. أمّا شقيقها، فغضب جدًّا، ولم يمض أوّل أسبوع من شهر يناير حتى شهدتُ على شجار مريع بينهما. ظهر رينو مطأطئ الرأس، واعترض طريقنا، وقال لها: «تعالي إلى العمل فورًا». أجابته ليلا أنّها لا تفكّر في هذا الموضوع مطلقًا. أمسك ذراعها بشدّة، فثارت عليه بشتيمة وقحة، فصفعها رينو صارخًا: «عودي إلى البيت، وساعدي أمّك إذن». لم تعترض ليلا، انصرفت دون أن تودّعني.

بلغ النزاع حدوده القصوى في يوم عيد الساحرة، حين استيقظتْ ووجدتْ بجانب سريرها جرابًا مليئًا بالفحم. فهمتْ أنّ رينو من فعل ذلك، لذا حضّرت الفطور للجميع ما عداه. ظهرت أمّها، وكانت سعيدة ومتأثّرة، لأنّ ابنها ترك لها جرابًا مليئًا بالسكاكر والشوكولاتة معلّقًا على كرسيٍّ ما. كم كانت معجبة بفلذة كبدها. حين لاحظتْ أنّ الفطور لم يكن حاضرًا عند جانب رينو، أرادت أن تجهّزه بنفسها، لكنّ ليلا منعتها. وبينما كانت الأمّ وابنتها تتصايحان، ظهر رينو فرمته ليلا بقطعة من الفحم. ضحك الشابّ ظنًّا منه أنّها تمازحه، وأنّها أحبّت المقلب. بيد أنّه حين شعر بأنّها ترميه جدّيًّا، حاول أن يمسك بها ليضربها. وحينها ظهر فرناندو، لا يرتدي سوى سرواله وقميصه الداخلي، وبين يديه علبة كرتونيّة.

قال «انظروا ماذا أهدتني الساحرة»، وكان واضحًا أنّه غاضب.

أخرج من العلبة الحذاءَ الذي صنعه الشقيقان سرًّا. فتحتْ ليلا

فمها من هول المفاجأة. لم تكن على دراية بتلك المبادرة، كان رينو قد قرَّر بنفسه أن يُظهر ما أنجزاه لأبيه كما لو أنَّه هبة من الساحرة.

عندما رأت ابتسامة هنيئة ومرتبكة ترتسم على وجه شقيقها، وفي الوقت نفسه، رأت نظرات متوتِّرة تعلو وجه أبيها، تيقّنتْ ممّا أرعبها على السطح، وسط الدخان والمتفجِّرات: كان رينو يفقد تقاسيمه المعتادة، كان أخوها عرضة لـ «انحلال الهوامش»، وقد يثور بما لا طاقة لأحد على صدّه. ما بين تلك الابتسامة وتلك النظرة، رأت ليلا نوعًا من التعاسة لا يُحتمل، وكلّما ازداد الخناق عليها ازدادت مودّتها لأخيها، وشعرتْ بضرورة أن تكون بقربه، تعينه ويعينها.

«ما أجمله»! قالت نونتسيا، وكانت تجهل كلّ ما يتعلَّق بحكاية الحذاء.

تجهّم وجه فرناندو، على طريقة راندولف سكوتّ، ودون أن ينبس ببنت شفة، جلس وأدخل قدمه اليمنى، وأتبعها باليسرى، في الحذاء.

«صمّمته الساحرة على مقاس قدميّ تمامًا»، قال.

نهض ليتفحَّصه. مشى إلى الأمام، ثم عاد إلى الوراء في المطبخ تحت أنظار أسرته.

«إنَّه مريح حقًّا»، علّق.

«إنَّه حذاء يليق بالسادة»، قالت زوجته وهي تحيط ابنها بنظرات الفخر والإعجاب.

جلس فرناندو مرَّة أخرى. نزع الحذاء، وتفحّصه من أعلاه إلى أسفله، ظاهره وباطنه.

«صانع هذا الحذاء بارعٌ بالفعل»، قال دون أن يصفو لون وجهه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبدًا: «أحسنتِ أيّتها الساحرة».

كان واضحًا أنَّه يتألَّم، في كلّ كلمة ينطق بها، وأنّ ذلك الألم يستفزّه لتحطيم كلّ شيء. لكنّ رينو بدا وكأنَّه لم يدرك الأمر. كان ينتفخ غرورًا بكلٍّ كلمة ساخرة يقولها والده، ويبتسم محمرّ الوجه، ويقول عبارات ناقصة: لقد فعلتُ هكذا يا أبي، لقد أضفتُ هذا، رأيتُ أنّ... أمَّا ليلا فكانت تودّ الخروج من المطبخ، والهرب من موجة الغضب العاتية التي سيفجّرها فرناندو، لكنَّها ارتبكت في قرارها، إذ لم تشأ أن تترك أخاها بمفرده.

«إنَّه مريح ومتين في آن واحد» تابع فرناندو، «ليس فيه أيّ عيب. ناهيك عن أنّني لم أرَ مثله في قدميْ أحد أبدًا. ثم إنّ هذا الرأس المدبَّب والعريض يمنحه أصالة لا شبيه لها».

جلس وانتعله ثانية، وربط خيوطه. قال لابنه:

«استدر يا رينو كي أشكر الساحرة».

ظنّ رينو أنَّها مزحة ستغلق الصدام الطويل نهائيًّا، واستدار سعيدًا ومرتبكًا. وما إن أدار كتفيه حتى ركله أبوه بقوَّة على مؤخّرته، ووصفه بالحيوان البليد، وقذفه بكلٍّ ما وقع تحت يديه، ثم رماه بالحذاء أيضًا.

فصلتْ ليلا بينهما، حينما رأت أنّ أخاها أخذ يصيح، بعد أن اكتفى بصدّ اللكمات والرفسات، وراح، هو الآخر، يرمي الكراسي ويكسِّر الأطباق، ويبكي، ويُقسم أنَّه يفضِّل الانتحار على مواصلة العمل بلا أجر عند أبيه، ما أفزع أمّه وإخوته الآخرين والجيران. ولكنْ بلا جدوى. كان على الوالد وولده أن يفرّغا غلّهما حتى تنهك قواهما؛ ثم استعادا العمل معًا، بصمت، وخيبة الأمل تخنقهما داخل المحلّ.

لم يعد أحد منهما يتطرّق لمشروع الأحذية. قرَّرت ليلا أنّ دورها يكمن في مساعدة أمّها وشراء الحاجات والطبخ وغسل الثياب ونشرها تحت الشمس، ولم تعد تذهب إلى المحلّ إطلاقًا. استاء رينو وزاد عبوسه، وشعر أنَّه مذنب بلا سبب؛ لذا راح يطالب أخته بأن ترتّب جواربه وسراويله وقمصانه جيِّدًا في دُرْجه، وأن تخدمه وتبجّله كلَّما عاد من العمل. كان يحتجّ إن لم يجد الأمور كما يحلو له، ويؤنّبها بكلمات قاسية، مثل: لست قادرة على كيّ قميص أيّتها المغفَّلة. لم تكن ليلا تعترض، بل شرعت تنفّذ واجباتها باهتمام وعناية.

وبالطبع، لم يكن الشابّ راضيًا عن تصرُّفاته، كان يتلوّى ويحاول أن يهدأ، ويبذل قصارى جهده كي يعود مثلما كان. في الأيَّام الهنيئة، صباح يوم الأحد مثلاً، كان يدور حولها، ويمازحها بنبرة لطيفة: «أنت غاضبة منِّي، لأنّني تفرَّدتُ بالتهاني على إنجاز الحذاء؟» كان يكذب، «لكنّني فعلتُ ذلك كي أجنّبك غضب والدي». ثم يطلب منها العون: «ساعديني، ما الذي علينا فعله الآن؟ لا يمكننا أن نبقى هكذا، أنا أريد الخروج من هذا الوضع». كانت ليلا تلتزم الصمت، تتابع الطبخ أو الكيّ، وتلثمه أحيانًا على وجنته كي يفهم أنَّها لم تعد غاضبة. لكنَّه غالبًا ما يثور، وينتهي به الغضب لتحطيم شيء ما. كان يصيح بأنَّها هي التي خانت، وستخونه لاحقًا طالما أنَّها ـ عاجلاً أم آجلاً ـ ستتزوَّج أحد الحمقى وترحل، لتتركه وحيدًا في الشقاء الأبديّ.

في بعض الأحيان، حين لا يوجد أحد في المنزل، كانت ليلا تتّجه إلى غرفة المهملات حيث خبّأتْ الحذاء. كانت تلمسه، وتنظر إليه بشغف، مذهولة من أنه ـ بكلّ الأحوال ـ رأى النور بفضل تصميم صغير على ورقة دفتر. كم من الجهد بذلتْ في سبيله!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٤

عدتُ إلى المدرسة، وسرعان ما أشغلتني الوتيرة المتعِبة التي يفرضها علينا الأساتذة. استسلم الكثير من الرفاق، وانخفض مستوى الصفّ. طلب جينو مساعدتي بعد أن كثرت نقاط ضعفه. حاولتُ أن أساعده، لكنَّه في الحقيقة لم يكن يسعى سوى لنسخ الحلول. تركتُه ينسخ ما يشاء، لكنَّه بدا فاقد الهمّة؛ لم يكن يبذل جهدًا للاستيعاب، وكان يخطئ حتى عندما ينسخ. وألفونسو أيضًا كان في وضع صعب، رغم مثابرته. ذات مرَّة، انفجر باكيًا خلال مساءلة في اللغة الإغريقيَّة، الأمر الذي كان يعدّ مهينًا للغاية بالنسبة إلى الذكور. ومن الواضح أنَّه فضّل الموت على أن يذرف دمعة واحدة أمام الصفّ، لكنَّه أخفق في ذلك. التزم جميعنا الصمت، وكنَّا متوتِّرين، عدا جينو الذي انفجر ضاحكًا، ربَّما بسبب التوتُّر، أو لسعادته برؤية رفيق مقعده في حالة حرجة. أثناء الانصراف، قلت له إنّنا لم نعد مرتبطين بسبب ضحكته المهينة. فردّ بسؤال مرتبك: «هل يعجبك ألفونسو؟» أجبته أنَّه، ببساطة، لم يعد يعجبني هو بسبب تصرُّفاته الصبيانيَّة. غمغم قائلاً إنّ

هذا ليس عدلاً، فنحن قد بدأنا للتوّ. لم يحدث بيننا شيء عظيم كما يحدث للمرتبطين، سوى قبلة فمويَّة بلا لسان، وقد حاول أن يلمس صدري، لكنّني غضبتُ ودفعته إلى الخلف. توسّل إليّ أن نستمرّ لبعض الوقت، غير أنَّ قراري كان حاسمًا، إذ كنت متأكِّدة من أن لا شيء يكلّفني إذا ذهبتُ إلى المدرسة، وانصرفتُ منها، دون صحبته.

بعد عدّة أيَّام من القطيعة مع جينو، أباحت لي ليلا بأنَّها حصلتْ على اعترافين في الوقت نفسه تقريبًا، أوَّل اعترافين في حياتها. ذات صباح، لحق بها باسكوالي، بينما كانت تشتري الحاجات. كان متوتِّرًا وثيابه متَّسخة. قال لها إنَّه كان قلقًا بشأنها، لأنَّه لم يعد يراها في محلّ أبيها، وظنّ أنَّها كانت مريضة. لكنَّه سُرّ برؤيتها حينئذ في صحَّة جيِّدة. إلَّا أنّ وجهه لم يكن يعبّر عن السرور مطلقًا أثناء كلامه. قطع حديثه كما لو كان يختنق، وصاح بأنَّه يكنّ لها المودَّة، كأنَّه أراد التخلُّص ممَّا علق في حلقه. كان يحبّها لدرجة أنَّه مستعدّ للحديث مع شقيقها وعائلتها، مع أيّ أحد، وفورًا، لخطوبة رسميَّة، إذا كانت موافقة. صعقتْ ليلا بما سمعتْ. وللحظات، حسبتْ أنَّه يمزح معها. ورغم أنّني نوَّهت لها ألف مرَّة أنّ أنظار باسكوالي لا تُحيد عنها أبدًا، فإنَّها لم تكن تصدِّقني. أمَّا حينها، كان واقفًا هناك، في يوم ربيعيّ جميل، والدمع يغرورق في عينيه، يرجوها ويقول لها إنَّ حياته بلا قيمة لو رفضتْه. كم كان من الصعب الاعتراف بهواجس الهوى! وجدتْ ليلا الكلمات المناسبة لتعبّر عن رفضها برفق. قالت إنَّها كانت ممتنَّة له عن كلّ الأمور التي شرحها لها: الفاشيَّة والمقاومة والملكيَّة والجمهوريَّة والحقيبة السوداء، والقائد لاورو واليمين الوطنيّ والحزب الديموقراطيّ المسيحيّ والشيوعيَّة. لكنَّها لم تفكِّر بالارتباط به، ولم تكن لترتبط بأحد؛ ثم ختمت قائلة: «إنّني أعزّك، أنت وأنطونيو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وإنتسو، كما أعزّ أخي رينو». ردّ باسكوالي: «لكنّني لا أعزّك كما أعزّ كارميلًا». وانصرف ليعود إلى عمله.

«والاعتراف الثاني؟»، سألتها بدافع الفضول، والقلق أيضًا.

«ليس بوسعك أن تتخيَّلي».

الاعتراف الثاني جاء من مارتشيلو سولارا.

شعرتُ بغصَّة في المعدة حين سمعتُ ذلك الاسم. إذا كان اعتراف باسكوالي يدلّ على أنَّها فتاة جذَّابة، فإنّ اعتراف مارتشيلُّو كان برهانًا على أنَّها لم تعد طفلة هزيلة، بل امرأة لعوب قادرة على إغواء أيّ ذكر. لأنّ مارتشيلُّو كان شابًّا وسيمًا وثريًّا، لديه سيَّارة، قويًّا وعنيفًا، مافيويًّا، بوسعه أن يحظى على أيّ أنثى يريد؛ كان اعترافه في نظري، ونظر كلّ الفتيات في عمري، يُعدّ نجاحًا، رغم سوء سمعته، أو ربَّما بفضلها تلك السمعة السيِّئة تحديدًا.

«وكيف حدث ذلك؟»

كان مارتشيلُّو يقود سيَّارته بمفرده، دون أخيه، ورآها تعود إلى البيت على الشارع العامّ. لم يقترب، ولم يحدِّثها من النافذة؛ بل ترك السيَّارة على قارعة الطريق، وبابها مفتوح، ليمشي نحوها. تابعتْ ليلا سيرها وهو خلفها. توسّل إليها أن تغفر له تصرُّفاته السيِّئة في الماضي، واعترف أنَّها كانت ستصنع خيرًا لو جزّت عنقه يومذاك. ذكّرها متأثِّرًا برقصتهما البديعة في حفلة والدة جيليولا، مشيرًا إلى إمكانيَّة الانسجام التامّ بينهما. وراح يتغزّل بها: «كم كبرتِ وأصبحتِ حسناء! يا لجمال عينيك، كم أنت جميلة»! ثم روى لها حلمًا راوده في الليلة الماضية: كان يطلب منها الارتباط، فوافقت، أهداها خاتم الخطوبة المطابق لخاتم جدّته المصمَّم بثلاث ماسات فتّانة. تحدَّثت ليلا أخيرًا، مستمرَّة

في مشيها. سألته: «هل وافقتُ على عرضك في الحلم؟» أكّد مارتشيلُّو، فردّت عليه: «هذا مجرّد حلم إذن، لأنَّك حيوان، أنت وعائلتك وجدّك وأبوك وأخوك، ولن أرتبط بك حتى لو هدّدتني بالقتل».

«هل قلتِ له هكذا؟»

«وأكثر من هذا».

«ماذا؟»

حين شعر مارتشيلُّو بالإهانة، أجابها بأنّ مشاعره هذه كانت مرهفة، وأنَّه يفكِّر فيها ليل نهار، وأنَّه يعشقها حقًّا. فردّت عليه أنّ من يتصرَّف على النحو الذي تصرّف به مع آدا، ومن يطلق النار على الناس في ليلة رأس السنة، كان وصفه بالحيوان إهانة للحيوانات. أدرك مارتشيلُّو أخيرًا أنَّها لم تكن تمزح، وأنَّها تعتبره بالفعل أقلّ وضاعة من ضفدع أو حرباء. شعر بالإحباط فجأة، وغمغم بعسر: «أخي من أطلق النار ولست أنا»، لكنَّه فهم أنَّها ستحتقره أكثر بعد نطقه لهذه الجملة. وكان كذلك. أسرعت ليلا خطواتها، وعندما حاول اللحاق بها صرختْ: «اغرب عن وجهي»، وهمّت بالركض. توقّف مارتشيلُّو كما لو أنَّه لا يذكر أين كان، وماذا ينبغي فعله، فعاد إلى سيَّارته مطأطئ الرأس.

«هل فعلتِ كلّ هذا بماتشيلو سولارا؟»

«أجل».

«يا لك من مجنونة. لا تخبري أحدًا بهذا».

شعرتُ أنْ لا معنى لنصيحتي، لكنّني قلتُ ما قلت لأظهر أنّني معنيَّة بأمرها جدًّا. كان من طباع ليلا أن تستمتع بالتفكير والخيال،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنَّها لم تكن تحبّ الثرثرة، خلافًا عن باقي الفتيات اللواتي يقضين أوقاتهنّ في الهذر. وبالفعل، لم تخبر أحدًا سواي عن اعتراف باسكوالي، ولم أسمع بقصّته من أحد. أمّا حادثة مارتشيلُّو، فأخبرتها للجميع. حتى إنّني عندما التقيتُ بكارميلًا، قالت لي: «هل عرفتِ أنَّ صديقتك رفضت عرض مارتشيلُّو سولارا؟» والتقيتُ بآدا، فقالت لي: «صديقتك رفضت مارتشيلُّو سولارا دفعة واحدة». وفي الملحمة، همستْ بينوتشا في أذني: «هل صحيح أنّ صديقتك أبت أن ترتبط بمارتشيلُّو سولارا؟» ألفونسو أيضًا، سألني مصعوقًا ذات صباح في المدرسة: «هل رفضت صديقتك مارتشيلُّو سولارا حقًّا؟»

وحين التقيتُ بليلا، قلت لها:

«لقد أسأتِ صنعًا بإخبار الجميع، ستثيرين غضب مارتشيلو».

أبدتْ عدم اكتراثها، ولم تتوقَّف لمتابعة الحديث؛ كان لديها ما تفعله لإخوتها وأمّها وأبيها في البيت. باتت الأعمال المنزليَّة شغلها الشاغل، منذ ليلة رأس السنة.

٢٥

تجاهلت ليلا ما أفعله في المدرسة طيلة العام الدراسيّ. وكلَّما سألتُها عن الكتب التي تستعيرها من المكتبة، وعمّا تقرأ، أجابتني بلؤم: «لم أعد أستعير شيئًا. الكتب تسبِّب لي الصداع».

أمَّا أنا، فكنت أدرس، وباتت المطالعة عادة محبَّبة لديّ. ولكنّني تيقنّتُ من أنَّني لم أعد أعيش نوعًا من المغامرة، منذ أن كفّتْ ليلا عن متابعتي واجتيازي في الدراسة والقراءة والمدرسة ـ بل وحتى في مكتبة المعلِّم فيرارو ـ وتحوَّلت الدراسة عندي إلى شيء أمارسه برتابة، وأحصل على الكثير من التقدير بفضله.

اتَّضح لي هذا جليًّا في مناسبتين:

ذات مرَّة، ذهبتُ لأستعير كتبًا من المكتبة، ببطاقتي المزدانة بإشارات الاستعارة والتسليم. أثنى المعلِّم على مواظبتي، ثم سألني عن ليلا معربًا عن أسفه الشديد على أنَّها وكلّ أفراد عائلتها كفُّوا عن استعارة الكتب. آلمني أسفه جدًّا، ومن الصعب أن أفسّر السبب. بدا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لي اهتمامًا حقيقيًّا وصادقًا بليلا، شيء أقوى من كلّ ثنائه على دأبي ومواظبتي. وخطر في ذهني أنّ ليلا تترك بصمتها على الكتب، وحتى لو استعارت كتابًا واحدًا في السنة، كان المعلِّم سيجد بصماتها لحظة التسليم؛ أمَّا أنا، فلا أترك آثارًا، بل لا أظهِر سوى رغبة هائجة في تكديس الكتب واحدًا فوق الآخر.

والمناسبة الثانية كانت تخصّ أدائي المدرسيّ. أحضر أستاذ الأدب وظائف الإنشاء بعد أن صحَّحها (ما زلت أذكر الموضوع: «عن مراحل قصَّة ديدون»). اعتاد الأستاذ على الاكتفاء ببضع كلمات، ليبرِّر حصولي على ثماني درجات أو تسع كالعادة، لكنَّه في تلك المناسبة راح يثني عليّ بسخاء أمام الصفّ كلّه، وختم أنّني حصلتُ على العلامة التامّة، عشرة. وفي نهاية الدرس، ناداني في الممرّ ليعبِّر عن إعجابه بكيفيَّة تعاملي مع الموضوع. وحين مرّ أستاذ التربية الدينيَّة، أوقفه، وروى عليه إنشائي بحماس. وبعد عدَّة أيَّام، لاحظتُ أنّ جيراتشي لم يكتف بالخوري، بل عرض إنشائي على أساتذة آخرين، بمن فيهم أولئك الذين يدرِّسون صفوفًا متقدِّمة. كان بعض أساتذة المرحلة الثانية يبتسمون في وجهي في الممرّ، وقد يعلِّقون بشيء ما أيضًا. استوقفتني ذات مرَّة الأستاذة غالياني، التي تدرِّس الصفّ الأوَّل من المرحلة الثانية.. وكان الجميع يقدِّرونها ويتجنّبونها، لأنَّها مشهورة بكونها شيوعيَّة، وقادرة على حلّ أيّ معضلة بأقلّ من جملتين. استوقفتني في ردهة المدرسة، كانت معجبة بالفكرة الأساسيَّة التي يدور حولها موضوعي، وهي أنّ الحبّ إذا هجر المدن تحوَّلت طبيعتها الخيِّرة إلى شرِّيرة، سألتني:

«ما الذي يعني لك «مدينة بلا حبّ»؟»

«شعبٌ يفتقد السعادة».

«اضربي لي مثلاً».

فكَّرتُ بالحوارات التي أجريتها مع ليلا وباسكوالي طوال شهر سبتمبر، وشعرتُ أنّ الحوار معهما مدرسة حقيقيَّة، حقيقيَّة أكثر من تلك التي أتردَّد إليها كلّ يوم.

«مثلاً إيطاليا تحت الحكم الفاشيّ، ألمانيا النازيَّة، وكلّ البشر في عصرنا الراهن».

رمقتني بإعجاب متصاعد. قالت إنّني أكتب جيِّدًا، ونصحتني ببعض القراءات، وعرضت عليّ أن تُعيرني من كتبها. وحين سألتني أخيرًا عن مهنة والدي، أجبتُ: «بوّابٌ في البلديَّة». فابتعدتْ مطأطئة الرأس.

كنتُ فخورةً باهتمام غالياني طبعًا، لكنَّه لم يأت بنتائج عظيمة، وسرعان ما عاد كلّ شيء إلى الروتين المدرسيّ. وبالتالي، حتى الشهرة المتواضعة التي حصلتُ عليها، وأنا في الأوّل الثانويّ، بدت لي باكرًا أنَّها لا شيء. ما الذي اتَّضح في النهاية؟ اتَّضح أنّ الدراسة والمذاكرة تُثمر نتائج ملموسة بصحبة ليلا فقط؛ وأنّ قربها منِّي يحفِّزني ويشدّ من أزري في ذلك العالم الموجود خارج حدود الحيّ، بين كلّ الأشياء والأشخاص والمناظر والأفكار التي تصادفني في الكتب. وقلت لنفسي: أنا من كتب موضوع الإنشاء عن ديدون بالتأكيد، وإنّني موهوبة بالقدرة على صياغة جمل رائعة، ما كتبتُه عن ديدون ملكي لا لبس في هذا؛ لكنّني كنتُ قد ناقشتُ ليلا في هذا الموضوع، أليس كذلك؟ ألم نحضّ بعضنا بعضًا؟ ألم يتّقد شغفي بالأمر بفضل شغفها؟ وماذا عن تلك الفكرة ـ المدينة بلا حبّ، التي أعجبت الأساتذة كثيرًا، ألم تقلها ليلا، رغم أنّني طوّرتها بأسلوبي وبجهدي الخاصّ؟ ما الذي عليّ استنتاجه إذن؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأتُ أنتظر تقديرًا جديدًا يشهد على اكتفائي بقدراتي. لكنَّ جيراتشي لم يتحمّس لموضوعي الذي كتبته عن ملكة قرطاج («إينياس وديدون: لقاءٌ بين مهاجريْن»)، واكتفى بمنحي ثماني علامات. أمَّا الأستاذة غالياني، فكانت تحيّيني باحترام؛ واكتشفتُ أيضًا أنَّها أستاذة اللاتينيَّة والإغريقيَّة في صفّ نينو سارّاتوري، الصفّ الأوَّل المتقدِّم. كنت في حاجة طارئة للفت الانتباه والحصول على التشجيع، وأملتُ أن يأتيني من جانبه على الأقلّ. تخيَّلتُ أنّ أستاذة الأدب تثني عليّ أمام الجميع، فلنقل في صفِّه.. وهكذا، كان سيذكرني ويبادر بالكلام معي. لكنّ شيئًا كهذا لم يحدث، وبقيتُ أنظر إليه وقت الانصراف، أو الدخول، مستغرقًا في أفكاره كالعادة. ذات مرَّة، تجرَّأتُ على السير خلفه إلى شارع غاريبالدي، ثم شارع كازانوڤا، آملة أن يكتشفني ويقول لي: مرحبًا، أرى أنّنا نسير على الطريق نفسها، سمعتُ عنكِ الكثير. لكنَّه كان يتابع سيره قدمًا، مطأطئ الرأس، ولم يتلفَّت أبدًا. تعبتُ واحتقرتُ نفسي. استدرتُ بخيبة أمل نحو شارع نوڤارا، وعدتُ إلى المنزل.

واظبتُ على الدراسة، يومًا بعد يوم، كي أثبت لنفسي وللأساتذة والرفاق دأبي وجدارتي. وحينها، نما في صدري إحساس بالوحدة، وشعرتُ بأنّني أتعلَّم بلا رغبة. لذا حاولتُ أن أنقل إلى ليلا أسف المعلِّم فيرارو. قلت لها بأن تعود إلى المكتبة، وأشرتُ لها عن السرور الذي غمر الأساتذة بالإنشاء عن ديدون، دون أن أشير إلى ما كتبتُ، لكنّني لمَّحتُ بأنّ هذا النجاح كان لنا معًا. أصغتْ إليّ على مضض، وربَّما لم تعد تذكر حتى ما قلناه عن تلك الشخصيَّة، كانت مشغولة بمشاكلها. ما إن أفسحتُ لها المجال، قالت لي إنّ مارتشيلُّو سولارا لم يستسلم مثلما فعل باسكوالي، وما زال يلاحقها. حين تخرج لشراء

الأغراض، يتبعها ـ دون إزعاج ـ إلى ملحمة ستيفانو أو عربة إنتسو، ويلتزم النظر إليها فقط. وحين تطلّ برأسها من النافذة، تجده واقفًا عند الزاوية ينتظر ظهورها. كان ثباته يقلقها. خشيتْ أن ينتبه أبوها، وأخوها خصوصًا. كانت تخاف من إمكانيَّة أن يتحوَّل الأمر إلى قصَّة بين الذكور، كتلك التي يبدأ فيها العراك ولا ينتهي.. وكان الحيّ مليئًا بقصص من هذا النوع. «ما الذي يميّزني؟» كانت تقول؛ وتستغرب إذا نظرتْ إلى نفسها، هزيلة وقبيحة، فما الذي جعل مارتشيلُّو يهيم بها؟ «هل لديّ طباع مريضة؟» تتساءل، «وأرغم الآخرين على ارتكاب الأخطاء؟»

باتت تكرِّر تلك الفكرة غالبًا. كانت مقتنعة بشدَّة أنَّها أثّرتْ في أخيها سلبًا أكثر منه إيجابًا. «يكفي أن تنظري إليه»، كانت تقول. رغم تبدّد مشروع مصنع الأحذية، فإنّ رينو ظلّ مهووسًا في فكرة أن يصبح ثريًّا كالأخوين سولارا وستيفانو، بل أكثر منهم أيضًا، ولم يعد قادرًا على تحمّل يوميّات العمل في المحلّ. كان يقول لها، محاولاً أن يشعل الحماس القديم في ذهنها ثانية: «نحن ذكيّان يا لينا، ليس بمقدور أحد أن يقف في طريقنا، قولي لي ما الذي علينا فعله». كان يتمنَّى أن يشتري سيَّارة وتلفازًا هو أيضًا، ويحتقر أباه، لأنَّه لا يقدّر أهمِّيَّة هذه الأغراض. ويخرج عن طوره حين تبدو ليلا كأنَّها تكفّ عن مساندته، فيعاملها أسوأ من خادمة عنده. ولعلَّه لم يكن يدري أنَّه تعرّض للتلف، لكنّ ليلا كانت تراه كلّ يوم، وتشفق عليه. قالت لي ذات مرَّة:

«هل ترين ما أقبح الناس حين يستيقظون من النوم، بوجوه بائسة ونظرات باهتة؟»

رينو، بالنسبة إليها، أصبح هكذا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٦

أذكر أنّنا، في مساء يوم أحد من منتصف أبريل، خرجنا نحن الخمسة: ليلا وأنا وكارميلّا وباسكوالي ورينو. ارتدينا نحن الفتيات أبهى ما عندنا. وقبل خروجنا بثوانٍ، وضعنا الأحمر على شفاهنا والكحل على عيوننا. صعدنا المترو المكتظّ بالركّاب، لذا انشغل رينو وباسكوالي بمراقبة ما يحيط بنا طوال الرحلة. كانا يخشيان أن يلمسنا أحد، لكنّ الغضب الذي يقطر من وجهيهما حال دون تجرّؤ أحد على مسّنا.

نزلنا إلى شارع طليطلة سيرًا. كانت ليلا تصرّ على الذهاب إلى شارع كيايا، وفيلانجييري، ثم إلى شارع «الألف مقاتل»، وصولاً إلى ساحة آماديو، حيث من المعروف أنّها منطقة يزاولها الأكابر المتأنّقون. وكان رينو وباسكوالي يعارضان، دون شرح السبب، ويقتصران على إجابة هامسة بالعاميّة، وشتائم يوجّهانها إلى أشخاص لا على التعيين، يسمّيانهم «غاغا» (متغطرسون). اتّحدنا نحن الفتيات الثلاث، واتّخذنا موقفًا. وفي تلك اللحظة، سمعنا مزامير سيّارة متهوّرة. التفتنا، فرأينا

سيَّارة الأخوين سولارا. لم نعر أدنى انتباه للذكرين، إذ صُدمنا برؤية فتاتين تلوِّحان بذراعيهما من النوافذ: جيليولا وآدا. كانتا في غاية الجمال، بثياب أنيقة وشعر مسرّح وأقراط برّاقة، تحرّكان أيديهما وتصرخان بتحيَّة سعيدة. غضّ كلّ من باسكوالي ورينو أنظارهما، أمَّا أنا وكارميلًا، فلم نجبهما من هول المفاجأة. وحدها ليلا من ردّ التحيَّة بحماس وبهجة، في حين كانت السيَّارة تختفي باتِّجاه ساحة بليبيشيتو.

التزمنا الصمت قليلاً، ثم قال رينو لباسكوالي بنبرة متجهِّمة إنّ جيليولا لطالما عُرفت بأنَّها عاهرة؛ فوافقه باسكوالي الرأي مستاءً. لم يشر أيّ منهما إلى آدا، فأنطونيو كان صديقهما، ولم ينويا الإساءة إلى شرفه. لكنَّ كارميلَّا اغتابتها؛ أمَّا أنا، فشعرتُ بمرارة لا توصف. إذ مرّت أمام عينيّ، لوهلة، صورة تعبّر عن جبروت المرفَّهين: شابَّان وبنتان في سيَّارة، أفضل طريقة للترفيه والخروج من الحيّ. بينما كانت طريقتنا هي الأسوأ: سيرًا على الأقدام، بمظهر بائس وثياب تخلو من الأناقة. اعتلتني رغبة عارمة في الرجوع إلى المنزل بسرعة. لكنّ ليلا، كما لو أنَّنا لم نلتق بأبناء سولارا، استأنفتْ إلحاحها للتنزُّه في منطقة الأكابر. شبكتْ ذراعها بذراع باسكوالي، هتفتْ، ضحكتْ، ثم راحت تتمايل يمنة وشمالاً لتقلِّد النساء الثريّات بأسلوب ساخر على حدّ قولها، وجادت بابتسامات عريضة وحركات ليّنة. تردَّدنا لبرهة، ثم رحنا ندعم رأيها، وذلك لغيظنا من رؤية الفرحة على وجه آدا وجيليولا في سيَّارة رائعة بصحبة شابَّين وسيمين، بينما كنَّا نمشي على أقدامنا، بصحبة رينو الذي يصلّح الأحذية، وباسكوالي عامل البناء.

لم نفصح عن عدم رضانا بالطبع، لكنّ شعورنا وصل ـ عبر قنوات سرِّيَّة ـ إلى الشابّين؛ تبادلا النظر، وتأفَّفا، ثم نزلا عند رغبتنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حسنًا! قالا، ودخلنا شارع كيايا.

كان الأمر أشبه بعبور الحدود. أذكر التحرُّكات المكثَّفة وشعورًا بالذلّ بسبب الاختلاف. لم أكن أنظر إلى الشبَّان، بل إلى الفتيات والسيِّدات: مختلفات عنَّا كلِّيًا، كأنَّهنّ يستنشقن أنفاسًا أخرى، ويتناولن طعامًا مختلفًا، ويرتدين ثيابًا رائجة في كوكب آخر، ويمشين كما لو كنّ على أثير الرياح. فتحتُ فمي لشدَّة العجب. حتى إنّني كنت أودّ إطالة النظر بفساتينهنّ وأحذيتهنّ وطراز نظّارات بعضهنّ، بينما كنّ يمررن من جانبي ولا يرينني. لم يرين أيّ أحد منَّا، نحن الخمسة. لا نثير الانتباه، أو ليس لنا وجود. بل وإذا التقت نظراتنا بنظراتهم، التفتوا إلى الجهة الأخرى مبدين امتعاضهم. كانوا ينظرون في ما بينهم حصرًا.

لاحظنا هذا الأمر جميعًا، لكنّ أحدًا لم يتحدَّث. سوى أنَّنا أدركنا أنَّ رينو وباسكوالي، الأكبر منَّا سنًّا، يجدان في تلك الأجواء ما كانا يعرفانه مسبقًا.. وهكذا يتكدَّر مزاجهما ويتجهَّمان باستياءٍ من البرهان على شعورهما بالاغتراب. بينما كنَّا نحن الفتيات نكتشف المكان في تلك اللحظة فقط، وتنتابنا مشاعر مبهمة. أحسسنا بالانزعاج والذهول. فرغم قبحنا، تجرّأنا على أن نتخيَّل مظهرنا لو أنَّ الحظّ حالفنا لنشوءٍ جديد يسمح لنا بلباس وتجميل كما ينبغي. وهكذا، تفاعلنا بالضحك والسخرية، كي لا نكدّر صفو الأمسية.

«هل كنتِ لترتدي ذلك الفستان يومًا؟»

«كلَّا، حتى لو دفعوا لي مبلغًا باهظًا».

«أمّا أنا، فكنت لأرتديه».

«أحسنتِ، وهكذا تبدين كالحلوى المنفوخة، مثل تلك المرأة».

«هل رأيتِ حذاءها؟»

«أتسمّين ذاك حذاءً؟»

وصلنا إلى محاذاة قصر شيلاماري ونحن نمزح ونضحك. اقترب منّي باسكوالي، إذ كان يحاول بشتّى الوسائل أن يتجنّب ليلا، وقد ابتعد عنها فورًا حالما شبكتْ ذراعها بذراعه. كان غالبًا ما يتكلّم إليها طبعًا، إذ يشعر بالمتعة جرّاء سماع صوتها والنظر إليها، لكنّه كان يخشى أيّ تماس بسيط بينهما قد يدفعه إلى البكاء. سألني ساخرًا:

«هل رفيقاتك في المدرسة على هذه الشاكلة؟»

«لا».

«هذا يعني أنَّها ليست مدرسة جيِّدة».

«إنَّها ثانويَّة أدبيَّة»، أجبتُ بلهجة حادَّة.

«ليست جيِّدة»، أصرّ على موقفه، «كوني على ثقة بأنَّها ليست مدرسة جيِّدة ما دام لا يتردَّد إليها أناس كهؤلاء؛ أليس كذلك يا ليلا؟»

«مدرسة جيِّدة؟» قالت ليلا وهي تشير إلى فتاة شقراء تسير باتِّجاهنا مع شابّ أسمر طويل القامة يرتدي كنزة قطنيَّة مفتوحة الصدر، «إذا لم تكن ثمَّة طالبة كهذه الفتاة، فإنّ مدرستك مقزّزة». وانفجرتْ ضاحكة.

كانت الفتاة ملفوفة باللون الأخضر: حذاء أخضر، تنُّورة خضراء، سترة خضراء؛ وعلى رأسها ـ أجزم أنّ هذا ما أضحك ليلا ـ قبَّعة كقبّعة شارلي شابلن، خضراء أيضًا.

غمرنا الضحك بما قالت ليلا. وحين مرّ الثنائي بجانب رينو، علّق الأخير بثقيل الكلام عمّا يسع الفتاة أن تفعل بتلك القبّعة. توقَّف باسكوالي، وراح يقهقه، وأسند ذراعه إلى الجدار. مشت الفتاة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورفيقها بضع خطوات ثم توقّفا. التفت الشابّ ذو الكنزة البيضاء، فأمسكت الفتاة بذراعه. أبعدها وعاد إلينا، وتوجّه مباشرة إلى رينو بسلسلة من العبارات المهينة. وفي لحظة واحدة، لكمه رينو على وجهه صارخًا:

«ماذا قلت بحقّي؟ لم أفهم، أعد. ماذا قلت بحقّي؟ هل سمعت يا باسكوالي ماذا قال؟»

وسرعان ما توقّفنا نحن الفتيات عن الضحك، وانتابنا الهلع. انقضّت ليلا على أخيها فورًا قبل أن يركل الشابّ المرميّ أرضًا، وسحبته بعيدًا والدهشة تلتهم وجهها؛ كما لو أنّ كلّ تفاصيل حياتنا، منذ الطفولة حتى عامنا الرابع عشر ذاك، كانت تشكّل صورة جليّة بدت لها في تلك اللحظة منافية للحقيقة.

سحبنا رينو وباسكوالي، بينما كانت الفتاة، ذات القبّعة، تساعد خطيبها على النهوض مجدّدًا. وكانت دهشة ليلا تستحيل نقمة عارمة. فحين كانت تجرّ أخاها، أمطرته بوابل من الشتائم اللعينة، أمسكتْ بذراعه وهدّدته. حاول رينو أن يهدّئ من روعها بيده، وارتسمت ابتسامة عصابيّة على وجهه، وقال لباسكوالي:

«أختي تحسب أنّنا نلعب هنا يا صديقي»، قال بالعاميّة والجنون يغلي في عينيه، «أختي تحسب أنّني أمزح حين أنصح بعدم الذهاب إلى مكان معيّن، وتريد أن تُرينا أنّها تفهم كلّ شيء وتعرف كلّ شيء، كالعادة، لنطيعها رغمًا عنّا». سكت لوهلة ليعدّل أنفاسه، ثم أضاف: «هل سمعت ماذا قال ذلك الخسيس؟ قرويّ؟ أنا قرويّ؟» سكت ثانية ثم أضاف، والشرر يقدح من عينيه: «أختي جاءت بي إلى هنا، والآن سترى ماذا أفعل إن وصفني أحدهم بالقرويّ».

«اهدأ يا رينو»، أجابه باسكوالي عابسًا وهو يلتفت مرتبكًا إلى الخلف.

ظلّ رينو متوتّرًا، ولكنّه خفَّف من اهتياجه. هدأت ليلا. توقّفنا عند ساحة الشهداء. قال باسكوالي بفتور متوجِّهًا بالكلام إلى كارميلّا:

«أنتنّ ستذهبن إلى البيت حالاً».

«نحن بمفردنا؟»

«أجل».

«كلّا».

«لا أريد جدالاً يا كارميلّا. انصرفن، هيّا».

«لا نعرف درب العودة».

«لا تكذبي».

«هيّا»، قال رينو لليلا محاولاً أن يسكِّن من غضبه، «خذي بعض النقود، واشترين المثلَّجات في طريقكنّ».

«خرجنا معًا ونعود معًا».

فقد رينو صبره من جديد، ودفعها بيده:

«هلّا أنهيتِ هذا الجدل؟ أنا الأخ الأكبر، وعليكِ أن تطيعي ما أقول. هيّا تحرّكي، فلا يكلّفني تهشيم وجهك شيئًا».

رأيتُ أنّه يوشك على فعلها حقًّا، فسحبتُ ليلا من ذراعها. وأدركتْ هي أيضًا أنّها تخاطر:

«سأقول هذا لأبي».

«ومن يهتمّ لذاك. هيّا انصرفي من هنا. لا تستحقّين حتى المثلَّجات».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابتعدنا نحو شارع سانتا كاترينا، والحيرة تلاحق خطواتنا. توقَّفت ليلا، فكَّرت في الأمر، ثم قالت إنَّها ستعود إلى أخيها. حاولنا أن نقنعها بالبقاء معنا، لكنَّها لم توافق. وبينما كنَّا نتناقش، رأيت مجموعة من الشبّان، خمسة أو ستَّة، يبدون كالجدّافين الرياضيِّين اللامعين الذين رأيناهم ذات مرَّة أثناء نزهة يوم الأحد عند الكاستل دلوفو. كانوا طوال القامة جميعًا، وواثقين من أنفسهم، ويرتدون ثيابًا أنيقة؛ ويحمل بعضهم العصيَّ أيضًا. مرُّوا قرب الكنيسة بخطوات مسرعة، واتَّجهوا نحو الساحة. وكان الشابّ الذي لكمه رينو على وجهه يرافقهم، وكنزته مفتوحة الصدر ملطَّخة بالدماء.

تحرَّرتْ ليلا من قبضتي وركضتْ، فلحقنا بها أنا وكارميلّا. وصلنا لنرى رينو وباسكوالي يتقهقران نحو التمثال في وسط الساحة، جنبًا إلى جنب، فيما يحاصرهما أولئك الشبَّان ويضربونهما بالعصيّ. بدأنا نبكي بصوت مرتفع، ونعترض المارّة ونستنجدهم، لكنّ العصيّ كانت تخيف الناس، فلم يتدخَّل أحد منهم. أمسكتْ ليلا بذراع أحد أولئك المعتدين، فرماها أرضًا. رأيتُ باسكوالي جاثيًا على ركبتيه يتلقَّى الركلات، رأيتُ رينو يصدّ ضربات العصيّ بذراعه. ثم توقَّفتْ سيَّارة ما، كانت سيَّارة الأخوين سولارا.

نزل مارتشيلُّو فورًا، وهرع في البدء صوب ليلا التي كانت تصيح غاضبة تنادي أخاها، فاشتعل حماس مارتشيلُّو وانغمس في المعركة، ليوجِّه اللكمات ويتلقَّاها. وفي تلك اللحظة، نزل ميكيلي من السيَّارة، رفع الغطاء الخلفيّ بهدوء، وأخرج شيئًا ما يبدو كقطعة حديد برّاق، ودخل في المعمعة ليضرب بدم بارد وهمجيَّة، لا أتمنَّى أن أراها ثانية في حياتي. نهض رينو وباسكوالي مجدَّدًا، وشرعا باللكم والخنق والرفس، وفرّغا غضبًا وحقدًا بدا لي لشخصين لا أعرفهما. هرب

الشبّان المتأنِّقون. واقترب ميكيلي من باسكوالي الذي نزف أنفه، فدفعه الأخير بطريقة سيِّئة، ورفع كمّ قميصه الأبيض على وجهه، ثم رآه مبلَّلاً بالدماء. حمل مارتشيلُّو مجموعة من المفاتيح على الأرض، وأعطاها لرينو الذي شكره ممتعضًا. راح المارّة يقتربون لإشباع فضولهم، بعدما كانوا يتجنَّبون الشجار. وأنا شُللتُ من الخوف.

«أوصلا الفتيات»، قال رينو للأخوين سولارا بنبرة امتنان لمن يتقدَّم بطلب يعرف أنَّه لا يُردّ.

أرغمنا مارتشيلُّو على ركوب السيَّارة، ليلا أوّلاً، بعد أن اعترضتُ في البداية. تكدَّسنا كلّنا في المقعد الخلفيّ، واحدة في حضن الأخرى، وانطلقنا. التفتُّ لأرى رينو وباسكوالي يبتعدان نحو ريڤييرا، وكان رينو يعرج. شعرتُ كما لو أنَّ الحيّ توسّع لوهلة ليشمل نابولي كلّها، بما فيها أحياء الأكابر. وسرعان ما دبّ التوتّر داخل السيَّارة، إذ تضايقت جيليولا وآدا جدًّا، وأظهرتا عدم ارتياحهما. قالتا: «هذا غير معقول». فأجابتهما ليلا: «انزلا إذن وعودا مشيًا»، وأوشكن على الشجار. توقَّف مارتشيلُّو بسرور، فنزلت جيليولا وتبخترت كالأميرات لتجلس في الأمام في حضن ميكيلي. وتابعنا الرحلة هكذا، ميكيلي وجيليولا يتبادلان القبل باستمرار تحت أعيننا. كانت تنظر إليّ كلَّما قبّلته بهيام فائض، فألتفت بسرعة إلى الجهة الأخرى.

لم تفتح ليلا فمها حتى وصلنا إلى الحيّ. وجّه إليها مارتشيلُّو بعض الكلمات، وهو يبحث عنها في المرآة العاكسة، لكنَّها لم تجبه أبدًا. وأنزلنا بعيدًا عن البيت كي لا يرانا أحد ونحن في تلك السيَّارة. فمشينا باقي الطريق سيرًا على الأقدام، نحن الفتيات الخمس. كنَّا جميعًا معجبين بسلوك الأخوين سولارا، ما عدا ليلا التي كاد الغضب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والقلق يلتهمانها. لقد أحسنا فعلاً، كنَّا نقول. وجيليولا كانت تكرِّر: «بالتأكيد»، «ومن تظنُّون أنفسكم؟»، «طبعًا»، بنبرة من يعرف الأخوين سولارا حقّ المعرفة، نظرًا إلى عملها في المقهى. ثم سألتني بلهجة ساخرة:

«وكيف الحال في المدرسة؟»

«جيِّد».

«لكنَّك لا تستمتعين كما أستمتع أنا».

«إنَّها متعة من نوع آخر».

وعندما تركتنا كارميلًا وآدا لتدخل كلٌّ منهما إلى بنايتها، قلت لليلا:

«ربَّما يكون الأخوان سولارا أسوأ البشر، ولكن حمدًا لله أنَّهما كانا هناك. كاد أولئك الشبّان يقتلون رينو وباسكوالي».

هزّت رأسها بعصبيّة. كان وجهها أكثر شحوبًا، والتفّ اللون البنفسجيّ حول عينيها. لم تكن موافقة على كلامي، لكنَّها لم تطلعني على السبب.

٢٧

نجحتُ بتسع علامات في جميع الموادّ، وكنت سأحظى بما يسمّى منحة دراسيَّة. نجح اثنان وثلاثون تلميذًا من بين الأربعين في الصفّ. رسب جينو، ورسب ألفونسو في ثلاث موادّ سيُعيد امتحانها في سبتمبر. حضّني والدي للذهاب إلى بيت المعلِّمة أوليڤييرو، لأحمل لها كالعادة كيسًا من السكَّر وآخر من القهوة، اشتريتهما من مقهى سولارا، وذلك لشكرها على اهتمامها بي. كانت أمِّي تعارض زيارتي، إذ لم يكن يروق لها أن تحشر أوليڤييرو أنفها في شؤون العائلة، وأن تجرؤ على اتِّخاذ القرارات نيابة عنها في ما يخصّ أبناءها.

لم تكن المعلِّمة بخير، كانت تعاني من ألم في حلقها. لكنَّها أثنت عليّ كثيرًا، وهنَّأتني على نجاحي. ثم قالت إنَّها تراني شاحبة الوجه بعض الشيء، وأرادت أن تتّصل بإحدى قريباتها التي تسكن في جزيرة إيسكيا، لتطلب منها أن تستضيفني بعض الوقت. شكرتها، ولم أخبر أمِّي بهذه المبادرة؛ إذ كنت أعلم مسبقًا أنَّها لن تسمح لي بالذهاب. أنا في إيسكيا؟ بمفردي أستقلّ المركب، وأقوم برحلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحريّة؟ أنا على الشاطئ مرتدية ثياب السباحة دفعة واحدة؟

لم أخبر حتى ليلا بالأمر. كانت حياتها قد فقدت بريق المغامرات الذي غمرها أثناء الحديث عن مصنع الأحذية؛ ولم يكن ليسعدني أن أفخر أمامها بنجاحي وحصولي على المنحة وقضاء إجازة محتملة في إيسكيا. كانت الأمور تتحسَّن في الظاهر: كفّ مارتشيلُّو سولارا عن ملاحقتها. ولكنْ بعد موقعة ساحة الشهداء طفا على السطح أمرٌ غير متوقَّع، أربكها جدًّا. إذ جاء الشابّ إلى محلّ الإسكافيّ ليطمئنّ عن أحوال رينو، في زيارة أحرجت فرناندو خصوصًا. وكان رينو قد ابتدع قصَّة ما ليبرِّر الكدمات على وجهه وبدنه، قائلاً إنَّه سقط من درَّاجة صديقه الناريَّة، وذلك كي لا يطلع أباه على ما وقع. لذا، ما إن رأى مارتشيلُّو في المحلّ حتى دفعه إلى الشارع، خشية أن يزلّ لسانه في كلمة ما. تمشَّيا قليلاً؛ شكره رينو على مضض، سواء لحميَّته وتدخّله أو للطفه في المجيء للاطمئنان عن صحّته. وتودّعا بعد دقيقتين. وحين دخل إلى المحلّ، قال له والده:

«وأخيرًا، فعلتَ شيئًا حسنًا».

«وما هو؟»

«الصداقة مع مارتشيلُّو سولارا».

«ما من صداقة يا أبي».

«هذا يعني أنَّك كنت مغفَّلاً، وما تزال مغفَّلاً».

كان فرناندو يقصد أنَّ شيئًا ما يتغيَّر في علاقة ابنه بآل سولارا، ومهما كان الهدف من التطوُّرات، فلا بدّ أن يرحّب بها. وكان محقًّا. عاد مارتشيلُّو بعد يومين، وهو يحمل حذاء جدّه لتصليحه؛ ثم دعا رينو لنزهة بالسيَّارة؛ ثم أراد أن يعلّمه القيادة؛ ثم ألحّ عليه أن يستعجل

المعاملات للحصول على الرخصة، آخذًا على عاتقه مهمّة تدريبه على قيادة سيّارته. ولعلّها لم تكن صداقة، غير أنَّ آل سولارا كانوا يستلطفون رينو.

أمَّا ليلا، بعد انقطاعها عن المحلّ الذي احتضن مجريات تلك الصداقة، فكانت، خلافًا لوالدها، لا تراها بعين الارتياح. في البدء، تذكّرتْ معركة الألعاب الناريَّة، وقالت لنفسها: رينو يحقد على الأخوين سولارا، ومن غير الممكن أن يحتالا عليه. ثم تيقَّنتْ من أنَّ مارتشيلُّو يغوي أخاها الأكبر وأبويها أيضًا. كانت تعرف أنَّ رينو ضعيف، لكنَّها استغربت من أنَّه يلهج بذكر سولارا، فيبتهج كقرد سعيد.

«وما السيِّئ في الأمر؟» اعترضتُ عليها ذات مرَّة.

«إنَّهم خطيرون».

«الجميع خطيرون هنا».

«هل رأيت ماذا أخرج ميكيلي من السيَّارة في ساحة الشهداء؟»

«لا».

«هراوة حديديَّة».

«والآخرون كانوا مدجَّجين بالعصيّ».

«لم تنتبهي يا لينو، هراوته كانت حادَّة ومدبَّبة. لو غرسها في صدر أحدهم، أو بطنه، لقتله».

«حسنًا.. ولكنَّك هدَّدتِ مارتشيلُّو بالسكِّين يا ليلا».

وحينها تضايقت، وقالت إنّني لا أفهم. ومن الوارد أنَّها كانت محقَّة، فرينو أخوها وليس أخي، وأنا كنت أعشق النقاش. أمَّا هي، فكانت لديها أولويّات أخرى، وتسعى إلى تجنيب شقيقها مغبّة تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصداقة. لكنَّ رينو كان يوقفها عند حدّها كلَّما عبّرت عن رأيها، ويهدِّدها، ويضربها أحيانًا. وبالمحصَّلة، سارت الأمور إلى الأمام، شئنا أم أبينا، لدرجة أن يفتح رينو الباب ـ أنا كنت في بيت ليلا أساعدها على طيّ الأغطية الناشفة، أو شيء كهذا، لم أعد أذكر ـ في مساء من أواخر يونيو، مصطحبًا معه مارتشيلُّو.

كان الفتى قد دعا ابن سولارا إلى العشاء، ما أحرج فرناندو أوَّل الأمر، لأنَّه قد عاد لتوِّه من المحلّ، ثم ما لبث أن رحّب بالضيف بحفاوة. أمَّا نونتسيا، فاعتراها التوتُّر وهي تشكر مارتشيلُّو على قوارير النبيذ الفاخر الثلاث التي جاء بها، ثم أدخلت الأولاد إلى المطبخ كي لا يزعجوا الضيف.

ورحت أنا أيضًا أساعد ليلا في تحضير العشاء.

«سأدسّ سمّ الصراصير في صحنه»، كانت تقول غاضبة وهي واقفة قرب الفرن؛ وكنَّا نضحك، بينما تحاول نونتسيا إسكاتنا.

«جاء ليتزوَّجك»، كنت أستفزّها، «سيطلب يدك من أبيك».

«يتوهّم».

«لماذا؟ هل ترفضينه إن أرادك؟» سألتها نونتسيا بقلق.

«سبق وصرَّحت له عن رفضي».

«حقًّا؟»

«أجل».

«هل هذا صحيح يا لينو؟»

«أجل، إنَّه كذلك»، أكَّدتُ.

«لا ينبغي أن يعرف والدك بما حدث وإلَّا قتلك».

لم يتحدَّث أحد على العشاء سوى مارتشيلُّو. كان من الواضح أنَّه دعا نفسه بنفسه، فعجز رينو عن ردّه خائبًا. لذا، اكتفى بالصمت على المائدة أو الضحك بلا سبب. توجّه مارتشيلُّو بحديثه إلى فرناندو خصوصًا، ولم ينس أن يسكب لنا الماء أو النبيذ، لي ولنونتسيا ولليلا. ومدح صاحب البيت وسمعته الطيِّبة في الحيّ، وأشار إلى مهارته في العمل. قال له إنّ أباه يتحدَّث عن كفاءته العالية بأطيب الكلمات دومًا. وأخبره أنَّ رينو معجب جدًّا بقدرات والده التي لا تُعدّ.

انتشى فرناندو بهذا الكلام، ولعلّ النبيذ فعل فعلته أيضًا. غمغم بكلمات الثناء عن سيلڤيو سولارا، ووصلت به النشوة إلى وصف رينو بالعامل الكادح ذي القدرات المتصاعدة. وحينها، تحدّث مارتشيلُّو عن ضرورة التطوير. قال إنّ جدّه بدأ بقبو صغير، ثم جاء والده ووسّع المحلّ، إلى أن بات مقهى سولارا المزوَّد بفرن الحلويات مشهورًا، يقصده الناس من كلّ أنحاء نابولي لاحتساء القهوة وتناول المعجَّنات.

«يا للمبالغة!» هتفت ليلا، فرشقها أبوها بنظرة مؤنِّبة.

لكنّ مارتشيلُّو ابتسم بتواضع واعترف:

«أجل، ربَّما بالغتُ قليلاً، كنت أقصد أنَّ الأموال لا بدّ أن تتحرَّك. نبدأ بقبو صغير، ومن جيل إلى جيل، نصل إلى أبعد من ذلك بكثير».

ثم مدح فكرة صناعة أحذية جديدة، ما سبَّب إزعاجًا واضحًا، لا سيَّما على وجه رينو. ومنذ تلك اللحظة، كثَّف مارتشيلُّو نظراته نحو ليلا. كان يقول: لِمَ لا يجرّب المرء إن كان واثقًا من نفسه، إن كان بارعًا، إن كان قادرًا على ابتكار أشياء جيّدة تنال الإعجاب؟ تحدَّث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالعامِّيَّة، بنبرته المميَّزة، وهو يحيط صديقتي بنظره. كنت أشعر أنَّه يودّ لو يقبّل ثغرها، وأنَّه يعشقها كما في الأغنيات، ويودّ لو تكويه بأنفاسها، وأن تفعل به ما تشاء، لأنَّها تجسّد في عينيه كلّ احتمالات الأنوثة.

ختم مارتشيلُّو: «عرفتُ أنَّ ولديكما صنعا حذاء جميلاً جدًّا، مقاس ٤٣، مقاس قدميَّ تمامًا».

حلّ صمت طويل. كان رينو يحدِّق في الطبق، ولم يجرؤ على رفع بصره نحو أبيه. طغى صوت العصافير عند النافذة، إلى أن قال فرناندو متمهِّلاً:

«أجل. إنَّه مقاس ٤٣ تمامًا».

«يسعدني أن أراه، لو سمحتم».

غمغم فرناندو:

«لا أعرف أين يكون.. هل تعلمين أين الحذاء يا نونتسيا؟»

«إنَّها تحتفظ به»، قال رينو مشيرًا إلى أخته.

حدّقت ليلا بوجه سولارا مباشرة، وقالت:

«أجل، كنت أحتفظ به، وضعته في غرفة المهملات. لكنّ أمِّي أمرتني قبل أمس أن أنظِّف المكان، فرميتُ الحذاء. لم يكن يعجب أحدًا بكلِّ الأحوال».

غضب رينو، وقال:

«أنت كاذبة، اذهبي واجلبي الحذاء حالاً».

انفعل فرناندو بدوره:

«اجلبي الحذاء، هيّا».

انفجرت ليلا في وجه أبيها:

«ما الذي يجعلك تريد الحذاء الآن؟ لقد رميتُه، لأنَّك قلت إنَّه لا يعجبك».

ضرب فرناندو الطاولة بكفّ يده، فاهتزّ النبيذ في الكؤوس.

«انهضي واجلبي الحذاء حالاً».

حرّكت ليلا الكرسيّ، ونهضت.

«لقد رميته»، كرَّرت متأفِّفة، وخرجت من الصالة.

ولم تعد.

مرّ الوقت في صمت مريع حتى كان مارتشيلُّو أوَّل المتنبّهين. قال بتوتُّر حقيقيّ:

«ربَّما أخطأتُ. لم أفهم أنَّ ثمَّة مشاكل».

«لا وجود لمشاكل»، قال فرناندو، وهمس لزوجته: «اذهبي وانظري ماذا تفعل ابنتك».

خرجت نونتسيا من الصالة. وحين عادت، كانت مرتبكة جدًّا. لم تجد ليلا. بحثنا عنها في البيت كلّه، ولم نعثر عليها. ناديناها من النافذة، لا شيء. فانصرف مارتشيلُّو متأسِّفًا. وما إن خرج حتى أخذ فرناندو يصيح، متوجِّهًا نحو زوجته:

«قسمًا بالله، سأقتل ابنتك هذه المرَّة».

اصطفّ رينو إلى جانب والده في التهديد، فبكت نونتسيا. انصرفتُ مذعورة. وحالما أغلقتُ الباب، عند العتبة، سمعتُ ليلا تناديني. كانت قد صعدتْ إلى الطابق الأخير على رؤوس أصابعها؛ وتجلس مقرفصة على البلاط، تحت الظلام، والحذاء في حضنها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيته منجزًا للمرَّة الأولى. كان يلمع تحت النور المنهمر من قنديل معلّق على شريط كهربائيّ.

«ما الذي يكلّفك أن تريه الحذاء؟» سألتها مشتَّتة الذهن.

هزّت رأسها بعصبيَّة:

«لن أسمح له حتى بلمسه».

لكنَّها بدت مندهشة، هي أيضًا، من ردَّة فعلها المفرطة. لم يحدث لها من قبل أن ترتجف شفتها السفلى.

أقنعتها شيئًا فشيئًا بالعودة، فلم يكن من الممكن أن تظلّ هناك في الأعلى إلى الأبد. رافقتها إلى البيت آملة أنَّ وجودي سيحميها. لكنّ ذلك لم يمنع من بعض الصراخ والشتائم والصفعات. صاح فرناندو أنَّ طيشها سوّد وجهه أمام ضيف محترم. ونزع رينو الحذاء من بين يديها مدَّعيًا الأحقِّيّة في امتلاكه، طالما بذل الجهد كلّه في صناعته. بكت ليلا وغمغمت: «لقد عملتُ عليه أنا أيضًا. وليتني لم أفعلها. فقد جعل منك حيوانًا هائجًا». وضعت نونتسيا حدًّا لتلك الجلبة. اصفرّ وجهها، وأمرت أولادها، وزوجها أيضًا، بنبرة لم يعتادوها منها ـ وهي المستضعفة دومًا، بأن ينهوا هذا العراك حالاً ويسلّموها الحذاء وإلَّا رمت بنفسها من النافذة. أعطى رينو الحذاء لوالدته فورًا، وانتهت المشكلة عند هذا الحدّ حينذاك. وأنا لذت بالهرب بعيدًا.

٢٨

بيد أنَّ رينو لم يستسلم، واستمرّ في مضايقة أخته، في الأيَّام التالية، بكلامه ويديه. وكلَّما التقيتُ بليلا، رأيت رضوضًا جديدة على جلدها. وبعد حين، شعرتُ أنَّها رضختْ. ذات صباح، فرض عليها أن تخرج معه، وأن ترافقه إلى المحلّ. وفي الطريق، حاول كلاهما بحذر شديد أن يجد حلًّا يوقف الحرب بينهما. قال لها رينو إنَّه يريد لها الخير، بينما لم تكن تريد أن ينعم أحد بالفائدة، لا إخوتها ولا أبواها. غمغمت ليلا: «وماذا تستفيد أنت؟ ماذا تستفيد عائلتنا؟ فلنستمع». أطلعها رينو عمَّا كان يدور في ذهنه، شيئًا فشيئًا.

«قد يغيّر أبي فكرته إن أُعجب مارتشيلّو بالحذاء».

«لا أعتقد هذا».

«أنا متأكّد. وإن اشترى مارتشيلُّو الحذاء، فقد يدرك أبي أنَّ تصاميمك رفيعة، ومن الممكن استثمارها، ويسمح لنا بمباشرة هذا العمل».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«نحن الثلاثة؟»

«أنا وهو، وأنت إن اقتضت الحاجة. أبي قادر على إنجاز حذاء بإتقان في غضون أربعة أيَّام، أو خمسة كحدّ أقصى. وسترين أنّني قادر مثله وأكثر ما إن أصمِّم على هذا. نصنع الأحذية، نبيعها ونموِّل أنفسنا؛ نصنع الأحذية، نبيعها ونموِّل أنفسنا».

«ولمن نبيعها؟ لمارتشيلُّو سولارا دائمًا؟»

«لأبناء سولارا حياة واسعة، ومعارفهم من الأثرياء. سيساعدوننا بالترويج».

«سيساعدوننا مجَّانًا؟»

«فليأخذوا نسبة مئويَّة بسيطة إن أرادوا».

«ولماذا يكتفون بنسبة مئويَّة بسيطة؟»

«لأنَّهم يستلطفونني».

«آل سولارا؟»

«أجل».

تنهَّدت ليلا:

«فلنفعل هكذا: سأنقل لوالدي الأمر، ونرى ماذا يقول».

«إيَّاكِ أن تتهوَّري».

«إمّا هكذا وإمّا فلا».

سكت رينو، وكان منفعلاً:

«حسنًا. بكلِّ الأحوال، سأدع الكلمة لكِ، لأنَّك تتحدَّثين أفضل منِّي».

وفي المساء نفسه، على العشاء، كانت ليلا تجلس قبالة أخيها

ووجهها محمرّ بشدَّة، وقالت لفرناندو إنّ مارتشيلُّو لم يبدِ اهتمامه بفكرة الحذاء فحسب، بل قد يشتريه أيضًا. وقد يقوم بإشهار هذا المنتج في الأجواء التي يرتادها. وإن كان مهتمًّا بالأمر من الناحية الاقتصاديَّة، فبإمكانه الحصول على نسبة مئويَّة بسيطة من المبيعات.

«أنا من قال ذلك»، حدَّد رينو بعينين منخفضتين، «وليس مارتشيلُّو».

نظر فرناندو إلى زوجته، ففهمتْ ليلا أنَّهما تحدّثا بالأمر، ووصلا إلى نتيجة سرِّيَّة أيضًا. قال:

«غدًا، سأضع حذاءكما في واجهة المحلّ. إن أبدى أحدهم اهتمامه به، وأراد أن يجرّبه، أو يشتريه، أو يفعل به ما يريد، فعليه أن يتكلَّم معي أنا. فأنا من يبتّ في الموضوع».

بعد بضعة أيَّام، مررتُ أمام المحلّ. كان فرناندو ورينو يعملان برأس مطأطئ وجذع محنيّ. رأيتُ حذاء شيرولّو، جميلاً أنيقًا، بين علب الطلاء. وثمَّة لافتة معلَّقة على الزجاج، بخطّ رينو طبعًا، وقد كتب بكلّ أبّهة: «هنا أحذية شيرولّو». وكان الوالد وابنه ينتظران الحظّ السعيد.

لكنّ ليلا كانت تشكّك في هذا. لم تكن تثق بفرضيَّات أخيها الساذجة، وكانت تخشى من تداعيات الاتِّفاق الغامض بين أبيها وأمّها. كانت تتوقَّع حصول أسوأ الأشياء. مرّ أسبوع، ولم يُظهر أحدٌ أدنى اهتمام بالحذاء المعروض على الواجهة، حتى مارتشيلُّو الذي لم يكن ليأتي لولا استجاب لإلحاح رينو الذي كاد يجرّه إلى المحلّ جرًّا. ألقى نظرة شاردة على الحذاء، وجرّبه طبعًا، لكنَّه قال إنَّه ضيّق بعض الشيء. نزعه حالاً، وغادر دون أن ينطق بأيّ مجاملة، كما لو أنَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معدته تؤلمه، وعليه العودة إلى البيت بسرعة. وما لبث الوالد وابنه يدخلان في حالة إحباط، حتى ظهر مارتشيلُّو ثانية. وثب رينو واقفًا على قدميه متحمِّسًا، ومدّ يده مصافحًا، كأنّ الاتِّفاق بينهما بات مبرمًا بمجرّد عودة مارتشيلُّو. لكنّ الأخير تجاهل رينو، واتَّجه مباشرة إلى فرناندو. ونطق بنفَسٍ واحد:

«أنا لديّ مقاصد في غاية الجدِّيّة يا دون فرناندو، أودّ أن أطلب يد ابنتكم لينا».

٢٩

هوى رينو في أتون حمّى قاسية أقصته عن العمل لأيَّام، بسبب تلك الخطوة. وحين شفي بصعوبة، عانى من ظواهر مثيرة للقلق: كان في قلب الليل ينهض من سريره وهو لا يزال نائمًا، يمشي صامتًا ومتوتِّرًا نحو الباب، يحاول فتحه مرتجفًا وجاحظ العينين. فتأتي نونتسيا وليلا، مذعورتين، لتعيداه إلى السرير مجدَّدًا.

أمَّا فرناندو وزوجته، فكانا قد فطنا مسبقًا لنوايا مارتشيلُّو الحقيقيَّة. تحدّث مع ابنته بهدوء، وشرح لها أنَّ عرض مارتشيلُّو سولارا سيعود بالنفع مستقبلاً، ليس عليها فحسب، بل على كلّ أفراد العائلة. وقال لها إنَّها ما تزال صغيرة، وليست مضطرَّة إلى تقديم إجابة سريعة، لكنَّه أردف أنَّه، كوالد، ينصحها بأن توافق. فكانت ستعتاد على فكرة الزواج رويدًا رويدًا، بعد خطوبة طويلة تقضيها في بيت أهلها.

وجاء ردّ ليلا هادئًا أيضًا، قالت إنَّها تفضِّل أن تنتحر غرقًا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستنقعات على أن تكون خطيبة مارتشيلُّو سولارا وزوجته في ما بعد. نشأ عن كلامها صدامٌ كبير، لم يثنها عن تغيير رأيها بكلِّ الأحوال.

وأنا فقدتُ صوابي بذلك الخبر. كنت أعلم جيِّدًا أنَّ مارتشيلُّو يسعى للارتباط بليلا بأيّ ثمن، إلَّا أنَّه لم يخطر في ذهني مطلقًا أنَّنا قد نتلقّى عرضًا بالزواج ونحن بتلك السنّ. وها هي ليلا تتلقَّى هذا العرض قبل أن تكمل عامها الرابع عشر، ولم تكن قد ارتبطتْ في السرّ، أو تبادلت القبلات مع أيّ ذكر من قبل. وقفتُ إلى جانبها على الفور. زواج؟ بمارتشيلُّو سولارا؟ وقد تنجب أطفالاً أيضًا؟ كلَّا، وألف كلَّا. شجّعتُها على خوض تلك الحرب الجديدة ضدّ والدها، وأقسمتُ أنّني سأشدّ من أزرها، مع أنَّه فقد هدوءه، وصار يهدِّدها، ويقول إنَّه ـ لمصلحتها ـ قد يكسِّر عظامها ما لم تقبل بعرض مهمّ كهذا.

لكنّني لم أستطع البقاء بجانبها. في منتصف يوليو، حدث شيء كان عليّ أن أعدّ له من قبل، فإذا به يأخذني على حين غرَّة. في إحدى الأمسيات، بعد النزهة المعتادة في الحيّ للتفكير مع ليلا عن الوقائع العصيبة وكيفيَّة الخروج منها، عدتُ إلى البيت، وفتحتْ لي الباب شقيقتي الصغيرة إيليزا. قالت باضطراب إنّ معلِّمتها، أي أوليڤييرو، كانت في صالة الطعام تتحدَّث مع أمّنا.

دخلتُ بحياء إلى الصالة، فغمغمت والدتي مستاءة:

«المعلِّمة أوليڤييرو تقول إنَّك تعبتِ كثيرًا، وينبغي أن تستريحي».

نظرتُ إلى أوليڤييرو، ولم أفهم الأمر؛ إذ كان شحوب وجهها يدلّ على أنَّها هي التي تحتاج إلى نقاهة. قالت لي:

«ابنة عمِّي أجابتني البارحة تمامًا. بوسعك الذهاب إليها في

إيسكيا، والبقاء عندها حتى نهاية أغسطس. ستستقبلك بكلِّ سرور، وما عليك سوى أن تساعديها قليلاً في المنزل».

كلّمتني كما لو كانت أمّي، وكأنَّ أمِّي الحقيقيَّة، ذات العين الحولاء والساق الذليلة، مجرّد كائن حيّ بلا قيمة، ولا يؤخذ بالحسبان. وعلاوة على ذلك، لم تنصرفْ فورًا بعد تلك المحادثة، بل بقيتْ ساعة كاملة وهي تظهر لي الكتب التي حملتها لتعيرني إيَّاها واحدًا واحدًا. وشرحت لي أيّ الكتب عليّ أن أقرأها أوّلاً، وأيّ الكتب ثانيًا؛ وأرغمتني على القَسَم بأن أجلّد الكتب قبل قراءتها، وأن أُعيدها كلّها في نهاية الصيف دون أيّ ثنية. حافظتْ أمِّي على صبرها، وظلَّت جالسة، بآذان صاغية، رغم عينها الراقصة التي تمنحها ملامح المجانين. ولم تنفجر إلَّا بعد أن حيّتها المعلِّمة بازدراء، وانصرفت دون أن تربّت على كتف أختي التي كانت ستسرّ بذلك كثيرًا. صبّت والدتي عليّ جامّ استيائها، ممَّا بدا لها إهانة تلقَّتها بسببي. قالت:

«ستّ الحسن ستأخذ قسطًا من الراحة في إيسكيا. ستّ الحسن متعبة كثيرًا. اذهبي وحضّري العشاء وإلَّا صفعتُ وجهك».

لكنّها بعد يومين، أصرّتْ على أن ترافقني بنفسها إلى المركب، وذلك بعد أن أخذت مقاساتي وخاطت لي، على عجل وامتعاض، ثوب سباحة لا أدري أين رأته. صدّعتْ رأسي بتوصياتها طوال الطريق إلى المرفأ، وخلال شراء البطاقة، وأثناء انتظار الانطلاق. كانت الرحلة البحريَّة أكثر ما يخيفها. «أتمنَّى أن يكون البحر هادئًا»، غمغمتْ بصوت خفيض، وأقسمتْ أنَّها أخذتني معها إلى كوروليو، حين كنت في سنّ الثالثة أو الرابعة، وذلك لأشفى من الزكام؛ قالت إنّ البحر كان صافيًا حينها، وإنّني تعلّمتُ السباحة. لكنّني لم أكن أذكر كوروليو ولا البحر ولا أنّني أعرف السباحة، وأخبرتها بذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهاجمتني بنبرة عدائيَّة، كأنَّها تحمّلني مسؤوليَّة غرقي الناتج عن ضعف ذاكرتي، فهي قد فعلتْ ما عليها فعله لتجنّبني الموت. ثم أوصتني بعدم الابتعاد عن الشاطئ حتى لو كان البحر ساكنًا، وأن ألتزم الخطّ الأحمر، أو أن أبقى في المنزل إن كان هائجًا. قالت لي: «عليكِ ألّا تبلِّلي قدميكِ، لا سيّما إذا كانت معدتك ممتلئة أو إذا جاءتك الدورة».

وقبل أن تتركني، اتَّجهتْ إلى بحّار عجوز، وطلبت منه أن يلازمني. وحين انفصل المركب عن المرسى، شعرتُ بالرهبة والسعادة معًا. إذ كانت المرَّة الأولى التي أذهب فيها بعيدًا عن البيت، وأقوم برحلة.. برحلة بحريَّة. وكان جسد أمِّي المكتنز ـ مع الحيّ وقصَّة ليلا ـ يبتعد حتى تلاشى.

٣٠

وُلدتُ من جديد. كانت قريبة المعلِّمة تُدعى نيلا إنكاردو، وتسكن في بارانو. وصلتُ إلى البلدة بالحافلة، وعثرتُ على البيت بسهولة. بدت نيلا البدينة امرأة لطيفة، مرحة وثرثارة، وأرملة. كانت تؤجِّر غرف بيتها للسائحين، وتعيش بين المطبخ وغرفة نومها. وكان عليّ أن أنام في المطبخ. وعليّ أن أفرش السرير في المساء، وأفكِّك كلّ شيء في الصباح: الطاولات والرفوف والسرير. اكتشفتُ أنّني مقيّدة بنظام إجباريٍّ: أستيقظ في السادسة والنصف صباحًا، أحضِّر الفطور لها ولنزلائها ـ كان هنالك ثنائيّ بريطانيّ حين وصلتُ ـ وأغسل الفناجين والأوعية، أجهِّز مائدة العشاء، ثم أغسل الأطباق قبل أن أنام. وخلال ساعات النهار المتبقِّية، كنت حرَّة لأفعل ما أشاء. كان بوسعي البقاء على الشرفة للقراءة قبالة البحر، أو النزول في درب أبيض ووعر نحو الشاطئ الطويل العريض، والمكتنف بالغموض، شاطئ مارونتي.

في البدء، قضيتُ الوقت على الشرفة، مرتدية ثيابي، وذلك بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المخاوف التي شحنتني بها أمّي، وبسبب تلك المشاكل التي اعتلت بشرتي. وكنت أكتب لليلا رسالة في اليوم مليئة بالأسئلة والطرائف، وأصف لها الجزيرة بحماس مشتعل. لكنّ نيلا سخرتْ منّي ذات صباح قائلة: «لماذا تبقين هنا؟ ارتدي لباس السباحة». وحين ارتديتُه انفجرتْ ضاحكة، إذ رأت أنَّ لباسي قديم الطراز. وراحت تخيط لي لباسًا أزرق بهيًّا أكثر حداثة على حدّ قولها، يكشف الصدر أكثر، ويستدير على المؤخّرة بشكل أفضل. وحين رأتني به، تحمَّستْ وقالت كفى للشرفة، حان وقت الذهاب إلى البحر.

وفي اليوم التالي، انطلقتُ صوب مارونتي، ومعي منشفة وكتاب، يدفعني الخوف ويرافقني الفضول. بدا لي الدرب طويلاً جدًّا، ولم ألتق بأحد يصعد أو يهبط. وكان الشاطئ شاسعًا ومقفرًا، ورماله خشنة تخشخش على وقع الخطى. والبحر يرسل رائحة مكثَّفة، وصوتًا منقبضًا ورتيبًا.

نظرتُ إلى تلك الكمِّيَّة من المياه، وأنا واقفة على قدميّ. ثم جلستُ على المنشفة محتارة بما يسعني فعله. نهضتُ في النهاية، وبلَّلتُ قدميّ في الماء. كيف لي أن أعيش في مدينة كنابولي ولا أفكِّر أبدًا، ولو مرَّة واحدة، بالسباحة في البحر؟ لكنّ هذا حدث فعلاً. تقدَّمتُ بحذر لأترك المياه تصعد من قدميّ إلى كاحليّ، إلى فخذيّ. ثم رفعتُ قدمًا وغطستُ. شهقتُ مذعورة، شربتُ من الماء، وعدتُ إلى السطح لأتنفَّس الهواء. ولاحظتُ أنّني لا أجد صعوبة في تحريك قدميّ وذراعيّ بشكل يساعدني على الطفو. كنت أعرف السباحة إذن. وكانت أمِّي قد اصطحبتني حقًّا إلى البحر حين كنت صغيرة. وبالفعل، تعلَّمتُ السباحة بينما كانت تقوم بحمَّام الرمل. تراءت لي بومضة، أكثر شبابًا ورونقًا، تجلس على الشاطئ الأسود تحت شمس منتصف

النهار، ترتدي لباسًا أبيض مليئًا بالأزهار، وساقها السليمة مغطّاة بتنُّورتها حتى الركبة، وتلك الذليلة مدفونة كلّها تحت الرمال المشتعلة.

ساعدتني الشمس، ومياه البحر، على التخلُّص بسرعة من التهاب البثور. احمرّ جلدي واسمرّ. وانتظرتُ رسائل من ليلا، لكنَّها لم تصل، رغم أنَّنا تعاهدنا على ذلك حين تودَّعنا. تمرّنت على المحادثة بالإنكليزيَّة مع العائلة البريطانيَّة التي تستضيفها نيلا. أدركا أنّني أودّ التعلُّم، فشرعا يكلِّمانني بلطف، وشعرتُ أنّني أُحرز تقدُّمًا. وشجّعتني نيلا المرحة لأترجم لها؛ ولم تكن تغفِل مناسبة إلَّا وأغدقتْ عليّ بالإطراء. كانت طبَّاخة ماهرة، وتحضّر لي أطباقًا ضخمة. وتقول إنّني وصلتُ إليها كخرقة بالية، وها أنذا في غاية الجمال، بفضل عنايتها.

بالمحصّلة، قدَّمت لي الأيَّامُ العشرة الأخيرة من يوليو شعورًا بالرفاهية، لم أكن أعرفه حتى اللحظة. وجرّبتُ إحساسًا لطالما تكرَّر في حياتي لاحقًا: الفرحة بالجديد. كان كلّ شيء يعجبني: الاستيقاظ مبكرًا، تحضير الفطور، تنظيف المائدة، التنزُّه في بارانو، المشي على الدرب المؤدِّي إلى الشاطئ صعودًا ونزولاً، القراءة مستلقيةً تحت الشمس، السباحة، والعودة إلى القراءة. لم أحنّ لأبي ولا لإخوتي ولا لأمِّي، ولا لدروب الحيّ أو الحديقة الصغرى. لم تكن تنقصني سوى ليلا، التي لم تكن تُجيب على رسائلي. كنت أخشى أن تحصل لها أشياء، حلوة أو مُرَّة، دون أن أكون حاضرة عليها. وكان هذا الخوف قديمًا، وكم أخفقتُ في التخلُّص منه: الخوف من أنَّ حياتي قد تفقد معناها وضرورتها، إن لم أطّلع على تفاصيل حياتها. وكان عدم ردّها على رسائلي يؤلِّب ذلك القلق. فكلَّما بذلتُ جهدًا في وصف مزايا الأيَّام التي أقضيها في إيسكيا، شعرتُ أنَّ غزارة كلامي وصمتها يؤكِّدان على أنَّ حياتي كانت هانئة، لكنَّها تفتقر إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحداث، وأنَّ حياتها مريرة لكنَّها مشوِّقة.

في أواخر يوليو، قالت لي نيلا إنّ عائلة ناپوليتانيَّة ستصل في أوَّل أغسطس لتحلّ محلّ البريطانيَّيْن. وكانوا قد أتوا مسبقًا في العام الماضي؛ وهم في غاية اللطف، محترمون وظرفاء، لا سيّما ربّ الأسرة، رجل محترم يغمرها بأطيب الكلمات. ونجله أيضًا، شابٌّ وسيم فعلاً، طويلٌ وهزيل، لكنَّه قويّ. سيتمّ عامه السابع عشر آنذاك. «لن تبقي وحيدة» قالت لي، فشعرتُ بالحياء، وسرعان ما همتُ بهذا الشابّ الذي سيصل قريبًا، وتخوَّفتُ أنَّنا لن نستطيع التواصل، أو أنّني لن أنال إعجابه.

غادر البريطانيَّان، بعد أن تركا لي روايتين لأتمرَّن على قراءتهما، وتركا عنوانهما في حال قرَّرتُ الذهاب يومًا إلى بريطانيا، فأمرّ لزيارتهما. طلبت منِّي نيلا أن أساعدها في تنظيف الأسرّة، فساعدتها بكلِّ سرور. وبينما كنت أنظِّف الأرضيَّة، صرختْ من المطبخ:

«يا لك من فتاة شاطرة، تتكلَّمين الإنكليزيَّة أيضًا. ألا تكفيك تلك الكتب التي أتيت بها؟»

ولم تفعل شيئًا آخر سوى أنَها مدحتني عن بعد، بصوت جهير، على أخلاقي وحكمتي ومواظبتي على القراءة صباحًا مساءً. وحين وصلتُ إليها في المطبخ، وجدتُ كتابًا بين يديها. قالت إنّ السيِّد، الذي سيأتي في اليوم التالي، هو الذي أهداها ذلك الكتاب، وقد ألَّفه بنفسه. كانت نيلا تحتفظ به على الدرج، وكلّ مساء تقرأ منه قصيدة، ذهنيًّا، ثم بصوت مرتفع، حتى حفظت القصائد كلّها عن ظهر قلب.

«انظري ماذا كتب لي»، قالت وناولتني الكتاب.

كان «براهين الصفاء» لدوناتو سارّاتوري. في إهدائه يقول: «إلى نيلا الحلوة كالسكّر، وإلى كلّ أصناف المربى التي تصنعها بيديها».

٣١

كتبتُ رسالة إلى ليلا فورًا، تشمل صفحات وصفحات من القلق والفرح والرغبة في الهرب، كتبتُ لها مسبقًا عن لحظة الشغف التي سألتقي فيها بنينو سارّاتوري، كنت سأمشي درب الشاطئ بصحبته، وسنسبح معًا ونشاهد القمر والنجوم، ثم ننام تحت سقف واحد. لم أفعل شيئًا سوى التفكير بتلك اللحظات المريبة التي اعترف لي بحبِّه فيها، وهو يمسك بيد أخيه الصغير، منذ قرن مضى. . ياه! كم مرّ من الوقت على ذلك. كان كلانا صغيرًا حينها، أمَّا حينذاك، فكنت أشعر أنّني كبيرة، بل شبه عجوز.

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى موقف الحافلة كي أساعد الضيوف على حمل الحقائب. كنت متوتِّرة للغاية، ولم يغمض لي جفن في الليلة السابقة. وصلت الحافلة، توقَّفتْ ونزل منها الركّاب. عرفتُ دوناتو سارّاتوري، وزوجته ليديا، عرفتُ ماريزا رغم أنَّها تغيَّرتْ جدًّا، عرفتُ كليليا التي كانت انطوائيَّة وما تزال، عرفتُ بينو الصغير، والذي كان حينها فتًى جدِّيًا، وتخيَّلتُ أنَّ الطفل المشاكس الذي كان يؤرق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّه هو الذي كان في العربة، في آخر مرَّة رأيتُ فيها عائلة سارّاتوري كاملة، تحت قصف ميلينا. لكنّني لم أجد نينو معهم.

عانقتني ماريزا بحرارة لم أكن أتوقَّعها منها، إذ لم تخطر في بالي ولا مرَّة واحدة خلال كلّ تلك السنوات المنقضية، بينما كانت تقول إنَّها لطالما فكَّرتْ فيّ، واشتاقت لرؤيتي. وحين أشارت إلى زمان الحيّ، وقالت لأبويها من أكون، ابنة غريكو، البوَّاب، تأفَّفت أمّها ليديا بانزعاج، وهرعت لتمسك بابنها الصغير وتوبِّخه على أمر ما؛ بينما انشغل دوناتو بالحقائب دون أن يقول لي شيئًا، مثل: كيف حال والدك.

شعرتُ بالإحباط. نزل آل سارّاتوري في غرفهم، ورافقتُ ماريزا إلى البحر، وهي التي كانت تعرف جيِّدًا شاطئ مارونتي وإيسكيا برمّتها. كانت تودّ الذهاب إلى الميناء التي تعدّه مكانًا حيويًّا، وإلى فوريو كازاميتشولا.. إلى أيّ مكان عدا بارانو التي تعتبرها أشبه بمقبرة. حدَّثتني أنَّها التحقت بمدرسة العمل الوظيفي، وكانت مرتبطة بشابّ سأتعرَّف عليه عاجلاً، لأنَّه سيأتي لزيارتها خلسة في إيسكيا. وفي النهاية، قالت لي أمرًا جعلني أغصّ في قلبي. كانت تعرف عنِّي كلّ شيء، تعرف أنَّني في الثانويَّة، وأنَّني أبلي بلاء حسنًا في الدراسة، وأنّني كنت مرتبطة بجينو ابن الصيدلانيّ.

«ومن أخبرك بذلك؟»

«أخي».

كان نينو قد عرفني إذن، ويعرف من أكون جيِّدًا، لم يكن عديم الانتباه، بل ربَّما كان خجولاً أو محرجًا، أو يشعر بالحياء من اعترافه الذي قدّمه إليّ حينما كان صغيرًا.

«لقد انفصلتُ عن جينو منذ زمن»، قلت. «أخوك ليس على علم بما فيه الكفاية».

«لأنَّه يفكِّر في الدراسة فقط، لقد حدَّثني عنك منذ وقت طويل، وعادة ما يكون سارحًا في شؤونه».

«ألن يأتي؟»

«سيأتي حين يغادر والدي».

تكلَّمتْ عن شقيقها بطريقة سلبيَّة جدًّا. كان شابًّا بلا مشاعر، لا يتحمَّس حيال أيّ شيء، لا يغضب، لكنَّه ليس لطيفًا. كان انطوائيًّا، ولا يهمّه شيء سوى الدراسة. دمه بارد ولا شيء يعجبه. والشخص الوحيد القادر على استفزازه قليلاً كان والده. لا يتشاجران، لأنَّه كان ابنًا يجلّ أباه ويطيعه. لكنّ ماريزا كانت تعلم جيِّدًا أنَّ نينو لا يطيق والده مطلقًا. أمَّا هي، فكانت تعبده، لأنَّه أطيب وأذكى رجل في العالم.

«وهل سيبقى والدك طويلاً هنا؟ متى سيغادر؟» سألتها باهتمام مفرط.

«سيبقى ثلاثة أيَّام فقط. عليه أن يعمل».

«وسيأتي نينو بعد ثلاثة أيَّام؟»

«أجل. لقد تظاهر بأنّ عليه مساعدة عائلة أحد أصدقائه في النقل».

«وهذا ليس صحيحًا؟»

«ليس لديه أصدقاء. وبأيِّ حال، لم يكن ليحمل حجرة من هنا إلى هناك، حتى لو طلبت أمِّي منه ذلك، وهي الوحيدة التي يعزّها قليلاً! فتخيَّلي أن يذهب لمساعدة صديقه».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سبحنا قليلاً، ثم تنزَّهنا تحت الشمس على طول الشاطئ. نبّهتني، وهي تضحك، إلى شيء لم أكن قد لاحظتُ وجوده من قبل. في نهاية الشاطئ المسودّ، ثمَّة أشكال بيضاء جامدة. جرّتني وهي تضحك على الرمل الحارّ إلى أن اتَّضح لنا أنَّهم كانوا أُناسًا أحياء يغطِّيهم الطين. كانوا يتلقُّون علاجهم بهذه الوسيلة، ولم نكن نعرف السبب. استلقينا وتقلّبنا على الشاطئ، وتدافعنا وتمازحنا، ونحن نقلِّد المومياء سخرية من أولئك الأشخاص. لهونا كثيرًا، ثم عدنا للسباحة مرَّة أخرى.

وفي المساء، تعشّت عائلة سارّاتوري في المطبخ، ودعوني أنا ونيلا لتناول العشاء معهم. وكانت أمسية سعيدة حقًّا. لم تنوِّه ليديا إلى الحيّ، لكنَّها استعلمتْ عنِّي بعد أن لان عداؤها قليلاً. وباتت لطيفة معي حين أخبرتها ماريزا أنّني أهتمّ بالدراسة كثيرًا. لكنّ أكثرهم احترامًا كان دوناتو سارّاتوري. أحاط نيلا بالكثير من المجاملات، وهنَّأني على نتائجي المدرسيَّة التي حصلتُ عليها. وكان منشغلاً بليديا، ويلاعب شيرو الصغير، ثم أراد أن يرتِّب الطاولة بنفسه، ومنعني عن غسل الأطباق.

شرعتُ أدرسه جيِّدًا حتى بدا لي شخصًا مختلفًا عمَّا أذكره. كان نحيفًا بالتأكيد، وقد أطلق شاربه؛ وبغضّ النظر عن هيئته فقد كان فيه شيء ما، يتعلَّق بالسلوك، عجزتُ عن فهمه. لعلَّه بدا لي أكثر حنانًا من والدي، أو كان محترمًا بشكل خارج عن المألوف.

اتَّضح هذا الشعور في اليومين التاليين. حين كنَّا نقصد البحر، لم يكن دوناتو يسمح لزوجته ولنا، نحن الفتيات، أن نحمل شيئًا. كان يحمل المظلَّة الكبيرة بنفسه، والحقائب التي تحتوي على المناشف وزاد الغداء، سواء في الذهاب أم على طريق العودة، حيث يصبح

الدرب صعودًا شاقًّا. ولم يكن يجعلنا نحمل الأغراض إلَّا حين يبكي شيرو، ويطالبه بحمله بين ذراعيه. كانت عضلات جسمه بارزة، وجلده قليل الزغب؛ ويرتدي لباسًا باهت الألوان، يبدو من الصوف الخفيف وليس من النسيج. كان يسبح طويلاً، لكنَّه لا يبتعد عنَّا، وأراني أنا وماريزا كيفيَّة السباحة الحرَّة. فسبحت ابنته مثله، ببطء وبحركة الأذرع المتوازنة نفسها، فرحتُ أقلِّدهما على الفور. كان يعبِّر عن رأيه بالإيطاليَّة الفصيحة أكثر من العامِّيَّة، ويحاول ـ معي بشكل خاصّ ـ أن يستجلب عبارات لمَّاحة واستعارات غير اعتياديَّة. ثم يدعونا، أنا وليديا وماريزا، للركض بمرح على مضرب الأمواج ذهابًا وإيابًا، وذلك لتنشيط العضلات، فيما كان يضحكنا بحركات وأصوات هزليَّة. وحين يسبح مع زوجته، كان يضمّها إليه، ويتحدَّثان همسًا، وغالبًا ما يضحكان. وفي اليوم الذي غادر، تأسَّفتُ مثل ماريًّا وليديا ونيلا تمامًا، إذ بدا البيت، رغم أصواتنا الكثيرة، خاويًا من دونه، أشبه بمقبرة. ولم يكن لي من عزاء سوى أنَّ نينو يوشك على الوصول.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣٢

حاولتُ إقناع ماريزا بالذهاب إلى المرفأ لاستقباله، لكنَّها رفضت قائلة إنّ أخاها لا يستحقّ اهتمامًا كهذا. وصل نينو في المساء. كان طويلاً وهزيلاً للغاية، يرتدي قميصًا أزرق اللون وبنطالاً داكنًا، وينتعل صندلاً ويحمل حقيبة على كتفه؛ لم يبدِ أيّ تأثُّر برؤيتي في إيسكيا، في ذلك البيت، حتى إنّني ظننتُ أنَّ لديهم هاتفًا في ناپولي، وأنَّ ماريزا اتَّصلت به لتعلمه بوجودي. كان قليل الكلام على المائدة، ولم يظهر على الفطور. استيقظ متأخِّرًا، ورحنا إلى البحر في وقت لاحق، ولم يحمل إلَّا أغراضًا قليلة. غطس في الماء بسرعة وتصميم، وسبح حتى بلغ عرض البحر بعفويَّةٍ يفتقر إليها والده، الذي أكثر من إظهار براعته في السباحة. اختفى، فخشيتُ أنَّه غرق، لكنّ أمّه وأخته لم تقلقا بشأنه. ظهر ثانية بعد ساعتين، وانكفأ على القراءة وهو يدخِّن سيجارة تلو الأخرى. ظلّ يقرأ طوال النهار، دون أن يتحدَّث إلينا بكلمة، وهو يصفِّف أعقاب السجائر المطفأة في الرمل اثنتين اثنتين. جلستُ أقرأ، أنا أيضًا، رافضة دعوة ماريزا للتنزُّه على مضرب الأمواج. وعلى

العشاء، تناول طعامه على عجلة، وخرج. نظَّفتُ المائدة، وغسلتُ الأطباق وأنا أفكِّر فيه. رتَّبتُ سريري في المطبخ واستلقيتُ لأقرأ مرَّة أخرى، وأنتظر عودته. قرأتُ حتى الواحدة ليلاً، ثم غفوتُ والنور مضاء والكتاب مفتوح على صدري. وفي الصباح، استيقظتُ لأجد النور مطفأً والكتاب مغلقًا. فكَّرت أنَّه هو من فعلها، فعصفتْ بي رياح من الحبّ حتى سرت في عروقي لم أجرّب مثلها من قبل.

تحسَّنت الأوضاع في غضون يومين. انتبهتُ إلى أنَّه كان ينظر إليّ بين الفينة والأخرى، ثم يلتفت إلى الجهة الأخرى. سألته عمَّا يقرأ، وأخبرته بما كنت أقرأ، وتناقشنا حول قراءاتنا ما سبَّب الضجر لماريزا. في البدء، بدا يصغي إليّ باهتمام، ثم راح يتحدَّث بمفرده، مثل ليلا تمامًا، شغوفًا بأفكاره. وبما أنّني أردتُ أن ينتبه لذكائي، فكنت أحاول أن أقاطعه وأقول رأيي.. ولكن هيهات! إذ كان يبدو سعيدًا لوجودي إن بقيتُ ساكتة أصغي إليه فقط، وهذا ما فعلته على الفور. وبالمجمل، كان يتحدَّث عن أشياء لم أكن قادرة على التفكير بها، أو على الحديث عنها بثقة عالية، وكان يتحدَّث بإيطاليَّة جزلة وجذَّابة.

وكانت ماريزا تضغط الرمل وترشقنا به أحيانًا، وتقاطعنا أحيانًا أخرى قائلة: «يكفي. من يهتمّ لأمر دوستويفسكي هذا! من يهتمّ لأمر كارامازوف!». فإذا بنينو يتجهَّم وجهه، ويبتعد على الساحل مطأطئ الرأس حتى يصبح كنقطة صغيرة. كنت أقضي بعض الوقت مع ماريزا لتحدِّثني باكية عن حبيبها، الذي لم يكن بوسعه القدوم لرؤيتها خلسة. لكنّني كنت أشعر بأنّني في أفضل حال، لم أكن أتوقَّع أنَّ الحياة قد تكون هكذا. فكَّرتُ أنَّ الفتيات في شارع «الألف مقاتل» كنّ يعشن حياة كهذه، تلك الفتاة التي ترتدي اللون الأخضر مثلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان دوناتو سارّاتوري يعود كلّ ثلاثة أو أربعة أيَّام، لكنَّه يبقى أربعًا وعشرين ساعة ثم يغادر. كان يقول إنَّه يتوق جدًّا لحلول الثالث عشر من أغسطس، حين سيبقى في بارانو أسبوعين كاملين. ما إن يظهر الوالد، يختفي ابنه. كان نينو يأكل ويخرج ثم يعود في ساعة متأخِّرة من الليل، ولم يكن يلفظ في وجود أبيه أيّ كلمة. كان يستمع إلى حديثه بشبه ابتسامة طفيفة، ولم يكن يوافق على أيّ شيء يقترحه أبوه، ولا يعارض أيضًا. المرَّة الوحيدة التي نطق فيها شيئًا واضحًا ودقيقًا كانت حين ذكر دوناتو يوم الثالث عشر من أغسطس الموعود. بعد دقيقتين، ذكّر نينو أمّه، أمّه وليس أباه، بأنَّه سيعود في الرابع عشر من أغسطس إلى ناپولي، لأنَّه اتّفق أن يلتقي ببعض أصحابه في المدرسة. كانوا ينوون أن يجتمعوا في أحد البيوت الريفيَّة في أفيلينيزي ليبدأوا بالتحضير لواجبات الصيف. «إنَّه يكذب» همستْ ماريزا في أذني، «ليس لديه أيّ واجبات». غير أنَّ أمّه ما فتئت تثني عليه، وأباه أيضًا. بل اندفع دوناتو بأحد مواضيعه المحبَّبة قائلاً: إنّ نينو كان محظوظًا بفرصة الدراسة، فهو قد وصل إلى الصفّ الثاني في المدرسة الصناعيَّة فقط، ثم توجَّب عليه العمل؛ ومن يدري أين كان سيصل لو سنحت له فرصة الدراسة مثل ابنه!؟ ثم يقول خاتمًا: «ادرس يا نينو العزيز. أحسنت يا بنيّ. افعل ما لم يفلح والدك في فعله».

كانت هذه الأقوال تُثير استياء نينو أكثر من أيّ شيء آخر. ولكي يتخلَّص من ذلك العبء، كان يحدث أن يدعوني أنا وماريزا للخروج معه أحيانًا. يقول لوالديه عابسًا، كما لو أنَّنا كنَّا نعذّبه: «يريدان تناول المثلَّجات، يريدان التنزُّه، سأرافقهما».

في تلك المناسبات، كانت ماريزا تهرع لتجهّز نفسها بسعادة بالغة، فيما أنا أتألَّم، لأنَّ ثيابي كانت معدودة وبالية. لكنَّه بدا لي لا

يهتمّ إن كنت جميلة أم قبيحة. كان يباشر بالكلام ما إن نخرج من البيت، ما يسبِّب ضجر ماريزا فتقول إنَّها من الأفضل لو بقيت في المنزل. أمَّا أنا، فكنت أتعلَّق بشفتيه. كان يدهشني أنَّه لا يبالي، في صخب الميناء، إذا اقترب الشبَّان والفتية منِّي ومن ماريزا، محاولين اجتذابنا والدردشة معنا؛ لم يكن يُبدي أيّ مظهر من مظاهر العنف التي يتفنَّن بها باسكوالي ورينو وأنطونيو وإنتسو، حين يخرجون معنا ويحاول مجهولٌ ما أن يرمينا بنظرة مغرضة. كان نينو لا يساوي شيئًا كحارس شخصيّ، ربَّما لأنَّه سارح دومًا بالأفكار التي تضجّ في رأسه، ومهووس في الحديث بها، فتراه لا يكترث بما يجري من حولنا.

وهكذا، تعرّفتْ ماريزا على بعض الشبَّان من فوريو، وأتوا لزيارتها في بارانو، واصطحبتهم معنا إلى شاطئ مارونتي، ثم بدأت تخرج معهم كلّ مساء. كنَّا نذهب نحن الثلاثة إلى الميناء، وحالما نصل إلى هناك تنضمّ ماريزا إلى أصدقائها الجدد (متى كان باسكوالي متحرِّرًا مع كارميلَّا إلى هذا الحدّ، أو أنطونيو مع آدا؟) ونذهب نحن الاثنين للتنزُّه على طول البحر. ثم نلتقي حوالى العاشرة لنعود إلى البيت.

ذات مساء، حين أصبحنا بمفردنا، قال لي نينو بغتة إنَّه، في طفولته، كان يحسدني على علاقتي بليلا. كان يرانا من بعيد، لا ننفصل عن بعضنا بعضًا، ندردش دومًا، فكان يودّ لو أقام صداقة معنا، إلَّا أنَّه افتقد الشجاعة لبلوغ مراده. ثم ابتسم، وقال:

«هل تذكرين عندما اعترفتُ لك بحبِّي؟»

«أجل».

«كنت معجبًا جدًّا بكِ».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اشتعل وجهي حياءً، فهمستُ بسذاجة:

«شكرًا».

«كنت أظنّ أنَّنا إذا ارتبطنا، سنقضي الوقت كلّه معًا، أنا وأنت وصديقتك».

«معًا؟»

ضحك ساخرًا من نفسه.

«لم أكن أفهم شيئًا عن الارتباط».

سألني عن ليلا.

«هل تابعتْ دراستها؟»

«لا».

«وماذا تفعل إذن؟»

«تساعد أبويها».

«كم كانت مجتهدة، لم يكن من الممكن تجاوزها. كانت تفقدني صوابي».

قالها هكذا تمامًا: «كانت تفقدني صوابي»، وإن كنت في البدء قد انزعجت، لأنَّه قال إنَّ اعترافه بالحبّ لم يكن سوى محاولة للتقرُّب من ليلا، فقد شعرتُ بالألم بشكل مفضوح بعد تلك الجملة، أحسستُ بألم حقيقيّ في صدري.

«لم تعد هكذا» قلت، «لقد تغيّرت».

وكدت أقول له: «هل سمعتَ الأساتذة كيف يمدحون أدائي في المدرسة؟» وحمدًا لله أنّني تمالكتُ نفسي؛ ولكنّني كففتُ عن كتابة الرسائل إلى ليلا، بعد تلك المحادثة. كنت بالأصل أبذل جهدًا في

إخبارها بما يحدث لي، ولم تكن تجيبني عمومًا. كرّستُ نفسي للعناية بنينو. كنت أعلم أنَّه يستيقظ متأخِّرًا، لذا كنت أبتدع حججًا من كلّ نوع كي لا أتناول الفطور مع الآخرين. كنت أنتظره، وأنزل إلى البحر معه، وأحضر أغراضه بنفسي، وأحملها إليه، ونسبح معًا قرب الشاطئ، إذ لم تكن مقوّماتي تسمح لي بالمضيّ معه إلى عمق البحر، فأعود إلى رمل الشاطئ، لأراقب الخطّ الذي يخلّفه وراءه ورأسه الذي يبدو كنقطة داكنة. كان القلق يكتنفني ما إن يحيد عن أنظاري، وتعود لي البسمة حين أراه يعود. كنت أحبّه بالمحصّلة، وأنا على علم بذلك، وكنت سعيدة بمحبَّتي له.

غير أنَّ الخامس عشر من أغسطس يقترب أكثر. ذات مساء، قلت له إنّني لم أكن راغبة في الذهاب إلى الميناء، بل أفضِّل التنزُّه على الشاطئ تحت ذلك البدر المنير. وأملتُ أن يأتي معي ويرفض اصطحاب أخته، التي تضغط للذهاب إلى الميناء، حيث كان بانتظارها ما يشبه العشيق الذي يبادلها العناق والقبلات لتخون حبيبها النابوليتاني، على حدّ زعمها. لكنَّه آثر اصطحاب ماريزا؛ فانطلقتُ على درب الحصى الذي يفضي إلى الشاطئ، حفاظًا على مواقفي. كانت الرمال باردة، يميل لونها إلى الاسوداد تحت ضوء القمر، والبحر بالكاد يتنفَّس. لم يكن هنالك أحد، فشرعتُ بالبكاء على وحدتي. من أنا؟ وماذا أكون؟ عادت إليّ الثقة بجمالي، تخلَّصتُ من كلّ البثور، والبحر والشمس جعلا من جسدي أكثر رشاقة. ورغم كلّ هذا، فإنّ الشخص الذي أحبّه وأتوق ليبادلني الغرام لم يبدِ أيّ اهتمام بي. بم كنت أنضح؟ وما الذي كان عليه مصيري؟ تخيَّلتُ أنَّ الحيّ بمثابة لجَّة عميقة، عبثًا أحاول النجاة منها. وحينها سمعتُ صوت خطوات تلوك الرمال، فالتفتّ لأرى ظلّ نينو. جلس إلى جانبي. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليه العودة ليصطحب أخته بعد ساعة. شعرتُ أنَّه كان منفعلاً، يضرب الرمل بكعب قدمه اليسرى. لم يتحدَّث عن الكتب، بل تكلَّم فجأة على والده.

«سأحاول ما حييتُ ألَّا أصبح مثله»، قال كما لو أنَّه بصدد مهمَّة ما.

«لكنَّه رجل لطيف».

«هذا ما يقوله الآخرون».

«وما المشكلة إذن؟»

أصدر تنهيدة ساخرة شوّهتْ ملامح وجهه بضع لحظات.

«كيف حال ميلينا؟»

نظرتُ إليه مشدوهة. كنت أحتاط حذرًا بعدم ذكر اسم ميلينا خلال تلك الأيَّام ذات الدردشات الطويلة، فإذا هو يتكلَّم عنها.

«ليست على ما يرام».

«كان عشيقها. كان يعلم جيِّدًا أنَّها امرأة ضعيفة، لكنَّه تقصّد إيقاعها في الغرام إرضاءً لنزواته ليس إلَّا. قد يؤذي أيّ أحد إرضاءً لنزواته فقط، دون أن تأخذه رأفة أو شفقة. يظنّ أنَّ كلّ أفعاله مغفورة ما دام مقتنعًا بأنَّه يُسعد الجميع. يُعامل أبناءه بمحبَّة؛ ويحيط والدتي بحنانه. لكنَّه لا يكلّ عن خيانتها. يا له من منافق وكم أشمئزّ منه».

احترتُ بما أردّ عليه. كان الحيّ يشهد على أحداث مروِّعة، قد يصل الآباء وأبناؤهم إلى الشجار بالأيدي، كما هي الحال بين رينو وفرناندو مثلاً. لكنّني صُدمتُ بالعنف الذي يتضمّن كلماته المبنيَّة بعناية. كان نينو يضمر الحقد لوالده، ولعلّ هذا ما يدفعه للحديث عن الإخوة كارامازوف. ولكن ليس هذا هو المهمّ. ما استوقفني وأقلقني

هو أنَّ دوناتو سارّاتوري، كما رأيته بعينيّ وسمعته بأذنيّ، لم يكن يثير الاشمئزاز نهائيًا، بل كان أبًا يتمنّاه أيّ شابّ أو فتاة، وماريزا كانت تكنّ له الكثير من المودّة بالفعل. وإن كان ذنبه أنَّه محبوب، فإنَّني لم أَرَ ما يستوجب الاستنكار في هذا؛ حتى أمِّي كانت تتّهم والدي بأنَّه ارتكب من الموبقات ما لا يعدّ. وبالتالي، رأيتُ في كلام نينو الملتهب ولهجته المحتدَّة ما يثير الخوف. غمغمتُ:

«أبوك وميلينا وقعا في شباك الغرام، مثل ديدون وإينياس. إنَّها أمور تسبِّب الأذى حقًّا، لكنَّها مؤثِّرة أيضًا».

«لقد أقسم أن يكون مخلصًا لوالدتي أمام الله»، هتف بصوت مرتفع على حين غرَّة. «إنَّه لا يحترم أمِّي ولا يخشى من الله». وثب متوتِّرًا، وكانت عيناه جميلتين وتلمعان. «حتى أنتِ لا تفهمينني» قال، وهو يبتعد بخطوات طويلة.

لحقت به وقلبي ينبض بقوَّة.

«أفهمك» قلت له، وأمسكتُ ذراعه برفق.

لم نكن قد تلامسنا من قبل. أشعل ذلك التماس أناملي، فسحبتُ يدي فورًا. انحنى نينو، ولثم شفتيّ بقبلة خفيفة للغاية.

«سأنطلق في الغد»، قال.

«لكنّ الثالث عشر بعد غد».

لم يجبني. وصعدنا نحو بارانو ونحن نتكلَّم على الكتب، ثم ذهبنا لاصطحاب ماريزا من الميناء. وما زلت أشعر بفمه يطوي فمي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣٣

بكيتُ الليل كلّه في ذلك المطبخ الساكن. وغفوتُ عند الفجر، حتى أيقظتني نيلا، وأنبتني قائلة بأنّ نينو تناول الفطور على الشرفة كي لا يزعجني، وغادر.

لبستُ على عجل، فانتبهتْ أنّني مضطربة. قالت لي في النهاية: «أسرعي قبل فوات الأوان». هرعتُ إلى المرفأ آملة الوصول قبل انطلاق المركب، لكنّني رأيت المركب قد صار في عرض البحر.

قضيتُ أيّامًا عصيبة. ذات مرَّة وأنا أرتّب الغرف، عثرتُ على قطعة كرتونيَّة زرقاء يستخدمها نينو كفاصل للكتب التي يقرأها، فخبّأتها بين أغراضي. وفي المساء، حين كنت أهجع إلى السرير في المطبخ، كنت أشتمّ الفاصل وأقبّله وألحسه برأس لساني، وأبكي. كان هيامي المحبط يؤثّر في مشاعري، والدمع كالنار يتغذّى على نفسه.

ثم عاد دوناتو سارّاتوري ليبدأ إجازته الطويلة على مدار خمسة عشر يومًا. تأسّف لسفر ابنه، لكنَّه كان مسرورًا لأنَّه سيلتقي بأصدقائه

في أفيلينيزي للمذاكرة. «يا له من فتى جدِّيّ» قال، «مثلك أنتِ. إنّني فخور به، كما أتصوَّر أنَّ والدك فخورٌ بكِ».

طمأنني حضور ذلك الرجل اللطيف. أراد أن يتعرَّف على أصدقاء ماريزا الجدد، فدعاهم للسمر حول النار على الشاطئ. وقام بجمع الأخشاب التي استطاع العثور عليها بنفسه، وبقي معنا نحن الصغار إلى وقت متأخِّر. كان الشابّ، الذي أقامت معه ماريزا شبه ارتباط، يدندن على الجيتار؛ فغنّى دوناتو وأطربنا بصوته الشادي. وفي قلب الليل، أخذ الجيتار ليعزف عليه بنفسه، وكان ماهرًا في العزف، لا سيّما تلك المقطوعات الراقصة. ما دفع بعضَهم إلى الرقص، ماريزا على رأسهم.

كنت أتمعّن في ذلك الرجل، وأفكِّر: لا وجود لقاسم مشترك يجمعه بابنه. كان نينو طويل القامة، ناعم الوجه، يدفن جبينه تحت بساط غرّة شعره قاتم السواد، وفمه مواربٌ دومًا وشفتان جذّابتان. أمَّا دوناتو، فكان متوسِّط القامة، تقاسيم وجهه واضحة وشعره خفيف عند صدغيه، وفمه صغير يكاد يبدو بلا شفتين. نينو يروم بنظرة متجهِّمة تخترق الأشياء والأشخاص، وتبثّ الرعب في النفوس؛ أمَّا دوناتو، يجود بنظرة مرحّبة، دائمة البهجة، تحتفي بلقاء أيّ شيء أو شخص. لدى نينو ما ينهشه من الداخل، مثل ليلا، وهذه نعمة ولعنة في الآن ذاته، تُفقدهما طعم السعادة والراحة، فيخشيان كلّ ما يحيط بهما. أمَّا هذا الرجل، فيبدو متصالحًا مع أيّ مظهر من مظاهر الحياة، ليعطي كلّ ثانية من يومه أهمِّيَّة مطلقة.

ومنذ تلك السهرة، بات والد نينو يمثّل لي دواءً شافيًا ليس من ألمي على غياب نينو بعد قبلته العابرة فحسب، بل من ألمي الذي تسبَّبَتْ به ليلا بعدم ردّها على رسائلي أيضًا. استغربتُ من هذا الأمر، وفكَّرتُ أنَّها ونينو لم يتعارفا جيِّدًا، ولم يختلطا البتَّة، ورغم هذا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيتُ أنَّهما يتشابهان في كثير من الأمور: ليسا في حاجة لأحد ولا لشيء، وهما على علم دائمًا بما يناسبهما. ألا يخطئان؟ ما هو الشيء المريع الذي يتَّصف به مارتشيلّو سولارا، ودوناتو سارّاتوري؟ لم أكن أفهم. كنت أحبّ ليلا ونينو على قدر سواء، وأشتاق إليهما وإن اختلف السبب. لكنّني كنت ممتنَّة لذلك الأب المكروه الذي كان يمنحنا، أنا والفتية الآخرين، لحظاتٍ مرحة تتخلَّل ليل مارونتي الساكن. وفجأة، شعرتُ بالسعادة لعدم وجود أيّ منهما في تلك الجزيرة.

عاودتُ القراءة، وكتبتُ آخر رسالة إلى ليلا صرّحت فيها أنَّني لن أكتب لها ما دام أنَّها لا تُجيب أبدًا. ورحت أتقرَّب أكثر من عائلة سارّاتوري، فشعرتُ أنّني شقيقة لماريزا وبينوتشو والصغير شيرو الذي صار متعلِّقًا بي، ولا يهدأ إلَّا باللعب معي في البحث عن الصدف. وباتت ليديا تكثر من الثناء عليّ، بعد أن قلبتْ امتعاضها منِّي إلى لطف ومودَّة، معجبة بدقّتي في ترتيب الأشياء: تجهيز المائدة وترتيب الغرف وغسل الأطباق والعناية بالطفل، ودأبي على الدراسة والمطالعة. ذات صباح، دعتني إلى ارتداء فستانها الصيفيّ الذي بات ضيِّقًا عليها، وأهدتني إيَّاه، بعد أن أبدى كلّ من دوناتو ونيلا رأيهما وإعجابهما. وكانت في بعض الأحيان تفضّلني على ابنتها أيضًا، قائلة: «إنَّها فتاة كسولٌ ومغرورة. خاب أملي في تربيتها، لا تحبّ الدراسة. أمَّا أنتِ فأراك تفعلين كلّ شيء بدراية». وأضافت ذات مرَّة: «مثل نينو تمامًا. سوى أنَّك صافية الذهن، أمَّا هو، فدائم العصبيَّة». لكنّ دوناتو كان يدافع عن نجله حين يسمع تلك الانتقادات. «إنَّه شابّ من ذهب»، قال وهو ينظر إليّ طالبًا منِّي تأكيدًا على كلامه، فأومأتُ إيجابًا باقتناع تامّ.

اعتاد دوناتو على الاستلقاء قربي، بعد سباحته الطويلة، ليستحمّ بالشمس منشغلاً بقراءة الشيء الوحيد الذي كان بحوزته، جريدة «روما». استغربتُ أنَّ رجلاً يكتب الشعر، وقد أصدر قصائده في ديوان، لا يفتح أيّ كتاب مطلقًا. لم يجلب معه أيّ كتاب، ولم يدفعه الفضول ليسألني عن قراءاتي. وأحيانًا، يُلقي على مسامعي فقراتٍ من مقال ما، من شأنه أن يُغضب باسكوالي والأستاذة غاليانى على وجه الخصوص. وكنت ألتزم الصمت رغبة منّي في الحفاظ على إعجابه بي. ذات مرَّة، قرأ عليّ مقالاً كاملاً، من ألفه إلى يائه، وكلَّما قرأ سطرين، التفت إلى زوجته بابتسامة لتبادله بمثلها. وفي النهاية، سألني:

«هل أعجبك؟»

كان المقال يتحدَّث عن السفر السريع بالقطار خلافًا لطريقة السفر في الماضي، بالعربة أم سيرًا على الأقدام، على دروب الريف. وكان يقرأ الجمل الأنيقة بأسلوب ممتع.

«أجل، كثيرًا»، أجبته.

«انظري من كتبه. ماذا تقرأين هنا؟»

انحنى باتِّجاهي، ووضع الجريدة تحت عينيّ. فقرأتُ متأثِّرة:

«دوناتو سارّاتوري».

فضحك هو وزوجته، وتركاني على الشاطئ لأهتمّ بشيرو، ريثما يهنآن بسباحة هادئة، متعانقين يتهامسان. نظرتُ إليهما، فخطرت ميلينا المسكينة في ذهني دون أن أنقم على سارّاتوري. حتى لو افترضنا أنَّ نينو كان محقًّا، وأنّ بين دوناتو وميلينا كان هنالك شيء ما؛ حتى لو افترضنا أنَّه لم يكفّ عن خيانة زوجته؛ الآن، وقد عرفته بما فيه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكفاية، لا أستطيع اعتباره مذنبًا، ولا يبدو لي أنَّ زوجته تراه آثمًا، رغم أنَّها أرغمته في السابق على هجر الحيّ. وبالنسبة إلى ميلينا، فكنت أتفهَّمها أيضًا: كانت مسرورة بوقوعها في غرام ذلك الرجل الخارج عن المألوف ـ مراقب تذاكر في القطار لكنَّه شاعر وصحفيّ أيضًا ـ ولم يتكيَّف قلبها المحطَّم مع مشقَّة الحياة من دونه. كنت أتأثَّر بتلك الأفكار، وأشعر أنّني سعيدة بكلِّ شيء، بتلك الأوقات، بحبِّي لنينو، سعيدة بحزني، وبالمودّة التي كانوا يحيطونني بها، سعيدة بالقدرة على القراءة والتفكير والتأمُّل بمفردي.

٣٤

في أواخر أغسطس، حين كانت تلك الحقبة الرائعة توشك على نهايتها، وقع أمران في غاية الأهمِّيَّة، ووقعا فجأة، في اليوم نفسه. الخامس والعشرون من أغسطس، أذكر هذا اليوم بدقَّة، لأنَّه يصادف عيد ميلادي. نهضتُ وحضّرتُ الفطور للجميع، وقلت على الطاولة: «اليوم أتمّ خمسة عشر عامًا»، وبينما كنت أنطق تلك الجملة، تذكَّرتُ أنَّ ليلا أتمّت السنّ نفسها في الحادي عشر من ذلك الشهر، ولكنّني لم أكن لأذكر تلك المناسبة في خضمّ تلك العواطف. ألحّ سارّاتوري وعائلته، فضلاً عن نيلا، على الاحتفال في المساء؛ رغم أنَّ الغالب كان الاحتفال بيوم الاسم، فأعياد الميلاد لم تكن دارجة حينذاك. أسعدني ذلك. نظَّفتُ الطاولة، بينما كانوا يتجهَّزون للذهاب إلى البحر؛ فإذا بساعي البريد يقرع الباب.

أطللتُ من النافذة، فقال ساعي البريد إنّ رسالة وصلت إلى غريكو. هرعتُ راكضة على إيقاع قلبي الخافق. كنت أستبعد رسالة من أبي وأمِّي. هل تراسلني ليلا، أم نينو؟ أتت الرسالة من ليلا. فتحتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الظرف، فخرجتْ عليّ خمس صفحات مليئة بالكلمات. سارعتُ إلى التهامها، ولم أستوعب شيئًا ممَّا قرأتُ. قد يبدو اليوم عبثيًا، لكنّني شعرتُ بما يلي: قبل أن أغرق في مضمون الرسالة، صعقتُ بأنّ الرسالة تحتوي على صوت ليلا. وليس هذا فحسب. فمنذ أن قرأتُ الأسطر الأولى، خطرت «الساحرة الزرقاء» في ذهني، نصّها الوحيد الذي قرأته قبل تلك الرسالة، عدا واجبات الإنشاء في الابتدائيَّة؛ وأدركتُ حينها ما الذي أعجبني كثيرًا. كانت «الساحرة الزرقاء» تتضمَّن ما صعقتُ به آنذاك: قدرة ليلا على التكلُّم عبر الكتابة؛ خلافًا عنّي حين أكتب، خلافًا لسارّاتوري في مقالاته وأشعاره، خلافًا لكثير من الأدباء الذين كنت أقرأ لهم. كانت ليلا تعبّر بجمل مصاغة بعناية، دون أيّ خطأ، رغم انقطاعها عن الدراسة، والغريب أنَّ عفويَّتها حاضرة بقوَّة، لا أثر للابتذال في الكلمة المكتوبة. كنت أقرأها، بل وأراها وأسمعها. شدّني صوتها المنقوش في كلماتها، سالبًا عقلي أكثر ممَّا كنَّا نتناقش وجهًا لوجه: إذ كان النصّ نقيًّا من زوائد الثرثرة وتشويش المحادثة. وكان سردها منظَّمًا بأسلوبٍ كما لو أنَّ الحظَّ حالفنا لنولد من نسل زيوس، وليس غريكو أو شيرولّو. وهكذا، شعرتُ بالحياء من رسائلي الصبيانيَّة التي كتبتُها، ومن النبرة المفرطة التي استخدمتُها، من تهوُّري وبهجتي الزائفة وآلامي المصطنعة. ومن يدري كيف فكَّرتْ بي ليلا! انتابني النفور والاحتقار في حقّ الأستاذ جيراتشي الذي أوهمني بتسع علامات في الإيطاليَّة. إذ كانت تلك الرسالة كأوّل دليل دامغ على عدم نزاهتي أحصل عليه تمامًا في يوم ميلادي الخامس عشر. دليل على أنّ المدرسة بمثابة خديعة ليس إلَّا.

وشيئًا فشيئًا، انغمستُ في الفحوى. كانت ليلا تهنّئني في عيد ميلادي. ولم تكن قد كتبتْ إليّ في السابق، لأنَّها كانت مسرورة

بقضائي الوقت تحت الشمس، وبصحبتي الطيِّبة لآل سارّاتوري، وبمحبَّتي لنينو وبإعجابي بإيسكيا وشاطئ مارونتي؛ ولم تشأ أن تعكِّر صفو إجازتي بأخبارها السيِّئة. لكنَّها شعرتْ بحاجة ماسّة لكسر الصمت حينذاك. بعد مغادرتي بمدَّة قصيرة، بات مارتشيلُّو سولارا يأتي إلى العشاء كلّ مساء، بموافقة فرناندو. كان يصل في الثامنة والنصف وينصرف في العاشرة والنصف تمامًا. ويحمل معه دومًا هديَّة ما: المعكرونة والشوكولاتة والسكّر والقهوة. ليلا لم تكن تمسّ شيئًا من هباته، ولم تبادله الثقة، فيكتفي بالنظر إليها صامتًا. بعد أوّل أسبوع من جلسات التعذيب تلك، قرَّر أن يبهرها، لأنَّها كانت تتصرَّف على أنَّه ليس موجودًا. حضر ذات صباح مع رجل ضخم البنية ويتصبَّب عرقًا، جاء به ليضع في صالة الطعام علبة كرتونيَّة عملاقة. وأخرج من العلبة غرضًا كنَّا نعرفه جميعًا، لكن قلَّة قليلة من سكَّان الحيّ كانت تملك مثله: تلفاز، أي جهاز مزوَّد بشاشة تعرض الصور، كشاشة السينما فعلاً، لكنَّها لا تعمل بوساطة عارض الضوء بل بموجات الأثير، وتحتوي داخلها على أنبوب خيالي يسمّى بأنبوب الأشعَّة الكاثوديَّة. لم يعمل الجهاز لأيَّام بسبب ذلك الأنبوب، كما قال الرجل الضخم والمتعرِّق. وبعد عدَّة محاولات، بدأ يعمل حتى صار معظم أهالي الحيّ، بمن فيهم أبي وأمِّي وإخوتي، يقصدون بيت شيرولو لرؤية تلك المعجزة. كلّهم عدا رينو الذي تغلّب على الحمّى، وكان في حال أفضل، لكنَّه لم يعد يتحدَّث مع مارتشيلُّو. وحين يأتي الأخير، يتكلَّم رينو بشكل سيِّئ عن التلفاز، ثم ينصرف للنوم بعد قليل دون أن يمسّ الطعام، أو يخرج ليتسكَّع حتى ساعة متأخِّرة من الليل مع باسكوالي وأنطونيو. أمَّا ليلا، فكانت معجبة بالتلفاز، وتحبّ أن تشاهده خصوصًا مع ميلينا التي باتت تجيء كلّ مساء، وتظلّ طويلاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صامتة ومندمجة. كانت هذه لحظة السلام الوحيدة. وباقي ما تبقّى من غضب وغيظ يُسكب فوق رأسها: استياء أخيها منها، لأنَّها تركته لمصيره في العمل عبدًا عند أبيهما، بينما كانت تتجهَّز لزواجٍ سيجعل منها سيِّدة؛ واستياء فرناندو ونونتسيا، لأنَّها لم تكن لطيفةً مع ابن سولارا، بل كانت تعامله بفظاظة؛ وأخيرًا استياء مارتشيلُّو الذي بات يتصرّف على أنَّه خطيبها، رغم عدم موافقتها، بل ووليّ نعمتها، وأخذ يميل من العشق الأخرس إلى محاولات تقبيلها، إلى طرح أسئلة مريبة: أين تقضي النهار، وبمن تلتقي، وإن كانت مرتبطة بشبّان آخرين، أو تجرّأ أحدهم على لمسها. وذات مساء، بما أنَّها لم تكن تجيب على أسئلته، بل وكانت تسخر منه باختراع قصص غرام مع عشّاق من نسج خيالها، همس جدِّيًا في أذنها: «أنت تدمّرينني. هل تذكرين عندما هدَّدتني بالسكِّين؟ حسنًا، إن عرفتُ أنَّك أحببتِ غيري، كوني على يقين بأنّني لن أكتفي بتهديدك بل سأذبحك». لم تكن تعرف كيف الخروج من ذلك المأزق، واستمرَّتْ في حمل سلاحها معها تحسُّبًا لأيّ طارئ. غير أنَّها كانت خائفة. وكانت تقول، في الصفحات الأخيرة، إنَّها تشعر أنَّ شرور الحيّ تحدِّق بها من كلّ جانب. بل وصل بها القلق لتقول إنّ الخير اختلط بالشرّ واتّحدا عليها. لو تمعّنَّا في الأمر، لوجدنا أنَّ الزواج بمارتشيلُّو كان خير فكرة، لكنّ الخير له مذاق الشرّ، والعكس صحيح. كانت تشعر أنَّها في بوتقة تشدّ الخناق عليها. قبل بضعة أيَّام، حدث لها شيء أخافها حقًّا. بعد انصراف مارتشيلُّو، وإطفاء التلفاز، خلا البيت، وكان رينو في الخارج وأبواها يخلدان إلى النوم. كانت ليلا وحيدة في المطبخ تغسل الأطباق، منهكة وخائرة القوى، فإذا هي تسمع دويًا صاعقًا. التفتتْ بسرعة لترى أنَّ قِدر النحاس قد وقع أرضًا، من تلقاء نفسه. كان معلَّقًا بمسمارٍ في

مكانه المعتاد. لاحظتْ أنَّ وسط القِدر مخترق بشدَّة، وحوافّه مفتولة ومنزوعة، والقِدر نفسه كان مشوَّهًا كما لو أنَّه لم يعد قادرًا على حفظ مظهره كقِدر نحاسيّ. هرعتْ أمّها بلباس النوم، ووضعت اللوم عليها في سقوط القِدر وتلفه. لكنّ قِدرًا نحاسيًّا، حتى ولو سقط، لم يكن ليُتلف ويتشوّه بهذا الشكل. ختمت ليلا: «هذا النوع من الأحداث يفزعني. أكثر من مارتشيلُّو أو أيّ أحد آخر. وأشعر بضرورة إيجاد حلّ، وما أدراني، حدثٌ بعد حدثٍ، سيتحطَّم كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء». ودّعتني بالمزيد من التهاني؛ ومع أنَّها كانت ترغب في عودتي، ومتلهِّفة لرؤيتي، وكانت في أمسّ الحاجة لمساعدتي؛ فإنّها تمنّتْ لي أن أبقى في إيسكيا مع السيِّدة اللطيفة نيلا، وأن لا أعود إلى الحيّ إطلاقًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣٥

أزعجتني الرسالة كثيرًا. وعاد عالم ليلا ليطغى بسرعة فوق عالمي. بدا لي كلّ ما كتبته لها بين يوليو وأغسطس سخيفًا، واستفحلتْ بي الرغبة في استعادة اعتباري. لذا لم أذهب إلى البحر، وحاولتُ أن أجيبها برسالة سريعة وجدِّيَّة، على أن تكون في مستوى رسالتها وأسلوبها التفاعليّ ونقاوة تعبيرها. ولئن استسهلتُ كتابة الرسائل السابقة، حيث كنت أكتب صفحات عديدة في غضون دقائق دون مراجعة، فإنّ تلك الأخيرة كتبتها مرَّة واثنتين وثلاث؛ لكنّني عالجتُ المواضيع بطريقة سيِّئة، رغم حديثي عن النقمة التي أبداها نينو بحقّ والده، ودور قصَّة ميلينا في نشوء تلك النقمة، وعلاقتي بعائلة سارّاتوري، والقلق الذي اعتراني بتفاقم ورطتها. دوناتو الذي كان في الحقيقة رجلاً جديرًا بالاهتمام، برز على صفحاتي ربّ أسرة اعتياديًا؛ وأنا نفسي اقتصرتُ على توجيه نصائح سطحيَّة في ما يخصّ مارتشيلُّو. وفي النهاية، لم يظهر الصدق سوى في انزعاجي، لأنّني لا أملك تلفازًا في البيت مثلها.

بالمحصّلة، أخفقتُ في كتابة رسالة، مع أنّني امتنعتُ من الذهاب إلى البحر والاستجمام بالشمس، واللهو مع شيرو وبينو وكليليا وليديا وماريزا وسارّاتوري. وحمدًا لله أنَّ نيلا جاءت لتؤنسني على الشرفة فيما بعد، وأحضرتْ لي مشروبًا منعشًا. وحمدًا لله أيضًا أنَّ عائلة سارّاتوري، بالعودة من البحر، تأسَّفوا على بقائي في البيت، واستأنفوا احتفالهم. أرادت ليديا أن تجهّز كعكة مليئة بالقشدة الحلوة، وفتحت نيلا قارورة من نبيذ الفيرموت، وباشر دوناتو بشدو الأغاني النابوليتانيَّة، بينما أهدتني ماريزا حصان بحر خشبيًّا اشترته لنفسها في الميناء مساء أمس.

تعدّل مزاجي، لكنّني لم أستطع أن أزيل ليلا من رأسي، فيما تعاني هي من تلك الورطة العويصة، كنتُ أنعم بأفضل حال واحتفال. قلت بلهجة مأسويَّة إنّني تلقَّيتُ رسالة من صديقتي، وإنّ صديقتي في حاجة إليّ، لذا كنت أفكِّر بالذهاب قبل الأوان. «بعد غد كحدّ أقصى»، صرّحتُ دون اقتناع تامّ. وفي الواقع، كان الهدف أن أرى نيلا تتأسَّف، وليديا تقول إنّ شيرو سيتألَّم لغيابي، وماريزا تشعر بالخيبة، وسارّاتوري يهتف بحزن: «وما العمل من دونك؟» تأثَّرتُ بهذه الكلمات، وجعلتْ من حفلتي أكثر هناءً.

ثم تثاءب بينو وشيرو، فأخذهما دوناتو وليديا إلى النوم. ساعدتني ماريزا على غسل الأطباق، وقالت لي نيلا إنَّها من الممكن أن تستيقظ باكرًا، إذا أحببتُ أن أستريح لوقت أطول. اعترضتُ، لأنَّ هذه كانت وظيفتي. انسحب الجميع، واحدًا تلو الآخر، وبقيتُ وحيدة. ركّبتُ سريري الصغير في الزاوية المعتادة، وتفحَّصتُ الوضع لأمنع الصراصير والبعوض من الاقتراب. ووقعتْ أنظاري على القدور النحاسيَّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كم كانت كتابة ليلا معبّرة! ازداد اضطرابي كلَّما نظرتُ إلى القدور. تذكَّرتُ أنَّها لطالما كانت معجبة ببريقها، وكانت تعتني بتلميعها جيِّدًا كلّما غسلتها. ولم يكن اعتباطًا أنَّها، قبل أربع سنوات، ربطتِ القدور بتدفّق دماء الدون آخيل النازفة من رقبته بعد تلقِّيه الطعنة. وحينها، كانت تربط إحساسها بالخطر، وحيرتها في ذلك الخيار الصعب الذي كان يتحتَّم عليها، بانفجار القِدر كإشارة ما، كما لو أنَّه قرَّر أن ينصهر شرّ انصهار. هل كانت لي القدرة على تخيّل تلك الأشياء من دونها؟ هل كان بوسعي ضخّ الحياة بأيّ غرض أمامي، أو القدرة على صقله تماهيًا مع منعطفات حياتي؟ أطفأتُ النور. نزعتُ ثيابي، واستلقيتُ على السرير مع رسالة ليلا وفاصل كتب نينو أزرق اللون، أغلى شيئين كنت أملكهما في تلك اللحظة.

كان ضوء القمر الأبيض ينهمر من النافذة الكبيرة. قبَّلتُ فاصل الكتب كما أفعل كلّ ليلة، وحاولتُ أن أعيد قراءة رسالة صديقتي ثانية تحت ذلك النور الواهن. كانت القدور تبرق والطاولة تخشخش، والسقف معلّق بكامل ثقله، والبحر يرسل أنفاسه على جوانب ذلك الجوّ الليليّ. راودني الشعور بالدونيَّة من أسلوب ليلا مجدَّدًا، من قدرتها على التصوير وعجزي، حتى أغشتْ عينيّ. بالتأكيد كنت سعيدة بمقوِّماتها دون حاجة إلى مدرسة، دون استعارة الكتب من المكتبة، لكنّ تلك السعادة كانت تجعل منِّي كائنًا تعيسًا عنوة.

وحينها، سمعتُ صوت خطوات. رأيتُ ظلّ سارّاتوري يدخل إلى المطبخ، حافي القدمين، بلباس النوم الأزرق. انكفأتُ تحت الغطاء. توجَّه إلى الصنبور، أخذ كأس ماء وشرب. ظلّ واقفًا بضع ثوانٍ قبالة المغسلة، وضع الكأس وتحرّك نحو سريري. وقف جانبًا، وأسند مرفقيه إلى حواف الغطاء.

«أعلم أنَّك ما تزالين مستيقظة»، قال.

«أجل».

«انسي شأن صديقتك. وابقي».

«إنَّها تمرّ بمصاعب، وتحتاج إليّ».

«أنا من يحتاج إليكِ» قال، وانحنى إليّ، ولثم ثغري، بقبلة تخلو من خفَّة ابنه، مغلقًا شفتيّ بلسانه.

تجمّدتُ في مكاني.

ثنى الغطاء قليلاً، بينما يواصل لثمي بشغف وعناية، وبحثتْ يده عن صدري، وراح يداعب نهديّ من تحت القميص. ثم تركني، وهبطتْ يده إلى ما بين فخذيّ، ضغط بإصبعيه بقوَّة فوق سروالي. لم أقل ولم أفعل شيئًا، صعقني بذلك التصرُّف، شُللتُ من الرعب والمتعة التي أحسستها عمومًا. كان شاربه يلسع شفتي العليا، ولسانه جافٌّ. انفصل عن فمي ببطء، وأبعد يده.

«مساء الغد، سأصحبك بنزهة جميلة على الشاطئ، أنا وأنت فقط»، قال بصوت أجشّ، «إنّني أكنّ لك فائض المحبّة، وأعلم أنَّكِ تبادلينني مثلها. أليس كذلك؟»

لم أتفوَّه بشيء. لامس شفتيّ بشفتيه ثانية، ليلة سعيدة، نهض وخرج من المطبخ. بقيتُ متسمِّرة لوقتٍ طويل. ولم أستطع تناسي لسانه ولمساته وضغط يده. هل تنبّأ نينو بما سيحدث، وأراد أن يحذِّرني؟ غمرتني موجة حقد عاتية بحقّ دوناتو سارّاتوري، واحتقرتُ نفسي للمتعة التي ألهبتْ جسدي ولم يزل تأثيرها. قد يبدو إحساسي غريبًا اليوم، لكنّني فوجئتُ حقًّا بوجوده فوقي؛ ومنذ أن تشكَّلت ذاكرتي حتى تلك الليلة، لم أكن قد جرّبت المتعة، لم أكن أعرفها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقيتُ في الوضعيَّة نفسها لساعاتٍ لا أستطيع حصرها. ثم انتفضتُ مع خيوط الفجر الأولى، وضَّبتُ أغراضي كلّها، ففككتُ السرير، كتبتُ كلمة شكر موجزة لنيلا، ومضيتُ بعيدًا.

كان البحر راكدًا، والجزيرة بلا أصوات، وحدها الروائح كانت كثيفة للغاية. ركبتُ المركب الأوَّل، بالنقود القليلة التي أعطتني إيَّاها أمِّي منذ أكثر من شهر. وما إن تحرّك المركب، وابتعدت الجزيرة وألوانها الباهتة في الصباح الباكر، فكَّرتُ أنّني حصلتُ أخيرًا على ما أقصّه لليلا دون أن تردّ بقصَّة أعظم منها. وسرعان ما اكتشفتُ أنَّني لن أفشي أيّ حرف ممَّا جرى، لشدَّة التقزُّز من سارّاتوري، والاشمئزاز من نفسي تحديدًا. وبالفعل، هذه هي المرَّة الأولى التي أصيغ فيها كلماتٍ تسطّر تلك النهاية غير المتوقَّعة لإجازتي.

٣٦

وجدتُ نابولي غارقة في رائحة كريهة وقيظ خانق. واستقبلتني والدتي بالتوبيخ، لأنّني عدت قبل الموعد المحدّد، دون أن تنطق بكلمة واحدة عن مظهري، بعد أن اختفت البثور وسمّرتني الشمس.

«ماذا فعلتِ؟ هل ارتكبتِ فعلة سيِّئة، فطردتكِ على إثرها قريبة المعلِّمة؟»

أمَّا والدي، فكان استقباله مختلفًا، نظر إليّ بعينين متلهِّفتين، وأحاطني بالتهاني، وكرَّرها مائة مرَّة: «يا إلٰهي ما أجمل ابنتي». أمّا إخوتي، فقد قالوا باشمئزاز:

«تبدين زنجيَّة».

نظرتُ إلى نفسي في المرآة، فتعجَّبتُ أنا أيضًا: إذ صبغت الشمس شعري بلون أشقر برّاق، وسمّرت وجهي وذراعيّ وساقيّ بلون ذهبيّ داكن. لم أنتبه إلى تلك التغيّرات حين كنت في إيسكيا، بين الوجوه المسمرَّة وألوان الجزيرة؛ وحالما عدتُ إلى أجواء الحيّ، حيث كلّ الوجوه والشوارع ما تزال على لونها الفاقع، بدوتُ استثنائيَّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للغاية. وما إن رأيتُ الناس والبنايات وزحمة الشارع العام المحمّل بالغبار، حتى تولَّد لديّ انطباع بأنّني أرى صورة مطبوعة بشكل سيِّئ، كتلك التي تظهر على صفحات الجرائد.

ذهبتُ على الفور أبحث عن ليلا. ناديتها من الفناء، أطلَّت برأسها، ثم خرجت من البوَّابة. عانقتني وقبّلتني وأمطرتني بمديح لم أعتد عليه منها، حتى شعرتُ بالصدمة من وضوح شوقها. بقيتْ على حالها. ورغم هذا، فإنَّها تغيَّرتْ جدًّا في أقلّ من شهر. لم تعد تبدو فتاة، بل امرأة، امرأة تبلغ ثمانية عشر عامًا، وهذه سنّ كنت أعتبرها متقدِّمة نوعًا ما. ضاقت ثيابها القديمة على جسمها، كما لو أنَّها كبرتْ في غضون دقائق، وبرزت أطرافها بما لا تقبله الحشمة. ما تزال طويلة القامة، منصوبة الكتفين، مثيرة الثنايا؛ بينما يزدان وجهها النقيّ بجمال فتَّان فوق عنقها الناعم.

شعرتُ أنَّها كانت متوتِّرة، تتلفَّت حولها وخلفها في الطريق أكثر من مرَّة، ولم تفسِّر لي سبب ذلك. اكتفت بالقول: «تعالي معي». وأرادت أن أرافقها إلى ملحمة ستيفانو. شبكتْ ذراعي، وأضافت: «سأقوم بأمر لا يسعني القيام به إلَّا معك. حمدًا لله أنَّك عدت باكرًا، ظننتُ أنّني سأنتظر حتى سبتمبر».

لم نكن قد مشينا من قبل ذلك الدرب نحو الحديقة الصغرى، بكلّ تلك المحبَّة الغامرة والاندماج والفرحة بلقائنا. حدَّثتني أنَّ الأمور تزداد سوءًا يومًا بعد يوم. ففي مساء اليوم السابق تمامًا، جاء مارتشيلُّو محمَّلاً بالحلويات والمشروبات، وأهداها خاتمًا مرصَّعًا بالجواهر. قبلتْ ليلا الهديَّة، ووضعت الخاتم في إصبعها تجنُّبًا لإثارة المشاكل في وجود أبويها؛ وحالما همّ مارتشيلُّو بالانصراف، ودّعته عند الباب وأعادت إليه الخاتم باحتقار. احتجّ مارتشيلُّو، وأخذ يهدِّدها كما اعتاد

في الآونة الأخيرة، ثم انفجر بالبكاء. انتبه فرناندو ونونتسيا على الفور إلى أنَّ شيئًا ما لم يكن على ما يرام. كانت والدتها تكنّ المودَّة لمارتشيلُّو، وتعجبها الأغراض الشهيَّة التي كان يجيء بها كلّ مساء، وتفتخر بأنّ لديها تلفازًا؛ كما كان من الواضح أنَّ والدها كفّ عن أسباب قلقه، لأنَّه بات ينظر إلى المستقبل باطمئنان بفضل المصاهرة مع آل سولارا قريبًا. لذا، بعد أن انصرف مارتشيلُّو، راح والداها يؤرِّقانها كالعادة لتطلعهما عمَّا جرى. وكان من تداعيات ما حدث أنَّ رينو خرج عن صمته الطويل، ليدافع عنها، ويصرخ بأنّ أخته تأبى الزواج بأخرق مثل مارتشيلُّو، وأنّ من حقِّها المشروع أن ترفضه، وأنَّه كان سيحرق كلّ شيء، إن أرغماها على هذا القرار، كلّ شيء: البيت والمحلّ ونفسه والعائلة بأكملها. تعارك الولد مع أبيه، وفصلتْ بينهما نونتسيا، واستيقظ الجيران جميعًا. بل وأكثر من ذلك: ألقى رينو بنفسه على السرير غاضبًا، وغطّ في نوم عميق، ثم نهض بعد ساعة ليبدأ حلقة جديدة من السرنمة. عثروا عليه في المطبخ، بينما كان يشعل عود ثقاب تلو الآخر، ويقرّبها أمام مفتاح الغاز كما لو كان يتأكّد من إغلاقه جيِّدًا. أيقظت نونتسيا ابنتها، وقالت لها بفزع: «رينو ينوي أن يحرقنا أحياء حقًّا»؛ فركضت ليلا إلى المطبخ، وطمأنت أمّها: كان رينو نائمًا، وفي منامه ـ خلافًا ليقظته ـ كان منهمكًا بالتأكّد من عدم تهريب الغاز فعلاً. أخذته إلى سريره، وساعدته على النوم.

«لم أعد أطيق هذا الوضع» ختمتْ، «ليس بوسعك تخيّل ما أمرّ به. أريد أن أضع حدًّا لهذه المأساة».

ضمّتني كأنَّها تبحث عن طاقة إيجابيَّة.

«أنت بخير» قالت، «وأمورك تسير على ما يرام. عليك أن تساعديني».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجبتها بأنّني تحت تصرُّفها لفعل أيّ شيء، فانتشتْ وشدَّتْ على ذراعي، وهمستْ:

«انظري».

رأيتُ في البعيد ما يشبه السيَّارة الحمراء التي تشعّ كالنجوم.

«ما هذا؟»

«ألا ترين؟»

لم أكن أرى جيِّدًا.

«هذه السيَّارة الجديدة التي اشتراها ستيفانو».

كانت السيَّارة مركونة قبالة الملحمة، فيما كانت الملحمة قد توسَّعت، وبات لها مدخلان، مكتظَّة بالزبائن الذين ينتظرون دورهم، ويلقون نظرات إعجابهم بذلك الغرض الذي يرمز إلى الرخاء والأبَّهة: لم يشهد الحيّ على سيَّارة من ذلك النوع، أنيقة التصميم في زجاجها ومعدنها، وسقفها قابل للفتح والإغلاق. سيَّارة تليق بالأكابر المترفين، تفوق سيَّارة سولارا روعةً.

درتُ حولها، بينما كانت ليلا واقفة تحت الظلّ تراقب الشارع، كأنَّما تنتظر أعمال عنف بين اللحظة والأخرى. ظهر ستيفانو على عتبة الملحمة بمئزره الملوَّث بالدهون، وكان رأسه الكبير وجبينه العالي يعطي انطباعًا بعدم التجانس، لكنَّه ليس بالمظهر السيِّئ. عَبَر الشارع وحيّاني باحترام، وقال:

«كم تبدين جميلة. كأنّك ممثِّلة».

وهو أيضًا كان يبدو وسيمًا. سمّرت الشمس وجهه مثلي، وربَّما لم يكن في الحيّ غيرنا ممَّن تنفّس هواءً نقيًّا. قلت له:

«اسمرّ وجهك جدًّا».

«حصلتُ على إجازة لمدَّة أسبوع».

«أين قضيتها؟»

«في إيسكيا».

«وأنا أيضًا كنت في إيسكيا».

«أعرف، أخبرتني لينا بذلك. بحثتُ عنك ولم أجدكِ».

أشرتُ إلى السيَّارة. «إنَّها جميلة».

ارتسم على وجهه تعبير عن الرضا والهناء. وقال مشيرًا إلى ليلا، بنظرة مبتهجة:

«لقد اشتريتها لصديقتك، لكنَّها لا تصدِّقني». نظرتُ إلى ليلا، كانت واقفة تحت الظلّ بملامح جدِّيَّة ومضطربة. اتَّجه إليها ستيفانو بالكلام ساخرًا: «ها قد عادت لينوتشا، فماذا أنت فاعلة؟»

قالت ليلا، وكأنَّها تتأسَّف عمَّا سيحدث:

«فلنذهب. ولكن تذكّر أنَّك دعوتَها هي، وأنّني رافقتكما ليس إلَّا».

ابتسم، وعاد إلى المحلّ.

«ما الذي يحدث؟» سألتها مشتَّتة الذهن.

«لا أعلم» أجابت، قاصدة بأنَّها لا تعلم في أيّ مشكلة ستُقحم نفسها. رمقتني كما كانت تنظر حين تواجه حسابًا معقَّدًا في المدرسة، ولكن دون أن تعبِّر عن وقاحتها المعتادة؛ إذ كان من الواضح أنَها مرتبكة، كأنَّها تحاول الهرب عبر منفذ شائك. قالت لي: «لقد بدأ كلّ شيء حين وصلتْ هذه السيَّارة». أقسم لها ستيفانو بأنَّه اشترى هذه السيَّارة لأجلها؛ ولئن قالها ممازحًا في البداية، فإنَّه لم يتوان بعدئذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن دعوتها جدِّيًا إلى تشريفه بفتح باب السيَّارة والركوب فيها يومًا ما. «سيَّارة كهذه لا تليق إلَّا بفتاة مثلك»، قال لها. ومنذ أن صارت السيَّارة ملكه في أواخر يوليو، ألحّ ستيفانو، باحترام يخلو من الفظاظة، على أن يأخذها بنزهة، بصحبة ألفونسو أوَّلاً، ثم بصحبة بينوتشا، ثم بصحبة أمّه أيضًا. لكنَّها كانت ترفض دومًا؛ إلى أن وعدته: «أركب فيها حين تعود لينوتشا من إيسكيا». وها نحن كنَّا هناك، والحدث يوشك على الوقوع.

«وهل يعرف عن علاقتك بمارتشيلُّو؟»

«أجل، بالتأكيد».

«وماذا بعد؟»

«ما يزال مصرًّا».

«إنّني خائفة يا ليلا».

«أتذكرين كم فعلنا من أشياء مخيفة؟ لقد انتظرت عودتك عنوة».

نزع ستيفانو مئزره، وعاد بقميص أبيض وبنطال داكن، أسود الشعر، أسمر الوجه، وعيناه السوداوان تلمعان. فتح باب السيَّارة، وجلس خلف المقود ورفع السقف. اتَّجهتُ للجلوس في المقعد الخلفيّ الصغير، لكنّ ليلا منعتني، وآثرت الجلوس في الخلف. فذهبتُ مستاءة لأجلس بجانب ستيفانو. وانطلقنا على الفور نحو البنايات الجديدة.

تلاشى القيظ على ضرب الريح. وشعرتُ بأنّني على ما يرام، منتشية بالسرعة والطمأنينة التي يبثّها حضور ابن كارّاتشي. كانت تلك السيَّارة الرياضيَّة الحديثة والعجيبة، التي اشتراها ستيفانو لهدف واحد، وهو أن يصحب بها ليلا بنزهة بدأت للتوّ. وكان ستيفانو هو الشابّ الذي لا يهتمّ لأمر مارتشيلُّو سولارا، وها هو يخرق قواعد صارمة دون

أن ينال منه القلق. وكنت أنا أيضًا هناك، وقد دخلتُ في تلك القصَّة على عجل وحيرة كي أخفي بحضوري كلامًا سرِّيًا بينهما، وربَّما صداقة متينة دفعة واحدة. أيّ نوع من الصداقة يا ترى؟ من المؤكَّد أنَّ شيئًا مهمًّا سينتج عن تلك النزهة بالسيَّارة، إلَّا أنَّ ليلا لم تستطع، أو لم تشأ، أن تطلعني على النقاط الأساسيَّة في الموضوع. ما الذي كانت تدبِّره في ذهنها؟ ليس من المعقول أنَّها لم تكن تعي خطورة ما عزمتْ عليه، أخطر من رمينا بأجزاء المنديل المغطَّسة بالحبر. ورغم هذا، فكان من الوارد أيضًا أنَّها لم تكن قد حدَّدتْ غايتها بدقَّة. ليلا كانت هكذا، تكسر التوازنات إنَّما لترى بأيِّ وسيلة تعيد تكوينها ثانية. وها نحن نمضي على جناح السرعة، وشعرنا يميل ما مالت الريح، وستيفانو يقود بمهارة عالية، وأنا أجلس بجانبه كأنّني خطيبته. فكَّرتُ بنظراته إليّ، وبوصفي بالممثِّلة. فكَّرتُ بإمكانيَّة أن يعجب بي أكثر من كونه معجبًا بصديقتي. فكَّرتُ مذعورة باحتمال أن يطلق عليه مارتشيلُّو سولارا الرصاص، فتفقد وسامته الجذَّابة والواثقة معناها، كما وقع للقِدر النحاسيّ الذي حدَّثتني عنه ليلا.

كان الهدف من الاتِّجاه نحو البنايات الجديدة هو تجنّب المرور أمام مقهى سولارا.

«لا يهمّني إن رآنا مارتشيلُّو»، قال ستيفانو بدون عجرفة، «ولكن لا بأس في هذا إن كان يهمّك».

دخلنا في النفق، واتَّجهنا نحو الطريق المؤدِّية إلى البحر. هي ذاتها الطريق التي مشيناها أنا وليلا منذ أعوام بعيدة، حين داهمتنا الأمطار. أشرتُ إلى تلك الحادثة، فابتسمت ليلا، وطلب منَّا ستيفانو أن نرويها عليه. فتحدَّثنا بكلِّ شيء، وضحكنا، فيما كنَّا نصل إلى غرانيلي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ما رأيكما بسرعة السيَّارة؟»

«إنَّها سريعة للغاية»، قلت بحماس.

لم تعلِّق ليلا؛ كانت تنظر حولها، وفي بعض الأحيان تربت على كتفي، وتشير إلى البيوت والفقر المدقع في تلك الأنحاء، كما لو أنَّها ترى في ذلك برهانًا على شيء ما، وعليَّ أن أفهم قصدها في اللحظة نفسها. ثم اتّجهتْ بسؤال جدّيّ إلى ستيفانو، بلا مقدِّمات:

«هل أنت مختلف حقًّا يا ستيفانو؟»

بحث عنها في المرآة العاكسة.

«عمّن؟»

«فهمتَ قصدي».

لم يجب فورًا. قال بالعامِّيَّة:

«أتريدين منِّي أن أقول الحقيقة؟»

«أجل».

«هذا مرادي، لكنِّي لا أعلم كيف ستنتهي الأمور».

حصلتُ حينها على التأكيد الذي سكتت عنه ليلا قبل قليل. إذ كان هذا الحوار الإيمائيّ يثبت أنَّهما على تفاهم، وأنَّهما قد تحادثا غير مرَّة، بجدِّيَّة ودون مزاح. ما الحلقة التي فقدتها أثناء إجازتي في إيسكيا؟ التفتُّ لأنظر إليها، كانت متردِّدة في الردّ، فظننتُ أنَّ غموض إجابة ستيفانو أزعجها. رأيتُ عينيها تواربان، والشمس تغمر وجهها، وقميصها منفوخ بنهديها وتدفّق الرياح.

«الشقاء مستفحلٌ هنا أكثر من حيِّنا»، قالت. ثم قالت ضاحكة، بلا أيّ رابط: «لا تظنّني نسيتُ أنّك أردت قطع لساني ذات مرَّة».

أومأ ستيفانو برأسه.

«كان زمانًا آخر»، قال.

«الدناءة لا تتلاشى. كنت أطول منّي بمرَّتين».

ارتسمت على وجهه ابتسامة خجل، وأسرع باتّجاه الميناء دون أن يجيب. استمرَّت النزهة أقلّ من نصف ساعة، عدنا من شارع ريتيفيلو ثم ساحة غاريبالدي.

«أخوك ليس على ما يرام»، قال ستيفانو حين اقتربنا من حدود الحيّ. بحث عنها في المرآة ثانية، وسألها: «هل الحذاء المعروض على الواجهة هو الذي صنعتماه سويًّا؟»

«وما الذي تعرفه عن ذاك الحذاء؟»

«رينو لا يتحدَّث إلَّا بشأن ذلك الحذاء».

«وما رأيك؟»

«إنَّه أنيق جدًّا».

ضيّقتْ ليلا عينيها حتى كادت أن تغمضهما.

«اشتره إذن»، قالت بلهجة تحريضيَّة.

«بكم تبيعونه؟»

«اسأل والدي».

انعطف ستيفانو فجأة، واستدار بالسيَّارة حتى التصقتُ بالباب، ودخلنا الدرب التي تفضي إلى محلّ الإسكافيّ.

«ماذا تفعل؟» سألته ليلا بانفعال.

«قلتِ لي بأنّ أشتري الحذاء، وها أنا ذاهبٌ لشرائه».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣٧

توقَّفت السيَّارة أمام المحلّ، ونزل ستيفانو ليفتح لي الباب، مدّ يده ليساعدني على النزول. لم يهتمّ بليلا، فنزلتْ بمفردها، وبقيتْ خلفنا. وقفنا، أنا وستيفانو، أمام الواجهة، على مرأى رينو وفرناندو اللذين كانا ينظران إلينا، من خلف الزجاج، بفضول وتجهُّم.

حين بلغتنا ليلا، فتح ستيفانو باب المحلّ، أفسح لي المجال للدخول، ثم دخل دون أن يعبأ بليلا. كان لبقًا مع الوالد وابنه، وطلب منهما أن يرى الحذاء. هرع رينو ليأتيه بالحذاء. عاينه ستيفانو وأثنى عليه:

«إنَّه خفيف ومتين معًا، ومظهره أنيق جدًّا». سألني: «ما رأيك يا لينو؟»

«جميل جدًّا»، قلت بحياء شديد.

توجَّه إلى فرناندو: «أخبرتني ابنتكم بأنّكم تعبتم في صنعه أنتم الثلاثة سويًّا، وأنَّكم تفكِّرون في صنع أحذية أخرى، للنساء أيضًا».

«أجل»، قال رينو وهو ينظر متعجِّبًا إلى أخته.

«أجل»، قال فرناندو مرتبكًا، «ولكن ليس على الفور».

«ألا يوجد لديكم تصميم ما، لأكوِّن فكرة عن المشروع لا غير؟»

قال رينو لأخته بانفعال طفيف، ربَّما لأنَّه خشي أن تردّه خائبًا:

«اجلبي التصاميم».

ولكي تزيد من صدمته، لم تبدِ ليلا أيّ مقاومة. اتَّجهتْ إلى المستودع، وعادت بأوراقها إلى أخيها، فأعطاها الأخير لستيفانو. كانت الأوراق تحتوي على كلّ التصاميم التي خطرت في بالها منذ حوالى السنتين.

أطلعني ستيفانو على تصميمٍ لأحد الأحذية النسائيَّة ذات الكعب المرتفع.

«هل كنت لتشتري مثل هذا الحذاء؟»

«بالتأكيد».

عاد ليعاين التصاميم. ثم جلس على كرسيّ خشبيّ صغير، ونزع فردة حذائه اليمنى.

«ما مقاسه؟»

«٤٣، وربَّما يكون ٤٤» تحايل رينو.

استمرَّتْ ليلا في إدهاشنا جميعًا حين جثمتْ على ركبتيها قبالة ستيفانو، واستعانت بأداة لتسهِّل دخول قدمه في الحذاء الجديد. ثم نزعتْ فردة حذائه الأخرى، وكرَّرت العمليَّة.

بدا التوتُّر واضحًا على وجه ستيفانو، بعد أن أدَّى دور الرجل العمليّ والواثق من نفسه حتى تلك اللحظة. انتظر أن تنهض ليلا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وظلَّ جالسًا بضع ثوانٍ كأنَّه يستعيد أنفاسه. ثم نهض على قدميه، ومشى بعض الخطوات.

«إنَّه ضيِّق»، قال.

خاب أمل رينو واسودّ وجهه.

«بإمكاننا أن نضعه في الآلة ونعرِّضه قليلاً»، تدخّل فرناندو، لكنّ نبرته بدت مرتبكة.

نظر إليّ ستيفانو، وسألني: «هل يليق بي؟»

«جدًّا»، قلتُ.

«سآخذه إذن».

لم يعلِّق فرناندو، في حين استعاد رينو صفاء وجهه.

«اسمع يا ستيفانو، هذا الحذاء استثنائيّ من علامة شيرولو. باهظ الثمن».

ابتسم ستيفانو، وأجاب بلهجة ودِّيَّة:

«وهل كنت لأشتريه لو لم يكن طرازًا استثنائيًّا من علامة شيرولو؟ متى يكون جاهزًا؟»

نظر رينو سعيدًا إلى أبيه.

«سنضعه في الآلة ثلاثة أيَّام على الأقلّ» قال فرناندو، وكان من الواضح أنَّه يكاد يستدرك ليضيف عشرة أيَّام أو عشرين أو شهرًا كاملاً، لرغبته في كسب الوقت أمام هذا الحدث المفاجئ.

«جيِّد جدًّا. فكِّروا بسعر يرضي الجميع، وسأعود إلى هنا بعد ثلاثة أيَّام وأشتري الحذاء».

ثنى أوراق التصاميم، ووضعها في جيبه أمام نظراتنا المندهشة.

ثم صافح فرناندو ورينو، واتَّجه نحو الباب.

«التصاميم»، قالت ليلا بفتور.

«هل بوسعي أن أُعيدها لك بعد ثلاثة أيَّام؟» سألها بلطف، وفتح الباب دون أن ينتظر منها جوابًا. أفسح لي المجال وخرج بعدي.

وما إن جلستُ في السيَّارة بقربه حتى بلغتنا ليلا، وكانت غاضبة:

«هل تظنّ أنَّ أبي وأخي أحمقان؟»

«ماذا تعنين؟»

«إن ظننتَ أنَّك تسخر من عائلتي، فأنت واهم».

«إيَّاكِ وإهانتي. فأنا لست مارتشيلُّو سولارا».

«ومن أنت؟»

«أنا تاجر. لم أَرَ كتلك الأحذية التي صمّمتها من قبل. ولا أقصد الحذاء الذي اشتريته فقط، إنّما جميعها».

«وماذا تعني بهذا؟»

«دعيني أفكِّر ونلتقي بعد ثلاثة أيَّام».

ركّزتْ ليلا نظرها نحوه كأنَّها تحاول قراءة أفكاره. لم تبتعد عن السيَّارة. وقالت في النهاية جملة، لم أكن أتخيَّل أنّني شجاعة كفاية لقولها:

«اسمع. لقد سبق لمارتشيلُّو أن حاول شرائي، لكنّني لا أُباع ولا أُشترى».

رمق ستيفانو عينيها للحظة طويلة.

«أنا لا أنفق ليرة واحدة ما دمت غير واثق من أنَّها ستعود إليّ بمائة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشعل المحرِّك وانطلقنا. تأكَّدتُ حينها: كانت النزهة بالسيَّارة بمثابة اتِّفاق توصَّلا إليه بعد الكثير من اللقاءات والمحادثات. قلت هامسة باللغة الفصيحة:

«هلَّا أنزلتني عند التقاطع يا ستيفانو لو سمحت؟ إن رأتني أمِّي معك في السيَّارة، هشّمتْ وجهي».

٣٨

تغيَّرتْ حياة ليلا كلِّيًّا خلال شهر سبتمبر. لم يكن التغيير سهلاً، لكنَّه تمّ. بالنسبة إليّ، كنت عائدة من إيسكيا مغرمة بنينو وملسوعة من قبلات والده، وكنت على يقين بأنّني سأبكي ليل نهار بسبب ذلك الخليط من السعادة والرعب الذي يسري في عروقي. ولكنّني لم أقم حتى بمحاولة للبحث عن صيغة تناسب عواطفي المتناقضة، وسرعان ما عاد كلّ شيء إلى حجمه الطبيعيّ. فصلتُ حواسِّي عن صوت نينو وعن القرف من شارب أبيه. اختفت الجزيرة، وانكفأتْ في مخبأ سرِّيّ في دماغي. وكرَّستُ نفسي لما كان يجري لليلا.

في الأيَّام الثلاثة اللاحقة على تلك النزهة المدهشة بالسيَّارة المكشوفة، راحت ليلا تتذرَّع بشراء الحاجيَّات لتذهب إلى ملحمة ستيفانو، لكنَّها كانت تطلب مرافقتي دومًا. وكنت أرافقها بقلب خافق ومذعور من احتمال أن يداهمنا مارتشيلُّو، غير أنّني كنت سعيدة في أداء دور المستشار المؤتمن، الذي يقدِّم النصائح ويساهم في تحريك الأحداث ويرافق الشخص الذي حظي باهتمام ستيفانو. كنَّا صغيرتين؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومع هذا، نتخيَّل أنفسنا متحرِّرات من الأحكام المسبقة. كنَّا نثري الوقائع ـ في ما يخصّ مارتشيلُّو وستيفانو والأحذية ـ بشغفنا المعتاد، ونظنّ أنَّنا قادرتان على استيعاب كلّ شيء. «سأقول له هذا» كانت ليلا تفترض، فيما أنصحها بتعديل بسيط: «بل أخبريه بهذا». ثم تتحدَّث مع ستيفانو بالتفاصيل في زاوية خلف المصطبة، بينما يتجاذب ألفونسو أطراف الحديث معي، وتنشغل بينوتشا في خدمة الزبائن بامتعاض، في حين تتجسَّس ماريًا على نجلها الذي بات غير مكترث بعمله في الآونة الأخيرة، وميَّالاً للثرثرة مع الزبونات.

كنَّا نرتجل بالطبع. حاولتُ أن أفهم، خلال ذهابنا وإيابنا، ما الذي يلمع في رأس صديقتي فيجعلها في انسجام مع غايتها. تولَّد لديّ انطباع مبدئيّ بأنَّها ترغب ببساطة في أن يكسب والدها وأخوها المال إذا ما اشترى ستيفانو حذاء شيرولو بسعر مرتفع. وسرعان ما بدا لي أنَّها تنشد الخلاص من مارتشيلُّو بالاعتماد على اللحّام الشابّ. طرحتُ عليها السؤال بتصميم ذات مرَّة:

«من يعجبك أكثر من الآخر؟»

أبدت عدم اكتراثها.

«مارتشيلُّو لم يعجبني أبدًا، إنَّه مثير للاشمئزاز».

«هل تفكِّرين في الارتباط بستيفانو لا لشيء سوى لطرد مارتشيلُّو من بيتك؟»

فكَّرتْ قليلاً، ثم أجابت بنعم.

ومنذ تلك اللحظة، بات هدفنا الكبير من كلّ مؤامراتنا هو التالي: أن نناضل بأيّ وسيلة ضدّ تدخّل مارتشيلُّو في حياتها. وما تبقّى من أحداث متعاقبة، وقع دون تخطيط، واقتصرت مهمَّتنا على وضعه في

السياق، بتعاون حقيقيّ. كنّا نظنّ هكذا على الأقلّ، بينما في الحقيقة كان ستيفانو هو وحده الذي يقوم بالفعل.

ذهب إلى محلّ الإسكافيّ، صونًا لموعده، بعد ثلاثة أيّام؛ واشترى الحذاء، رغم أنَّه ضيِّق على قدميه. تردَّد فرناندو وابنه في تحديد السعر، وطلبا خمسة وعشرين ألف ليرة مع إمكانيَّة التخفيض حتى عشرة آلاف ليرة. لكنّ ستيفانو لم يناقش، بل ودفع عشرين ألفًا أخرى مقابل تصاميم ليلا التي أعجبته، على حدّ قوله، وأراد أن يصنع لها إطارًا مميِّزًا.

«هل ترغب في تأطيرها؟» سأل رينو.

«أجل».

«كإطار اللوحات؟»

«أجل».

«وهل قلت لأختي بأنّك ستشتري التصاميم أيضًا؟»

«أجل».

ولم يكتفِ ستيفانو بذلك، بل ظهر ثانية في المحلّ بعد عدَّة أيّام، وصرّح للوالد وابنه بأنَّه اشترى المحلّ المجاور لمحلِّهما. «ما يزال هنا» قال، «وإن نويتم يومًا ما أن تتوسَّعوا، فتذكَّروا أنّني تحت تصرّفكم».

تناقش آل شيرولو طويلاً، وبصوت منخفض، عمّا قصده الشابّ بتلك الجملة: «نتوسَّع؟» ما دعا ليلا إلى البتّ في الجدل بما أنَّهم لم يصلوا إلى تفسير مقنع:

«إنَّه يعرض عليكما أن تطوِّرا محلّ الإسكافيّ إلى ورشة لصناعة أحذية شيرولو».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«والتمويل؟» سأل رينو بحذر.

«هو يموِّل المشروع».

«هل قال لك ذلك؟» توجّس فرناندو مذهولاً، فقلّدته زوجته.

«لقد قال ذلك لكما»، قالت ليلا وهي تشير إلى أبيها وشقيقها.

«وهل يعلم أنَّ الأحذية المشغولة يدويًا مكلفة؟»

«لقد أظهرتما له ذلك».

«لنفترض أنّنا لن نبيع شيئًا؟»

«أنتما تخسران المجهود، وهو يخسر المال».

«فقط؟»

«فقط».

خاضت العائلة كلّها أيّامًا عصيبة، أودت بمارتشيلُّو إلى المرتبة الثانية. كان يصل في الثامنة والنصف مساءً، والعشاء لم يوضع بعد على الطاولة. وغالبًا ما يجد نفسه أمام التلفاز بصحبة ميلينا وآدا فقط، بينما يتشاور أفراد العائلة في الغرفة الأخرى.

وكان رينو أكثرهم حماسًا بالطبع، استعاد عافيته وأَلَقه وبهجته؛ ومثلما أضحى صديقًا حميمًا للأخوين سولارا، أمسى حينها صديقًا حميمًا لستيفانو وألفونسو وبينوتشا، بل وحتى للسيِّدة ماريًا. وعندما رسا فرناندو على البرّ أخيرًا، ذهب ستيفانو إلى المحلّ وتوصَّل معه إلى اتِّفاق شفويّ، بعد نقاش قصير، يتحمَّل بموجبه كلّ النفقات، فيما ينبغي على شيرولو الأب والابن أن يباشرا بإنتاج الطراز الذي حقَّقه رينو وليلا، إضافة إلى الشروع بالتصاميم الأخرى، شرط أن يتقاسموا الأرباح الواردة مناصفةً. أخرج الأوراق من جيبه، وأظهرها واحدة تلو الأخرى على فرناندو وابنه.

«ستصنعان هذا، وهذا، وهذا» قال، «ولكنّني آمل ألَّا يستغرق الأمر عامين كما حدث لذلك الحذاء».

«ابنتي أنثى» برَّر فرناندو بحياء، «ورينو لم يتعلَّم المهنة كلّها بعد».

هزّ ستيفانو رأسه بطريقة لبقة.

«دعوا ليلا جانبًا. يتوجَّب عليكم تعيين عمّال».

«ومن يدفع أجورهم؟» سأل فرناندو.

«أنا طبعًا. اختاروا عاملين أو ثلاثة، وفقًا لما ترونه مناسبًا».

انفرجت أسارير فرناندو حين تخيَّل عمَّالاً يأتمرون بأمره، وانحلَّتْ عقدة لسانه ما أزعج ابنه. وراح يروي كيف تعلَّم المهنة من أبيه رحمه الله؛ وكيف واجه صعوبة العمل على الآلات في كازوريا؛ قال إنَّه أخطأ في الزواج من نونتسيا ذات اليدين الضعيفتين وعديمة الرغبة في العمل، وإنَّه لو تزوَّج إينيس ـ فتاة أُغرم بها في شبابه وكانت عاملة كادحة ـ لكان صاحب مشروع منذ زمن بعيد، أفضل من كامبانيلي ذائع الصيت، وربَّما وصلت شهرة منتجاته إلى «معرض ما وراء البحر». وفي النهاية، اعترف بأنّ رأسه يضجّ بأفكار وتصاميم بديعة ومتقنة، ولو أنَّ ستيفانو لم يكن متشبِّثًا بسخافات لينا لكان مستعدًّا للبدء في إنتاج عشرات الأحذية. أصغى ستيفانو بصبر وهدوء، ثم ردّ بأنَّه لم يكن يتوق إلَّا لإنجاز تصاميم ليلا في تلك الآونة. أخذ رينو أوراق أخته وعاينها جيِّدًا، وسأله بلهجة ساخرة نوعًا ما:

«وأين ستعلِّق هذه اللوحات، ما إن تجهِّز إطاراتها؟»

«هنا، داخل المحلّ».

نظر رينو إلى أبيه الذي تجهّم وجهه ثانية، ولم يبح بشيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«وهل أختي موافقة على كلّ هذا؟» سأله.

فابتسم ستيفانو:

«ومن كان ليتحمَّس على فعل شيء لو أنَّ أختك لم تكن موافقة؟»

نهض، وصافح يد فرناندو باحترام، واتَّجه نحو الباب. رافقه رينو. وحينها، باغته هاجس عميق جعله يصرخ عند العتبة، واللحَّام يتَّجه نحو سيَّارته المكشوفة الحمراء:

«علامة الأحذية ستبقى شيرولو».

لوّح ستيفانو بيده دون أن يلتفت:

«طالما أنَّ إحدى بنات شيرولو صمَّمتها، فسيبقى اسمها شيرولو».

٣٩

في ذلك المساء نفسه، وقبل أن يخرج للسهر مع أنطونيو وباسكوالي، قال رينو:

«هل رأيت السيَّارة التي اشتراها ستيفانو يا مارتشيلُّو؟»

لم يجب مارتشيلُّو، بقي مندمجًا في حزنه العميق وبرامج التلفاز.

فأخرج رينو المشط من جيبه، وراح يسرِّح شعره مرحًا:

«هل تعلم أنَّه اشترى حذاءنا بأربعين ألف ليرة؟»

«من الواضح أنَّه يبذِّر أمواله» أجاب مارتشيلُّو، فانفجرتْ ميلينا ضاحكة، ولا أحد يعلم إن كانت تضحك من النكتة أم ممَّا كان يبثّه التلفاز.

ومنذ تلك اللحظة، وجد رينو الوسيلة لإزعاج مارتشيلُّو، مساء بعد مساء، ما جعل الأجواء تتوتَّر دومًا. وعلاوة على هذا، ما إن يصل ابن سولارا، وتستقبله نونتسيا بحفاوة معتادة، حتى تختفي ليلا متذرِّعة بأنَّها متعبة وترغب في النوم. ذات مساء، تحدّث مارتشيلُّو مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نونتسيا، وكان مغمومًا ومتذمِّرًا:

«ما الذي أفعله عندكم إن كانت ابنتكم تخلد للنوم حالما أصل؟»

كان يأمل أن تواسيه أمّها، وأن تشدّ من عزمه بكلماتها كي لا تثبِّط همّته في السعي خلف قلب الفتاة. لكنّ نونتسيا لم تشفِ غليله، حتى باغتها بسؤال:

«هل تحبّ أحدًا آخر؟»

«لا، طبعًا».

«أعرف أنَّها تشتري الحاجيّات من محلّ ستيفانو».

«وأين تذهب إن لم يكن إلى ذلك المحلّ يا بنيّ؟»

سكت مارتشيلُّو، وأخفض بصره.

«لقد رأوها بالسيَّارة مع اللحّام».

«وكانت لينوتشا برفقتها أيضًا. ستيفانو يسعى خلف ابنة البوَّاب».

«لا يبدو لي أنَّ لينوتشا خير رفيق لابنتكم. قولي لها أن تكفّ عن لقائها».

أنا لم أكن خير رفيق؟ ويجب على ليلا أن تكفّ عن لقائي؟ تحيّزتُ نهائيًّا إلى جانب ستيفانو ما إن نقلتْ إليّ صديقتي توصيات مارتشيلُّو، وأخذتُ أمدح ستيفانو وسلوكه الرصين وثباته الهادئ. «ثم إنَّه ثريّ»، قلت لها في النهاية. ولكنّني انتبهت، وأنا ألفظ تلك الجملة، كيف تغيَّرت صورة الثراء المنشود منذ الصغر. لم يعد هنالك من أثر للصناديق المتخمة بالدنانير الذهبيَّة التي سيحملها إلى قصرنا جيش من الخدم والعبيد، حالما نصدر كتابًا مثل «نساء صغيرات»، ونحتفل بشهرتنا وثرائنا. ولعلّنا حافظنا على فكرة أنَّ المال كالإسمنت يوطّد وجودنا، ويذود عن حياتنا وحياة أعزّائنا. لكنّ الصفة الأساسيَّة

البارزة تكمن في الواقعيَّة والحياة اليوميَّة والممارسة. ولئن كنَّا في المراهقة مأخوذتين بفكرة الثراء، النابعة تمامًا من تخيّلات صبيانيَّة كتصاميم الأحذية العجيبة، فإنّ الثراء كان يتبلور في تطلُّعات رينو العصبيّ بالإنفاق كالأمراء، في التلفاز، في هدايا مارتشيلُّو وخاتمه الذي يرمز إلى شراء العواطف؛ وأخيرًا، من نقاش لآخر، تجلّى الثراء في ستيفانو، ذلك الشابّ المحترم الذي يبيع اللحوم، ولديه سيَّارة مكشوفة حمراء، وينفق أربعين ألف ليرة بلامبالاة، ويتعهَّد بتصميم إطارات لرسوم لا قيمة لها، ويسعى للتجارة بالأحذية فضلاً عن الجبن، ويستثمر في مجال الجلود، ويستجلب اليد العاملة، ويبدو مقتنعًا بقدرته على إدخال الحيّ كلّه في عصر جديد ينعم بالرفاهيَّة والسلام. كان بالمحصّلة يجسّد الثراء بوصفه علاجًا لمصاعب الحياة اليوميَّة، ولذا لا ضرورة للبريق والعظمة.

«إنّه ثريّ»، سمعتُ ليلا تكرِّر جملتي، فضحكنا كثيرًا. ثم أضافت: «لكنَّه لطيف وطيِّب القلب أيضًا»، فوافقتها الرأي فورًا؛ تلك صفاتٌ لا يتحلَّى بها مارتشيلُّو، وهذا سبب آخر يدعم الانحياز لصالح ستيفانو. ورغم هذا، شعرتُ بالتشويش من تينك الصفتين الأخيرتين، كأنَّهما توجِّهان الضربة القاضية لرونق أحلام الطفولة وخيالاتها. ما فهمته أن لا قصرًا أو صناديق كنز ستدفعني لكتابة قصَّة مثل «نساء صغيرات»، سواءٌ معها أم بمفردي؛ إذ كان الثراء، متجلِّيًا في شخصيَّة ستيفانو، يأخذ هيئة شابّ يرتدي قميصًا مبقَّعًا بالدهون؛ ويتحلَّى بصوت ورائحة وملامح؛ ويعبِّر عن اللطف وطيبة القلب؛ كان الثراء ذكرًا نعرفه منذ زمن بعيد، نجل الدون آخيل.

أصابتني القشعريرة.

«لكنَّه أراد أن يقطع لسانك ذات مرَّة»، قلت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«كان صغيرًا»، ردَّتْ متأثِّرة، بنبرة حلوة كالسكَّر لم أسمعها من قبل، حتى إنّني أدركت في تلك اللحظة أنَّ قلبها كان متقدِّمًا في الموضوع أكثر من لسانها.

اتّضحت الأمور في الأيَّام اللاحقة. رأيتُ كيف كانت تتحدَّث مع ستيفانو، وكيف كان مأخوذًا بصوتها. ولم أشأ إلَّا أن أكون حاضرة على الميثاق الذي كانا يسطِّرانه. ورحنا نتآمر لساعات ـ نحن الاثنتين، ونحن الثلاثة ـ لنسرِّع تغيير الأشخاص والمشاعر والأحوال. جاء عامل بناء إلى المحلّ المجاور لمحلّ فرناندو، وهدّ الجدار الفاصل بين المحلَّين. ودخل محلّ الإسكافيّ في طور جديد؛ استدعي ثلاثة متدرِّبين، قدموا من ضاحية ميليتو، يعملون على تجليد الأحذية بصمت في إحدى الزوايا. ووضع فرناندو المقاعد والرفوف، ومعدّاته ومجسّماته الخشبيَّة بحسب المقاسات، في الفسحة المتبقِّية. وراح يبادر بالتفكير في الآتي، بطاقة مباغتة وغير متوقَّعة من رجل هزيل ومهموم مثله.

ظهر ستيفانو تمامًا في اليوم المحدَّد لانطلاق العمل. وكان يحمل طردًا مجلَّدًا بالورق المقوَّى. نهض الجميع، بمن فيهم فرناندو، كأنَّه يداهمهم بحجَّة التفتيش. فتح الطرد الذي يحتوي على عدد كبير من اللوحات متطابقة القياس والمؤطَّرة بالزخارف البنِّيَّة. إنَّها أوراق ليلا، وكانت مسدلة بسطوحٍ زجاجيَّة رقيقة كأنَّها تحف ثمينة. استأذن من فرناندو ليعلِّقها على الجدران، فغمغم الأخير بشيء ما، بينما طلب ستيفانو مساعدة رينو والمتدرِّبين لدكّ المسامير. وحالما عُلِّقت اللوحات، طلب ستيفانو من المساعدين الثلاثة أن ينصرفوا لاحتساء القهوة، وأعطاهم بعض الليرات. وعندما وجد نفسه بحضرة الإسكافيّ ونجله فقط، صرّح بنبرة مؤدَّبة أنَّه ينوي الزواج من ليلا.

هبط صمت ثقيل. واكتفى رينو بابتسامة تكشف عن صدق تكهّناته، حتى قال فرناندو بصوت خافت:

«لينا خطيبة مارتشيلُّو سولارا يا ستيفانو».

«لكنَّ ابنتكم لا تعلم هذا».

«ماذا تقول؟»

تدخّل رينو مبتهجًا:

«يقول الحقيقة يا أبي. أنت وأمّي تسمحان لذلك الوغد بالمجيء إلى المنزل، لكنّ لينا لم ترغب به يومًا، وما تزال عند موقفها».

لسع فرناندو ابنه بنظرة شرِّيرة. قال اللحَّام بلطف وهو ينظر حوله:

«لقد باشرنا بالمشروع، فلا نفسد على أنفسنا ما بدأنا به. سأطلب منكم شيئًا واحدًا يا دون فرناندو: أن تترك القرار لابنتكم. إن كانت تريد مارتشيلُّو سولارا، فسأنسحب؛ لأنّني أكنّ لها مودَّة ستجعلني سعيدًا لسعادتها، وما بيني وبينكم يبقى على حاله. أمَّا إذا كانت تريدني، إذا كانت تريدني، فلن أتراجع مهما كان، وستزوِّجونني إيَّاها».

«أنت تهدِّدني» قال فرناندو، لكنَّه قالها بفتور كأنَّه راضٍ على استسلامه.

«لا، بل إنِّني أرجوكم أن تسعوا لخير ابنتكم».

«أنا أعرف ما الخير لابنتي».

«أجل، لكنَّها تعرف ذلك أفضل منكم».

نهض ستيفانو حينها. فتح الباب، وناداني، إذ كنت بانتظاره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خارج المحلّ مع ليلا.

«لينو».

دخلنا. كم أحببتُ تلك اللحظة التي شعرنا فيها بأنّنا في قلب الأحداث، نحن الاثنتين معًا، ونقود الدفّة للخروج من ذلك المأزق! ما زلت أذكر التوتُّر المشحون. قال ستيفانو لليلا:

«أقول لك بوجود والدك: إنّني أودّك كثيرًا، أكثر من حياتي نفسها. هل ترغبين الزواج بي؟»

أجابت ليلا بجديَّة:

«أجل».

انفعل فرناندو قليلاً، ثم غمغم بنبرة دونيَّة، تساوي نبرته التي استخدمها منذ زمن طويل في الحديث مع الدون آخيل:

«إنَّنا نوجِّه إهانة ليس في حقّ مارتشيلُّو وحسب، بل لآل سولارا مجتمعين. والآن، من يخبر ذلك الشابّ المسكين؟»

قالت ليلا:

«أنا».

٤٠

وبعد يومين بالفعل، طلبت ليلا من مارتشيلُّو، أمام كلّ أفراد العائلة، ما عدا رينو الذي كان قد خرج مع أصحابه، قبل العشاء وقبل أن يضيئوا التلفاز:

«هلّا أخذتني لتناول المثلَّجات؟»

لم يصدِّق مارتشيلُّو ما سمعته أذناه.

«المثلَّجات؟ قبل العشاء؟ أنا وأنت؟»، ثم سأل نونتسيا فورًا: «هل تريدين الذهاب معنا يا سيِّدتي؟»

أضاءت نونتسيا التلفاز، وقالت:

«لا، شكرًا يا مارتشيلُّو. ولكنْ لا تتأخَّرا. عشر دقائق فقط تخرجان وتعودان».

«أجل»، قال بسعادة، «شكرًا».

وظلّ يكرِّر شكره أربع مرَّات على الأقلّ. بدا له أنَّه يقترب من اللحظة التي لطالما انتظرها، كان يتخيَّل أنَّ ليلا ستوافق عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وما إن خرجا من البناية حتى واجهته ليلا، وهاجمته بلؤمها الصلد الذي اعتادت عليه منذ أوّل سنوات حياتها:

«لم أقل لك أبدًا بأنّني أريدك».

«أعلم. ولكنَّك الآن ربَّما تريدينني، أليس كذلك؟»

«لا».

مارتشيلُّو الذي كان مكتنزًا وطويل القامة، يتَّسم بصحَّة جيِّدة ودماء زكيَّة لشابّ في الثالثة والعشرين من عمره، استند إلى عمود الإنارة محطَّم القلب.

«متأكِّدة من رفضك؟»

«نعم. أحبّ رجلاً آخر».

«من هو؟»

«ستيفانو».

«كنت أعلم هذا، لكنّني لم أكن أصدِّق».

«عليك أن تصدِّق، فهذه حقيقة».

«سأقتلك وأقتله».

«بوسعك أن تحاول قتلي الآن».

ابتعد مارتشيلُّو عن العمود غاضبًا، وعضّ يمينه المنقبضة حتى نزفت، وهو يئنّ.

«أحبّك جدًّا وهذا ما يمنعني».

«فاستعن بأخيك أو أبيك أو أحد أصدقائك ما دمت عاجزًا عن ذلك. ولكنْ قل لهم جميعًا بأنّ عليهم أن يقتلوني أوَّلاً. إن حاول أحدكم المساس بأيّ أحد يخصنّي وأنا على قيد الحياة، فاعلموا بأنّني

سأقتلكم جميعًا، وأنت تعلم أنّني أهلٌ لذلك، وسأبدأ بك».

وظلّ مارتشيلُّو يعضّ على إصبعه هائجًا، حتى انتابه ما يشبه العويل المخنوق الذي يصدّع الصدر. استدار وانصرف.

صرخت ليلا خلفه:

«أرسلْ أحدًا ليأخذ التلفاز، ليست لنا حاجة به».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤١

وقع كلّ هذا في أقلّ من شهر، وبدت لي ليلا سعيدة في النهاية. وجدتْ حلًّا لمشروع الأحذية؛ قدّمتْ لأخيها وأسرتها جميعًا فرصة جيِّدة؛ تخلَّصتْ من مارتشيلُّو وأصبحتْ قاب قوسين أو أدنى من الزواج بأكثر شبّان الحيّ يسرًا وتقديرًا. ماذا تريد أفضل من ذلك؟ لا شيء. صار لديها كلّ شيء. حين فتحت المدارس أبوابها، شعرتُ بالعناء القادم أكثر من العادة. انغمستُ ثانية في الدراسة، لأحضِّر نفسي لأيّ مباغتة من قِبل الأساتذة. لذا عدتُ للاستيقاظ عند الخامسة والنصف فجرًا، والسهر حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً. وقلّما كنت ألتقي بليلا.

بالمقابل، توطَّدت علاقتي بألفونسو، شقيق ستيفانو. فرغم انشغاله في الملحمة طوال الصيف، فقد استطاع اجتياز الامتحانات، التي رسب بها من قبل، بشكل فائق، حيث حصل على سبع درجات في كلّ من اللاتينيَّة والإغريقيَّة والإنكليزيَّة. ما أزعج جينو كثيرًا، لأنَّه كان يأمل أن يرسب رفيقه كي يُعيد العام الدراسيّ معه. انتبه إلى أنّني

وألفونسو، بعدما انتقلنا من دونه إلى الصفّ الثاني من المرحلة الأولى، كنَّا نذهب إلى المدرسة ونعود منها معًا كلّ يوم؛ فاستاء كثيرًا وأضحى خبيثًا. لم يعد يتكلَّم معي، أنا عشيقته سابقًا، ولا مع ألفونسو، رفيق مقعده سابقًا، مع أنَّه كان في الصفّ المجاور لصفِّنا، وكنَّا نلتقي به كثيرًا في ممرَّات المدرسة ودروب الحيّ. بل تمادى في خبثه، إذ وصلتني بعض الأقاويل الباطلة التي كان يشيعها بحقِّنا؛ من بينها أنَّني كنت مغرمة بألفونسو وألمسه خلال الدرس، مع أنَّ الأخير لا يتجاوب معي، لأنَّه يفضِّل الذكور على الإناث؛ وكان جينو يدّعي أنَّه متيقِّن من المعلومة الأخيرة، لكونه تقاسم المقعد مع ألفونسو في السنة السابقة. نقلتُ الإشاعة إلى كارّاتشي الصغير، آملة أن يحطّم رأس جينو على الفور، كما كان واجبًا في تلك الحالات؛ لكنَّه اكتفى بالقول بالعامِّيَّة، وبلهجة نافرة: «الجميع يعلمون أنَّ جينو هو اللوطيّ».

كان ألفونسو، بالنسبة إليّ، اكتشافًا رائعًا ومحبَّبًا. كان مظهره يوحي بالنزاهة وحسن الأخلاق. ورغم أنَّه يشبه ستيفانو كثيرًا في ملامحه، الأنف والفم والعينان طبق الأصل؛ حتى جسمه كان يكبر على الصورة ذاتها، برأسه الكبير وساقيه الأكثر طولاً من جذعه؛ ولا سيّما نظراته وحركاته المؤدَّبة؛ رغم كلّ ما سبق، كنت أشعر أنَّه يفتقد بشكل جوهريّ إلى ذلك الحزم الذي يتدفَّق من كلّ خلايا ستيفانو؛ وهذا ما كان يجعلني أرى لطفه كامنًا في مخبأ ما، وقد يخرج فجأة. كان ألفونسو يبعث الطمأنينة في مجاله، وهو نوع بشريّ نادر الوجود في الحيّ، إنسانٌ لا تنتظر منه أيّ تصرُّف همجيّ. كنَّا نمشي على الدرب ذاته ونتبادل القليل من الكلمات.. ورغم هذا، لم نكن نشعر بالارتباك. كان لديه دومًا ما أحتاج إليه، أو يسرع لتأمينه لي. كان يودُّني دون أيّ نيَّة سيِّئة، وكنت أبادله المودَّة بمثلها. بدأنا أوَّل يوم في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المدرسة بالجلوس على المقعد ذاته، ما كان يعتبر حدثًا جسورًا في ذلك الزمان، ولم نشأ أن يبتعد أحدنا عن الآخر، رغم كلّ السخرية التي ألحقها به بقيَّة الذكور لكونه يظلّ معي دومًا، ورغم أنَّ الإناث يسألنني دومًا عمَّا إذا كنت أسعى إلى الارتباط به. كان شخصًا موثوقًا؛ إن شعر بأنّني أحتاج البقاء وحيدة، انتظرني في زاوية ما، أو ودّعني وانصرف. وإن شعر بأنّني أريده إلى جانبي، ترك كلّ التزاماته وبقي بقربي.

أفادني وجوده بالتهرُّب من نينو سارّاتوري. إذ رآني للمرَّة الأولى بعد إيسكيا، واقترب ليطمئنّ عن أحوالي، لكنّني تحدَّثتُ إليه بنبرة فاترة ليبتعد. ومع هذا، كان يعجبني للغاية، وكان وجهي يحمرّ خجلاً، وقلبي يخفق بجنون، كلَّما أطلّ عليّ بهيئته الرقيقة وطول قامته. كنت باردة معه علمًا بأنّني كنت في حاجة ماسّة للارتباط بشابّ أُحسد عليه، علّني أستعيد التوازن مع ليلا التي باتت مرتبطة رسميًّا، وخطيبها رجلٌ في الثانية والعشرين من عمره، أي أنَّه لم يكن صغيرًا، ناهيك عن كونه لطيفًا وشجاعًا وواثقًا من نفسه. كم كان جميلاً لو خرجنا نحن الأربعة، ليلا مع خطيبها وأنا مع خطيبي. لم يكن لدى نينو سيَّارة مكشوفة بالطبع؛ ولم يكن بحوزته أيّ قرش، وهو ما يزال تلميذًا في الثانويَّة؛ لكنَّه كان أطول منِّي بعشرين سنتيمترًا، بينما كان ستيفانو أقصر من ليلا ببضعة سنتيمترات. عطفًا على أنَّ نينو يتكلَّم بلغة فصيحة رفيعة، وكان قارئًا، وله وجهة نظر في كلّ شيء، ورأي حسَّاس بالقضايا الإنسانيَّة الكبرى؛ في حين أنَّ ستيفانو كان يعيش متقوقعًا في ملحمته، لا يتكلَّم إلَّا بالعامِّيَّة، ولم يذهب أبعد من مدرسة التجهيز للعمل، وكانت أمّه هي التي تُعنى بالصندوق، لأنَّها تتقن الحساب أفضل منه؛ ورغم أنَّه حسن الطباع، فإنّ هذا لا ينفي تفكيره الدائم

بالمال وسبل تنميته. لكنّني لم أشأ توطيد العلاقة مع نينو، مع أنّني كنت ضعيفة أمام شهوتي، وأنّني كنت متيقِّنة من إبهار ليلا إذا ما رأتني مرتبطة به. كان الدافع مختلفًا جدًّا عمَّا كان عليه في أيَّام الطفولة، لأنّني بتّ كلَّما رأيته أتذكَّر دوناتو سارّاتوري، حتى لو لم يكن يشبهه إطلاقًا. وصار الغضب المنوط بالاشمئزاز، الذي أشعر به كلَّما تذكَّرتُ ما فعله بي والده دون أن أقوى على صدّه، يتمدّد ليشمله أيضًا. كنت أحبّه بالطبع، وأتوق للكلام إليه والتنزُّه معه، وأُجهد عقلي في التساؤل أحيانًا: لماذا تتصرَّفين هكذا، الولد لا يمثِّل أباه، والعكس صحيح، فافعلي كما فعل ستيفانو مع آل بيلوزو. وكلّ هذا دون جدوى، فما إن أتخيَّل أنّني أقبّله حتى أشعر بنكهة فم دوناتو، وأشعر بالرضوخ لزوبعة من المتعة والقرف تخلط الوالد وابنه في تركيبة واحدة.

ولكي تزيد الطين بلّة، اعترضني حدثٌ أشعل هواجسي. كنّا قد اعتدنا، أنا وألفونسو، العودة إلى البيت سيرًا. نتوجَّه حتى الساحة الوطنيَّة ثم نبلغ شارع ميريديونالي. كان المشوار طويلاً، لكنّنا نبدِّده بحوار ممتع عن الواجبات المدرسيَّة والأساتذة والرفاق. ذات مرَّة، قرب المستنقعات، وعلى مدخل الشارع العامّ، التفتُّ، فبدا لي أنَّني رأيت دوناتو سارّاتوري، عند السكك الحديديَّة، مرتديًا بزَّة مراقب التذاكر. ارتعشتُ غضبًا وذعرًا، والتفتُّ بسرعة إلى الجهة الأخرى. وحين نظرتُ نحوه ثانية، لم أجد أحدًا.

بغضّ النظر عن صحَّة تلك الرؤية أو عدمها، فإنّني شعرتُ بنبضات قلبي المرتعد في صدري كأنَّها ضربات رصاص حيّ، ولا أدري لماذا تذكَّرتُ فقرة في رسالة ليلا تصف فيها الضجَّة التي أحدثها سقوط القِدْر النحاسيّ وتلفه. ذلك الصوت ضرب رأسي مجدَّدًا، بالقوَّة نفسها، حين رأيت نينو في اليوم التالي. تملَّكني الهلع حتى لذتُ في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحضان ألفونسو، وبقيتُ بجانبه، سواء عند الدخول أو الانصراف. وكلّما ظهر الشابّ الهزيل الطويل الذي أحبّ، لجأتُ إلى أصغر أبناء الدون آخيل، متظاهرة بإخباره بأمر طارئ، فنبتعد ونحن نثرثر.

كانت تلك الحقبة في غاية الإرباك، إذ كنت أودّ لو تقرّبتُ من نينو، في حين كنت أحترس منه في البقاء بقرب ألفونسو. بل ورحتُ أتصرَّف معه بسلوك لطيف، وأبالغ فيه أحيانًا، خوفًا من أن يملّ صحبتي ويتركني بحثًا عن رفاق آخرين. وكلَّما شعرتُ بأنّني أبالغ، أخفضتُ من الاهتمام به كي لا يظنّ أنّني ميّالة إليه بعواطفي. «ماذا لو أساء فهمي واعترف لي بحبّه؟» كنت أتساءل باضطراب. كنت سأشعر بحرج كبير قد يدفعني إلى صدّه: ليلا التي في عمري كانت خطيبة شابّ ناضج مثل ستيفانو، فأيّ مذلَّة ستتبعني لو ارتبطتُ بفتًى مراهق، شقيق خطيبها الصغير. ومع هذا، راودتني أفكار ضبابيَّة عصيَّة على السيطرة، أطلقت العنان لخيالي. فعندما كنت أعود مع ألفونسو في شارع ميريديونالي، وأراه بجانبي كحارس شخصيّ يدفع عنّي بلايا المدينة ومخاطرها، كان يبدو لي جميلاً أنَّ الأخوين كارّاتشي، ستيفانو وشقيقه، تولّيا كلٌّ على طريقته حمايتنا، أنا وليلا، من شرور الدنيا، والمخاوف نفسها التي اعترتنا حين صعدنا للمرَّة الأولى على السلالم التي تفضي إلى بيتهما، كي نستردّ الدميتين اللتين سرقهما منّا أبوهما.

٤٢

كم كان يعجبني اكتشاف روابط من هذا النوع، وخصوصًا إذا تعلّق الموضوع بليلا. كنت أحيك خيوطًا بين أزمنة ووقائع متباعدة، ثم أحدِّد نقاط التشابه أو الاختلاف في ما بينها؛ حتى غدا ذلك التمرين يوميًّا. فحينما كنت بأفضل حال في إيسكيا، كانت ليلا بأسوأ حال في الحيّ؛ وحين تألَّمتُ على مغادرة الجزيرة، شعرتْ ليلا بسعادة خالصة. وكأنّ سحرًا ما يفرض على سعادة إحدانا أو آلامها أن تساهم في سعادة الأخرى وآلامها. وبدا لي أنَّ المظهر البدنيّ يشارك في تلك اللعبة أيضًا. في إيسكيا، شعرتُ بأنّني جميلة، ولم يتبدَّد هذا الانطباع إبَّان عودتي إلى نابولي؛ بل وخلال مواظبتي على مساندة ليلا لمساعدتها في النجاة من مارتشيلّو، مررتُ بلحظات شعرتُ فيها أنَّني أضاهيها جمالاً؛ حتى إنّني رأيتُ في بعض نظرات ستيفانو أنَّه قد يكون معجبًا بي. ثم أمسكتْ ليلا بناصية الأمور، فضخّت السعادة فيها من الجمال أضعافًا، بينما كنت أغدو قبيحة حين استكنتُ لمتاعب المدرسة وشغفي المعذّب بنينو. تلاشى لون العافية، وظهرت البثور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثانية على بشرتي. وذات صباح، باغتني شبح النظّارات الطبّيّة أيضًا.

حدث ذلك حين سألني الأستاذ جيراتشي عن شيء ما كان قد كتبه على السبّورة، وانتبه أنّني لا أرى شيئًا تقريبًا. قال لي إنّه عليّ الذهاب إلى طبيب عيون بأقصى سرعة، وأراد أن يكتب ذلك على دفتري، مستعجلاً توقيع أحد والديّ في اليوم التالي. عدت إلى البيت، وأظهرت لهما الدفتر، وكنت أشعر بالذنب على نفقة العدسات. احتقن والدي، وصرخت أمّي في وجهي: «تقضين الوقت كلّه على الكتب حتى فقدت بصرك». شعرتُ بحزن شديد. هل كانت تلك عقوبة على غروري بالمواظبة على الدراسة؟ وليلا؟ ألم تكن قد قرأت أضعاف ما قرأتُ؟ فلماذا تتمتّع بنظر تامّ، وأنا يخفّ بصري؟ لماذا يتوجّب عليّ ارتداء العدسات طيلة حياتي، وهي لا؟

وكان لضرورة النظّارات أن تضعني أمام لوحة تعبّر تمامًا، بخيرها وشرّها، عن قَدَري وقَدَر صديقتي: أنا عمياء، وهي ثاقبة النظر كالنسر؛ أنا أعاني من توسّع الحدقة، وهي التي تضيّق حدقتيها منذ الصغر وترى أبعد منّي؛ أنا أشبك ذراعها بين الظلال، وهي تقودني بنظرة صارمة. في النهاية، وجد والدي النقود بفضل معارفه في البلديّة، فانخفض سقف تخيُّلاتي. ذهبتُ إلى طبيب العيون، واكتشف حسرًا في النظر، وهكذا وضعتُ النظّارات. حين نظرتُ إلى نفسي في المرآة، صُعقتُ من وضوح العيوب في صورتي: بشرة غير نقيّة، وجه عريض، فم كبير، أنف ضخم، وعينان حبيستان داخل إطار العدسات الذي بدا مرسومًا بريشة فنّان هائج ومتوتّر، تحت حاجبين كثيفين أصلاً. أحسستُ بأنّني مشوّهة للغاية، لذا قرّرت وضع النظّارات في البيت فقط، وفي المدرسة في حال نقلتُ شيئًا من السبُّورة. ولكنّني، ذات يوم، نسيتُ النظّارات على المقعد ساعة الانصراف. عدت مسرعة إلى الصفّ، فإذا بأسوأ الاحتمالات قد حصل حقًّا. وقعت النظّارات بين الأقدام، أثناء حالة

الجنون التي تصيب التلاميذ بسماعهم جرس الانصراف. تحطَّم الضلع وكسرت العدسة. فانفجرتُ في البكاء.

لم يكن لديّ من الشجاعة ما يكفي للعودة إلى البيت، فلجأتُ إلى ليلا وطلبتُ نجدتها. رويت عليها ما حدث، طلبتْ منّي النظَّارات لتفحصها. قالت لي بأن أتركها عندها. عبّرتْ بنبرة حزمٍ مختلفة عن نبرتها المعتادة، إذ كانت أكثر هدوءًا، كما لو أنَّها استوعبت أن ما من داعٍ لاتّخاذ موقف متشدِّد تجاه صغائر الأمور. تخيَّلتُ أنَّ رينو قد يكون قادرًا على القيام بمعجزة مستخدمًا أدوات الإسكافيّ، فعدت إلى البيت آملة ألَّا ينتبه والداي إلى عدم وجود النظَّارات.

بعد بضعة أيَّام، في وقت متأخِّر من العصر، سمعتُ أحدًا يناديني من الفناء. كانت ليلا في الأسفل، وقد وضعتْ نظارتي على أنفها، واستغربتُ أنَّها كانت تبدو جديدة، وتليق بوجهها جدًّا. نزلتُ وأنا أفكِّر: لماذا تليق العدسات بها وهي ليست في حاجة إليها، بينما لا تليق بي، وأنا لا أستطيع فعل شيء دونها؟ حالما خرجتُ من البوَّابة، رأيتها تنزع النظَّارات بمرحٍ ورموشها ترفرف بشدَّة. قالت: «أشعر بألم في عينيّ»، ثم وضعت النظَّارات على أنفي، وهي تهتف: «يا لجمال وجهك، عليك بوضع النظَّارات دومًا». كانت قد أعطت النظَّارات لستيفانو، فذهب وأصلحها عند تقني بصريَّات في وسط المدينة. غمغمتُ بحياء أنَّني لن أستطيع سداد المبلغ، فردَّتْ ضاحكة، بقليل من الخبث ربَّما:

«تسدِّدين المبلغ، ماذا تقصدين؟»

«أعطيك أجر التصليح».

ابتسمتْ، ثم قالت بزهوّ:

«ما من داع. فإنَّني الآن أتصرّف بالنقود كما يحلو لي».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤٣

عزَّز المال انطباعي بأنّها كانت تملك ما كان ينقصني، والعكس صحيح، كأنَّنا في دوَّامة من التحوُّلات وتبادل الأدوار تجعل صداقتنا ضروريَّة لكلتينا، في جميع أحوالها، الحلوة والأشدّ مرارة على حدّ سواء.

تساءلتُ بعدما حدث للنظَّارات: «هي تملك ستيفانو، الذي استطاع تصليح العدسات دون أن يكترث لما أنفق. فماذا أملك أنا؟»

وأجبتُ نفسي بأنّني أملك المدرسة، وهي امتياز فَقَدتْه ليلا إلى الأبد. المدرسة ثرائي، حاولتُ أن أقنع نفسي. وفعلاً، عاد الأساتذة في ذلك العام يمنحونني ثناءهم. وصارت صفحتي المدرسيَّة أكثر تألُّقًا، بل وحتى دورة العلوم اللاهوتيَّة والعقائد الروحانيَّة سرت على ما يرام، لدرجة أنّني كُوفئت بنسخة من الكتاب المقدَّس ذات غلاف أسود اللون.

تباهيتُ بنجاحاتي كما لو كانت كسوار أمِّي الفضِّيّ؛ لكنّني

احترتُ حقًّا بكيفيَّة استخدام كفاءاتي. ففي الصفّ، لا وجود لأحد بوسعي أن أناقشه بمواضيع قراءاتي وأفكاري التي تلمع في ذهني. ألفونسو مثلاً، كان تلميذًا مجتهدًا وقد حقَّق تقدُّمًا مُرْضيًا في جميع الموادّ، بعد أن رسب في العام السابق. إلَّا أنَّه كان يكتفي بالإصغاء إليّ، كلَّما حاولتُ أن أناقشه حول رواية «الموعودان بالزواج»، أو الروايات المدهشة التي ما فتئتُ أستعيرها من مكتبة المعلِّم فيرارو، أو حتى عن «الروح القدس». لم يكن مؤهَّلاً لإجابة تحثّني على استنباط أفكار عميقة، ربَّما بسبب حيائه أو جهله. ورغم أنَّه كان يستخدم لغة رفيعة في الإجابة عن أسئلة الأساتذة، فإنَّه لا يستطيع سوى الحديث بالعامِّيَّة خلال نقاشاتنا. ومن المعروف أنَّ العامِّيَّة لا تصلح للحديث عن فساد العدالة الأرضيَّة، التي يتناولها الفصل الخامس من رواية «الموعودان بالزواج» أثناء الوليمة التي أعدّها الدون رودريغو في قصره، ولا تصلح لتأمّل العلاقة بين الله والروح القدس ويسوع. وقد شغلني هذا الموضوع الأخير كثيرًا، إذ كنت أرى أنَّنا حين نحلِّل الثالوث، ذا الكينونة الواحدة، فلا بدّ أن يتمّ ترتيب عناصره الثلاثة وفقًا لهرميَّة ما؛ فمن يأتي في المقام الأوَّل، ومن في الأخير؟

وسرعان ما تذكَّرتُ ما قاله لي باسكوالي، ذات مرَّة، إنّ الثانويَّة الأدبيَّة التي أتردَّد إليها لم تكن أفضل مدرسة. واستنتجتُ أنَّه كان محقًّا. فنادرًا ما كنت أرى رفيقاتي يرتدين ثيابًا أنيقة كالفتيات في شارع «الألف مقاتل». ولم يحدث أبدًا أن جاء شبّانٌ متأنِّقون لاصطحابهنّ بسيَّارة فاخرة كسيَّارة مارتشيلُّو أو ستيفانو. بل وكان المستوى الثقافي متدنِّيًا جدًّا. التلميذ الوحيد ذائع الصيت مثلي هو نينو، لكنَّه بات يمرّ بجانبي مطأطئ الرأس، ولا يبادلني أيّ نظرة، وذلك بعد الفتور الذي عاملته به. فما العمل إذن؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت في أمسّ الحاجة إلى التعبير عن أفكاري التي تشتَّتت في رأسي. ولم أنقطع عن التواصل مع ليلا، خصوصًا في أيَّام العطلة المدرسيَّة؛ حيث كنَّا نلتقي ونتحدَّث. كنت أروي لها عن الدروس والأساتذة بالتفصيل، وهي تصغي إليّ باهتمام، فآمل أن يشجِّعها كلامي على الفضول والعودة إلى استعارة الكتب التي تدفعها للحاق بي. إلَّا أنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، بل كانت كما لو أنَّ جزءًا منها يكبِّل أجزاءها الأخرى. وغالبًا ما كانت تميل إلى هجوم مباغت، بأسلوب ساخر نوعًا ما. ذات مرَّة، على سبيل المثال، حدّثتها عن دورة العلوم اللاهوتيَّة، ورحت أطرح الأسئلة التي تلتهم أفكاري، لا لشيء سوى لإبهارها، عن الروح القدس الذي أعجز عن الإلمام بمفهومه وطبيعته. تأمَّلتُ بصوت مرتفع: «ما هو؟ أقنوم تابع، يعمل في خدمة الربّ ويسوع، بمثابة رسول يا ترى؟ أم هو فيض الربّ ويسوع، وتدفُّقٌ إعجازيّ ينبثق عنهما؟ وإن صحّت الحالة الأولى، فكيف لماهيَّةٍ ما أن تقوم بدور الرسول ثم تتَّحد في كيان واحد مع الربّ وابنه؟ أليست كما لو قلنا إنّ أبي، البوَّاب في البلديَّة، هو كيان متَّحد بالعمدة والقائد لاورو؟ وإن صحّت الحالة الثانية، فالتدفّق مثل العرق والصوت، جزء من الشخص الذي ينبثق عنه، فما جدوى أن نفصل الروح القدس عن الربّ وعن يسوع؟ إمّا أن يكون الروح القدس الشخص الأكثر أهمِّيَّة، وما الربّ ويسوع إلَّا وسيلتان لتجلّي الروح القدس؛ وإمَّا أنّني لا أفهم ما وظيفته أساسًا». أذكر أنَّ ليلا كانت تحضِّر نفسها للذهاب مع ستيفانو إلى صالة سينما في وسط المدينة بصحبة بينوتشا ورينو وألفونسو. كنت أنظر إليها بينما ترتدي تنُّورة وسترة جديدتين، وباتت شخصًا آخر كلِّيًّا، واختفت معالم الهزال عن كاحليها. ورغم هذا، فإنّني رأيت عينيها تتحوَّلان إلى ثقبين، كما حين

كانت تحاول الإمساك بفكرة خاطفة. قالت بالعامِّيَّة: «أما زلتِ تهدرين وقتك بهذه الأشياء يا لينو؟ نحن نعيش فوق كرة من نار، سطحها الذي تجمّد يعوم على اللهب، فشيّدنا عليه البنايات والجسور والطرقات. وبين الحين والآخر، ينفث بركان الفيزوف من تلك الحمم، أو يحدث زلزالٌ يدمِّر كلّ شيء. ثمَّة ميكروبات في كلّ مكان تسبِّب الأمراض التي تؤدِّي إلى الموت. ثمَّة حروب. ثمَّة بؤس من حولنا يجعلنا أشرارًا جميعًا. وقد يقع شيء ما، في أيّ ثانية، يغرقنا بآلامٍ لا تكفيها دموعنا. وأنت ماذا تفعلين؟ دورة عن اللاهوت تبذلين فيها كلّ جهودك لفهم طبيعة الروح القدس؟ انسي الأمر. الشيطان هو الذي خلق العالم، وليس الربّ ولا ابنه ولا الروح القدس. هل تودِّين رؤية طوق اللؤلؤ الذي أهداني إيَّاه ستيفانو؟» هذا ما قالته تقريبًا، فتشتَّتت أفكاري أكثر من قبل. وليس في تلك المرَّة فحسب، بل كانت غالبًا ما تؤرّقني بتلك النبرة التي استولت على كلماتها، فأصبحت طريقة تعبيرها. كلَّما تناولتُ موضوع الروح القدس، أغلقت ليلا أيّ باب للنقاش، بأقلّ ما عندها من كلمات ساخرة ومستعجلة دون أن تقصد اللؤم، وانتقلت لتريني هبات ستيفانو، خاتم الخطوبة والطوق والفستان الجديد والقبَّعة الصغيرة؛ وهكذا تضع الأمور التي أحبّها في ركن مهمل لتفرغها من معانيها، مع أنَّها الأمور ذاتها التي كنت أهتمّ بها فأنال ثناء الأساتذة. كنت أنسى الأفكار والكتب لأظهر إعجابي بتلك الهدايا الفاخرة، التي لا تمتّ بصلة للعوز المستفحل في بيت فرناندو الإسكافيّ. وكنت أجرِّب الثياب والأغراض القيِّمة، فأستدرك بسرعة أنَّها لن تليق بي كما تليق بها، ثم أنصرف بعيدًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤٤

تعرّضتْ ليلا لموجة من الحسد والنقمة في أدائها لدور الخطيبة. وكانت طباعها تزعج الآخرين، حينما كانت ما تزال طفلة بائسة، فتخيّلوا ما الذي ستلقاه آنذاك وهي شابّة محظوظة. أخبرتني بنفسها عن غيظ والدة ستيفانو المتصاعد تجاهها، وأخته بينوتشا خصوصًا. إذ كانت الأفكار الخبيثة مطبوعة بوضوح على وجه ماريًا وابنتها. من تظنّ نفسها ابنة الإسكافيّ؟ وأيّ جرعة سحريَّة دسّتها في شراب ستيفانو ليتغيَّر هكذا؟ وكيف يسرع لفتح محفظته ما إن تفتح ليلا فمها؟ هل تنوي أن تصبح السيِّدة الأولى في بيتنا؟

ولئن كانت ماريًا تقتصر على عبوس صامت، فإنّ بينوتشا لا تتمالك أعصابها، وتنفجر في وجه أخيها:

«لماذا تشتري لها كلّ شيء ولا تشتري لي شيئًا، بل وكلّما أردتُ لنفسي غرضًا جميلاً نقدتني بأنّني أنفق المال على أشياء تافهة؟»

لم يكن ستيفانو يجيبها، بل يرسم على وجهه نصف ابتسامة

ساكنة. لكنَّه أخذ يشتري الهدايا لأخته أيضًا، تماشيًا مع راحة بالها. وهكذا، بدأت المنافسة بين الفتاتين، كانتا تذهبان معًا إلى صالة الحلاقة، وتشتريان ثيابًا متطابقة. ولم يشفِ ذلك غليل بينوتشا بذلك، بل ازدادت ضغينتها. لم تكن قبيحة، كانت تكبرنا بعام، ولعلَّها أجمل منَّا بقامتها الممشوقة، إلَّا أنَّ الأثر الذي يتركه أيّ غرض أو ثوب عليها لم يكن ليرتقي إلى الأثر الذي يتركه على ليلا. وكانت ماريًا أوَّل من انتبه إلى هذا؛ فعندما كانت ترى ليلا وابنتها متأهِّبتين للخروج، بتسريحة الشعر نفسها وبالثياب ذاتها، كانت تراوغ دومًا حتى تصل، بطرق ملتوية، إلى انتقاد كنّتها المستقبليَّة على شيءٍ ما فعلته منذ أيَّام، فتلومها، بنبرة تتصنَّع الطيبة، على أنَّها لم تطفئ الضوء بعد خروجها من المطبخ، أو لم تقفل الصنبور جيِّدًا بعد شربها كأسًا من الماء. ثم تلتفت إلى الجهة الأخرى متظاهرة بانشغالها في أمرٍ ما وهي تغمغم بنكد:

«عودا باكرًا».

ودخلنا، نحن فتيات الحيّ، في مشاكل مشابهة تقريبًا. ففي أيَّام العطل، أخذتْ كلّ من كارميلًا، التي باتت تصرّ على أن نناديها كارمن، وآدا وجيليولا يعتنين بأناقتهنّ بهدف منافسة ليلا، دون أن يقلن هذا لأحد، حتى لأنفسهنّ. لا سيَّما جيليولا التي كانت تعمل في حلويات المقهى، ورغم ارتباطها غير الرسميّ بميكيلي سولارا، راحت تحفِّزه على أن يشتري لها أغراضًا جميلة تباهي بها أثناء النزهة سيرًا أو بالسيَّارة. ولكنْ هيهات.. فكان من الواضح أن لا مجال في منافسة ليلا التي تبرز كصورة مشعّة في انعكاس الضوء.

حاولنا في البدء أن نستوعبها ونفرض عليها عاداتنا القديمة. أدخلنا ستيفانو في مجموعتنا، وأحطناه بالدفء والودّ، وبدا سعيدًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بهذا، حتى إنَّه في يوم سبت قال لليلا، تدفعه رغبة في إظهار مودّته لأنطونيو وآدا: «أخبري لينوتشا وأبناء ميلينا أن يأتوا معنا للعشاء مساء غد». كان يقصد بصيغة الجمع كلًّا منه ومن ليلا، إضافة إلى بينوتشا ورينو الذي بات فرحًا بقضاء وقته الفارغ مع صهره المستقبليّ. وافقنا على عرضه، لكنَّ السهرة كانت معقَّدة للغاية. إذ استعارت آدا فستانًا من جيليولا، لأنَّها خشيتْ أن تبدو بمظهر سيِّئ. ولم يختر ستيفانو ورينو محلّ بيتزا بل مطعمًا في حيّ سانتا لوتشيا الراقي. فأعيانا القلق، أنا وأنطونيو وآدا، لأنَّنا لم ندخل إلى أيّ مطعم من قبل، فالمطعم مكانٌ يرتاده الأكابر حصرًا. ماذا سنلبس، وكم سيكلّفنا هذا العشاء؟ وبينما كانوا يستقلّون السيَّارة العائليَّة، وصلنا نحن إلى ساحة بليبيشيتو بالحافلة، وتابعنا الطريق سيرًا على الأقدام. وحين كنَّا هناك، طلبوا الكثير من الأطباق بأريحيَّة، بينما اكتفينا نحن بالقليل خوفًا من أن نتورَّط بفاتورة لا تناسب إمكانيَّاتنا. والتزمنا الصمت طوال الوقت تقريبًا، لأنَّ رينو وستيفانو كانا يتحدَّثان عن الأموال خاصَّة، ولم يفكِّرا في مبادلتنا أطراف الحديث، ولا حتى مع أنطونيو. وحاولتْ آدا، التي لم تستسلم للتهميش، أن تلفت انتباه ستيفانو طوال السهرة، مبالغة بإظهار ودّها تجاهه، حتى انزعج منها أخوها. وفي النهاية، حين أردنا دفع الحساب، اكتشفنا أنَّ اللحَّام كان قد دفع كلّ شيء؛ ولم يغضب رينو من هذه الخطوة، بل أنطونيو الذي عاد إلى المنزل حانقًا، لأنَّه شعر بالمذلَّة، فهو في عمر ستيفانو وشقيق ليلا، ولديه عمل مثلهما. لكنّ الشيء الأكثر خطورة هو أنّني وآدا أدركنا عدم قدرتنا على معاملة ليلا والتكلُّم معها في مكان عامّ، خارج علاقة الصداقة التي تجمعنا يوميًّا. إذ كانت، من شدَّة عنايتها بزينتها ولباسها، تبدو ملائمة لسيَّارة ستيفانو العائليَّة، وتلك المكشوفة، والمطعم الفاخر في سانتا لوتشيا،

كما يبدو أنَّ جسمها لم يعد يصلح لركوب المترو معنا، والتنقُّل بالحافلة والسير على الأقدام وتناول البيتزا في شارع غاريبالدي والتردُّد إلى سينما الكنيسة والرقص في بيت جيليولا.

اتَّضح في تلك السهرة أنَّ حالة ليلا كانت تتبدَّل. وخلال أيَّام وأشهر قليلة، أصبحت آنسة تقلّد عارضات الأزياء في مجلَّات الصرعة وفتيات التلفزيون والبنات اللواتي كانت تحدِّق بهنّ أثناء التنزُّه في شارع كيايا. كلَّما رأيناها، شعرنا بأنّ شعاعًا ينبثق منها ليصفع شقاء الحيّ بشدَّة. لم يعد من أثر لتلك الطفلة التي شاركتُها في نسج حبكةٍ أوصلتْها إلى الارتباط بستيفانو رسميًّا. اختفت معالمها القديمة في الظلام لتفسح المجال، تحت ضوء الشمس، لامرأة شابَّة تشبك ذراع خطيبها يوم الأحد، كأنَّها تطبّق بنود معاهدة بينهما. وكان يبدو أنَّ ستيفانو، بتلك الهدايا السخيَّة، إنَّما أراد أن يُظهر للحيّ أنَّ ليلا الجميلة قد تصبح أكثر جمالاً وبهاءً. وهي، بدورها، عرفتْ كيف تنهل من نبع جمالها الذي لا ينضب، واكتشفتْ أن لا شيء بإمكانه احتواء جمالها مهما كان متقنًا، حتى إنَّ كلّ تسريحة جديدة، وفستان جديد، وكحل جديد وأحمر شفاه جديد، ما هي إلَّا حدود جديدة تمحو الحدود السابقة، ستجتازها بكلِّ الأحوال. كان يبدو أنَّ ستيفانو يبحث فيها عن أكثر الرموز وضوحًا للدلالة على الرفاهيَّة والغنى اللذين يسعى إليهما؛ وبالمقابل تبدو ليلا كأنَّها تستخدم ختمه الذي وضع بين أيديها لتؤمِّن مستقبلها، ومستقبل أخيها وأبويها وأقاربها، من مرارةِ ما واجهته وتحدّته منذ أن كانت صغيرة.

لم أكن أعلم شيئًا ممَّا كانت تسمِّيه بـ «انحلال الهوامش»، في سرِّها، بعد فظاعة ما شهدتْه في رأس السنة. لكنّني كنت أعرف قصَّة القِدر الذي انفجر، وكان دومًا يكيد لي في إحدى زوايا دماغيَ، لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنفكّ أفكِّر فيه وأتأمّل. وأذكر أنّني ذات مساء، في البيت، تعمَّدتُ قراءة الرسالة التي أرسلتها إليّ في إيسكيا. كم كان أسلوبها في الحكاية عن نفسها مذهلاً، وكم كان يبدو غابرًا! توجّب عليّ أن أعتبر ليلا التي كتبتْ تلك الكلمات كأنَّها قد رحلتْ. إذ كانت تلك الرسالة تحتوي على ليلا التي كتبتْ «الساحرة الزرقاء»، الطفلة التي تعلّمت اللاتينيَّة والإغريقيَّة بمفردها، تلك التي التهمتْ نصف مكتبة المعلِّم فيرارو، تلك التي رسمتْ تصاميم الأحذية فوضعها ستيفانو في إطار لوحات وعلَّقها في محلّ الإسكافيّ. لكنّني لم أعد أراها في الحياة، ولم أعد أشعر بوجودها. شيرولو العصبيَّة والعنيفة قُدِّمتْ قربانًا. انتهى بنا المطاف إلى عالمين مختلفين، رغم أنَّنا كنَّا ما نزال نعيش في الحيّ نفسه، ونتمّ عامنا الخامس عشر بعد طفولة قضيناها معًا. كانت الأشهر تمضي بسرعة، وكنت أتحوَّل إلى فتاة لا تعتني بمظهرها ولا جسدها، ترتدي النظَّارات الطبِّيَّة، وتنحني على كتب بالية تفوح منها رائحة ثقيلة، توحي بالتضحيات الجليلة وراء اقتنائها من سوق الأدوات المستعملة أو بتدبيرها من المعلِّمة أوليفيرو. وليلا كانت تقضي أوقاتها بجانب ستيفانو، مسرَّحة الشعر كالمشاهير، وترتدي ثيابًا تبدو بها ممثِّلة سينمائيَّة أو أميرة ما.

كنت أراها من النافذة وأشعر أنَّ شكلها القديم قد امّحى، وأفكِّر بالفقرة المذهلة من تلك الرسالة، النحاس التالف والمشوَّه. كنت أستخدم ذلك التشبيه كثيرًا كلَّما لاحظتُ انكسارًا في أعماقها أو في أعماقي. وكنت أعلم، أو ربَّما آمل، أن لا شكل قادرًا على احتواء ليلا، وأنَّها كانت ستحطِّم كلّ شيء، عاجلاً أم آجلاً، مرَّة أخرى.

٤٥

لم تتسنَّ لنا مناسبة أخرى بعد تلك السهرة اللعينة في المطعم في سانتا لوتشيا، وهذا ليس لأنَّ العاشقين كفّا عن دعوتنا، بل لأنَّنا كنَّا نعتذر بحجج مختلفة. فكنت، حين لا تسلبني الواجبات المدرسيَّة كلّ طاقتي، أسمح لنفسي برقصة منزليَّة أو بتناول الپيتزا مع مجموعة الأصدقاء ذاتهم. وكنت أفضِّل الخروج، لا سيّما إذا كان حضور أنطونيو مؤكّدًا، وخصوصًا بعد أن كرّس نفسه بشكل تامّ منذ زمن ليتقرّب منّي بلطف ويحيطني باهتمامه الكامل. كانت بشرة وجهه شاحبة بالطبع، ومليئة بالبثور السوداء، والتسوُّس ينخر بعض أسنانه، ويداه غليظتان، وأصابعه ثخينة لدرجة أنَّه فكّك، بسهولة، مسامير عجلات مثقوبة لسيَّارة بائدة أتاه بها باسكوالي ذات مرَّة. لكنّ شعره كان كثيف السواد ومتموِّجًا يبعث الرغبة في مداعبته، ورغم أنَّه كان شديد الحياء، ونادرًا ما يتكلَّم، فإنَّه يتفوَّه دومًا بأشياء مضحكة كلَّما فتح فمه. وبالمحصّلة، كان الوحيد الذي ينتبه لوجودي. فإنتسو كان يقلّ من خروجه معنا، لأنَّه مشغول بأمور لا نعلم عنها شيئًا؛ وحين يظهر كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يهتمّ بكارمن، دون مبالغة، محافظًا على أسلوبه المتحفِّظ والرصين. وبالنسبة إلى باسكوالي، فكان يبدو أنَّه فقد أيّ اهتمام بالفتيات منذ أن رفضته ليلا. كان يدردش قليلاً مع آدا التي يكثر غنجها بوجوده، وغالبًا ما كان يكرِّر أنَّه لم يعد يطيق رؤية وجوهنا القبيحة.

وكان من الطبيعي أن تنتهي تلك السهرات، عاجلاً أم آجلاً، بالحديث عن ليلا، مع أنَّ لا أحد يبدو راغبًا في ذكر اسمها. إذ أُصيب الذكور بخيبة أمل، فكلّ واحد منهم يودّ لو يأخذ مكان ستيفانو. إنَّما باسكوالي كان أكثرهم تعاسة: لو لم يكن يضمر حقدًا دفينًا لآل سولارا، لانحاز أغلب الظنّ إلى صفّ مارتشيلُّو على الملأ ضدّ عائلة شيرولو. كانت تباريح الهوى تشتعل في صدره، وبمجرّد أن يرى ليلا ترافق ستيفانو تنطفئ كلّ شمعة فرح في حياته. لكنْ طيبة القلب ونزاهة التفكير من طبعه. لذا، كان حذرًا في ضبط ردّة أفعاله والتزام الأصول في تصرُّفاته. فعندما عرف بأنّ مارتشيلُّو وميكيلي اعترضا طريق رينو ذات مساء، وأشبعاه بالشتائم دون أن يمسّا منه شعرة واحدة، اصطفّ باسكوالي إلى جانب رينو دون رفَّة رمش. وعندما عرف بأنّ سيلڤيو سولارا، والد مارتشيلُّو وميكيلي، ذهب شخصيًّا إلى محلّ فرناندو الموسّع، ووبّخه بأشدّ ما عنده لأنَّه لم يحسن تربية ابنته، ثم نظر حوله وقال إنّ الإسكافيّ بوسعه أن يصنع ما يشاء من أحذية، ولكنَّه لن يجد أحدًا يشتريها منه، ناهيك عن أنَّه ما من أسهل من إضرام النار في ذلك المكان المليء بالصمغ والشرائط والجلود والأخشاب والمطَّاط؛ عندما عرف باسكوالي بهذا، تعهّد أن يصطحب معه بعضًا من رفاقه ليشعلوا مقهى سولارا بالنيران في حال احترق محلّ شيرولو. لكنَّه كان ينتقد ليلا كثيرًا، ويقول إنَّه كان يجدر بها الفرار من البيت على أن ترضى بمجيء مارتشيلُّو إليها، ليتحدَّث

معها كلّ مساء. وقال إنَّه كان ينبغي عليها أن تحطِّم التلفاز بالمطرقة، لا أن تشاهده بصحبة مارتشيلُّو، إذ من الواضح أنَّه أراد أن يشتري ليلا بذلك التلفاز ليس إلَّا. وقال في النهاية إنَّها كانت أذكى من أن تقع حقًّا في غرام منافق وضيع كستيفانو كارّاتشي.

كنت الوحيدة التي لا تلتزم الصمت في تلك المناسبات، بل كنت أتصدَّى لمزاعم باسكوالي بكلِّ قوَّة. كنت أجيبه مثلاً: ليس من السهل أن تهرب الفتاة من المنزل، ليس من السهل أن تعاند رغبة أشخاص تريد بهم خيرًا، ليس من السهل فعل أيّ شيء، والدليل أنَّك تنتقد ليلا بدل أن تلوم صديقك رينو: فهو الذي أوقعها في شرك مارتشيلُّو؛ ولو لم تجد ليلا الوسيلة للخروج لتزوَّجها مارتشيلُّو رغمًا عن أنفها. وكنت أنهي كلامي بامتداح ستيفانو الذي كان أشجع من كلّ الذكور الذين يعرفون ليلا ويودّونها منذ الصغر، وتكفَّل بمفرده مساندتها ودعم موقفها. وحينها، يطبق صمت ثقيل يرافق شعوري بالزهوّ، لأنّني فنّدتُ الانتقادات الموجَّهة إلى صديقتي، بنبرة متوازنة ومستوًى لغويّ يركعون أمامه أيضًا.

ولكنّنا كدنا نصل إلى الشجار في مساء ما. كنَّا جميعًا، بحضور إنتسو، نتناول البيتزا في الريتيفيلو، في محلٍّ لا تكلِّف فيه قطعة بيتزا المارغريتا وزجاجة البيرة أكثر من خمسين ليرة. بدأت الفتيات النميمة تلك المرَّة، يبدو لي أنَّ آدا قالت إنّ من المضحك أن تخرج ليلا دومًا بتسريحة أنيقة وفساتين تضاهي ثياب سورايا، في حين أنَّ سمّ الصراصير يفوح من تحت باب بيتها. ضحك الجميع بتفاوتٍ ما. ومن سيرة إلى سيرة، قالت كارميلَّا بصراحة إنَّ ليلا ارتبطت بستيفانو حبًّا بأمواله، كي ترتِّب مستقبل أخيها وباقي أفراد العائلة. وما لبثتُ أبدأ مرافعتي كمحامي الدفاع، حتى قاطعني باسكوالي قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ليس هذا مهمًّا. المشكلة أنَّ ليلا تعرف جيِّدًا من أين جاءت تلك الأموال».

«والآن، ستخرج علينا بحكايات الدون آخيل والحقيبة السوداء وعمليَّات التهريب والربا وكلّ القذارات التي ارتُكبتْ قبل الحرب وما بعدها؟» قلتُ.

«أجل. ولو كانت صديقتكِ بيننا لأقرّت بصدق ما أقول».

«ستيفانو ليس إلَّا تاجرًا يعرف كيف يبيع».

«وهل جاء بالمال من ملحمته ليوسِّع محلّ شيرولو الإسكافيّ؟»

«ما رأيك أنت؟»

«ذلك المال من ذهب الأمَّهات اللواتي سرقهنّ الدون آخيل، وخبَّأ مجوهراتهنّ في فراشه. لينا تتبختر كالسيِّدات بدماء أولئك المساكين من سكَّان الحيّ. وهو ينفق عليها، هي وكلّ عائلتها، حتى قبل أن يتزوَّجها».

كنت أفتح فمي للإجابة، فإذا إنتسو يتدخَّل بنبرته الحازمة المعتادة:

«عذرًا يا باسكوالي، ماذا تقصد بـ «ينفق عليها»؟»

كان ذلك السؤال كافيًا لأفهم أنَّ الوضع يزداد سوءًا. احمرّ وجه باسكوالي، وقال مرتبكًا:

«أعني أنَّه ينفق عليها. اعذرني أنت، وقل لي من يدفع المال حين تذهب لينا إلى صالة الحلاقة، وحين تشتري الثياب والحقائب؟ من أنفق المال في المحلّ، وأقنع الإسكافيّ أن يصبح صانع أحذية؟»

«هل تريد أن تقول بأنّ لينا ليست مغرمة بستيفانو، ولم ترتبط به كي يتزوَّجا قريبًا، بل باعت نفسها؟»

حلّ الصمت علينا جميعًا. غمغم أنطونيو:

«لا يا إنتسو. باسكوالي لا يقصد هذا. إنَّك تعلم أنَّه يودّ لها الخير مثلنا جميعًا».

أشار إليه بالسكوت.

«اسكت أنت يا أنطونيو، ودع باسكوالي يجيب».

قال باسكوالي متجهِّمًا:

«أجل، لقد باعت نفسها. ولم تكترث لفساد ذلك المال الذي تنفقه كلّ يوم».

حاولتُ أن أقول رأيي ثانية، لكنّ إنتسو أمسك ذراعي.

«عذرًا يا لينو، أريد أن أعرف ماذا يسمّي باسكوالي المرأة التي تبيع نفسها».

وحينها، رأينا الغضب يقدح في عيني باسكوالي، فقال ما كان يريد أن يقوله منذ أشهر على مسامع سكَّان الحيّ جميعًا:

«فاجرة، أسمِّيها فاجرة. لينا تصرَّفت وما تزال تتصرَّف كالفاجرة».

نهض إنتسو، وقال بصوت خفيض:

«تعال معي إلى الخارج».

وثب أنطونيو، وأمسك بذراع باسكوالي الذي كان يهمّ بالنهوض، وقال:

«لا تبالغْ يا إنتسو. باسكوالي لم يوجِّه تهمة، بل انتقادًا نشعر به جميعنا».

فأجابه إنتسو، وهو يصيح هذه المرَّة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أمَّا أنا، فلا». واتَّجه نحو الباب وهو يصرخ: «أنتظركما في الخارج، أنتما معًا».

منعنا كلًّا من باسكوالي وأنطونيو عن الخروج، ولم يحدث شيء. اقتصروا على عدم تبادل أطراف الحديث لبضعة أيَّام، ثم عاد كلّ شيء كما كان.

٤٦

رويتُ ذلك الصدام لأصف الجوّ المشحون الذي كان يحيط بخيارات ليلا، لا سيَّما بين الذكور الذين كانوا قد أحبُّوها أو رغبوا بها، سرًّا وعلانيَّة، وكانوا ما يزالون يحبُّونها ويرغبون بها. بالنسبة إليّ، من الصعب أن أصف دوَّامة المشاعر التي كنت أمرّ بها. كنت أدافع عنها في كلّ مناسبة، إذ يطيب لي التكلُّم بصفة من يكرِّس نفسه لدراسات صعبة. لكنّني كنت متأكِّدة من أنَّني لن أجد بدًّا في الحديث عن دور ليلا في كلّ حركة يقوم بها ستيفانو. وكنَّا معًا نحاول أن نصل الخيوط بعضها ببعضها الآخر، كما في مسائل الرياضيَّات، حتى نصل إلى النتيجة: أن تؤمِّن نفسها، وتؤمِّن مستقبل أخيها، أن تحاول تحقيق حلم مصنع الأحذية، بل وأن تحصل على النقود كي تصلِّح نظّاراتي الطبِّيَّة في حال وقعتْ منِّي.

كنت أمرّ قبالة محلّ فرناندو القديم، فينتابني شعور بالنصر عبر شخص وسيط: ليلا طبعًا. لقد فعلتْها. محلّ الإسكافيّ الذي لم يكن لديه شارة، بات لديه لافتة ضخمة فوق الباب القديم، ومكتوب عليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالخطّ العريض: شيرولو. كان فرناندو ورينو والمتدرِّبون الثلاثة يعملون متَّحدين، يصمِّغون ويطرقون ويصقلون، منذ الصباح الباكر حتى آخر الليل، منحنين على الطاولات. وكنّا نعرف أنَّ الأب وابنه يتعاركان كثيرًا. وأنّ فرناندو كان يعتقد أنَّ الأحذية، لا سيَّما النسائيَّة منها، لم تكن قابلة للتصنيع كما صمَّمتها ليلا، لم تكن أكثر من خيال خصب يفيض من عقل طفلة صغيرة. وعرفنا أيضًا أنَّ رينو كان يعتقد عكس أبيه، فيذهب إلى ليلا، ويطلب منها أن تتدخَّل. لكنّها لم تعد تطيق الولوج في هذه المجادلات؛ فيتَّجه رينو إلى ستيفانو ليجرّه إلى المحلّ علّه يعطي أوامر محدَّدة يلتزم بها فرناندو. يذهب ستيفانو إلى المحلّ، وينظر مليًّا بتصاميم ليلا المعلَّقة على الجدران، يبتسم في سرِّه، ويقول بلهجة محترمة إنَّه يريد الأحذية تمامًا كما تظهر في تلك اللوحات التي علّقها هناك لهذا الغرض تحديدًا. بالمحصّلة، كانت الأمور تسير ببطء شديد، والمتدرِّبون يتلقُّون الأوامر من فرناندو، فيغيِّرها رينو ليتوقَّف كلّ شيء، ويبدأون من جديد، حتى يلاحظ فرناندو التغيّرات فيعود لتغييرها، ثم يصل ستيفانو ليبدأوا من الصفر.. وهلمّ جرّا. ولم يكن الصياح وتكسير الأغراض ينقص في تلك الحالة طبعًا.

كنت ألقي نظرة سريعة، وأنصرف بعيدًا. لكنّ لوحاتها المعلَّقة على الجدران تظلّ مطبوعة في ذهني. وكنت أفكِّر: «تلك التصاميم، كانت من وحي الخيال بالنسبة إلى ليلا. لا شأن للمال، ولم تكن تريد أن تبيع نفسها. كلّ هذا العمل ليس إلَّا نتيجة حتميَّة لإلهاماتها، وأحياه ستيفانو تأكيدًا لهيامه بها. هنيئًا لها إن كانت محبوبة لهذا الحدّ، وإن كانت تحبّه إلى تلك الدرجة. هنيئًا لها إن كان يعشقها لما هي عليه ولما تجيد ابتكاره. الآن وقد أعطت شقيقها ما كان يأمل، وجنّبته

المصاعب، لا بدّ أنَّها ستبتكر شيئًا آخر. لذا، لا أريد أن يحيد بصري عنها. شيء ما سيحدث حتمًا».

لكنَّ شيئًا لم يحدث. وطّدت ليلا دورها كخطيبة ستيفانو. وحين كنَّا نجد الوقت للكلام، كان يبدو لي أنَّها راضية عمَّا أصبحت عليه، كما لو أنَّها لا ترى شيئًا، أو لا «تريد» رؤية شيء آخر سوى الزفاف والبيت والأولاد.

شعرتُ بالحنق، لأنَّها كانت تزداد بهاءً، وقد تخلَّصتْ من ملامحها القاسية. أدركتُ هذا بعد فترة، حيث وصلتني، عبر جيليولا سبانيولو، بعض الإشاعات المغرضة بحقّها.

قالت لي جيليولا بالعامِّيَّة، بنبرة ناقمة:

«صديقتك الآن تتصرَّف كأنَّها أميرة. ولكن هل ستيفانو يعلم بأنَّها كانت تنفخ في ناي مارتشيلُّو حين كان يذهب إلى بيتها كلّ مساء؟»

كنت أجهل ما معنى أن تنفخ الفتاة في ناي رجل ما. ورغم أنّني سمعتُ هذا التعبير منذ طفولتي، فإنَّه كان يبدو لي ترميزًا لإهانةٍ ما ليس إلَّا.

«ليس صحيحًا».

«مارتشيلُّو يقول ذلك».

«إنَّه كاذب».

«حقًّا؟ وهل يقول الأكاذيب لأخيه أيضًا؟»

«هل أخبركِ ميكيلي بهذا؟»

«أجل».

تمنَّيتُ ألَّا تصل هذه الأباطيل إلى مسامع ستيفانو. وكلَّما عدت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من المدرسة قلت لنفسي: ربَّما ينبغي أن أحذِّر ليلا قبل أن تحدث كارثة ما. لكنّني كنت أخشى أن تغضب، نظرًا إلى نشأتها وطباعها، فتتَّجه مباشرة إلى مارتشيلُّو سولارا بسكِّينها. ثم قرَّرتُ في النهاية: من الأفضل أن أنقل إليها ما سمعتُ، لعلَّها تجهِّز نفسها لمواجهة ما قد تحصل. لكنِّي اكتشفتُ أنَّها على علم بكلِّ شيء. وأكثر من هذا: كانت تعلم أكثر منِّي عن معنى نفخ الناي. أدركتُ ذلك حين سمعتها تستخدم صيغة أوضح من تلك، لتقول لي باشمئزاز بأنَّها لن تفعلها لكائن من كان، فتخيَّلوا أن تفعلها لمارتشيلُّو سولارا! ثم أخبرتني بأنّ الإشاعة وصلت إلى ستيفانو أيضًا، وأنَّه سألها عن نوع العلاقة التي كانت تربطها بمارتشيلُّو حين كان يتردَّد إلى بيت شيرولو. أجابته غاضبة: «لا وجود لأيّ علاقة، هل جننت؟» وسرعان ما أجابها ستيفانو بأنَّه يثق بها، ولم يكن ليشكّ بها، وأنّ الغرض من سؤاله كان ليعلمها بأنّ مارتشيلُّو يستبيح شرفها باختلاق الأكاذيب. بأيّ حال، كان ضبابيًّا في موقفه، كأنَّه يستسلم للمشاهد العنيفة التي تتكوَّن في رأسه دون أن يدري. انتبهتْ ليلا لهذا وناقشته في الأمر طويلاً، واعترفت له بأنَّها تشعر بالحاجة إلى سفك الدماء. ولكنْ ماذا ستجني منها؟ وبعد الكثير من الكلام، توصَّلا إلى قرار مشترك بأن يترفَّعا إلى درجة أعلى من مستوى الأخوين سولارا، ومن منطق الحيّ.

«تترفَّعان إلى درجة أعلى؟» سألتها باستغراب.

«أجل، نتجاهل مارتشيلُّو وأخاه وأباه وجدّه، جميعهم. نتصرَّف كما لو أنَّهم غير موجودين».

وهكذا استمرّ ستيفانو في عمله دون أن يدافع عن شرف خطيبته، وواصلت ليلا حياتها البهيجة دون الاستنجاد بسكِّين أو أيّ شيء آخر، واستمرّ الأخوان سولارا بتلفيق الأكاذيب وإشاعتها. انصرفتُ عنها،

وكنت مستغربة جدًّا. ما الذي كان يجري؟ لم أكن أفهم. كانت تصرُّفات سولارا تبدو لي أكثر انسجامًا مع العالم الذي نعرفه منذ أن كنَّا صغارًا. أمَّا هي وستيفانو، فما الذي كان يدور في ذهنهما، وأين يعيشان؟ كانا يتصرَّفان بأسلوب غير موجود حتى في الأشعار التي كنت أدرسها في المدرسة، أو في الروايات التي كنت أقرأها. كنت مشتَّتة الذهن.. لم يردّا على الإساءات، بما فيها تلك التي لا تُحتمل حقًّا. كانا يغمران الجميع بالودّ والاحترام، كأنَّهما جون كيندي وعقيلته جاكلين في زيارة إلى حيّ البؤساء. حين كانا يخرجان للنزهة معًا، كان يلفّ ذراعه على كتفها، فيبدوان غير معنيَّيْن بالأعراف والتقاليد؛ يضحكان ويمزحان ويتعانقان ويتبادلان القبل على الشفاه. كنت أراهما مسرعين في السيَّارة المكشوفة، وحدهما في المساء أيضًا، ودائمًا ما يرتديان ثيابًا توحي بأنَّهما ممثِّلان سينمائيَّان، فأفكِّر: لا أحد يعلم أين يذهبان، لا رقابة عليهما، ولا يخرجان خلسة، بل برضى آبائهم ورضى رينو، ويفعلان ما يحلو لهما دون أن يكترثا لما يقوله الناس. هل ليلا هي التي دفعت ستيفانو إلى هذا السلوك الذي جعل منهما ثنائيًّا محبوبًا يثير جدل الحيّ كلّه؟ هل كان هذا آخر إبداعاتها؟ هل أرادت الخروج من الحيّ بالبقاء فيه؟ هل كانت تنوي أن تسحبنا خارج ذواتنا، وتسلخ جلودنا الرثَّة لتفرض علينا جلودًا جديدة تتناسب مع ما كان يجول في بالها؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤٧

عاد كلّ شيء إلى طبيعته المظلمة حين وصلت الإشاعات عن ليلا إلى مسامع باسكوالي. وقع ذلك في يوم أحد، بينما كنت أتنزَّه في الشارع العامّ برفقة كارميلّا وإنتسو وباسكوالي وأنطونيو. إذ قال الأخير:

«قيل لي إنّ مارتشيلّو سولارا يذيع بين الناس أنَّ ليلا كانت معه».

انتفض إنتسو، واشتعل باسكوالي على الفور:

«كانت معه، بأيّ معنى؟»

شعر أنطونيو بالحياء من وجودي أنا وكارميلّا، فقال:

«فهمت قصدي».

ابتعد الذكور عنّا، وراحوا يتهامسون. رأيت، وسمعتُ.. باسكوالي يستشيط غضبًا، وإنتسو يتحوَّل إلى كتلة مضغوطة كما لو أنَّه بلا عنق وذراعين وساقين، بل صار كصخرة صلدة. لماذا؟ تساءلتُ، لماذا ينتابهم هذا القدر من العصبيَّة؟ لم تكن ليلا بأخت أيِّ أحد

منهم، ولا تجمعهم بها أيّ قرابة. ومع ذلك، يتكفَّلون بواجب الدفاع عن شرفها، هم الثلاثة معًا، أكثر من ستيفانو بكثير، كأنَّهم عشّاقها الحقيقيُّون. بدا لي باسكوالي مثيرًا للسخرية. فهو الذي كان قد اغتاب ليلا منذ مدَّة قصيرة، ها هو هناك يصرخ فجأة، حتى سمعناه بآذاننا جيِّدًا: «سأهشِّم وجه ذاك الحقير، يقول عنها إنَّها عاهرة. إن كان ستيفانو لا يحرِّك ساكنًا، فإنّني لن أدعه يفلت دون عقاب». حلّ الصمت، وعادوا إلينا، فأكملنا مسيرنا كالتائهين، أنا أدردش مع أنطونيو، وكارميلّا تتوسَّط إنتسو وشقيقها. وبعد قليل، أوصلونا إلى المنزل. رأيتهم يبتعدون، أنطونيو وباسكوالي كجناحين لإنتسو قصير القامة.

في الأيَّام اللاحقة، كثر الحديث عمَّا حصل لسيَّارة الأخوين سولارا التي استحالت حطامًا. وليس هذا وحسب، بل وتعرَّض الأخوان لضرب مبرِّح، ولم يخبرا أحدًا عن هويَّة الفاعل. حلفا على أنَّ أكثر من عشرة رجال غرباء أحاطوا بهما في زقاق مظلم. لكنّني وكارميلّا كنَّا نعرف جيِّدًا أنَّ المعتدين لم يكونوا أكثر من ثلاثة، فوقعنا ضحيَّتين لقلق مفزع. وانتظرنا ردَّة فعل عنيفة يومًا، يومين، ثلاثة؛ ولكن من الواضح أنَّ الأمر قد رُتّب بطريقة محكمة. عاد باسكوالي يزاول عمله في البناء، وأنطونيو في ورشة الميكانيك، وإنتسو يجول على عربته. أمَّا الأخوان سولارا، فتحرَّكا لبضعة أيَّام على أقدامهما، وكانا في أسوأ حال، بملامح توحي بالضياع، يرافقهما دومًا أربعة أصدقاء أو خمسة. وأعترف بأنّني شعرتُ بالبهجة لرؤيتهما في تلك الحالة، وافتخرتُ بأصدقائي. وفي الحديث مع كارمن وآدا، رحت أنتقد موقف ستيفانو ورينو أيضًا اللذين تصرّفا وكأنّ شيئًا لم يكن. ثم مرَّت الأيَّام، واشترى مارتشيلُّو وميكيلي سيَّارة «جولييت» خضراء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللون، وعادا للتبختر كأنَّهما سادة الحيّ، بل وباتا أكثر حيويَّة واندفاعًا، وأكثر سطوة من قبل. وهذا ما يثبت أنَّ ليلا كانت مصيبة في قرارها: لا يمكن هزيمة هذا الصنف من البشر إلَّا بحياة تفوق مستواهم الدنيء، حياة لا يمكن لهم حتى أن يتخيَّلوها. وبينما كنت أجري امتحانات المرحلة الأولى، أطلعتني ليلا بأنَّها ستتزوَّج في الربيع، وهي بنت الستَّة عشر عامًا وبضعة أشهر.

٤٨

صدمني ذلك الخبر. كنّا في شهر يونيو حين أعلمتني ليلا بزواجها، قبل بضع ساعات من الامتحانات الشفهيَّة. كان الزواج متوقَّعًا بالتأكيد، ولكنّني، ما إن حُدِّد موعدٌ لهذا الحدث، ١٢ مارس، حتى شعرتُ بأنّني أصطدم في بابٍ ما سهوًا. راودتني أفكار سيِّئة. بتّ أعدّ الأشهر المتبقِّية: تسعة. ربَّما تكون هذه المدَّة كافية ليُرغم ستيفانو على فسخ الخطوبة، تزامنًا مع غيظ بينوتشا الطائش وقسوة ماريًا، وأقاويل سولارا التي كانت تستمرّ في التواتر من فم لآخر مثل «انتشار الخبر» في الإلياذة. خجلتُ من أفكاري، لكنّني لم أفلح في تخيّل مشهد متناسق، حتى في حال افترقت مصائرنا. كان موعد زواجها يتضمَّن موعدًا لانسلاخ حياتها عن حياتي. لكنّ الأسوأ أنّني كنت متيقِّنة من أنَّ مستقبلها سيكون أفضل من مستقبلي. شعرتُ، أكثر من أيّ وقت مضى، بعدم جدوى الدراسة في الحياة، واتَّضح لي أنّني آثرتُ التفوُّق في الدراسة، لا لشيء سوى لأحظى على حسد ليلا. والحال، أنَّها باتت لا تقيم للكتب أيّ اعتبار. وهكذا، فقدتُ الرغبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في التحضير للامتحان، وغلبني الأرق. تأمَّلتُ تجاربي الغراميَّة الضحلة: قبّلتُ جينو مرَّة واحدة، لثمتُ بالكاد ثغر نينو، خضعتُ للمسات والده الشنيعة والخاطفة. هذا كلّ شيء. أمَّا ليلا، فابتداءً من مارس، سيكون لديها زوج، وهي في عامها السادس عشر؛ وفي غضون عام، أي في سنّ السابعة عشرة، ستنجب ولدًا، ثم ولدًا آخر، ثم آخر وآخر. أحسستُ بأنّني أسفل من الظلّ، فبكيتُ خائبة الرجاء.

في اليوم اللاحق، ذهبت على مضض لأجري الامتحان. وحدث شيء ما رفع من معنويّاتي. إذ أشاد الأستاذ جيراتشي، والأستاذة غالياني التي كانت عضوًا في تلك الهيئة، على إنشائي بالإيطاليَّة. وقال جيراتشي إنّ طريقتي في التفصيل تحسَّنتْ بشكل ملحوظ. وأراد أن يلقي مقطعًا على أعضاء الهيئة؛ وما إن سمعتُه حتى أدركتُ ما كنت أسعى إليه خلال تلك الأشهر، كلَّما توجّبت عليّ الكتابة: كنت أنشد الخلاص من نبرتي المصطنعة ومن تعابيري الجامدة، كنت أجرِّب الكتابة بانسيابيَّة وعذوبة كأسلوب ليلا في رسالتها إلى إيسكيا. عندما سمعتُ كلماتي في صوت الأستاذ، والأستاذة غالياني تصغي وتومئ بصمت، أدركتُ أنّني نجحتُ. لم يكن ذاك أسلوب ليلا بالطبع، كان أسلوبي الخاصّ، وقد بدا لأساتذتي كشيء خارج عن المألوف حقًّا.

نجحتُ إلى المرحلة الثانية بعلامات تامَّة في جميع الموادّ، لكنّ النتيجة لم تذهل أحدًا في البيت، أو تدفعه لتهنئتي. سررتُ كثيرًا بأنَّهم كانوا راضين عمَّا كسبتُ، هذا صحيح، لكنَّهم لم يعيروا الحدث أدنى انتباه. بل وجدتْ أمِّي نجاحي المدرسيّ شيئًا بديهيًّا، وأمرني والدي بالذهاب فورًا إلى المعلِّمة أوليڤييرو كي أرجوها لتدبير كتب العام التالي قبل فوات الأوان. وبينما كنت أخرج، صرختْ أمِّي: «وإن أرادت أن ترسلك إلى إيسكيا، قولي لها إنّني لست على ما يرام،

وإنّك ستساعدينني في شؤون المنزل».

أثنت عليّ المعلِّمة، ولكنْ على مضض، سواء لأنَّها كانت تعتبر نجاحي طبيعيًّا هي الأخرى، أو لأنَّها لم تكن بصحَّة جيِّدة، فكانت تعاني كثيرًا من الألم في حلقها. لم تشر لحاجتي إلى نقاهة عند قريبتها نيلا في إيسكيا. بل، وعلى غير المتوقَّع، بادرت بالحديث عن ليلا. كانت قد رأتها في الشارع العامّ من بعيد. تمشي مع خطيبها اللحَّام، قالت. ثم أضافت جملة لطالما تذكَّرتها: «الجمال الذي كانت شيرولو تحتفظ به في رأسها منذ أن كانت صغيرة لم يَرَ النور يا غريكو، بل ظهر كلّه على وجهها وصدرها وفخذيها وعجيزتها؛ وجمال المظهر لا يدوم، وستبدو وكأنَّها لم تكن جميلة يومًا».

لم أكن قد سمعتُ المعلِّمة تتفوَّه بأيّ كلمة رذيلة منذ أن عرفتها. في تلك المناسبة، قالت «عجيزتها» ثم استدركتْ: «المعذرة». لكنّني لم أصدم بتلك الكلمة بقدر ما صدمتني مرارتها، كما لو أنَّ المعلِّمة تشعر بالذنب على فقدان ليلا مزاياها، لأنَّها كمعلِّمة أخفقتْ في الحفاظ عليها وتطويرها. شعرتُ بأنّني أفضل تلميذة عندها، فانصرفتُ بمعنويَّات مرتفعة.

وكان ألفونسو الوحيد الذي احتفى بنجاحي على أكمل وجه، وهو الذي نجح بمعدل ستَّة في جميع الموادّ. تلقَّيتُ تهانيه على أنَّها عفويَّة، وهذا ما سرَّني جدًّا. حين كنَّا أمام لائحة النتائج، تحمّس ألفونسو، في حضور رفاقنا وأولياء أمورنا، وقام بحركة غير لائقة، كأنَّه نسي أنّني أنثى تستدعي الحشمة: ضمّني إلى صدره بشدَّة، وطبع على وجنتي قبلة حارَّة. وسرعان ما ارتبك وابتعد عنِّي، وطلب المعذرة، لكنَّه لم يتمالك نفسه وراح يصرخ: «عشرة في جميع الموادّ، مستحيل، عشرة في جميع الموادّ». وفي طريق العودة، تحدَّثنا طويلاً عن زواج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخيه بليلا. وبما أنّني كنت أشعر براحة نفسيَّة، سألته للمرَّة الأولى عن رأيه في زوجة أخيه. أخذ بعض الوقت قبل أن يُجيب، ثم قال:

«هل تذكرين المنافسة التي خضناها في الابتدائيَّة؟»

«ومن بوسعه أن ينساها؟»

«كنت متأكِّدًا من الفوز، لأنَّكم كنتم تخشون والدي جميعًا».

«ولينا أيضًا. في البدء، تجنَّبتْ أن تهزمك بالفعل».

«أجل، لكنَّها قرَّرتْ أن تهزمني. سحقتني، فعدت إلى البيت باكيًا».

«الخسارة أمر سيِّئ».

«لم أبك لهذا، بل لأنّني لم أكن أحتمل فكرة أن يخاف الجميع من والدي، وأنا على رأسهم، باستثناء تلك الطفلة».

«هل عشقتها؟»

«أتمزحين؟ لطالما شعرتُ بالرهبة منها».

«ماذا تعني؟»

«أعني أنَّ أخي شجاع جدًّا بزواجه منها».

«ماذا تقول؟»

«أقول بأنّكِ أفضل منها، ولو كنت محلّه لتزوّجتك أنتِ».

أسعدني بهذا أيضًا. انفجرنا بالضحك، وتودَّعنا ونحن ما نزال نضحك. كان عليه أن يقضي الصيف في الملحمة، بينما كان عليّ أن أبحث عن عمل، بأمرٍ صادر عن والدتي أكثر من أبي. تعاهدنا أن نلتقي، وأن نذهب إلى البحر معًا. لكنّ هذا لم يحدث.

في الأيَّام اللاحقة، رحت أبحث بلا رغبة عن عمل في الحيّ.

سألتُ الدون باولو، البقّال في الشارع العامّ، إن كان في حاجة إلى بائعة. لا شيء. سألتُ بائع الصحف، لا شيء أيضًا. عرَّجتُ إلى بائعة القرطاسيَّة التي ضحكتْ كثيرًا من طلبي: كانت تحتاج إلى مساعدة حقًّا، ولكن ليس في الصيف، عليّ أن أعود في الخريف عندما تفتح المدارس أبوابها. هممتُ بالانصراف، فإذا هي تناديني. قالت:

«إنَّك فتاة جدِّيَّة يا لينو، وإنِّي أثق بك. هل بإمكانك اصطحاب بناتي للسباحة؟»

خرجتُ من محلِّها في غاية السعادة. كانت بائعة القرطاسيَّة ستدفع لي أجرًا مرتفعًا إن اصطحبتُ بناتها الثلاث إلى البحر، خلال شهر يوليو كلّه والعشر الأوائل من شهر أغسطس. بحر، شمس ونقود. كنت سأذهب كلّ يوم إلى مكان بين مارجيلينا وبوزيليبو، مكان لا أعرف عنه شيئًا، وله اسم أجنبي: سي غاردن. اتَّجهتُ نحو البيت مهتاجة، كأنَّ حياتي تمرّ في منعطف مفصليّ، إذ كنت سأقبض المال لأساعد أبويّ، وسأسبح وأصبح رشيقة، ويسمرّ لوني تحت الشمس كما حصل لي في صيف إيسكيا. يا لروعة كلّ شيء! فكَّرتُ، يبدو أنَّ الكثير من الأمور الجيِّدة تنتظرني حين يكون اليوم جميلاً.

مشيتُ قليلاً وأنا أرسِّخ انطباعي بحسن حظِّي في تلك الساعات. بلغني أنطونيو، وهو يرتدي ثيابًا رياضيَّة متَّسخة بالزيوت. سررتُ بلقائه، وكنت سأرحِّب بأيّ شخص في تلك اللحظات البهيجة التي أمرّ بها. كان قد رآني أمشي، فركض خلفي. رويتُ عليه عرض البائعة، ولا بدّ أنَّه قرأ السعادة على وجهي بوضوح، بعد أن قضيتُ أشهرًا طويلة وأنا أشعر بالوحدة والاكتئاب. كنت أتجنَّب نينو سارّاتوري دومًا، رغم يقيني من أنّني مغرمة به، ولم أذهب حتى للتأكُّد من نجاحه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعلاماته؛ في حين كانت ليلا تعدّ لقفزة حتميَّة كي تجتازني، ولن أكون قادرة على اللحاق بها. لكنّني، في تلك اللحظة، كنت أشعر بأفضل حال، وأردتُ المزيد من السعادة. وعندما أحسّ أنطونيو بأنّ الفرصة سانحة، عرض عليّ الارتباط به، فأجبته بنعم على الفور حتى لو كنت أحبّ شابًّا آخر، حتى لو كنت لا أكنّ له سوى استلطاف محدود. بدا لي الارتباط به، وهو الناضج والعامل وفي عمر ستيفانو، لا يقلّ أهمِّيَّة عن النجاح بمعدِّل تامّ، وعن المكافأة التي قدّمتها لي البائعة باصطحاب بناتها إلى سي غاردن.

٤٩

انطلقت علاقتي الغراميَّة تزامنًا مع مباشرة العمل. أعطتني بائعة القرطاسيَّة ما يشبه الاشتراك كي أعبر المدينة كلّ صباح، مع بناتها الثلاث، بالحافلات المكتظَّة، وآخذهنّ إلى ذلك المكان المزدهر بالألوان والمظلّات الكبيرة والبلاط الرخاميّ قبالة البحر الأزرق، والمزدحم بالطلّاب والسيِّدات الميسورات اللواتي ينعمن بنقاهة طويلة، والنساء المرائيَّات والمتكبِّرات. كنت أتعامل بلطف مع السبّاحين الذين يحاولون الثرثرة معي؛ وكنت أحرس بنات البائعة جيِّدًا، وأسبح معهنّ طويلاً، وأنا أرتدي لباس السباحة الذي أعدّته لي نيلا في الصيف السابق. وكنت أطعمهنّ وألاعبهنّ، وأدعهنّ يشربن من المياه التي تتدفَّق من النافورة الصخريَّة بحذر كي لا ينزلقن وتتكسَّر أسنانهنّ على الحوض.

ثم كنَّا نعود في وقت متأخِّر من العصر إلى الحيّ، وأُعيدُ البنات لأمّهنّ، فأركض مسرعة إلى موعدي السرِّيّ مع أنطونيو، وجسدي يضجّ بملوحة البحر، وبشرتي تكتوي بوهج الشمس. كنَّا نقصد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستنقعات عبر دروب ثانويّة، إذ لم أكن أخشى أن تراني والدتي بقدر خشيتي من المعلِّمة أوليڤييرو. وكان أنطونيو أوّل من تبادلتُ معه القبلة الحقيقيَّة. وسرعان ما سمحت له بأنّ يداعب صدري وما بين فخذيّ. كما أمسكتُ بقضيبه ذات مساء، وضغطت عليه بشدَّة وهو مختبئ في سرواله، ضخمًا ومنتصبًا. وحين أخرجه أمسكته بيدي بكلٍّ سرور، بينما كانت شفتاه تنهل من شفتيّ. أقدمتُ على تلك الحركات وذهني مهووس بتساؤلين محدَّدين. التساؤل الأوّل، في ما إذا كانت ليلا تفعل الحركات نفسها مع ستيفانو؟ والثاني، في ما لو كانت المتعة التي أجرِّبها مع هذا الشابّ هي عينها التي جرّبتها ذلك المساء، حين كاد دوناتو سارّاتوري يغتصبني؟ بكلٍّ الأحوال، لم يكن أنطونيو سوى شبح مفيد لاستحضار غرام ليلا بستيفانو من جانب، واستحضار العواطف الجيَّاشة التي أشعلني بها والد نينو من جانب آخر. لكنّني لم أشعر بالذنب، إذ كان أنطونيو يبدو ممتنًّا ومطواعًا، لأنّني أسمح له بتلك الملامسات البسيطة عند المستنقعات، حتى وصلتُ إلى قناعة بأنَّه مدين لي، ما دامت المتعة التي أحنو بها عليه أكبر بكثير من تلك التي يؤمِّنها لي.

بعض الأحيان، كان أنطونيو يرافقني مع البنات إلى سي غاردن، لا سيَّما يوم الأحد. ورغم راتبه الشحيح، فإنَّه كان ينفق الكثير من المال بلباقة مصطنعة. وكان يكره أن يسمرّ جلده تحت الشمس، لكنَّه كان يرافقني لأجلي، ليبقى بجانبي، دون أن ينال مكسبًا مباشرًا، حيث كان من الصعب أن نتعانق ونتبادل القبل أثناء النهار. وكان يسلّي البنات بحركاته الهزليَّة وطريقته الرياضيَّة في الغطس. وبينما يلاعبهنّ، كنت أستلقي تحت الشمس للقراءة والذوبان ما بين الصفحات، كأنّني ملاك إغريقيّ.

في إحدى تلك المناسبات، رفعتُ نظري لبرهة، فإذا بي أرى فتاة طويلة وناعمة وأنيقة، ترتدي لباس سباحة أحمر في غاية الجمال. إنَّها ليلا. بعد أن اعتادت على لفت انتباه جميع الرجال، باتت تمشي وكأنّ ذلك المكان المزدحم مقفرٌ من البشر، وكأنْ لا وجود لأحد حتى لذلك الغلام الذي يرافقها إلى المظلَّة. لم ترني ولم أجرؤ على مناداتها. كانت تضع نظّارات شمسيَّة وتحمل حقيبة يد منسوجة الألوان. لم أكن قد أخبرتها عن عملي أو ارتباطي بأنطونيو، ومن الوارد أنّني خشيتُ رأيها، سواء على الموضوع الأوّل أم الثاني. سأنتظر أن تناديني، قلت لنفسي، وعدت إلى قراءة الكتاب؛ مع أنّني فقدتُ التركيز. ثم نظرتُ ثانية إلى تلك الجهة، كان الغلام قد فتح لها المقعد، فاستلقت لتنعم بحرارة الشمس. وفي تلك الأثناء، وصل ستيفانو ببشرته ناصعة البياض وسرواله الأزرق، يحمل المحفظة والولّاعة والسجائر بين يديه. قبّل شفتيها كما يفعل الأمير مع الحسناء الغافية، واستلقى بدوره على مقعد آخر.

حاولتُ العودة إلى القراءة. كنت قد اعتدتُ منذ زمن على التعلُّم الذاتي، وحينها استطعتُ أن أستوعب معنى الكلمات، وأذكر أنّني كنت أقرأ «أبلوموف». رفعتُ نظري ثانية، فوجدتُ ستيفانو مستلقيًا يصبو إلى البحر، لكن ليلا لم تكن في مكانها. ألقيتُ نظرة مستقصية، فرأيتها تتكلَّم مع أنطونيو الذي كان يشير نحوي. أرسلتُ إليها تحيَّة حارَّة، فأجابتني بأحرّ منها، فيما استدارت كي تنادي ستيفانو.

سبحنا نحن الثلاثة معًا، بينما انشغل أنطونيو ببنات البائعة، وكان النهار يوحي بالصفاء والهناء. ثم اقتادنا ستيفانو إلى البار جميعًا، وطلب كلّ خيرات الله من الشطائر والمشروبات والمثلَّجات، حتى أهملت الطفلات أنطونيو بعد أن جذب ستيفانو انتباههنّ. وحين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استرسل الشابّان في الحديث عن بعض الأعطال في السيَّارة المكشوفة، وهو موضوع أجاد فيه أنطونيو نظرًا إلى خبرته الطويلة، أبعدتُ الفتيات كي لا يعكِّرن النقاش، ولحقتْ بي ليلا.

«كم تدفع لك بائعة القرطاسيَّة؟» سألتني.

أجبتُها.

«مبلغ قليل».

«أمِّي تراه مبلغًا كبيرًا».

«عليكِ أن تعلي من قيمتك يا لينو».

«سأعلي من قيمتي حين أصطحب أبناءك إلى البحر».

«سأعطيك مقابل هذا صناديق من الدنانير الذهبيَّة، فأنا أعرف جيِّدًا قيمة قضاء الوقت معك».

نظرتُ إليها، لأتأكَّد إن كانت تمزح أم لا. كانت تتكلَّم جدِّيًا، ثم انقلبتْ إلى المزاح فورًا في حديثها عن أنطونيو:

«هل يعرف قيمتك؟»

«نحن مرتبطان منذ عشرين يومًا».

«هل تكنّين له المودَّة؟»

«لا».

«فماذا إذن؟»

صوّبتُ إليها نظرة متحدِّية.

«وهل تكنّين المودَّة لستيفانو؟»

«الكثير الكثير من المودَّة»، أجابت بجدِّيَّة.

«أكثر من مودّتك لأبويكِ، أكثر من مودّتك لرينو؟»

«أكثر من أيّ أحد، ولكنْ ليس أكثر من مودّتي لك».

«تسخرين منِّي».

ولكنّني فكَّرتُ: حتى لو كانت تسخر منِّي، فكم جميل أن نتحادث هكذا، تحت الشمس، جالستين على البلاط الرخاميّ الحارّ، والماء يداعب أقدامنا؛ لم تسألني عن الكتاب الذي أقرأه، ولم تستعلم عن نتائج الامتحانات؛ لا بأس.. فربّما لم ينته كلّ شيء، ولن يؤثِّر زواجها بديمومة صداقتنا. قلت لها:

«إنّني آتي إلى هنا كلّ يوم. لم لا تأتين أنت أيضًا؟»

تحمَّستْ للفكرة، وتحدَّثتْ بشأنها مع ستيفانو الذي وافق على الفور. كان ذلك النهار جميلاً لدرجة أنَّنا شعرنا بأفضل حال جميعًا. ثم بدأت الشمس تغرب، وحانت عودة البنات إلى البيت. اتَّجه ستيفانو ليدفع الحساب، فاكتشف أنَّ أنطونيو كان قد دفع كلّ شيء. تأسَّف ستيفانو كثيرًا، وشكر أنطونيو بحرارة. لكنّني عاتبته في الطريق، بعد أن ركب ستيفانو وليلا في السيَّارة المكشوفة. ما من داع للبذخ إذا كان هو يتقاضى أجرًا زهيدًا في الورشة، فيما تنظِّف ميلينا وآدا سلالم البنايات.

«لماذا دفعت الحساب؟» تكلَّمتُ بالعامِّيَّة، بنبرة عالية وغاضبة.

«لأنَّنا أنا وأنتِ أكثر وسامة ونبلاً منهما»، أجابني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥٠

تعلَّقتُ بأنطونيو دون أن ألاحظ ذلك؛ وقد باتت ألعابنا الجنسيَّة أكثر جسارة ومتعة. وقرَّرتُ أن أسأل ليلا، ما إن تعود إلى سي غاردن، عمَّا كان يحصل بينها وبين ستيفانو حين يبتعدان بالسيَّارة ويكونان على انفراد. هل كانا يمارسان ما نمارسه أنا وأنطونيو، أو هل كانت تفعل معه ما أشاعه عنها الأخوان سولارا مثلاً؟ لم يكن لي سواها فسحة للبوح ومجالاً للمقارنة. لكنّني لم أحظ بفرصة لأطرح تلك الأسئلة، لأنَّها لم تعد تتردَّد إلى سي غاردن.

وفي حلول الخامس عشر من أغسطس، انتهى عملي، وانتهت معه اللذَّة بالاستجمام عند البحر وتحت الشمس. كانت البائعة راضية جدًّا عن عنايتي ببناتها اللواتي أفشين لها، رغم توصياتي، بأنّ شابًّا كان يأتي إلى البحر أحيانًا ليشاركهنّ اللعب والغطس؛ وبدل أن توبِّخني عانقتني، وقالت: «لا بأس عليك. ينبغي أن تتمتَّعي أيضًا، فأنت جدِّيَّة كثيرًا قياسًا بعمرك». ثم أضافت بلؤم: «انظري إلى لينا شيرولو كيف تستمتع بوقتها».

وفي المساء، عند المستنقعات، قلت لأنطونيو:

«كانت الحال هكذا دومًا، منذ طفولتنا. يظنّ الجميع أنَّها شرِّيرة وأنّني طيِّبة».

قبّلني، وغمغم ساخرًا:

«أليس الأمر كذلك؟»

رقّ قلبي بهذه الإجابة، التي منعتني من إخباره بأنّنا ينبغي أن نفترق. كنت أرى هذا القرار ضروريًّا، فالمودّة لا تعني الحبّ؛ إنّني أحبّ نينو، وكنت أعلم أنّني سأظلّ أحبّه إلى الأبد. حضّرتُ خطابًا متوازنًا لألقيه على أنطونيو، أردت أن أقول له: كانت فترة جميلة جدًّا، لقد ساعدتني في أوقات محنتي وتعاستي، لكنّني سأعود إلى المدرسة قريبًا؛ وهذه السنة، سأكون في المرحلة الثانية، ولديّ موادّ جديدة وصعبة للغاية، وعليّ أن أدرس كثيرًا؛ لا بدّ أن ننفصل، أنا متأسِّفة. كانت هذه النهاية حتميَّة، وكنت أذهب كلّ مساء إلى موعدنا عند المستنقعات وأنا ألهج بخطابي المرتّب. لكنَّه يستقبلني بحفاوة وودّ وشغف، فتنقصني الشجاعة وأؤجِّل القرار. في عطلة الخامس عشر من أغسطس. بعدها بأيَّام. قبل نهاية الشهر. أقول لنفسي: من غير الجائز أن أقبِّل شابًّا، وألمسه وأدعه يلمسني، لا تجمعني به سوى المودَّة. وإن كانت ليلا تودّ ستيفانو كثيرًا، فإنّني لا أودّ أنطونيو إلى ذلك الحدّ.

مرّ الوقت، ولم أفلح في إيجاد اللحظة المناسبة للتكلُّم معه بهذا الشأن. كان مضطربًا، لأنَّ أوضاع ميلينا تسوء تحت حرارة الصيف عمومًا، وفي النصف الثاني من أغسطس، تتدهور حالتها بما لا يُحمد عقباه. عاد سارّاتوري يداهم خاطرها، وكانت تسمِّيه باسمه: دوناتو. قالت مرارًا إنَّها رأته، وإنَّه جاء ليحملها بعيدًا، ولم يستطع أولادها أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يسكّنوا من روعها. أمَّا أنا، فقد انتابني الفزع في ما إذا كان سارّاتوري قد ظهر حقًّا في دروب الحيّ، أو أنَّه قد جاء يبحث عنّي وليس عن ميلينا. كنت أفزّ من نومي في الليل، وأنا أتخيَّل أنَّه دخل من النافذة واختبأ في مكانٍ ما من الغرفة. ثم أطمئن نفسي قائلة: لعلَّه يقضي إجازته في بارانو أو على شاطئ مارونتي، وليس هنا بالتأكيد، حيث الغبار والذباب والقيظ المرتفع.

ذات صباح، وبينما كنت ذاهبة لشراء الحاجيّات، سمعتُ أحدًا يناديني. التفتّ ولم أعرفه بادئ الأمر، حتى سلَّطتُ بصري على شاربه الأسود وتقاسيم وجهه الجميل الذي اسمرّ تحت الشمس، ولا سيَّما فمه وشفتيه الناعمتين. أسرعتُ خطوتي فلحق بي. قال إنَّه انزعج كثيرًا، لأنَّه لم يجدني في بيت نيلا، في بارانو، صيفئذ. قال إنَّه لا يفكّر إلَّا فيّ، ولا يقوى على الحياة من دوني. قال إنَّه رغب أن يرسم شكلاً لحبّنا، فألّف الكثير من القصائد، وأراد أن يقرأها عليّ. قال إنَّه يودّ أن يلتقي بي ويتحدَّث إليّ مطوَّلاً، وإنَّه سينتحر لو رفضتُ طلبه. توقَّفتُ حينها، وقلت له إنَّه من الأفضل أن يتركني وشأني، وإنّني مرتبطة، ولا أريد أن أراه بعدها أبدًا. خاب أمله، وقال إنَّه سينتظرني إلى الأبد، وإنَّه سيقف كلّ يوم عند منتصف النهار على مدخل النفق الملاصق للشارع العام. هززتُ رأسي بانفعال، لم أكن لأذهب إلى هناك قطعًا. اقترب ليقبّلني، فوثبتُ إلى الخلف بما يعبِّر عن اشمئزازي. ارتسمت على وجهه ابتسامة أسف. غمغم قائلاً: «كم أنت ذكيَّة وحسَّاسة. سأحمل إليك أجمل أشعاري»، وانصرف.

أعياني الفزع، وضاقت بي السبل، حتى قرَّرتُ اللجوء إلى أنطونيو. في مساء ذلك اليوم، عند المستنقعات، قلت له إنَّ والدته كانت محقَّة، وإنّ دوناتو سارّاتوري يجول في الحيّ حقًّا، وأوقفني في

الشارع، وطلب منّي أن أنقل إلى ميلينا عهده بانتظارها أبدًا على مدخل النفق عند منتصف النهار. تجهّم وجه أنطونيو، وغمغم: «ما الذي عليّ فعله؟» فأجبته بأن لا مانع عندي من مرافقته إلى الموعد لنلقّن سارّاتوري، معًا، خطابًا واضحًا حول حالة ميلينا الصحِّيَّة.

لم يغفُ لي جفن طوال الليل لشدَّة القلق. وفي اليوم التالي، ذهبنا إلى النفق. كان أنطونيو ملتزمًا الصمت، يمشي بلا عجالة، وشعرتُ بالعبء الذي يحمله في صدره. كان يتأرجح ما بين الغضب والمهانة. فتساءلت بغيظ كبير: كان قادرًا على مواجهة الأخوين سولارا دفاعًا عن أخته آدا، وعن ليلا، أمَّا الآن فثبطت عزيمته على ردّ أذى دوناتو سارّاتوري. كان أنطونيو يرى هذا الرجل في غاية التقدير والتبجيل. فصمَّمتُ على موقفي حين رأيته هكذا، وأردتُ أن أحثّه، وأصرخ فيه: أنت لم تؤلِّف أيّ كتاب، لكنَّك أفضل من هذا الرجل اللعين. لكنّني اكتفيت بشبك ذراعه.

وحين رآنا سارّاتوري من بعيد، حاول أن يختفي على عجل في ظلام النفق. فناديته:

«يا سيِّد سارّاتوري».

التفت رغمًا عنه.

قلت له، باستخدام صيغة «حضرتك» احترامًا، ما كان خارج المألوف في محيطنا خلال تلك الفترة:

«لا أعرف حضرتك إن كنت تذكر أنطونيو، إنَّه نجل السيِّدة ميلينا».

تكلَّم سارّاتوري بنبرة ودِّيَّة، لها رنينها الخاصّ:

«وكيف لا أذكره، مرحبًا بك يا أنطونيو».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«إنّني مرتبطة به».

«آه، حسنًا».

«وقد تحدَّثنا طويلاً، سيشرح لحضرتك بنفسه».

أدرك أنطونيو أنَّ لحظته قد حانت، وقال، بصوت خافت ومتوتِّر، وهو يبذل جهده في الكلام بالإيطاليَّة الفصيحة:

«إنّني سعيد لرؤيتكم يا سيِّد سارّاتوري. أنا لا أنسى المعروف، وسأكون ممتنًّا لكم دائمًا لكلِّ ما قدّمتموه لنا بعد وفاة والدي. وأشكركم خصوصًا، لأنَّكم ساعدتموني على العمل في ورشة السيِّد غوريزيو، لقد تعلَّمتُ بفضلكم هذه المهنة».

«أخبره عن أمّك»، قاطعته بانفعال.

امتعض أنطونيو وأشار إليّ بالسكوت، وتابع:

«لكنَّكم يا سيِّدي لم تعودوا من سكَّان الحيّ، ولا ترون الوضع بوضوح. أمِّي تفقد صوابها، بمجرّد أن تسمع اسمكم. وإن رأتكم، إن رأتكم مرَّة واحدة لا غير، فقد تنتهي في المصحَّة العقليَّة».

حرّك سارّاتوري ساعديه:

«أنطونيو، أنا لم أتقصّد إيذاء أمّك يومًا، يا بنيّ. بل أنت تذكر كم ضحّيتُ لأجلكم. وإنّني لم أكن أرغب إلَّا في مساعدتها ومساعدتكم جميعًا».

«فكفُّوا عن البحث عنها، إذا أردتم أن تساعدونا الآن، توقَّفوا عن إرسال الكتب إليها، ولا تعودوا إلى الحيّ».

«ليس من حقّك أن تطالبني بهذا يا أنطونيو. ليس من حقّك أن تمنعني من زيارة الأماكن الغالية على قلبي»، قال سارّاتوري بصوت دافئ متظاهرًا بالتأثُّر.

أزعجتني نبرته تلك. كنت أعرفها جيِّدًا، لطالما استعملها في بارانو، على شاطئ مارونتي. كانت نبرة تنبض بالوئام والحنان، ولعلَّه يتخيَّل أنَّ هذه النبرة تليق بمن يكتب القصائد والمقالات في صحيفة «روما». كنت على وشك الإجابة، فإذا بأنطونيو يذهلني بتدخُّله. شدّ كتفيه ورأسه، ومدّ يده نحو صدر دوناتو ليوكزه بأصابعه الغليظة. وقال بالعامِّيَّة:

«لا أمنعكم عن هذا. ولكنّني أعدكم بأنّني سأفقدكم الرغبة بالمجيء إلى هذا المكان القميء، إذا أفقدتم والدتي ما تبقّى لها من رشد».

اصفرّ وجه سارّاتوري.

«حسنًا»، قال على عجالة، «فهمتُ، شكرًا».

استدار واتَّجه مسرعًا نحو المحطَّة.

احتضنتُ أنطونيو، وكنت فخورةً بانتفاضته. لكنّني لاحظتُ أنَّه كان يرتجف؛ فأرجعتُ هذا إلى ما كابده منذ طفولته بعد وفاة والده، ثم انكفائه على العمل والمسؤوليَّات التي وقعت على كاهله، وأهمّها انهيار والدته. شبكتُ يده تملؤني المودّة تجاهه، فأجّلت قراري مرَّة أخرى: سأتركه بعد زفاف ليلا، قلت لنفسي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥١

بقي ذلك الزفاف في ذاكرة الحيّ طويلاً، إذ إنّ تجهيزاته تقاطعت مع أحذية شيرولو التي شهدت مخاضًا صعبًا وبطيئًا ومثيرًا للمشاكل، حتى بدا أنَّ المشروعين لن يريا النور، لسبب أو لآخر.

وكان زواج ليلا يؤثِّر بشكل واضح في ورشة الأحذية. فقد وصل فرناندو ورينو الليل بالنهار، ليس من أجل الأحذية الجديدة فحسب، فتلك لم تكن تدرّ أيّ ربح حينذاك، بل في سبيل أعمال صغيرة تعطي أرباحًا مباشرة، كانا في أمسّ الحاجة إليها. إصرارًا منهما على جمع ما يكفي من المال الذي يضمن لليلا جهاز عرس لائق، ويسدّ نفقة المشروبات، وهي أمور أرادوا التكفُّل بها بأيّ ثمن كي لا يظهروا كالمتسوِّلين. وبالتالي، اشتدّ التوتُّر في بيت شيرولو لعدَّة أشهر: كانت نونتسيا منهمكة ليل نهار في حياكة الثياب، وفرناندو لا ينقطع عن التحسُّر عن الحقبة السعيدة التي كان خلالها ملكًا على محلّه الصغير، يصمِّغ ويخيط ويطرق بسرور وراحة بال لا مثيل لهما، والمسامير معلّقة بين شفتيه.

وبدا أنَّ الخطيبين هما الوحيدان اللذان ينعمان بالسرور وراحة البال. لم يتعرَّضا سوى لموقفين حادَّين سرعان ما تجاوزاهما بسهولة. الأوَّل يتعلَّق بمنزلهما المستقبليّ. كان ستيفانو ينوي شراء شقَّة صغيرة في الحيّ الجديد، خلافًا لليلا التي تفضّل اتِّخاذ شقَّة في البنايات القديمة. تناقشا. كان البيت في الحيّ القديم أوسع، لكنَّه مظلم، وليس له إطلالة، كباقي البيوت في تلك المنطقة. أمَّا الشقَّة في الحيّ الجديد، فكانت ضيِّقة، لكنَّها تحتوي على حوض استحمام كبير، كذاك الذي يظهر في إعلانات بالموليف، مزوَّدة بكنيف، وتشرف على بركان الفيزوف. ولم يجدِ نفعًا التذكير بأنّ الفيزوف كان قاتمًا وبعيدًا، ويفقد لونه في السماء الضبابيَّة، في حين كانت السكك الحديديَّة تقع على بعد أقلّ من مائتي متر. إذ كان ستيفانو مأخوذًا بفكرة الجديد، بالشقق ذات البلاط اللامع والجدران ناصعة البياض، فاستسلمتْ ليلا على الفور. فما يهمّها، أكثر من أيّ شيء آخر، أنَّها كانت ستصبح ربَّة منزلها، وهي بنت السبعة عشر عامًا، والمياه الدافئة متوافرة في صنابير حمّامها، وأنّ البيت ملكٌ لهما، وليس في الإيجار.

والموقف الثاني يتعلَّق برحلة شهر العسل. اقترح ستيفانو مدينة البندقيَّة غاية لرحلتهما، بينما أصرّت ليلا على عدم الابتعاد كثيرًا عن ناپولي، لترسم بهذا خطًّا مستقيمًا لن تحيد عنه طوال حياتها. واقترحتِ النزول في إيسكيا وكابري، أو على شواطئ أمالفي، أماكن لم تزرها يومًا بكلِّ الأحوال. فوافق العريس على الفور.

وفي المجمل، كانت هنالك مشاكل بسيطة، أشبه بأصداء لمشاكل داخليَّة عند إحدى العائلتين. فمثلاً، حين كان ستيفانو يذهب إلى ورشة شيرولُّو، ثم يلتقي بليلا، كان غالبًا ما يغتاب فرناندو ورينو بكلمات ثقيلة، فتغضب ليلا وتنبري دفاعًا عنهما. يحرِّك رأسه عن غير اقتناع،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذ كان يخشى أن يكلِّفه الاستثمار في مشروع الأحذية كثيرًا من المال. وفي نهاية الصيف، نتيجة للمشاحنات بينه وبين شيرولو وابنه، وضع ستيفانو حدًّا معيَّنًا لاستهتار الأب وابنه ومساعديهما في العمل. وقال إنَّه يريد أن يرى النتائج الأولى قبل نهاية نوفمبر: على الأقلّ، التصاميم الشتويَّة، الرجّاليَّة منها والنسائيَّة، جاهزة للعرض على الواجهة خلال أعياد الميلاد. ثم زلّ لسانه أمام ليلا، لشدَّة انفعاله، قائلاً إنّ رينو مستعدّ لطلب المال أكثر من تأهُّبه للعمل. دافعتْ ليلا عن شقيقها، فردّ عليها ستيفانو، فثارت ثائرتها ما دعا خطيبها للتهدئة فورًا. ذهب وعاد بالحذاء الذي ولد منه كلّ ذلك المشروع، الحذاء الذي اشتراه ولم ينتعله أبدًا، بل احتفظ به كشاهد ثمين على حكايتهما؛ تلمّسه واشتمّه وتأثَّرت عواطفه حين تحدَّث عن مشاعره، إذ لطالما تراءت له يداها الصغيرتان، عندما كانت طفلة، تعملان على الحذاء بجانب يديْ شقيقها الغليظتين. كانا واقفين على سطح بنايته، هناك، حيث أطلقوا الألعاب الناريَّة تحدِّيًا لآل سولارا. أمسك بأناملها، وراح يقبّلها واحدًا واحدًا، وهو يعدها بأنَّه لن يدع يديها الناعمتين عرضة للشقاء أبدًا.

حدَّثتني ليلا عن لحظة الغرام تلك، وكانت سعيدة بها كثيرًا، عندما اصطحبتني معها لرؤية البيت الجديد. يا للروعة! البلاط الرخاميّ شديد اللمعان، حوض الاستحمام بالرغوة، الأثاث المنقوش في صالة الطعام وغرفة النوم، البرّاد والهاتف أيضًا. كتبتُ الرقم والبهجة تغمرني. كنَّا قد وُلدنا وعشنا في بيوت صغيرة، لم تكن لنا فيها غرف تخصّنا، ولم يكن لنا فيها زاوية مخصَّصة للدراسة. وأنا كنت ما أزال أعيش على ذلك المنوال، أمَّا هي، فكانت ستنتقل قريبًا إلى مكان أفضل. خرجنا إلى الشرفة التي تطلّ على سكك الحديد

والفيزوف، فسألتها بحذر:

«هل تأتين مع ستيفانو إلى هنا وحدكما؟»

«أجل، بعض الأحيان».

«وماذا يحدث؟»

نظرتْ إليّ كما لو أنَّها لم تفهم السؤال.

«إلامَ ترمين؟»

ارتبكتُ.

«هل تتبادلان القبل؟»

«أحيانًا».

«ثم ماذا؟»

«القبل فقط. لم نتزوَّج بعد».

اضطربت أفكاري. هل يُعقل؟ كلّ هذه الحرِّيَّة، ولا شيء في النهاية؟ كلّ تلك الثرثرة في الحيّ، وإشاعات الأخوين سولارا، بينما لم يتبادلا إلَّا بعض القبل؟

«ألا يطلب منكِ المزيد؟»

«لماذا؟ هل يطالبكِ أنطونيو بأكثر من القبل؟»

«أجل».

«ستيفانو لا يطلب منِّي. وهو موافق على أنَّه يجدر بنا الزواج أوَّلاً».

لكنَّها بدت لي مصعوقة من أسئلتي، بقدر ما صعقتني أجوبتها. لم تكن تسمح لستيفانو بالكثير إذن، رغم أنَّهما يخرجان بالسيَّارة وحدهما، وكانا على وشك الزواج، ولديهما بيت جاهز بكلٍّ أنواع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأثاث، بما فيها الفراش الذي ما تزال قطعه في الصناديق. أمّا أنا، التي لم أكن أنوي الزواج طبعًا، كنت قد تجاوزتُ حدود القبلة منذ زمن. حين اشتدّ بها الفضول البريء، وسألتني إن كنت أعطي أنطونيو ما يطلبه، خجلتُ من إخبارها بالحقيقة. فأجبتها بلا.. وبدت راضية عنِّي.

٥٢

خفَّفتُ من المواعيد عند المستنقعات، لأنّ المدرسة ستفتح أبوابها قريبًا. وكدت أجزم أنّ ليلا، بسبب انشغالي بالدروس والواجبات، تفضِّل استثنائي عن تجهيزات الزفاف، وأنَّها اعتادت على غيابي خلال العام الدراسيّ. لكنّ الأمر لم يكن كذلك. إذ كانت التوتُّرات بينها وبين بينوتشا قد تصاعدت جدًّا أثناء الصيف. ولم نعد بصدد فستان أو قبّعة أو حليّ أو شال؛ بل حدث أن وضعت بينوتشا أخاها، في حضور ليلا، وبصراحة كبرى، أمام خيارين: إمَّا أن تشمِّر العروس عن ساعديها وتعمل في الملحمة ـ بعد شهر العسل على الأقلّ ـ كما كان كلّ أفراد العائلة يفعلون دومًا، كألفونسو الذي يهب وقته للعمل كلَّما سمحتْ له المدرسة بذلك، وإمَّا أن تتوقَّف عن العمل هي أيضًا. وانحازت أمّها إلى جانبها بشكل واضح هذه المرَّة.

لم تفكِّر ليلا مرَّتين، قالت إنَّها ستباشر العمل على الفور، صباح اليوم التالي، في أيّ وظيفة تمليها عليها عائلة كارّاتشي. فما كان من هذه الإجابة، ككلّ إجابات ليلا رغم جنوحها إلى التهدئة، إلَّا وفسّرتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بينوتشا على أنَّها تقريع مهين، فازداد غيظها اشتعالاً. اتَّضح جيِّدًا أنَّ ماريًا وابنتها تريان ابنة الإسكافيّ كأنَّها ساحرة، جاءت لتصبح وليّة أمرهم، لترمي أموالهم من النافذة دون أن تُتعب نفسها في قبض معاشها، جاءت لتركب ذكر البيت بسحرها وتجبره على ظلم أبناء دمه، أي شقيقته وأمّه.

اتَّبع ستيفانو أسلوبه المعتاد، لم يجب مباشرة. انتظر أن تفرِّغ أخته غلَّها، ثم قال برفق ـ كما لو أنَّ أحدًا لم يتطرَّق يومًا لمشكلة ليلا ومكانها في مؤسَّسة العائلة الصغيرة ـ إنّ بينوتشا تحسن صنعًا إن كفَّت عن العمل في الملحمة، وتفرَّغت لمساعدة خطيبته في جهاز عرسها.

«لم تعد تحتاج إليّ؟» انبرت الفتاة في وجهه.

«نعم. ابتداء من الغد، سأطلب من آدا، ابنة ميلينا، المجيء للعمل بدلاً عنك».

«هل اقترحتْ عليك هذا؟» صرخت بينوتشا مشيرة إلى ليلا.

«هذا ليس من شأنك».

«هل سمعتِ يا أمِّي؟ هل سمعتِ ما قال؟ يحسب نفسه الآمر الناهي هنا».

هبط صمت لا يُحتمل عدَّة لحظات، ثم نهضت ماريًا من كرسيِّها خلف الصندوق، وقالت لابنها:

«اطلب من أحد آخر أن يعمل بدلاً عنِّي أيضًا، فأنا متعبة وما عدتُ أريد العمل».

أُرغم ستيفانو على التنازل قليلاً. قال بنبرة ساكنة:

«فلنهدأ. لست الآمر الناهي. شؤون الملحمة لا تخصُّني وحدي، بل تخصُّنا جميعًا. علينا أن نتَّخذ قرارًا. هل أنت في حاجة إلى العمل

يا بينو؟ لا. وأنت يا أمّي العزيزة، هل تحتاجين إلى الجلوس طوال اليوم خلف الصندوق؟ لا. فلنعط العمل لمن في حاجة إليه إذن. سأعيّن آدا على المصطبة، وسأفكّر في أمر الصندوق لاحقًا. وإلّا فمن يتولّى تجهيز العروس؟»

لست متأكّدة في ما إذا كانت ليلا حقًّا وراء تعيين آدا وإقصاء بينوتشا وماريًّا من التردُّد إلى الملحمة، رغم أنَّ آدا كانت متيقّنة من ذلك، وأنطونيو أيضًا الذي راح يصف صديقتنا بأنَّها ساحرة طيّبة. لكنّ المؤكَّد أنَّ تفرُّغ النسيبة والحماة لتجهيز الزفاف لم يصبّ في مصلحة ليلا. إذ عملت المرأتان على تعقيد حياة العروس أكثر ممّا كانت معقَّدة، ونشبت المشاحنات على صغائر الأمور: الدعوات، تزيين الكنيسة، المصوِّر، الفرقة الموسيقيَّة، صالة الاستقبال، لوائح الطعام، قالب الحلوى، سكاكر العرس، خواتم الزواج، بل وحتى رحلة شهر العسل، نظرًا إلى أنَّ ماريًّا وابنتها كانتا تستخفّان بأماكن تابعة لريف ناپولي، مثل سورنتو وبوزيتانو وإيسكيا وكابري. وهكذا، على حين غرَّة، وجدتُ نفسي في خضمّ هذا السعار، كي أبدي رأيي لليلا ظاهريًّا، ولكنّني في الحقيقة كنت أساندها في معركة ضارية.

كنت مقبلة على المرحلة الثانية من الثانويَّة، ولديّ الكثير من الموادّ الجديدة والصعبة. كنت أدرس باهتياج مفرط، لأنّ اجتهادي العنيد والمعهود كاد يقضي عليّ. ولكنّني ذات مرَّة، في عودتي من المدرسة، التقيتُ بصديقتي، وقالت لي دون مقدِّمات:

«أرجوك يا لينو، هلّا أتيتِ غدًا لتعطيني رأيك؟»

لم أفهم عمّا كانت تتحدَّث. إذ كان رأسي مصدَّعًا من مذاكرة الكيمياء التي لم أقدِّمها بشكل جيِّد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«رأيي بخصوص ماذا، تحديدًا؟»

«بخصوص فستان العرس. أرجوك، لا ترفضي طلبي. وإلَّا قتلتُ نسيبتي وحماتي».

انضممتُ إليها وإلى بينوتشا وماريًّا على مضض. كان المحلّ في ريتيفيلو، وأذكر أنّني وضعتُ بعض الكتب في حقيبتي لعلّي أجد الوقت لقراءتها، ولكن عبثًا. بقينا نتفحَّص التصاميم، ونتلمَّس المنسوجات، منذ الرابعة عصرًا حتى السابعة مساءً، وجرّبتْ ليلا أكثر من فستان معروض على دمى واجهة المحلّ. وكانت الملابس تبرز جمالها، وهي بدورها تزيد تلك الملابس ألقًا. لم تجرِّب نوع قماش إلَّا وأظهرت سرّ أناقته، من القطنيّ المتماسك إلى الحريريّ الناعم والنسيج المتموِّج. وازدان الإكليل المحبوك على رأسها، والأكمام المطرَّزة على ساعديها. وكان كلّ شيء يليق بها: التنانير الضيِّقة والفضفاضة، وأذيال الثوب الطويلة والقصيرة، والأخمرة السميكة والشفَّافة، والتيجان الرقيقة على شكل اللآلئ أو على شكل الأزهار. وكانت تجرِّب تلك الملابس بكلِّ سرور، لكنَّها في بعض الأحيان تباغت بنظراتها الثاقبة، التي تميَّزت بها في طفولتها، لتردّ على غرابة أذواق ماريًّا وبينوتشا؛ لذا تضيّق عينيها، وتركّز نظرها إليّ، وتقول بسخريةٍ تستفزّ حماتها ونسيبتها: «أليس من الأفضل أن نجرِّب الحريريّ الأخضر، أو القطنيّ الأحمر، أو النسيج المتموِّج بين الأسود والأصفر؟» ولا بدّ لي من الضحك كي يتبيَّن أنَّ العروس إنَّما تمازحنا، لتعود إلى تجريب الأطرزة والأقمشة بجدِّيَّة وامتعاض معًا. في حين كانت الخيَّاطة لا تتوقَّف عن التكرار بحماس: «أرجوكنّ أن ترسلن إليّ صور الزفاف، مهما كان اختياركنّ، أريد أن أعرض الصور على زجاج الواجهة.. وهكذا يكون بإمكاني القول إنّني أنا من جهّز هذه العروس».

لكنّ المشكلة كانت في الاختيار. فكلّما مالت ليلا إلى طراز أو نسيجٍ ما، آثرتْ ماريًا وبينوتشا طرازًا أو نسيجًا آخر. بقيتُ صامتة طوالَ الوقت، مذهولة بعض الشيء من ذلك الجدل ومن روائح القماش الجديد. ثم سألتني ليلا باحتقان:

«ما رأيك يا لينو؟»

حلّ صمت مهيب. وأدركتُ على الفور، بدهشة ما، أنَّ المرأتين كانتا بانتظار تلك اللحظة، وتخشيان منها أيضًا. اتَّبعتُ تقنيَّة تعلَّمتها في المدرسة تقتضي التالي: كلَّما واجهتُ سؤالاً لا أعرف الإجابة عنه، بالغتُ في المقدِّمات بلهجة متوازنة توحي بأنّني واثقة من بلوغ ما أبتغيه. فقلت باللغة الفصيحة إنّني معجبة جدًّا بالأطرزة التي اقترحتها بينوتشا وأمّها. لم أعتمد على الإطراء، بل على الموضوعيَّة، في أنَّ تلك الأطرزة تتناسب مع مظهر ليلا تمامًا. وكما يحدث لي مع الأساتذة في الصفّ، حالما حظيتُ بتقدير ماريًا وابنتها، اخترتُ طرازًا لا على التعيين ـ آخذة الحيطة في ألّا يكون من بين تلك التي أعجبتْ ليلا ـ وأوضحتُ أنَّه يحتوي على مواصفات الأزياء التي تفضّلها المرأتان والمواصفات التي تنشدها صديقتي على حدّ سواء. وسرعان ما حصلتُ على موافقة الخيَّاطة وماريًا وبينوتشا. أمَّا ليلا، فقد اكتفت بتضييق عينيها والنظر إليّ؛ ثم استعادت نظراتها الطبيعيَّة، وأعلنت أنَّها توافقني الرأي.

وحين خرجنا، كانت ماريًا وبينوتشا في مزاج صافٍ يدفعهما إلى الكلام مع ليلا بمودّة. وكانتا، في التعليق على المشتريات، تكرِّران دومًا عباراتٍ، مثل: وكما قالت لينوتشا؛ وكما أحسنتْ لينوتشا بالقول... عمدتْ ليلا لإبطاء مشيتها في زحام الريتيفيلو المسائيّ لتبتعد قليلاً عن حماتها، وسألتني:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«هل تعلَّمتِ هذا الأسلوب في المدرسة؟»

«أيّ أسلوب؟»

«استخدام الكلمات بغية التحايل على الناس».

شعرتُ بالاستياء، فقلت:

«ألا يعجبك الطراز الذي اخترناه؟»

«بلى، يعجبني كثيرًا».

«فماذا تقصدين إذن؟»

«أقصد أن أطلب منك المجيء معنا دائمًا، أرجوكِ».

قلت غاضبة:

«هل تنوين استخدامي للتحايل عليهما؟»

أدركتْ أنّني شعرتُ بالإهانة، فشدَّتْ على يدي بقوّة:

«لم أقصد الإهانة. إنَّما أردت أن أقول بأنّك ماهرة في اكتساب محبَّة الآخرين. الفرق بيني وبينك يكمن دائمًا في أنَّ الناس تخاف منِّي وتشعر بالارتياح معك».

«ربَّما لأنَّك شرِّيرة»، قلت لها بنبرة غاضبة.

«ربَّما» أجابت. لكنّني شعرتُ بأنّني جرحتها كما جرحتني. فندمتُ، وأضفتُ لأصلح خطأي:

«أنطونيو يفديكِ بحياته. أوصاني بأن أشكرك، لأنَّك وجدتِ عملاً لأخته».

«ستيفانو هو الذي عيّن آدا»، ردّتْ. «أنا شرِّيرة».

٥٣

ومنذ ذلك المشوار، دُعيتُ باستمرار للمشاركة في الخيارات الشائكة، واكتشفتُ أنّني أُدعى أحيانًا بطلب من بينوتشا وأمّها وليس من ليلا. وفعلاً، اخترتُ المطعم في شارع أوراسيو؛ واخترتُ المصوِّر وأقنعتهنّ بفكرة تصوير الزفاف ـ بفيلم ٨ ملم ـ إضافة إلى التصوير الفوتوغرافيّ. وكنت دائمًا ما ألاحظ عدم اكتراث ليلا بيوميّات تجهيز زفافها، بينما كنت أتلهّف لأيّ تفصيل، كما لو كانت تلك المسائل تمرينًا لتجهيز زفافي مستقبلاً. أدهشتني لامبالاتها، لكنّ الأمور سارت على ذلك النحو حقًّا. الشيء الذي كان يشغل بالها كلِّيًا هو رسم حدود بيتها كزوجة وأمّ بشكلٍ لا يسمح لحماتها ونسيبتها بالتدخُّل فيه. إلّا أنَّ مشاكلها معهما لم تكن كتلك المشاكل المعتادة التي تنشب بين الكنّة من جهة والنسيبة والحماة من جهة أخرى. بل تولَّد لديّ انطباعٌ بأنَّها كانت تستبسل، تارةً بالاستعانة بي، وتارة بالتحايل على ستيفانو، دفاعًا عن استقلال شخصيَّتها ـ مهما كان الوضع غامضًا ـ داخل القفص الذي حبستْ نفسها فيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبالطبع كنت أخسر وقتًا طويلاً في البتّ في مسائلهنّ، ما جعلني أهمل دراستي، حتى وصل بي الأمر إلى التغيّب عن المدرسة مرَّتين. وكانت التداعيات واضحة على صحيفة الفصل الأوَّل، فقد فقدتُ بريق العلامات التامَّة. ولئن كانت أستاذتي الجديدة في اللاتينيَّة والإغريقيَّة، غالياني القديرة، تخصّني بغزير ثنائها؛ فإنّني كدت أرسب في مادَّة الكيمياء والرياضيَّات. بل وحدث أسوأ من ذلك، حين أقحمتُ نفسي ذات صباح في ورطة عويصة. كان أستاذ التربية الدينيَّة لا يكفّ عن مهاجمة الشيوعيِّين وإلحادهم؛ حتى شعرتُ بواجب الردّ عليه دون أن أدري سبب ذلك، أكان لمودّتي لباسكوالي الذي لطالما صرّح عن انتمائه للشيوعيَّة، أم لشعوري بأنّني معنيّة مباشرة باتّهامات الأستاذ، ما دمتُ الطفلة المدلَّلة لدى الأستاذة غالياني الشيوعيَّة بلا منازع. ما حدث أنَّني رفعتُ يدي وقلت، أنا التي أنهيتُ دورة عن العقائد اللاهوتيَّة بنجاح، إنّ الظرف البشريّ الراهن يثير العار بمكانٍ يجعل الإيمان بالرب ويسوع والروح القدس (كينونة لا جدوى منها سوى لتشكيل ثالوث مقدَّس يفوق ثنائيَّة الأب ـ الابن فخامة) يشبه اللهو في جمع الصور التافهة، بينما تحترق المدينة في نيران الجحيم. لاحظ ألفونسو أنّني أتمادى في كلامي، فشدّ مئزري بحياء، لكنّني لم أكترث له، وتابعت مداخلتي حتى النهاية، حتى تلك المقارنة الختاميَّة. وكانت تلك المرَّة الأولى التي أُطرد فيها من الصفّ، وأنال ملاحظة على سوء السلوك في سجلّي المدرسيّ.

شعرتُ بشتات الذهن حالما خرجتُ إلى الممرّ. ما الذي حدث؟ لماذا تصرّفتُ على هذا النحو الطائش؟ ومن أين حصلتُ على البرهان بصحَّة ما كنت أقول، ووجوب قوله على الملأ؟ ثم تذكَّرتُ بأنّني خضتُ تلك النقاشات مع ليلا من قبل، وأدركتُ أنّني أوقعتُ نفسي في

مصيبة، لا لشيء سوى لأنّني ما زلت أعترف بنفوذها القادر على منحي الشجاعة لأتحدّى أستاذ التربية الدينيَّة. لم تعد ليلا تفتح أيّ كتاب، ولم تعد تدرس، وكانت مقبلة على الزواج بلحَّام، ومن الوارد أن تنتهي خلف الصندوق بدلاً عن أمّ ستيفانو، وأنا؟ هل أمدّتني بالحيويَّة لابتكار صورةٍ تشبّه الدين باللهو في جمع الصور التافهة، بينما تحترق المدينة في نيران الجحيم؟ هل هذا يعني بهتان فكرة أنَّ المدرسة ثرائي الشخصيّ الذي يمكِّنني من عدم التأثُّر بليلا؟ ذرفتُ دموعًا صامتة أمام باب الصفّ.

ثم انقلبت الأمور فجأة. ظهر نينو سارّاتوري من آخر الممرّ. كنت أتصرَّف كأنْ ليس له وجود بعد آخر لقاء بأبيه بطبيعة الحال، لكنّ ظهوره في تلك اللحظة العصيبة أعاد إليّ القوَّة، فمسحتُ دموعي على الفور. لا بدّ أنّه انتبه إلى أنَّ شيئًا ما ليس على ما يرام، فاتّجه صوبي. وكان قد كبر أكثر، وتفّاحة آدم في حلقه باتت ناتئة جدًّا، وملامحه تلتحف بلحية غامقة اللون، ونظرته صارت أكثر صرامة. من المستحيل أن أتملَّص منه، فكنت ممنوعة من الدخول إلى الصفّ، وليس بوسعي الابتعاد نحو المغاسل، فكلا التصرُّفين سيعقّدان الوضع لو أنّ أستاذ الديانة أطلّ برأسه. بقيتُ في مكاني، وحين اقترب منِّي نينو وسألني عن سبب وقوفي خارج الصفّ ـ ما الذي جرى ـ رويتُ عليه كلّ شيء. تعجّب وقال: «سأعود حالاً». اختفى، ثم ظهر بعد دقائق بصحبة الأستاذة غالياني.

أشادت غالياني بشجاعتي، ثم أردفت كأنَّها تلقِّننا درسًا، أنا ونينو: «والآن، حان وقت التعقّل». طرقت باب صفِّي وأغلقته خلفها، ثم عادت سعيدة بعد خمس دقائق. صار بوسعي الدخول ثانية شرط أن أعتذر من الأستاذ عن لهجتي العدائيَّة. اعتذرتُ وأنا أتأرجح بين القلق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من العقوبة المحتملة والفخر بالدعم الذي أتاني من نينو وغالياني.

أخذتُ كامل الحيطة في عدم إخبار والديّ بما جرى، لكنّني أطلعتُ أنطونيو على كلّ شيء، فنقل القصّة باعتزاز إلى باسكوالي، الذي صادف ليلا ذات صباح، فلم يجد سوى قصّتي ليرويها، مستخدمًا إيّاها كطوق نجاة من تخبُّط عواطفه أمامها. وفي غمضة عين، أصبحتُ البطلة في نظر أصدقائي المقرَّبين، وفي نظر مجموعةٍ - قليلة العدد كثيرة العدّة - من أساتذة وتلاميذ يناهضون أستاذ الديانة ومواعظه. وفي الوقت نفسه، عملتُ جاهدة على كسب ثقة الراهب، حين شعرتُ بأنّ الاعتذار لم يكن كافيًا، وثقة كلّ الأساتذة الذين يرون الأمور من منظوره. واستطعتُ أن أفصل كلماتي عنّي، وذلك بإظهار مزيد من الاحترام مع أولئك الأساتذة، ومزيد من الاهتمام والتفاعل بموادِّهم، وسرعان ما عادوا ليعتبروني شخصًا جيِّدًا، لا ضير في التسامح عن غرابة أطواره النادرة. وهكذا اكتشفتُ بأنّني قادرة على التصرُّف مثل غالياني: أستعرض آرائي بحزمٍ وتعقُّل في آن واحد، وأنال تقدير الجميع بفضل استقامة سلوكي. وفي غضون أيَّام قليلة، بدا لي أنّني أستعيد مكانتي في قمَّة لائحة التلاميذ الواعدين في مدرستنا المتردِّية، بتّ في مستوى نينو سارّاتوري الذي كان يحضِّر حينها لامتحان الكفاءة النهائيّ.

ولم تنته القصَّة هنا. بعد بضعة أسابيع، طلب منِّي نينو دون مقدِّمات، بنبرته الحزينة، أن أكتب الصدام مع الراهب على نصف صفحة دفتر، وأسلِّمه إيّاها عاجلاً.

«وماذا ستفعل بها؟»

قال لي إنَّه كان يتعاون مع مجلّة صغيرة تُدعى «نابولي فندق الفقراء». وكان قد روى ما جرى على هيئة التحرير، فقالوا له إنَّهم،

إذا استعجلتُ في كتابة ملخّص عمّا جرى، سيحاولون نشره في العدد القادم. أراني المجلَّة. كانت عبارة عن كرّاس رماديّ كالح يتكوَّن من خمسين صفحة تقريبًا. وكان اسمه وكنيته ظاهرين في الفهرس، على مقال بعنوان «إحصائيَّة الشقاء». خطر والده في ذهني، راضيًا حدّ الغرور وهو يقرأ عليّ، عند شاطئ مارونتي، مقاله المنشور في صحيفة «روما».

«هل تكتب الشعر أيضًا؟» سألته.

نفى بانفعال واشمئزاز، فوعدته فورًا:

«حسنًا، سأحاول».

عدت إلى البيت متوتِّرة. إذ كانت الأفكار والعبارات، التي كنت سأكتبها، تزدحم في رأسي؛ وفي الطريق كلّمتُ ألفونسو بالعرض. انتابه الفزع لأجلي، وتوسّل إليّ بأن لا أكتب شيئًا.

«هل سيضعون اسمك على المقال؟»

«أجل».

«حذار يا لينو، ستثيرين غضب الراهب مجدَّدًا، وقد يرسّبك إذا ما استجلب أستاذة الكيمياء وأستاذ الرياضيّات إلى جانبه».

انتقلت إليّ عدوى الفزع، ففقدتُ الثقة. وما إن افترقنا حتى تخيَّلتُ أنّني أستعرض المجلَّة، ومقالتي واسمي مطبوع تحتها، على ليلا وأبويّ والمعلِّمة أوليڤييرو والمعلِّم فيرارو، فتغلَّبتْ هذه الفكرة على شكوكي. بكل الأحوال، كنت سأجد حلًّا في ما بعد. كان من الرائع حقًّا أن أحصل على ثناء من أعتبرهم في مكانة عليا (مثل نينو وغالياني) للوقوف في وجه من أعتبرهم في مكانة سفلى (مثل الراهب وأستاذة الكيمياء وأستاذ الرياضيّات)، من دون أن أفقد احترام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خصومي ولطفهم لي. وكنت سأجهّز نفسي كي يتكرّر الأمر بعد صدور المقالة.

قضيتُ المساء أكتب، وأكتب ثانية. صغتُ عبارات مكثَّفة وموجزة. حاولتُ أن أدعم موقفي بمهابة نظريَّة سامية، وذلك باللجوء إلى كلمات صعبة. كتبتُ: «إن كان الله موجودًا في كلّ مكان، فما الضرورة في أن يتدفَّق عبر الروح القدس؟» لكنّ المقدِّمة ابتلعت نصف الصفحة باكرًا. والبقيّة؟ بدأتُ من جديد. وبما أنّني كنت متدرِّبة منذ المرحلة الابتدائيَّة على المحاولة مرارًا، بدا لي أنّني وصلتُ إلى نتيجة مرضية؛ فانتقلتُ لدراسة موادّ اليوم اللاحق.

ولم تنقضِ نصف ساعة حتى راودتني الهواجس ثانية، وشعرتُ بالحاجة إلى تأكيدات. من بوسعه أن يقرأ النصّ ليعطيني رأيًا؟ أمّي؟ إخوتي؟ أنطونيو؟ كلَّا بالطبع. ليلا هي الشخص الوحيد إذن. لكنّ الاستعانة بها يعني أنّني ما أزال أعترف بنفوذها عليّ، في حين أنّني كنت أعلم أكثر منها بكثير. قاومتُ بادئ الأمر. وكنت أخشى أن تردّ مقالتي بسخرية مهينة. بل وخشيت أكثر أنَّ سخريَّتها كانت ستقتحم أفكاري لتدفعني إلى رؤًى مبالغ فيها، قد تفرض نفسها على الصفحة فيختلّ توازنها. لكنّني استسلمتُ في النهاية، وهرعت مسرعة إليها آملة أن أجدها. كانت في منزل أبويها. أخبرتها عن عرض نينو، وأعطيتها الدفتر.

نظرتْ إلى الصفحة نظرة باهتة، كما لو أنَّ الكتابة تجرح عينيها. طرحتْ عليّ سؤال ألفونسو تمامًا:

«هل سيضعون اسمك على المقال؟»

أومأتُ بنعم.

«إيلينا غريكو، هكذا؟»

«أجل».

ردّت إليّ الدفتر.

«ليس بوسعي أن أحكم إذا كان صالحًا أم لا».

«أرجوك».

«ليس بوسعي».

لا بدّ من الإلحاح. قلت لها، مع أنَّ هذا ليس صحيحًا، إنّني لن أعطي المقال لنينو ما لم ينل إعجابها، أو رفضت قراءته.

قرأته. وأخيرًا، بدت لي مستاءة كلّيًّا، كأنّني أسندتُ إلى كتفيها ثقلاً كبيرًا. وشعرتُ بأنَّها تبذل جهدًا مؤلمًا كي تحرّر ليلا القديمة من أعماقها، ليلا التي كانت تقرأ وتكتب وترسم وتخطِّط المشاريع بسهولة وعفويَّة نابعة من ردّة فعلها الغريزيَّة. وحين أنهت القراءة، بدا كلّ شيء أكثر هدوءًا.

«هل يمكنني محو شيء ما؟»

«أجل».

محت كلمات كثيرة وجملة بأكملها.

«هل يمكنني نقل شيء ما؟»

«أجل».

حدَّدت فقرة بالقلم ونقلتها بخطّ متموِّج إلى أعلى الصفحة.

«هل يمكنني كتابة النصّ على ورقة أخرى من جديد؟»

«سأفعلها أنا».

«بل دعيها لي».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذت وقتًا في نسخ النصّ. وحين أعادت إليّ الدفتر، قالت:

«أنت شاطرة جدًّا، ولهذا تنجحين بعلامات تامّة دومًا».

لم أعثر على ظلّ سخريةٍ في كلامها، بل كانت تثني عليّ حقًّا. ثم أضافت بحدّة مفاجئة:

«لم أعد أريد قراءة أيّ شيء ممّا تكتبين».

«لماذا؟»

تمعّنتْ قليلاً.

«لأنّ هذا يؤلمني»؛ ضربتْ جبينها بأصابعها وانفجرتْ ضاحكة.

٥٤

عدت إلى البيت مسرورة. أغلقتُ على نفسي باب المرحاض كي لا أزعج باقي العائلة، ودرستُ حتى الثالثة صباحًا حين غلبني النعاس أخيرًا. نهضتُ في السادسة والنصف كي أبيِّض النصّ. لكنّني قرأته بخطّ ليلا المنمّق، خطّها العريض الذي بقي على حاله منذ المدرسة الابتدائيَّة، وكان مختلفًا عن خطّي كثيرًا، إذ بات مبسَّطًا ومصغَّرًا. كانت الصفحة تحتوي على ما كتبتُه تمامًا، لكنَّه كان أكثر دقَّة ووضوحًا. وأمدّني تصحيحها ونقلها ومحوها وبعض إضافاتها الطفيفة بانطباعٍ غريب، كأنّني انسلختُ عن نفسي وتقدَّمتُ مسافة مائة خطوة بحيويَّةٍ وانسيابٍ، لا يبدوان متوفِّرين لدى الشخص الذي بقي في الخلف.

قرَّرت أن أُبقي النصّ بخطّ ليلا على حاله. وأعطيته لنينو كما كان هكذا.. علّني أرسِّخ آثار حضورها الواضح في كلماتي. قرأه وهو يعقد حاجبيه الطويلين غير مرَّة. ثم قال في النهاية، بكآبة مباغتة وغير متوقّعة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«غالياني محقّة».

«بم؟»

«أنت تجيدين الكتابة أفضل منِّي».

وأعاد تلك الجملة مرَّة أخرى، رغم أنّني اعترضتُ بحياء. ثم أدار ظهره دون أن يودِّعني، وانصرف. لم يخبرني متى سيصدر العدد وكيف أحصل عليه، ولم أمتلك من الشجاعة لأسأله عن ذلك. أزعجني تصرّفه هذا، حتى إنّني تذكّرت مشية أبيه بينما كنت أراه يبتعد.

وهكذا انتهى لقاؤنا الجديد. أخطأنا في كلّ شيء مرَّة أخرى. إذ ظلّ نينو يتصرّف لأيَّام، وكأنّني ارتكبتُ ذنبًا لا يغتفر لكوني أُجيد الكتابة أفضل منه. امتعضتُ منه. بل وحين استعاد ألقه في التعامل معي، وطلب منِّي أن نمشي جزءًا من الدرب معًا، أجبته بفتور أنّني مشغولة، وأنتظر قدوم خطيبي.

ولا بدّ أنَّه ظنّ أنّني أقصد ألفونسو خطيبًا، حتى تبدَّدت شكوكه، ذات مرَّة عند الانصراف، حين ظهرتْ أخته ماريزا لتقول له شيئًا ما. لم نكن قد التقينا منذ تلك الإجازة في إيسكيا. أقبلت نحوي وحيّتني بحرارة، وتأسَّفت لأنّني لم أعد إلى بارانو في الصيف المنصرم. قدّمت ألفونسو إليها، فأصرّت أن تمشي معنا قليلاً بما أنّ أخاها غادر منذ مدّة. في البدء، روت علينا كلّ آلامها في الحبّ؛ وحين أدركت أنّني لست مرتبطة بألفونسو، كفَّتْ عن الكلام معي، وراحت تثرثر معه بأسلوبها الجذّاب. ولا بدّ أنَّها، عندما عادت إلى المنزل، أخبرت أخاها بأن لا شيء يربطني بألفونسو. فعاد يراودني ويحوم حولي في اليوم التالي؛ لكنّني كنت أتوتّر بمجرّد رؤيته. هل كان متهوِّرًا مثل أبيه رغم حقده عليه؟ هل يظنّ أنّ الآخرين قد يموتون إذا لم يحصلوا على

مودّته؟ هل كان متغطرسًا لدرجة أنَّه لا يعترف إلَّا بمواهبه؟

طلبتُ من أنطونيو أن يأتي ليصطحبني من المدرسة، وسرعان ما وافق، مضطربًا وممتنًّا من ذلك الطلب في آن واحد. وأكثر ما صدمه هو أنّني، هناك على العلن قبالة الجميع، مسكتُ يده وشبكتُ أناملي بأصابعه. إذ لطالما كنت أرفض المشي معه بهذه الطريقة، سواء في الحيّ أم في الخارج، لأنّني كنت أشعر بأنّني ما أزال طفلة أتنزّه مع والدي. لكنّني فعلتها تلك المرَّة. وكنت أعلم أنَّ نينو يراقبنا، وأردته أن يفهم من أكون. كنت أكتب أفضل منه، وسيصدر لي مقال في المجلَّة التي ينشر فيها، وكنت مجتهدة في المدرسة مثله وأكثر، وكنت مرتبطة برجل: ها هو. ولهذا لم أكن لأركض خلفه مثل حيوان مخلص.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥٥

طلبتُ من أنطونيو أن يرافقني إلى زفاف ليلا أيضًا، وألّا يتركني وحيدة، وأن يتكلَّم ويرقص معي دومًا إذا اقتضى الأمر. كم كنت أخشى ذلك اليوم، وأشعر أنَّه نقطة فراق حاسمة، فكنت في حاجة إلى من يقف بجانبي ويدعمني.

عقّد هذا الطلب الأمور كثيرًا. كانت ليلا قد أرسلت الدعوات إلى الجميع. وفي بيوت الحيّ، انشغلت النساء والجدّات منذ زمن في التحضير: كخياطة الفساتين وتدبّر القبّعات وحقائب اليد، كما رحن يتجوّلن بحثًا عن هديّة الزفاف، مجموعة من الكؤوس والأطباق وأدوات الطعام مثلاً. ولم يكن كلّ هذا الاهتمام حبًّا بليلا، بل امتنانًا لستيفانو، لأنَّه شهم وحسن الخلق، ويسمح لهنّ بسداد الديون آخر الشهر. ولكنّ حفل الزفاف، بشكل عام، مناسبة لا يترك فيها أحد انطباعًا سيِّئًا، وخصوصًا الفتيات اللواتي لسن مرتبطات، حيث تسنح لهنّ الفرصة بإيجاد خطيب يرتبطن به، ومن ثم يتزوَّجن بدورهنّ بعد بضعة أعوام.

ولهذا السبب الأخير تمامًا، أردت أن يرافقني أنطونيو. لم أكن أنوي إعلان ارتباطنا رسميًّا ـ إذ كنّا نأخذ كامل حذرنا في إخفاء علاقتنا ـ لكنّني كنت أودّ التخلُّص من القلق بشأن لفت انتباه الشبّان. أردت أن أشعر بأنّني رصينة وهادئة البال في تلك المناسبة، أضع نظّاراتي الطبّيَّة، وأرتدي الفستان البائس الذي خاطته أمّي، وأنتعل حذاء قديمًا، وأفكِّر في أنّني أمتلك كلّ ما تملكه الفتاة في سنّ السادسة عشرة، لست في حاجة إلى شيء ولا إلى أحد.

بيد أنَّ أنطونيو لم يَرَ الموضوع من هذه الزاوية. كان متيَّمًا فيّ، ويعتبرني أجمل هديَّة جاءه بها الحظّ السعيد. وكان يتساءل، بصوت جهير ونبرة حزينة تتّشح بالسخرية، لماذا اخترتُه، وهو لم يكن إلّا شابًّا أحمق وعاجزًا عن نطق جملة صحيحة؟ لكنَّه في الحقيقة كان متلهِّفًا للحضور إلى بيتنا والإعلان عن علاقتنا أمام والديّ. وهكذا ظنّ أنَّ طلبي كان بمثابة قرارٍ يخرجه من حالة التستُّر، فراح يستدين المال ليفصِّل بذلة عند الخيّاط، دون أن يعي لما كان ينفقه أساسًا على هديَّة الزفاف، وملابس آدا وإخوته الآخرين، وما يضمن مظهرًا لائقًا لميلينا.

لم أنتبه إلى أيّ شيء. وتابعتُ حياتي بين المدرسة والاستشارات الطارئة كلَّما تعقَّدت المسائل بين ليلا ونسيبتها وحماتها. كما بقيتُ حائرة بشأن مقالي الصغير الذي كنت أنتظر صدوره بين لحظة وأخرى. وكنت في سرّي على بيِّنة من أنَّ حياتي ستبدأ حقًّا حالما يظهر اسمي مطبوعًا، إيلينا غريكو. كنت أعدّ الأيَّام ريثما يحين ذلك اليوم، دون أن أعير اهتمامًا لأنطونيو، الذي علقت في رأسه فكرة إكمال هندامه لحفل الزفاف بشراء حذاء شيرولو. وكان يسألني أحيانًا: «هل تعلمين أين وصلوا بالمشروع؟» فأجيبه: «إسأل رينو، ليلا لا تعرف شيئًا».

وهكذا كان. استدعي ستيفانو، في نوفمبر، من قِبل فرناندو وابنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دون أن يفكِّرا بدعوة ليلا أوّلاً لرؤية الأحذية، رغم أنَّها كانت ما تزال تعيش في بيتهما. أمَّا ستيفانو فقد جاء مع خطيبته عمدًا، واصطحب بينوتشا أيضًا. كان الثلاثة يبدون وكأنَّهم قد خرجوا من شاشة التلفاز. أخبرتني ليلا بأنّ شعورًا راودها، حين رأت تصاميمها القديمة تتجلَّى في أحذية منجزة، كما لو أنَّ ساحرة تبدّت أمامها وحقَّقت لها أمنية ما. كانت الأحذية مطابقة لما تخيَّلتها في ذلك الزمان. وبينوتشا أيضًا أبدت دهشتها، وأرادت أن تجرّب طرازًا نال إعجابها، وتوجَّهت بالثناء إلى رينو، كتلميح منها إلى أنَّه الصانع الحقيقيّ لتلك الأحذية الباهرة ذات المتانة المريحة والانسجام البديع. أمَّا ستيفانو، فكان الوحيد الذي أبدى انزعاجه. قطع على ليلا احتفاءها ببراعة أبيها وشقيقها والعمَّال الآخرين، وأسكت صوت بينوتشا الغنوج وهي تهنِّئ رينو، وتريه قدمها وساقها الملفوف بألمع الجوارب. وراح ينتقد الأطرزة واحدًا واحدًا، والتعديلات التي طرأت على التصاميم الأصليَّة. وثارت ثائرته لا سيَّما عند المقارنة بين الحذاء الرجّالي الذي صنعه رينو وليلا خلسة عن فرناندو، وبين الحذاء نفسه الذي أنجزه الأب والابن. «ما هذه الزينة؟ وما هذه الخيوط؟ وما هذه الربطة المذهّبة؟» سأل باستياء. ولم يغيّر موقفه رغم الشرح المطوّل الذي قدّمه فرناندو عمَّا أجبره على تلك التعديلات، سواء من أجل التثبيت أم لإخفاء بعض العيوب في التصميم. قال إنَّه أنفق ما لا يحصى من الأموال ليحصل على أحذية مطابقة لتصاميم ليلا، وليس لإنتاج أحذية عاديَّة.

فاض التوتُّر بالمكان. انبرت ليلا دفاعًا عن أبيها بضراوة، وقالت لخطيبها أن ينسى أمر تصاميمها، إذ لم تكن سوى نتاج خيال طفوليّ، في حين أنَّ التعديلات كانت ضروريَّة بلا شكّ، ناهيك أنَّها ليست بارزة كثيرًا. لكنّ رينو انحاز إلى صفّ ستيفانو، واستمرّ الجدال طويلاً

إلى أن قطعه فرناندو بالجلوس في إحدى الزوايا، وقد هدّه الإعياء. نظر إلى اللوحات على الجدران، وقال:

«إن كنت تريد الأحذية لأعياد الميلاد، فخذها كما هي بين يديك. أمّا إن أردتها مطابقة لتصاميم ابنتي، فاستعن بإسكافيّ آخر».

رضخ ستيفانو، فتبعه رينو أيضًا.

وفي غمرة أعياد الميلاد، ظهرت الأحذية على واجهة المحلّ، وزُيِّن الزجاج بنجم مذنَّب مصنوع من القطن. مررتُ لأرى: كانت الأحذية أنيقة للغايةٍ، ومنجزة بعناية؛ بمجرّد رؤيتها تعطي انطباعًا بالرخاء الذي يتناقض مع الواجهة الفقيرة والفسحة الخارجيَّة الكئيبة. وخصوصًا مع داخل المحلّ المليء بقطع الجلد والمطَّاط والمقاعد والمثقاب والأشكال الخشبيَّة وعلب الأحذية المتكدسة حتى السقف تنتظر الزبائن. ورغم كلّ التعديلات التي أضافها فرناندو، فإنّ الأحذية كانت حقيقة أحلامنا الطفوليَّة، ولا تناسب واقع الحيّ.

وبالفعل، لم يبيعوا أيّ حذاء خلال فترة الميلاد. لم يدخل أحد سوى أنطونيو، طلب من رينو حذاء بمقاس ٤٤ وجرّبه. وفي ما بعد، قصّ عليّ بهجته حين شعر بأنَّه ينتعل حذاء فخمًا، وهو يتخيَّل بأنّه معي في الزفاف، مرتديًا البذلة الجديدة وذلك الحذاء في قدميه. وسرعان ما خاب أمله. عندما سأل عن السعر وأجابه رينو، صُعق أنطونيو فاغرًا فاه: «هل جننتَ؟» قال له رينو: «سأبيعك الحذاء على أقساط شهريَّة»، فأجابه ضاحكًا: «سأشتري درَّاجة ناريَّة إذن، لامبريتا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥٦

في تلك الآونة التي شغلتها بالزواج، لم تنتبه ليلا إلى أنَّ شقيقها عاد إلى الاكتئاب وسوء النوم، والغضب من أيّ شي، وقد كان حتى تلك اللحظة لطيفًا ممازحًا، رغم أنَّ العمل يستنزف قواه. «إنَّه كالأطفال»، قالت ليلا لبينوتشا وهي تبرِّر إحدى هفواته، «يتقلَّب مزاجه بحسب نزواته، بين الرضا والخيبة، ولا يقوى على الانتظار». ولم تكن ليلا ترى فشلاً في عدم بيع أيّ حذاء خلال أعياد الميلاد، يشاركها الرأي فرناندو أيضًا. صفوة القول إنّ الأحذية أُنتجتْ هكذا دون خطَّة مسبقة، بل وُلدت بناءً على رغبة ستيفانو في رؤية فنون ليلا كمادَّة ملموسة. ثم صبرًا، فالأطرزة تتراوح بين شتويَّة وصيفيَّة، وستغطِّي كلّ الفصول. وهذه نقطة إيجابيَّة. . هنالك تنوُّع ملحوظ داخل العلب البيضاء المتراكمة في ورشة شيرولو؛ وما عليهم سوى الانتظار، وفي الشتاء، في الربيع، في الصيف، سيبيعون الأحذية لا محالة.

لكنّ رينو لم يهدأ له بال. بعد أعياد الميلاد، بادر شخصيًّا بالذهاب إلى صاحب محلّ الأحذية الرديئة في آخر الشارع العام.

ورغم درايته التامَّة بأنّ الرجل مربوط اليدين والقدمين بآل سولارا، فقد اقترح عليه أن يعرض بعضًا من أحذية شيرولو، دون مقابل، ليرى كيف تجري الأمور ليس إلَّا. رفض الرجل بكلِّ احترام، فتلك المنتجات لا تناسب زبائنه. احتقن رينو، ما أدَّى إلى مهاترة لفظيَّة تحدّث في شأنها الحيّ بأسره. غضب فرناندو من فعلة ابنه، فشتمه الأخير، حتى راود ليلا ذلك الشعور بأنّ شقيقها مسبِّب الفوضى، ودليل على وجود القوى المدمِّرة التي أخافتها ذات مرَّة. وحين كان يخرج للتنزُّه معها، وستيفانو وبينوتشا، لاحظتْ ليلا بقلق أنَّه يراوغ لينفرد بستيفانو، ويتكلَّم معه. كان اللحَّام عادة ما يصغي إليه دون أن يُبدي انزعاجه. لكنّ ليلا سمعته يقول له في إحدى المرَّات:

«عذرًا يا رينو، هل تحسب أنّني وضعتُ كلّ هذه الأموال دون شرط استردادها لصنع الأحذية حبًّا بأختك فقط؟ لقد صنعنا الأحذية، وهي جميلة جدًّا، وينبغي أن نبيعها. ما علينا سوى البحث عن سوق مناسب لها».

لم ترقها تلك الجملة «حبًّا بأختك فقط». لكنَّها لم تعبأ بالأمر، ما دام وقع تلك الكلمات جيِّدًا على رينو، الذي استعاد ألقه وبات ينحو كخبير في المبيعات، لا سيَّما مع بينوتشا. كان يقول إنَّه لا بدّ من التفكير ككبار المستثمرين. لماذا باءت الكثير من المبادرات الصالحة بالفشل؟ لماذا تخلَّى غوريزيو في ورشته عن المحرِّكات الآليَّة؟ لماذا استمرّت ورشة الخياطة ستَّة أشهر فقط؟ لأنَّها مشاريع ضحلة التطلُّعات. أمَّا أحذية شيرولو، فكانت ستخرج سريعًا من سوق الحيّ، لتصبح معروفة في الأسواق التي يرتادها الأثرياء.

وفي تلك الأثناء، كان موعد الزفاف يقترب. كانت ليلا تهرع لتجريب فستان العرس، وتضع الرتوش الأخيرة على بيتها المستقبليّ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتصارع بينوتشا وماريًا اللتين ـ من بين الكثير من الأشياء ـ لم تغفرا لنونتسيا تدخُّلاتها. فازدادت التوتُّرات كلَّما اقترب الثاني عشر من مارس. لكنّ هذه المشاكل لم تصل لدرجة إحداث الصدع، إنَّما مرَّت ليلا بحدثين، واحدًا تلو الآخر، جرحاها في الصميم:

ذات مساء بارد من شهر فبراير، طلبت منِّي أن أرافقها إلى بيت المعلِّمة أوليڤييرو. لم تكن ليلا قد أبدت أيّ اهتمام بالمعلِّمة، ولا أيّ تودُّد أو امتنان. أمَّا حينذاك، فكانت تشعر بضرورة أن تذهب شخصيًّا لتسلِّمها الدعوة. وبما أنّني لم أنقل إليها في الماضي أيًّا من دلالات الجفاء، التي غالبًا ما عبّرتْ عنها المعلِّمة بحقِّها، بدا لي من المستحسن أن أخبرها بذلك في تلك المناسبة؛ ناهيك عن أنّني رأيت أوليڤييرو أقلّ عدائيَّة في الآونة الأخيرة، وأكثر ميولاً إلى الوداعة، فربَّما ستحسن استقبالها.

انكبّت ليلا كثيرًا على أناقة هندامها؛ وذهبنا سيرًا إلى البناية حيث تسكن المعلِّمة، على بعد خطوات من الكنيسة. وبينما كنَّا نصعد السلالم، لاحظتُ أنَّ صديقتي كانت متوتِّرة. كنت معتادة على تلك الطريق وتلك السلالم؛ أمَّا هي فلا، بدليل أنَّها لم تفتح فمها بكلمة واحدة. أدرتُ مقبض الجرس، وسمعتُ خطوات المعلِّمة تدنو سحلاً:

«من بالباب؟»

«غريكو».

فتحتْ. ثمَّة وشاحٌ بنفسجيّ يغطِّي كتفيها، وحجابٌ يلفّ نصف وجهها. ابتسمتْ لها ليلا، وقالت:

«هل تذكرينني يا معلِّمتي؟»

حدّقت أوليڤييرو النظر فيها، كما كانت تفعل في المدرسة حين

تشاغب ليلا، ثم اتَّجهتْ إليّ بالكلام بصعوبة ما، كأنّ فمها يغصّ بلقمة كبيرة.

«من هذه؟ لا أعرفها».

ارتبكتْ ليلا، وقالت، على عجل، باللغة الفصيحة:

«أنا شيرولو. أتيتُكم بدعوة. سأتزوَّج قريبًا، ويُسعدني لو أتيتم إلى حفل زفافي».

اتَّجهتْ إليّ ثانية، وقالت:

«أعرف شيرولو، أمَّا هذه، فلا أعرفها».

وصفقتِ الباب في وجهنا.

بقينا واقفتين عند العتبة بضع لحظات، ثم لمستُ يدها كي أواسيها. ابتعدتْ عنِّي، وأدخلت الدعوة من تحت الباب، واتَّجهت نحو السلالم. وفي الطريق، لم تنقطع عن الحديث عن الضجر الذي تسبّبه البيروقراطيَّة في البلديَّة والكنيسة، وأثنتْ على تدخّل والدي المفيد.

ولعلّ الجرح الآخر أعمق بكثير، إذ جاءها مباغتًا من ستيفانو وحكاية الأحذية. كان قد قُرِّر منذ زمن أن يؤدِّي دور الإشبين أحد أقارب ماريًّا، الذي كان قد هاجر إلى مدينة فلورنسا بعد الحرب، وعمل هناك في تجارة الأغراض القديمة والمتنوِّعة ولا سيَّما الأغراض المعدنيَّة. تزوَّج هذا الرجل بامرأة فلورنسيَّة، وتشرّب اللهجة المحلِّيَّة التي أضفت إليه هالة من الأبَّهة في أوساط العائلة، حتى أوكلوا إليه دور عرّاب الميرون في حفل تثبيت ستيفانو. ما جرى أنَّ العريس غيّر رأيه على حين غرَّة.

أخبرتني ليلا بالموضوع في البداية بنبرة عصبيَّةٍ تعصف باللحظات الأخيرة. لم تكن تأبه إن كان الإشبين هذا أم ذاك، المهمّ أن يقرِّروا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنّ ستيفانو كان لبضعة أيَّام يعطيها أجوبة ضبابيَّة ومشتَّتة، ولم تفهم من سيأخذ محلّ القريب الفلورنسيّ وزوجته. وقبل أسبوع من الزفاف، ظهرت الحقيقة. أخبرها ستيفانو بالشخص كأمر مقضيّ ودون مبرِّرات. الإشبين سيكون سيلڤيو سولارا، والد مارتشيلُّو وميكيلي.

استعادت ليلا طباعها الطفوليَّة التي كنت أعرفها جيِّدًا، وهي التي لم تكن قد وضعت في الحسبان، حتى تلك اللحظة، أن يحضر زفافها أيّ من أقارب مارتشيلُّو سولارا، ولو كان من قرابة بعيدة. أمطرت ستيفانو بشتائم لاذعة وسوقيَّة، وقالت إنَّها لم تعد تودّ رؤيته. أغلقتْ على نفسها في بيت أبيها، وتوقَّفت عن الانشغال بأيّ شيء، ولم تذهب إلى التجربة النهائيَّة لفستان العرس، ولم تفعل أيّ شيء له صلة بزفافها الوشيك.

وقف أهلها في الطابور. في البدء جاءت أمّها نونتسيا، وحدّثتها بالتفصيل عن مصلحة العائلة. ثم جاء فرناندو متجهِّمًا، وحذّرها من التصرُّفات الصبيانيَّة: أيّ امرئ ينشد مستقبلاً في الحيّ، لا بدّ له من علاقة طيِّبة مع سيلڤيو سولارا. وفي النهاية، جاء رينو، وشرح لها بلهجة موتورة كيف تجري الأمور، وكيف لها أن تفكِّر كرجل أعمال لا يهتمّ إلَّا لمصالحه: سولارا الأب عبارة عن مصرف، خصوصًا أنَّه القناة التي ستضخّ أحذية شيرولو في المحلَّات. «ما الذي تنوين فعله؟» صرخ في وجهها وعيناه تحتقنان دمًا، «هل تريدين أن تقضي عليّ وعلى العائلة بأسرها، وعلى كلّ الجهد الذي بذلناه حتى الآن؟» ثم دخلت عليها بينوتشا بعد ذلك، وقالت لها باستحسان مزيَّف إنَّها كانت تفضّل تاجر المعادن الفلورنسيّ في دور الإشبين هي الأخرى، ولكنْ علينا أن نفكِّر مليًّا، ومن غير المعقول أن ندمِّر زواجًا وقصَّة عشق بسبب مسألة تافهة كتلك.

مرّ يوم وليلة. بقيت نونتسيا صامتة في زاوية ما، لا تتحرَّك من مكانها ولا تقوم بأعمال المنزل، ولا تخلد للنوم. ثم هربت خلسة عن ابنتها، وجاءت إليّ تطلب منّي الحديث إلى ليلا بكلمة حسنى. أسعدتني هذه الخطوة، وفكَّرتُ طويلاً في كيفيَّة التدخّل. كان زواجها مهدَّدًا، وهنالك مسائل عمليَّة ومعقَّدة ومليئة بالعوائق والعواطف. شعرتُ بالخوف. أنا التي كنت قادرة على انتقاد الروح القدس علنًا وتحدِّيًا لأستاذ الديانة، كنت أستبعد أن أتحلّى بالشجاعة لأرمي كلّ شيء أدراج الرياح لو كنت مكان ليلا. لكنَّها قادرة على ذلك، وكيف لا، حتى لو كان الزواج قاب قوسين أو أدنى. ما العمل؟ شعرتُ بأنّني سأنجح بدفعها إلى ذلك الدرب بسهولة، وأنّ انخراطي لأجل ذلك الهدف سيسعدني كثيرًا. وفي سرّي، كان هذا ما أروم إليه حقًّا: أن أستعيد ليلا المتَّقدة، ذات ضفيرة كذيل الحصان، ذات العينين الحادَّتين الضِّيقتين كالطير الجارح، ذات الملابس الرثَّة والمستهلكة. وليست ليلا التي تطوف في الحيّ وكأنَّها جاكلين كينيدي.

ولسوء حظِّي وحظّها، بدت خطوتي بائسة تمامًا. إذ أردتُ بها خيرًا، ولم يأت في خاطري أن أُعيدها إلى ظلمات بيت العائلة. وهكذا، استقرَّت فكرة واحدة في ذهني، ولم أعمل سوى على قولها مرارًا بهدوء مقنع: «سيلڤيو سولارا ليس مارتشيلُّو ولا ميكيلي يا ليلا؛ لا ينبغي أن نخطئ في أحكامنا، وأنت تعلمين هذا أفضل منِّي، ولطالما ردّدته في مناسبات أخرى. ليس هو من أغصب آدا على ركوب السيَّارة؛ وليس هو من أطلق الرصاص علينا في ليلة رأس السنة؛ ليس هو من دخل بيتك عنوة؛ وليس هو من أشاع عنك تلك الأباطيل. سيلڤيو سيقوم بدور الإشبين، وسيساعد رينو وستيفانو في ترويج الأحذية، هذا كلّ ما في الأمر؛ لن يتدخَّل في حياتك القادمة قطعًا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلطتُ الأوراق التي كنّا نعرفها بما فيه الكفاية. تحدَّثتُ عن «الماضي» وما بعده، عن الفرق ما بين الجيل القديم وجيلنا، وكيف كنّا مختلفين عنهم، وكيف كانت هي وستيفانو مختلفين عن الجميع. حصلت الجملة الأخيرة على إعجابها، بل وأغوتها، وعدت أكرِّرها بشغف ملحوظ. ظلَّتْ تصغي إليّ صامتة، وكان من الواضح أنَّها تبحث عمَّا يطمئنها، فاطمأنَّت شيئًا فشيئًا. لكنّني قرأتُ في عينيها أنَّ الغموض ما يزال يكتنف حركة ستيفانو الأخيرة بالنسبة إليها، وأنّ هذه الحركة تخيفها أكثر من كلّ طيش رينو ونزواته.

«ربَّما ليس صحيحًا أنَّه يكنّ لي المودّة».

«كيف، وهو لا ينفِّذ سوى ما تطلبين؟»

«يحبُّني شرط ألَّا أعرِّض أمواله الحقيقيَّة للخطر»، قالت بنبرة نافرةٍ لم تستخدمها حيال ستيفانو من قبل.

عادت إلى حياتها الطبيعيَّة بكلِّ الأحوال. لم تذهب إلى الملحمة، لم تذهب إلى البيت الجديد، ولم تبادر بإحلال السلام بالمحصّلة. انتظرتْ أن يأتي ستيفانو بنفسه ليقول لها: «شكرًا، كم أودّك يا لينا، فأنت تعرفين أنَّنا نُرغم على بعض الأمور». تركته يعانقها من الخلف ويرسم قبلة على عنقها، ثم التفتت بغتة، وصوَّبت نظرها في عينيه مباشرة، وقالت:

«لكنّ مارتشيلُّو سولارا، لن تطأ قدماه حفل زفافي نهائيًّا».

«وكيف بوسعي أن أمنعه؟»

«لا أعرف، لكنَّك ستحلف لي على هذا».

تنهَّد متأفِّفًا، ثم قال ضاحكًا:

«حسنًا يا لينا. أحلف لك على هذا».

٥٧

أقبل الثاني عشر من مارس، وكان نهارًا صافيًا يتنفَّس عذوبة الربيع. أرادت ليلا منِّي أن آتي إلى البيت القديم حالاً كي أساعدها في الاستحمام وتسريح الشعر وارتداء الفستان. طلبت من الجميع أن يخرجوا، وبقينا أنا وهي وحدنا. جلستْ على حافَّة السرير بسروال وحمَّالة صدر فقط. وبقربها كان فستان العرس هامدًا كجثَّة امرأة ميِّتة؛ وأمامها كان المعجن النحاسيّ مليئًا بالمياه المغليَّة، فوق البلاط المجزَّأ إلى أشكال سداسيَّة. باغتتني بسؤال:

«هل أنا مخطئة، برأيكِ؟»

«بم؟»

«بالزواج».

«أما زلتِ تفكِّرين في مسألة الإشبين؟»

«لا، بل أفكِّر في المعلِّمة. لماذا لم تدخلني إلى بيتها؟»

«لأنَّها عجوزٌ تعيسة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سكتت قليلاً وهي تحدِّق بلمعان الماء في المعجن، ثم قالت:

«ستتابعين درب الدراسة مهما حدث».

«ما يزال أمامي عامان، أحصل على الكفاءة وكفى».

«لا، إيَّاكِ أن تتوقَّفي. سأعطيك المال بنفسي، عليك أن تدرسي دومًا».

ضحكتُ بشدَّة، ثم قلت:

«شكرًا، ولكنّ المدرسة تنتهي عند حدّ ما».

«هذا لا ينطبق عليكِ. أنتِ صديقتي المذهلة، وعليكِ أن تتفوَّقي على الجميع ذكورًا كانوا أم إناثًا».

نهضتْ. نزعتْ سروالها وحمَّالة صدرها، وقالت:

«هيَّا ساعديني وإلَّا تأخرتُ».

لم أرها عارية أبدًا من قبل. غلبني الحياء. وأعترف اليوم أنَّ مصدر ذلك الحياء مردّه الشهوة التي راودت أنظاري المسلَّطة على جسدها، ولأنّني كنت الشاهد الوحيد على جمالها الغضّ، ذي الستَّة عشر عامًا، قبيل أن يلمسها ستيفانو ويلجها ويشوِّهها ويرديها حبلى ربَّما. لم يكن ما اعتراني سوى شعور متأجِّج بهفوة لا بدّ منها؛ كان مجرّد حالة يمتنع فيها المرء عن قلب نظره إلى الجهة الأخرى، حين لا يقوى على إبعاد يده ما لم يعترف بالألم، ما لم يجد إلَّا التراجع وسيلة للتصريح بالألم، ما لم يخض صراعًا مع البراءة الثابتة لمن سبَّب له الألم، ما لم يجد سوى الرفض وسيلة للتعبير عن عواطفه المشتعلة في مجاهل نفسه؛ وهكذا تُرغم على البقاء حيث أنت، لتطلق العنان لأنظارك كي تهيم على كتفيها المشدودتين، ونهديها البارزين بحلمتين منتصبتين، وخصرها النحيل، وردفيها المصقولين، وعانتها

المدلهمَّة بالأسود الحالك، وساقيها الممشوقتين، وركبتيها الناعمتين وكاحليها الفاتنين، وقدميها الأنيقتين؛ وتتصرَّف كما لو أنَّ شيئًا لم يكن، في حين أنَّ كلّ شيء حاضر وحيٌّ، هناك في الغرفة الموسومة بالفقر والعتمة، حيث كلّ ما يُحيطك من أثاث، شاهد على البؤس، يجثم فوق أرضيَّة مفكَّكةٍ تعلوها بقع الماء؛ فتلتهب شرايينك ويخفق فؤادك.

غسّلتها ببطء وعناية، كانت في البدء تنعم بالجلوس إلى الوعاء، ثم طلبتُ منها أن تقف على قدميها، وما زال هدير المياه المنسكب يهطل في أذنيّ إلى الآن، وما زلت أحتفظ بانطباعٍ أنَّ نحاس المعجن ولحم ليلا مستخرجان من المادَّة نفسها، فكم كان جسمها أملس ومتماسكًا وجليًّا. وهام عقلي بدوَّامة من مشاعر وأفكار متضاربة: هل أعانقها، أبكي معها، أقبِّلها، أشدّ شعرها، أضاحكها، أتظاهر بمعارف جنسيَّة، وأمليها عليها بنبرة العلَّامة، أم أكلِّمها لألهيها عن اقتراب اللحظة الحاسمة؟ وفي النهاية، لم يبقَ في ذهني سوى تلك الفكرة المغيظة: إنّني ما كنت أنظِّفها من شعرها إلى أخمص قدميها، في الصباح الباكر، إلَّا ليدنِّسها ستيفانو في قلب الليل. تخيّلتها عارية كما كانت حينئذ، في حضن زوجها، على السرير في بيتها الجديد، وبينما يمرّ القطار مسرعًا تحت نافذتها، ويلج قضيبه المتين أحشاءها بضربة محكمة، كما تخلع الكفّ سدَّادةَ الفلِّين من عنق قارورة النبيذ. وتراءى لي لوهلة أنَّ العلاج الوحيد لذلك الألم الذي يراودني، أو قد يراودني، هو أن أجد ركنًا قصيًّا بما فيه الكفاية كي يفعل بي أنطونيو، في الساعة نفسها، ما سيفعله ستيفانو بليلا تمامًا.

ساعدتها على التنشيف، وارتداء فستان العرس الذي اخترته لها بنفسي، ما أشعرني بمزيج من الفخر والمعاناة. امتلأ الفستان بالحياة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومحا عنفوانُ ليلا خمول نسيجه، كما شعّ أحمر الشفاه على فمها، ونقش الكحل عينيها الغامقتين. وفي النهاية، انتعلت حذاء مستلَهمًا من أحد تصاميمها؛ وذلك بعد أن ضغط عليها رينو واصفًا شقيقته بالخائنة إن لم تنتعل حذاء شيرولو في يوم زفافها. اختارت حذاءً ذا كعب منخفض للحيلولة دون الظهور أطول من ستيفانو بكثير. نظرت إلى نفسها في المرآة وهي ترفع الفستان قليلاً.

«يا له من حذاء قبيح!» قالت.

«ليس صحيحًا».

ضحكتْ بعصبيَّة.

«بل إنَّه قبيح، انظري جيِّدًا. أحلام الرأس انتهت تحت الأقدام».

ثم التفتت والفزع المباغت يسطو على ملامح وجهها:

«ما الذي سيحدث لي بعد قليل يا لينو؟»

٥٨

نفد صبر فرناندو ونونتسيا بانتظارنا في المطبخ، وكانا على أهبَّة الاستعداد منذ مدَّة. لم أرهما بمظهر أنيق من قبل. وكان جميع الآباء، بمن فيهم أبواي ووالدا ليلا، يبدون لي متقدِّمين في السنّ؛ ولم أكن أميِّز جيِّدًا بينهم وبين الأجداد، من جهة الأب ومن جهة الأمّ، وكانوا جميعهم في عينيّ مخلوقاتٍ تعيش ما يشبه حياة جامدة، ولا تشبه في أيّ شيء حياتي أو حياة ليلا، أو ستيفانو وأنطونيو وباسكوالي. فنحن كنّا بالفعل نشتعل بفورة العواطف واندفاع الأفكار. الآن فقط، وأنا أكتب، أنتبه إلى أنَّ فرناندو حينها لم يكن يبلغ من العمر أكثر من خمسة وأربعين عامًا، ونونتسيا أصغر منه بعدَّة أعوام حتمًا. وكانا يعطيان انطباعًا حسنًا في ذلك الصباح، إذ كان يرتدي قميصًا أبيض وسترة غامقة اللون، ووجهه يشبه راندولف سكوت، وهي ترتدي ثيابًا يكسوها اللون الأزرق، وقبَّعة زرقاء وشالاً أزرق. والشيء ذاته ينطبق على أبويّ، وقد أكون أكثر دقَّة في تذكّر عمريهما: أبي تسعة وثلاثون عامًا، وأمِّي خمسة وثلاثون. حدّقتُ بهما مليًّا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكنيسة. وشعرتُ باستياء حادّ، لأنّهما لا يهتمّان في ذلك اليوم لنجاحاتي في المدرسة، بل ويريان الأمر برمّته، لا سيَّما والدتي، مضيعة للوقت لا جدوى من ورائها. وحين ظهرت ليلا، مطوَّقة بهالة من الصفاء الذي يغمر فستانها الناصع وخمارها الغماميّ، وتقدّمت في بهو كنيسة العائلة المقدَّسة، والإسكافيّ يشبك ذراعها، متَّجهة نحو ستيفانو الوسيم الواقف عند الهيكل المليء بالأزهار ـ هنيئًا لبائع الأزهار الذي باع منها كثيرًا يومئذ ـ كانت أمّي تثقلني بنظرتها، رغم عينها الراقصة التي تبدو وكأنَّها تنظر إلى جهة أخرى، نظرة تعني أنّني كنت هناك، أضع نظَّاراتي الطبِّيَّة، بعيدة عن قلب المشهد، بينما حظيت صديقتي الشرِّيرة على زوج ميسور أمدّ أسرتها بنشاط تجاريّ، وأسكنها في بيتٍ من أملاكهما مزوّدٍ بحوض استحمام وبرّاد وتلفاز وهاتف.

استغرقت مراسم الحفل وقتًا كاد الخوريّ يطيله إلى الأبد. وقد تجمّع أهل العريس وأصدقاؤه في جانب من مدخل الكنيسة، وأهل العروس وأصدقاؤها في الجانب الآخر. وأخذ المصوِّر وقته في التقاط صور لا تُحصى، مع أضواء الفلاش والعاكس، بينما انشغل مساعده الشابّ في تصويرٍ سينمائيّ لأبرز مشاهد الحفل.

وجلس أنطونيو مخلصًا بجانبي طوال الوقت، ببذلته الجديدة المصمَّمة في محلّ الخياطة، ليترك مهمَّة الجلوس بجانب إخوته ومراقبة ميلينا، في آخر الكنيسة، لآدا التي استاءت من هذا كثيرًا، وهي التي كانت تتطلّع إلى مكان أفضل بما أنَّها بائعة في ملحمة العريس. همس أنطونيو في أذني مرَّة أو اثنتين، لكنّني لم أجبه. كان عليه أن يقتصر على الجلوس بجانبي دون إظهار حميميَّة معيَّنة، تجنُّبًا لأقاويل الناس. ألقيتُ نظرة خاطفة على الكنيسة المكتظَّة بالمدعوِّين الذين غلبهم

الملل، وباتوا ينظرون حولهم مثلي. كانت جيليولا تبدو في غاية الجمال، وكارميلّا بيلوزو أيضًا. والشبَّان أيضًا. بدا أنَّ إنتسو، وباسكوالي خصوصًا، يحاولان إثبات أنَّهما كانا سيظهران بهيئة أفضل من ستيفانو، لو كان لأحدهما نصيب في الوقوف هناك على الهيكل بجانب ليلا. وخلافًا لعامل البناء وبائع الخضروات، اللذين كانا واقفين كالحرّاس على باب الكنيسة سعيًا لحفل موفّق، كان رينو، وهو أخو العروس، واقفًا بجانب بينوتشا، في صفّ أقارب العريس، ضاربًا عرض الحائط بالأعراف التي استوت عليها التجمّعات العائليَّة. لكنَّه كان أنيق الهندام، بذلة جديدة، وحذاء شيرولو يلمع أكثر من شعره المطليّ بالدهن. يا للعظمة! من البديهيّ أنَّ أحدًا لن يرفض الدعوة، بل كانوا سيأتون بألبسة زاهية كالأكابر؛ وهذا ما يعني، وفقًا لما كنت أعرفه ويعرفه الجميع، أنَّ الكثير منهم ـ ولعلّ أنطونيو على رأسهم ـ كانوا سيتَّجهون لاستدانة المال. فنظرتُ حينها إلى سيلڤيو سولارا، كان بدينًا ويرتدي بذلة غامقة، وواقفًا إلى جانب العريس، والذهب يلمع بوفرة على معصميه. نظرتُ إلى زوجته مانويلّا، التي ترتدي فستانًا أحمر، وكانت مفعمة بالفرح وهي واقفة إلى جانب العروس. أموال المباهاة تنبع من هناك. بعد مقتل الدون آخيل، بات أهالي الحيّ يقترضون من ذلك الرجل أجرد الصدغين، ذي البشرة البنفسجيَّة والعينين الزرقاوين. وكانت زوجته، ذات الأنف الطويل والشفتين الناعمتين، هي التي تنظِّم الإجراءات العمليَّة لذلك المشروع. وكم كان الأهالي يلهجون، ويهابون الكرّاس ذا الغلاف الأحمر، الذي تسجّل فيه مانويلّا المبالغ ومواعيد التسليم. بمعنى أنَّ زفاف ليلا لم يكن صفقة رابحة للمصوِّر وبائع الأزهار فحسب، بل لذلك الثنائيّ على وجه الخصوص، سولارا وعقيلته، اللذين قدّما قالب الحلوى وعلب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السكاكر أيضًا.

لاحظتُ أنَّ ليلا لا تنظر إليهما أبدًا. كانت تحدِّق بالخوري، ولم تلتفت حتى إلى ستيفانو. وفكَّرتُ أنَّهما لا يشكِّلان ثنائيًّا رائعًا برؤيتهما من الخلف، إذ كانت ليلا أطول من ستيفانو. وكانت تبثّ حولها عنفوانًا ليس في طاقة أحد أن يتجاهله، أمّا هو، فكان رجلاً ضعيفًا شاحب اللون. وبينما كانت ليلا تركّز كلّ انتباهها، كأنَّها تريد أن تفهم ما يعنيه ذلك الطقس، كان ستيفانو يلتفت إلى أمِّه بين الحين والآخر أو يتبادل الابتسامات مع سيليڤو سولارا أو يحكّ رأسه بخفَّة. اكتسحني قلق مباغت، حين تساءلتُ: ماذا لو كان ستيفانو ليس كما يبدو عليه حقًّا؟ لكنّني لم أتعمَّق في هذا التساؤل لسببين: أوَّلاً، لأنَّ كِلَا العريسين قالا نعم بدقَّة ووضوح، وفي غمرة العواطف، تبادلا الخواتم ثم القبل، وحينها أدركتُ جازمة بأنّ ليلا قد تزوَّجت بالفعل. وحدث بعدها فجأة أنّني لم أعد أهتمّ بالعريسين. لاحظتُ أنّني رأيتُ الجميع عدا ألفونسو، بحثتُ عنه بنظرة بين أهل العريس، وبين أهل العروس، إلى أن وجدته في آخر الكنيسة، كأنَّه مختبئ خلف أحد الأعمدة. أشرتُ إليه، فأجابني واتّجه نحوي. ولكنّني رأيت خلفه ماريزا سارّاتوري بأبهى ما لديها من أزياء. وبجانبها شخص هزيلٌ طويل، يضع يديه في جيبيه، منفوش الشعر، ويرتدي سترة خفيفة وبنطالاً رثًّا لطالما جاء به إلى المدرسة: نينو.

٥٩

ازدحم الحشد حول العروسين اللذين كانا يخرجان من الكنيسة على أنغام الأرغن ووميض آلة التصوير. توقَّف ستيفانو وليلا في باحة الكنيسة بين القبلات والعناق وضجيج السيَّارات وتأفُّف الأقارب الذين كُتب عليهم الانتظار، في حين أنَّ الأقارب الآخرين، دون أن يكونوا قرابة دم ـ لكنَّهم يفوقون غيرهم أهمِّيَّة وتودُّدًا وخيلاء في ملابسهم، لا سيَّما نساؤهم اللواتي يضعن قبّعات خارجة عن المألوف ـ تهرع السيَّارات لخدمتهم وتوصيلهم إلى المطعم في شارع أوراسيو.

كم كان ألفونسو معتنيًا بمظهره. لم أره من قبل ببذلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق. بدا لي أكبر من أعوامه الستَّة عشر، عندما رأيته دون ثيابه المدرسيَّة العاديَّة ومئزر الملحمة المتَّسخ؛ بل وأكثر من ذلك: شعرتُ فجأة أنَّه مختلف عن أخيه جسديًا. بات طويل القامة ورفيع المحيّا، وبدا وسيمًا كراقص إسپانيٍّ شاهدتُه ذات مرَّة في التلفاز، بعينيه الواسعتين وشفتيه المبرومتين ووجهه النقيّ من أيّ أثرٍ لِلّحْية. ومن الواضح أنَّ ماريزا تقرّبت منه حتى كادت تلتصق بصدره،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فالعلاقة بينهما كانت بدأت منذ مدَّة، ولا بدّ أنَّهما تلاقيا دون أن أعرف شيئًا عن هذا. هل استطاعت ماريزا أن تسلبه عقله، رغم شدّة تعلُّقه بي، بتسريحة شعرها المنثورة واسترسالها في ثرثرةٍ تعفيه، وهو الخجول، من سدّ ثغرات المحادثة؟ هل هما مرتبطان؟ كنت أشكّ في هذا، إذ كان بوسعه أن يخبرني بالأمر. ولكنْ من الواضح أنَّ المجريات بينهما وصلت إلى مرحلة متقدِّمة، لدرجة أنَّه دعاها إلى زفاف أخيه. وبالتالي، جرّت وراءها شقيقها نينو كي يسمح لها والداها بالحضور.

وها هو سارّاتوري الشابّ، في باحة الكنيسة، غير متآلف مع تلك الأجواء بلباسه الرثّ وطول قامته وهزاله المفرط وشعره الطويل غير المسرَّح، ويديه الغارقتين في جيبيْ بنطاله، يبدو كأنَّه غير قادر على إيجاد موضع له. ينظر إلى العريسين كما الجميع، ولكنْ دون أيّ اهتمام، لمجرّد النظر إلى جهة ما. ساهم حضوره المفاجئ في فوضى مشاعري ذلك النهار. حيّينا بعضنا داخل الكنيسة همسًا سريعًا، مرحبًا أهلاً. ثم لحق نينو بأخته وألفونسو، وأمسك أنطونيو ذراعي بشدَّة، ورغم أنَّني تلوَّيت بين المدعوِّين، وجدتُ نفسي بصحبة آدا وميلينا وباسكوالي وكارميلّا وإنتسو. وفي خضمّ تلك الهوجة، وبينما كان العريسان يركبان سيَّارة بيضاء كبيرة، مع المصوِّر ومساعده، ليذهبوا لالتقاط الصور في حديقة ريميمبرانسا، أفزعني احتمال أن تتعرَّف والدة أنطونيو على نينو، أو أن تلوح لها ملامح دوناتو في وجه ابنه. وسرعان ما تبدَّد القلق حين ظهرت والدة ليلا، لتجرّ خلفها ميلينا وأبناءها الصغار برفقة آدا إلى سيَّارةٍ ما حملتها بعيدًا.

وفي الواقع، لم يتعرَّف أحد على نينو، حتى جيليولا وكارميلّا وإنتسو. ولم ينتبهوا لماريزا، مع أنَّ وجهها ما زال يحافظ على

تقاسيمه الطفوليَّة. لم يتعرَّف أحد على ابنيْ سارّاتوري حتى اللحظة؛ وفي تلك الأثناء، كان أنطونيو يدفعني نحو سيَّارة باسكوالي القديمة، وصعد معنا كلّ من كارميلَّا وإنتسو، وكنَّا على وشك الانطلاق حين لم أقل سوى: «أين أبي وأمِّي؟ آمل أن يهتمّ أحد بتوصيلهما». أجاب إنتسو أنَّه رآهما في سيَّارة ما.. وهكذا، انطلقنا دون الاكتراث لأيِّ شيء آخر. أمَّا نينو، فما إن رأيته في تلك اللحظة، وهو ما يزال واقفًا في الباحة مبهورًا يتحدَّث مع ألفونسو وماريزا، حتى توارى عن الأنظار.

تجهّم وجهي، فسألني أنطونيو، هامسًا في أذني، ولطالما كان حسَّاسًا لأيّ طارئ يكدِّر مزاجي:

«ما بكِ؟»

«لا شيء».

«هل أزعجك أحد؟»

«لا».

ضحكت كارميلَّا:

«أزعجها أنَّ لينا تزوَّجت، وهي أيضًا ترغب في الزواج».

«وأنتِ، ألا ترغبين في الزواج؟» سألها إنتسو.

«أنا، لو كان الأمر بيدي لتزوَّجتُ في الغد».

«من؟»

«أنا وحدي أعرف من هو».

«اخرسي» قال باسكوالي، «فأنتِ، لن يرضى أحد الزواج بك».

اتَّجهنا نزولاً إلى الساحل، وكان باسكوالي يقود بهمجيَّة خطيرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فبعد أن صلَّح أنطونيو تلك السيَّارة جيِّدًا، راح باسكوالي يعتبرها سيَّارة سباق. كان يمضي بسرعة السهم مُصدرًا المزيد من الضوضاء، ومتجاهلاً المطبّات المنتشرة على الطرقات المتردِّية. ويصل مسرعًا إلى السيَّارات التي تسبقه، كأنَّه يريد الاصطدام بها ثم يحيد عنها قبل سنتمترات قليلة، يناورها بشراسة ثم يتجاوزها. وكنَّا، أنا وكارميلّا، نطلق صرخات مرعوبة، أو نتلفَّظ بتوصيات غير مهذَّبة تثير سخريَّته، وتدفعه إلى ارتكاب المزيد من الحماقات. أمَّا أنطونيو وإنتسو، فلم يرفّ لهما رمش، بل كانا يكتفيان بتعليقات ثقيلة على بطء السيَّارات الأخرى، أو يخفضان النافذة ويصرخان بالشتائم على الآخرين، بينما يتجاوزهم باسكوالي.

اتَّضح لي، تحديدًا خلال ذلك المشوار إلى شارع أوراسيو، بأنّني غريبة، وأنّ اغترابي سبب تعاستي. كنت قد نشأتُ مع هؤلاء الشبَّان، وأعتبر تصرُّفاتهم طبيعيَّة، ولسانهم السليط لساني. وفي الوقت نفسه، كنت أتردَّد يوميًا، منذ ستَّة أعوام، إلى عالم يجهلون خفاياه كلِّيًا فيما أواجه تحدّياته ببطولةٍ، حتى بتّ الأكثر تفوُّقًا. ولم يكن بوسعي أن أستخدم معهم أيّ شيء ممَّا أتعلَّمه كلّ يوم، بل كان من الواجب ألّا أحلِّق بعيدًا، وأن أخفض من شأني بمعنًى ما. وكان عليّ أن أضع ما أكتسبه في المدرسة بين قوسين حين أتَّحدث إليهم، أو أن أصعقهم به إذا أردت إسكاتهم. تساءلت عمّا كنت أفعله في تلك السيَّارة. كانوا أصدقائي، لا شكّ في هذا، وكان عشيقي معهم، وكنَّا ذاهبين لاستكمال حفل ليلا. بل كان ذلك الحفل يثبت بالفعل أنَّ ليلا ـ وهي الشخص الوحيد الذي كنت ما أزال أراه ضروريًا رغم تباعد دروبنا ـ لم تعد تنتمي إلينا؛ وإذا كانت ليلا ستقلِّل من حضورها، فإنّ أيّ علاقة تجمعني بهؤلاء الأصدقاء، وتلك السيَّارة التي تلتهم الطرقات

بسرعتها الطائشة، كانت تخبو لا محالة. لماذا لم أكن حينها مع ألفونسو، الذي كان يشاركني المنبت ووجهة الهروب على حدّ سواء؟ بل لماذا لم أقف لأطلب من نينو أن يبقى، وأن يأتي إلى الاستقبال، وأن يخبرني متى يصدر العدد الذي يحمل مقالتي بين طيّاته؛ فلنتجاذب أطراف الحديث يا نينو، هلّا حفرنا كهفًا نلوذ به من قيادة باسكوالي المتهوِّرة وسوقيّته، ومن نبرة كارميلّا وإنتسو الفظّة، ومن أنطونيو أيضًا، لَمَ لا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦٠

كنا أوَّل الواصلين من الشباب إلى صالة الاستقبال. تصاعد الكدر في مزاجي. كان سيلڤيو ومانويلّا سولارا قد وصلا قبلنا، جالسين إلى مائدة بصحبة تاجر المعادن وعقيلته ووالدة ستيفانو. وكان هنالك أيضًا أبوا ليلا جالسين إلى مائدة طويلة مع أقارب آخرين وأبويّ وميلينا وآدا المتأفِّفة التي استقبلت أنطونيو باستياء. وصلت الفرقة الموسيقيَّة، وبدأ العازفون يجرِّبون آلاتهم، والمطرب يجرّب الميكروفون. طفنا في الصالة حائرين، إذ لم نجد مكانًا نجلس إليه، ولم يجرؤ أحد منَّا على طرح السؤال على النُدُل، وكان أنطونيو ملتصقًا بي، ويبذل جهدًا كي يسلوني.

نادتني أمِّي، فتظاهرتُ بأنّني لم أسمعها. فنادتني مرَّة أخرى، فلم أجب. فإذا هي تنهض وتمشي نحوي بخطوتها العرجاء. كانت تريد منِّي أن أجلس بجانبها. رفضتُ. فهمستْ بأذني:

«لماذا يرافقك ابن ميلينا دومًا؟»

«لا يرافقني يا أمّاه».

«أتحسبينني حمقاء؟»

«لا».

«تعالي، واجلسي بقربي».

«لا أريد».

«قلت لكِ تعالي. فنحن لا نهدر عمرنا في سبيل دراستك كي تدمّري حياتك مع عامل وابن مجنونة أيضًا».

طاوعتها، لأنَّها كانت غاضبة. وصل العديد من الشبَّان تباعًا، وكانوا أصدقاء ستيفانو. رأيتُ جيليولا بينهم، أشارت إليّ بأن آتي إليها. فمنعتني والدتي. جلس باسكوالي وكارميلّا وإنتسو وأنطونيو أخيرًا مع مجموعة جيليولا. استطاعت آدا التخلُّص من عبء أمّها باستيداعها لنونتسيا، وجاءت إليّ لتهمس في أذني: «تعالي». حاولتُ النهوض، لكنّ والدتي أمسكت ذراعي بشدَّة. تأسَّفت آدا وذهبت لتجلس قرب أخيها، الذي كان ينظر إليّ بين الفينة والأخرى، فأرفع عينيّ إلى السقف تلميحًا إلى أنّني أسيرة.

باشرت الفرقة بالعزف، وراح المطرب يدمدم أغنيةً ما كتجربة، وكان يناهز الأربعين عامًا، شبه أصلع وملامح وجهه ناعمة. لم يخفِ أحدٌ جوعه، ولكن من المفروض انتظار العريسين. حاولتُ أن أنهض مرَّة أخرى، فزجرتني والدتي: «عليك أن تبقي بقربي».

«بقربها». فكَّرتُ إلى أيّ درجة كانت تناقض نفسها، دون أن تنتبه، وهي تعبِّر عن غضبها بتلك الأوامر الناهية. لم تكن ترغب في أن أدرس، لكنَّها كانت تعتبرني أفضل من كلّ الشبَّان الذين نشأتُ معهم، بما أنّني كنت أدرس؛ كما رأت أنَّ مكاني ليس بينهم، وكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيها من جهة أخرى مطابقًا لرأيي خلال تلك المناسبة. ومع هذا، كانت تفرض عليّ البقاء بقربها لتحميني من مخاطر اجتمعتْ برأيها في شخص أنطونيو، كأنَّه زوبعة في عرض البحر أو دوَّامة أو هاوية. لكنّ بقائي بقربها كان يعني البقاء في عالمها، إلى أن أصبح نسخة عنها. وإذا أصبحتُ نسخة عنها، فمن سيناسبني إن لم يكن أنطونيو؟

في تلك الأثناء، دخل العروسان، فأحطناهم بتصفيق غامر. وسارعت الفرقة لعزف مارش الزفاف. عزوتُ اغترابي، الذي كان ينهش سريرتي، إلى أمِّي وجسدها المعطوب، بشكل لا لبس فيه. ها هي ليلا، وأهالي الحيّ يحتفلون بها، تبدو سعيدة. كانت تبتسم بزهوٍ ورصانة، ويدها في يد زوجها. كانت في غاية الجمال. لقد نويتُ منذ طفولتي الباكرة أن أقتدي بها وبطريقة سيرها، كي أتفادى خطوة أمِّي. لقد أخطأتُ. لأنّ ليلا بقيت هناك، مكبَّلة بأغلال ذلك العالم، وهي التي كانت تتخيَّل أنَّها استخرجتْ منه أفضل ما فيه. والأفضل يتكوَّن من هذا الشابّ، وهذا العرس وهذه الحفلة، ومشروع الأحذية لرينو وأبيها. لا شيء يجمع دربها بدربي، أنا الفتاة المواظبة على الدراسة. شعرتُ بالوحدة التامَّة.

أُرغم العروسان على الرقص بين ومضات المصوِّر. كانت حركاتهما دقيقة، وهما يحلِّقان في الصالة. استنتجتُ أنّ ليلا نفسها لم تنجُ من عالم أمِّي، رغم كلّ ما فعلته. أمَّا أنا، فلا بدّ أن أنجو، لم أعد أطيق المذلَّة. عليّ أن أهزمها، كما كانت تفعل أوليڤييرو كلَّما جاءت إلى بيتنا، لتفرض عليها مصلحتي. كانت تمسك بذراعي، ولكنْ ينبغي أن أتجاهلها، وينبغي أن أتذكَّر أنّني المتفوّقة في الإيطاليَّة واللاتينيَّة والإغريقيَّة، وأنَّني واجهت أستاذ الديانة، وأنّ مقالتي كانت ستصدر باسمي على صفحات المجلَّة ذاتها التي ينشر فيها شابّ وسيم

ومجتهد، يوشك على نيل الكفاءة.

دخل نينو سارّاتوري في تلك اللحظة. رأيته قبل أن أرى ألفونسو وماريزا؛ وحالما رأيته، وثبتُ واقفة. حاولتْ أمِّي أن تمسك بأهداب فستاني، فرفعتُه دونها. وجّه إليّ أنطونيو نظرة مرحِّبة، ولم يكن بصره يحيد عنِّي برهة. إلَّا أنّني، اتَّخذتُ اتِّجاهًا معاكسًا لاتِّجاه ليلا وستيفانو ـ اللذين جلسا إلى صدر المائدة بين الزوجين سولارا والثنائي الفلورنسي ـ وصوّبتُ خطوتي إلى مدخل الصالة، نحو ألفونسو وماريزا ونينو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦١

وجدنا مكانًا نجلس إليه. وانغمستُ في أحاديث عامَّة مع ألفونسو وماريزا، آملة أن يقرِّر نينو التوجُّه إليّ بالكلام. وحينها، وقف أنطونيو خلفي، انحنى وهمس في أذني:

«لقد حجزتُ لك مكانًا».

فهمستُ له:

«انصرف حالاً، فأمِّي فهمتْ كلّ شيء».

نظر حوله مرتبكًا وحائرًا، وعاد إلى طاولته.

كان هنالك غمغمة تعيسة في الصالة. إذ لاحظ المدعوّون الناقمون أنَّ الأمور لا تسير على نحوٍ جيِّد. فالنبيذ ليس نفسه على كلّ الطاولات. وبعض المدعوِّين كانوا ينهون الطبق الأوَّل، في حين أنَّ المقبِّلات لم تُقدّم بعد إلى كثير من المدعوِّين الآخرين. وتجرَّأ أحدهم على القول بصوت مرتفع إنّ الخدمة كانت ممتازة حيث يجلس أقارب

العريس وأصدقاؤه، وسيِّئة حيث يجلس أقارب العروس وأصدقاؤها. كم كنت أنفر من هذه المشاحنات وضوضائها المزعج. تشجَّعتُ، وأقحمتُ نينو في المحادثة، سألته أن يحدِّثني عن مقالته حول الشقاء في ناپولي، بغية أن أسأله بعدها عن العدد القادم ومقالتي بعفويَّة. فبادر بالحديث عن أشياء في غاية الأهمِّيَّة والدقَّة عن أحوال المدينة. أبهرتني ثقته العالية بنفسه؛ وقد بدا رجلاً ناضجًا حينها، رغم أنَّني ما زلت أذكر ملامحه الصبيانيَّة حين التقيت به في إيسكيا. هل من المعقول أنَّ فتًى في الثامنة عشرة من عمره يتحدَّث عن أدقّ تفاصيل الفقر، بنبرة شجيَّة تشبه نبرة باسكوالي، لكنّه يتميَّز عن الأخير باستشهاده بوقائع ملموسة ولهجة حياديَّة تشير إلى أرقام دقيقة؟

«أين تعلَّمت كلّ هذه الأشياء؟»

«يكفي أن نقرأ».

«ماذا؟»

«الصحف والمجلَّات والكتب التي تُعنى بهذه المسائل».

لم أكن قد تصفَّحتُ أيّ جريدة أو مجلَّة أبدًا، كنت لا أقرأ سوى الروايات. ليلا نفسها، حين كانت تقرأ، لم تكن تطالع أيّ شيء عدا الروايات القديمة البالية التي تزخر بها المكتبة العامَّة. كنت متخلِّفة في كلّ شيء، وكان بوسع نينو أن يساعدني على تعويض ما فاتني.

شرعتُ أغرقه بالمزيد من الأسئلة، وهو يجيب. صحيحٌ أنَّه كان يجيبني على كلّ شيء، لكنَّه لم يكن يدلي بأجوبة مبهرة مثل ليلا، لم يكن يملك قدرتها على إضافة الإثارة إلى أيّ موضوع تتكلَّم عليه. كان بارعًا في صياغة مواضيعه بأسلوب الباحثين، وفي حشو كلامه بأمثلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واقعيَّة. وكانت أسئلتي بمثابة دفعة صغيرة تطلق العنان لرغبته في الكلام: كان يسترسل في الحديث دون انقطاع، دون تنميق أو فكاهة، حاسمًا وقاطعًا. وسرعان ما شعر ألفونسو وماريزا بالعزلة. «يا إلٰهي كم أنت مملّ يا أخي»، قالت ماريزا، وراحت تثرثر مع ألفونسو. فانعزلنا أنا ونينو أيضًا. لم نعد نسمع أيّ شيء ممَّا يدور حولنا، لم نعرف ما الذي كانوا يقدِّمونه لنا في الأطباق، وما الذي كنَّا نتناوله ونشربه. وكنت أستبسل في إيجاد أسئلة لأطرحها عليه، وأصغي باحترام إلى أجوبته المتدفِّقة كالأنهار. واستهويتُ المبدأ الذي يتأسَّس عليه هيكل مواضيعه كلّها، مبدأً واحدًا متأصّلاً يبثّ الحياة في أيّ جملة يقولها: رفض المواقف الرماديَّة، ضرورة تحديد المشاكل بدقَّة، افتراض حلول عمليَّة، والسعي إلى التدخُّل عاجلاً. كنت أكتفي بهزّ رأسي، نعم، نعم؛ وأُعرب عن موافقتي على كلّ أفكاره. عبّرت عن قلقي مرَّة واحدة، حين انتقد الأدب. «إن أرادوا أن يصبحوا باعة للرماد» كرَّر أكثر من مرَّة ساخطًا على أعدائه، أي باعة الرماد أيًّا كانوا، «فليكتبوا روايات، وأنا سأقرأها بكلِّ سرور. أمَّا إن أردنا أن نغيّر الأوضاع حقًّا فهذا شأن آخر». وفي الواقع، بدا لي أنَّه يستخدم كلمة «أدب» لينتقد أولئك الذين يصدِّعون رؤوس الناس بالهذر التافه كما كان يسمّيه. على سبيل المثال، أجابني عن اعتراضٍ ضعيف هكذا: «الروايات الحماسيَّة اللعينة يا لينو تصنع «دون كيشوت»، ونحن، مع فائق احترامنا للدون كيشوت، لسنا في حاجة إليه في نابولي، هنا حيث مصارعة طواحين الهواء ليست سوى شجاعة مهدورة. نحن نحتاج إلى أشخاص يعرفون آليَّة عمل الطواحين ويجعلونها تعمل».

في وقت قصير، رغبت لو أنّني أناقش شابًّا بهذا المستوى كلّ يوم. كم من الأخطاء ارتكبتُ في حقِّه، ويا لحماقتي التي جعلتني أحبّه وأعشقه، ثم أحرص دومًا على تجنُّبه. هذا ذنب والده. وذنبي أيضًا، فكيف سمحتُ لأبيه ـ وأنا التي أنفر من أمِّي ـ أن يلقي ظلاله على ابنه في نظري؟ ندمتُ وسررتُ من ندمي، ومن تلك الرواية التي وجدتُ نفسي غارقة فيها. كنت غالبًا ما أرفع صوتي لأغلب ضجَّة الصالة والموسيقى، وكان يفعل مثلي أيضًا. وأحيانًا أنظر إلى مائدة ليلا: كانت تضحك وتأكل وتدردش، ولم تكترث ولو قليلاً لمكان جلوسي، وللشخص الذي كنت أتحدَّث إليه. وكنت نادرًا ما أنظر إلى مائدة أنطونيو، وأخشى أن يشير إليّ بالمجيء إليه. وأحسستُ أنَّه كان منفعلاً، ويحاصرني بنظراته ويوشك على الانفجار. صبرًا، قلت لنفسي، فقد اتَّخذتُ قراري، سأنفصل عنه في الغد. لم يكن بوسعي الاستمرار معه، فنحن مختلفان بما لا يوصف. كان يعشقني بالتأكيد، ويكرِّس نفسه لأجلي كلِّيًا، لكنَّه كجروٍ أليف. بالمقابل، كان نينو يجذبني بكلامه، بلا تبعيَّة تُذكر. كان يستعرض مستقبله على مسامعي، والأفكار التي سيؤسِّس عليها ذلك المستقبل. فكان الإصغاء إليه يلهب رأسي، كما كان يحدث مع ليلا في الماضي. واهتمامه بي يرفع معنويَّاتي. ها هو الذي بوسعه أن يخلّصني من أمِّي، طالما أنَّه لا يسعى لشيء كسعيه للتخلُّص من أبيه.

ربت أحدهم على كتفي، أنطونيو مجدَّدًا. قال عابسًا:

«فلنرقص».

«أمِّي لا توافق»، همستُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ردّ غاضبًا بصوت مرتفع:

«الجميع يرقصون، فما المشكلة؟»

وجَّهتُ إلى نينو شبه ابتسامة مرتبكة، كان يعرف جيِّدًا أنّني مرتبطة بأنطونيو. رماني بنظرة جدِّيَّة، والتفت إلى ألفونسو، فذهبتُ.

«لا تشدّ على يدي».

«لا أشدّ».

كان هنالك الكثير من الصخب والبهجة العارمة. الجميع يرقصون، شبَّانًا ومراهقين وأطفالاً. لكنّني شعرتُ بما تخفيه تلك الفرحة المزيَّفة. كانت وجوه أهل العروس تلمِّح لاستياءٍ متأجِّج. النساء خصوصًا. فهل بعد أن كدن يقطِّعن شرايينهنّ لتدبير ثمن الهديَّة، فضلاً عن ملابسهنّ وزينتهنّ، واستدنّ المال لهذا الغرض، يُعامَلن حينها كأنَّهنّ متسوِّلات، بذلك النبيذ الرخيص والتأخير في تقديم الوجبات؟ لماذا لا تتدخَّل ليلا، لماذا لا تحتجّ على ستيفانو؟ كنت أعرفهنّ جيِّدًا. كنّ سيضبطن أعصابهنّ إلى أن ينتهي الاستقبال احترامًا لليلا، ولكنَّهنّ ـ ما إن تذهب العروس لتغيِّر ثيابها وتعود بلباس السفر، وتوزِّع السكاكر والحلوى، ثم تذهب بعدها بكامل أناقتها مع زوجها ـ سيشعلن حربًا ضروسًا تزرع الحقد لأشهر وسنوات، فينشأ النكد وتستعرّ الشتائم لتجرّ إلى مهالكها الآباء والأبناء جميعهم مرغمين على إثبات فحولتهم أمام أمّهاتهم وأخواتهم وجدَّاتهم. كنت أعرف طباعهم جميعًا. وكنت أرى نظرات الشبّان الجارحة تكاد تفترس المطرب والعازفين الذين يرمقون حبيباتهم بطريقة غير لائقة، ويرسلون إليهنّ إيماءاتٍ معبِّرة. كنت أرى كيف يتكلَّم إنتسو مع كارميلَّا وهما

يرقصان، وكيف يتكلَّم باسكوالي مع آدا وهما جالسان إلى الطاولة؛ وكان من الواضح أنَّهما سيرتبطان قبل نهاية الحفل، وقد يتزوَّجا خلال عام أو عشرة أعوام. كنت أرى رينو وبينوتشا، ستجري الأمور بأسرع ما يمكن في حالتهما: فمن الممكن أن ندعى إلى حفل زفافهما، خلال عام كحدّ أقصى، ولن يقلّ بهرجة عن هذا الحفل، إذا ما كُتب النجاح لورشة شيرولو لصناعة الأحذية. كانا يرقصان، ويرنو كلّ منهما في عينيْ الآخر، ويتعانقان بقوَّة. حبّ ومصالح. ملحمة زائد ورشة أحذية. أبنية قديمة زائد أبنية جديدة. هل كنت مثلهم؟ هل كنت ما أزال مثلهم؟

«من ذاك الفتى؟» سأل أنطونيو.

«ومن يكون برأيك؟ ألم تعرفه؟»

«لا».

«إنَّه نينو، نجل سارّاتوري. وتلك ماريزا، أتذكرها؟»

لم يكن معنيًّا بأمر ماريزا، بل كان محتقنًا من نينو. قال غاضبًا:

«وهل دفعتِني لتهديد سارّاتوري كي أراكِ تثرثرين مع ابنه لساعات؟ هل اشتريتُ بذلة جديدة كي أجلس وأنظر إليك كيف تستمتعين، معه وهو لم يسرّح شعره ولم يرتدِ حتى ربطة عنق؟»

تركني وسط الصالة، واتَّجه بخطوات رشيقة نحو الباب الزجاجيّ الذي يفضي إلى الشرفة.

احترتُ لثوانٍ بما يجدر بي فعله. اللحاق بأنطونينو. العودة إلى نينو. وما لبثت أمّي تحاصرني بنظراتها، مع أنَّ عينها الحولاء تنظر إلى مكان آخر. كان أبي يرميني بدوره بنظرة مخيفة. فلمعت فكرة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأسي: إن عدت إلى نينو ولم ألحق به إلى الشرفة، فسيسارع بنفسه إلى الانفصال عنِّي، وذاك أفضل بالنسبة إليّ. عبرتُ الصالة، بينما تستمرّ الفرقة في العزف والجميع يرقصون أزواجًا. وجلستُ في مكاني.

ولم يثر ما حدث برمّته أدنى انتباه لدى نينو. راح يتكلَّم بأسلوبه المسهب عن الأستاذة غالياني. كان يدافع عنها في وجه ألفونسو الذي كنت أعرف مدى كرهه لها. قال نينو إنَّه هو الآخر يكاد يصطدم معها أحيانًا، لأنَّها عنيدة جدًّا، لكنَّها كأستاذة لا غبار عليها، بل لطالما استخدمتْ فكرها المتنوِّر لتشجيعه وتحفيزه على الدراسة. حاولتُ أن أقحم نفسي في النقاش، شعرتُ بضرورة أن أكسب اهتمام نينو مجدَّدًا، ولم أرغب أن يحاور رفيقي في الصفّ بالاهتمام نفسه الذي أولاه لي منذ قليل. كنت أحتاج إلى أن يأخذني نينو إلى عالمه نهائيًّا، وأن يطلعني على قدراته واهتماماته، وأن يعترف بي ندًّا له؛ وذلك كي لا أركض خلف أنطونيو لأطلب منه السماح باكية: «أجل، أنت محقّ، أنا لا أعلم ماذا أريد حقًّا، إنّني أستخدمك ثم أرميك، لكنّ هذا ليس ذنبي، أشعر أنّني بين بين، أرجوك سامحني». ولهذا السبب، كدت أسرق الكلمات من فم نينو، ورحت أعدِّد الكتب التي أعارتني إيّاها الأستاذة غالياني منذ بداية العام، فضلاً عن نصائحها، ريثما كان يبذل جهدًا في استعادة الموضوع الذي قطعه علينا أنطونيو. أشار برأسه موافقًا، متجهِّمًا بعض الشيء، وتذكَّر أنَّ غالياني أعارته أحد تلك الكتب منذ وقت مضى، وأخذ يحدِّثني عنه. لكنّني كنت محتاجة إلى ثناءٍ منه يجعلني أتناسى أنطونيو، فسألته دون مقدِّمات:

«متى تصدر المجلَّة؟»

رمقني بنظرة متوجِّسة، وأجاب بما يشبه الجزع:

«لقد صدرت منذ أسبوعين».

جرفني سيلٌ من البهجة، فسألته:

«وأين أحصل عليها؟»

«تُباع في مكتبة غويدا. بإمكاني أن آتيك بها بنفسي عمومًا».

«شكرًا».

ارتبك قليلاً، ثم قال:

«لم ينشروا مقالتك. لم يجدوا زاوية فارغة».

ابتسم ألفونسو متنفِّسًا الصعداء، وغمغم:

«حمدًا لله».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦٢

كنّا في سنّ السادسة عشرة. كنت جالسة قبالة نينو سارّاتوري وألفونسو وماريزا، أعصر نفسي لزرع ابتسامة على وجهي، وقلت متظاهرة بعدم الاكتراث: «لا بأس، ستأتي فرصة أخرى»؛ وكانت ليلا في الطرف الآخر من الصالة ـ عروسًا وأميرة الحفل ـ يهمس ستيفانو في أذنها، فتبتسم.

أوشك حفل الغداء المضني على النهاية، وما تزال الفرقة تعزف والمطرب يغنّي. وكان أنطونيو، مديرًا ظهره، يكبت في صدره العذاب الذي تسبَّبتُ به، ويرنو إلى البحر. ولعلّ إنتسو كان يهمس لكارميلّا بأنَّه يحبّها. ولا بدّ أنّ رينو سبق وقالها لبينوتشا التي كانت تتكلّم إليه وتركّز نظرها في عينيه. ومن الوارد أنَّ باسكوالي كان يراوغ ويلتفتّ متردِّدًا، لكنّ آدا كانت ستجد الوسيلة لتستلّ الكلمات الوافية من فمه، قبل أن ينتهي الحفل. كان الجميع يشربون النخب منذ مدَّة بتلميحات مشينة، وكم تألّق تاجر المعادن في هذا الأسلوب المنحطّ. وكانت الأرضيَّة متّسخة ببقع الصلصة التي وقعت من طبق أحد الأطفال،

وبالنبيذ الذي سقط من جدّ ستيفانو. حبستُ دموعي وفكَّرتُ: ربَّما سينشرون مقالتي في العدد القادم، ربَّما نينو لم يصرّ عليهم بما فيه الكفاية، ربَّما يتوجَّب عليّ أن أتابع الأمر بنفسي. لكنّني لم أقل شيئًا، وما زلت أبتسم حتى وجدتُ القوّة لأقول:

«لقد اصطدمتُ بأستاذ الديانة مرَّة واحدة، ولن يجدي نفعًا الاصطدام به مرَّة أخرى».

«بالفعل»، قال ألفونسو.

إلَّا أنَّ خيبة الأمل تصاعدت أكثر. وأجهدتُ نفسي في تجنّب صداع في الرأس أو انخفاض في الضغط، فأخفقتُ في ذلك. اكتشفتُ أنّني كنت أعتبر نشر تلك السطور القليلة، ممضيَّة باسمي المطبوع، كدلالة على أنَّ لي مستقبلاً باهرًا، وأنّ المواظبة على الدراسة ترتقي بصاحبها عاليًا، إلى مكانٍ ما، وأنّ المعلِّمة أوليڤييرو أصابت حين احتضنتني باهتمامها وأهملتْ ليلا. «هل تعلمين ما معنى الرعاع؟» «أجل يا معلِّمتي». لكنّني لم أتيقَّن من معنى الرعاع إلَّا في تلك اللحظة، وكان أكثر وضوحًا من قبل، حين سألتني عنه أوليڤييرو قبل أعوام خلت. كنَّا نحن الرعاع. أجل، نحن الرعاع في خلطنا للطعام بالنبيذ، في اعتراضنا العصبيّ على تأخير الخدمة ورداءتها، في تلك الأرضيَّة المتَّسخة التي يمرّ عليها النُدُل مرارًا، في ذلك النخب السوقيّ. أمِّي من الرعاع، إذ انتشتْ من الخمر، فاستلقتْ بظهرها على ظهر أبي المتجهِّم وجهه، وقهقهتْ بأعلى ما عندها على التلميحات الجنسيَّة التي كان يصيح بها تاجر المعادن. كان الجميع يقهقهون، بمن فيهم ليلا، ويبدون كأنَّهم يؤدُّون أدوارهم هذه حتى النهاية.

نهض نينو وقال إنَّه سيرحل، ربَّما بسبب امتعاضه من ذلك المشهد الجاري. اتَّفق مع ماريزا ليعودوا معًا إلى البيت، فتعهَّد ألفونسو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باصطحابها إلى الزمان والمكان المحدّدين، وبدت تفتخر بحصولها على فارس مهذّب إلى هذه الدرجة. قلت لنينو متوجِّسة:

«ألا تريد أن تودِّع العروس؟»

رفع يديه وغمغم بشيء ما عن ثيابه، واتَّجه نحو الباب بمشيته المتأرجحة التي اعتاد عليها، دون أن يصافحني أو يدلي بأيّ تحيَّة لي أو لألفونسو. كان يعرف كيف يدخل ويخرج من الحيّ كما يشاء، دون أن يُصاب بالعدوى. كان قادرًا على ذلك، وبوسعه فعل ذلك، ولعلَّه تعلَّم ذلك منذ أعوام خلت، منذ انتقاله العاصف من الحيّ عندما كاد يكلِّفه الثمن حياته.

أمَّا أنا، فكنت أشكّ في القدرة على فعل شيء من هذا القبيل. لم يكن للدراسة أيّ شأن في هذا: قد أحصل على علامة تامَّة في الواجبات، لكنّها تبقى مجرّد مدرسة؛ أمَّا من يعمل في المجلَّة، فقد تفحّص مقالتي، مقالتي أنا وليلا، ولم ينشرها. نينو كان قادرًا بالتأكيد، كانت ملامحه وحركاته ومشيته تساعده على تقديم الأفضل دومًا. حين اختفى، شعرتُ بأنّني فقدتُ الشخص الوحيد في الصالة كلّها القادر على أن يحملني بعيدًا.

ثم أحسستُ بأنّ باب المطعم يُغلق صفقًا بفعل الرياح. وفي الواقع، ما من رياح، وما من صفع للباب. لم يحدث سوى ما توقّع الجميع حدوثه. في لحظة تقديم الحلوى والسكاكر، ظهر الأخوان سولارا بكامل أناقتهما ووسامتهما. تجوَّلا على امتداد الصالة يحيُّون هذا وذاك بأسلوبهما المتعالي. رمت جيليولا نفسها في أحضان ميكيلي، وسحبته ليجلس بقربها. احمرّ حلق ليلا وما حول عينيها فجأة، وشدّت على ذراع زوجها بعنف، وهمستْ شيئًا ما في أذنه. حيّا سيلڤيو ابنيه تحيَّة مسترخية، بينما نظرت مانويلَّا إليهما نظرة اعتزاز تليق

بأمٍّ فخور. وباغت المطرب بأغنية «لاتساريلا» مستلهمًا أسلوب أوريليو فييرو. رحّب رينو بمارتشيلُّو بابتسامة ودِّيَّة. جلس مارتشيلُّو، أرخى ربطة العنق، ووضع ساقًا فوق ساق.

وفي تلك اللحظة، انكشف ما لم يكن في الحسبان. رأيتُ وجه ليلا يفقد لونه ويميل إلى شحوبٍ فاقع كما كان عليه في طفولتها، ليستحيل أشدّ بياضًا من فستانها؛ وضيّقتْ عينيها بانقباضٍ مفاجئ يجعل منهما ثقبين غائرين. ثمَّة قارورة نبيذ قبالتها تمامًا. خشيتُ أن تتهشّم القارورة بسياط نظراتها، فتنفجر إلى ألف شظيَّة وشظيَّة، ويتدفَّق النبيذ إلى كلّ مكان. لكنَّها لم تكن تنظر إلى القارورة. كانت تنظر بعيدًا جدًّا، تصوّب نظراتها إلى حذاء مارتشيلُّو سولارا.

كان مارتشيلُّو ينتعل حذاءً رجَّاليًّا من نوع شيرولو. ليس من الأطرزة المعروضة للبيع، ولا من تلك المزوَّدة بربطة مذهّبة. بل كانت قدماه توغلان في الحذاء الذي اشتراه ستيفانو، زوجها، منذ وقت مضى. إنَّه الحذاء الذي أنجزتْه مع رينو بعد عناء أشهر طويلة من عملٍ دؤوبٍ أتلف يديها!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدينة نابولي في خمسينيّات القرن الماضي. تعيش صديقتان، إيلينا وليلا، في حيّ عُمّاليّ بائس. تكبران وتتبدّلان، تتساعدان وتتخاصمان، دروبُهما تلتقي وتفترق. رحلة مذهلة في دواخل البطلتين تقودنا إليها فيرّانتي.

نظرتُها ثاقبة، سردُها جارف، وصفُها متجدِّدٌ لحياتنا اليوميّة؛ لحياةٍ نحتاج أن ترويَها لنا امرأةٌ بهذه الطريقة البديعة.

The New York Times Book Review

ربّما هي أفضلُ كاتبةٍ عرفتْها الروايةُ الحديثة. أدبُها شفّافٌ كالبلُّور، حكاياتُها غرائزيّة وعميقة في آن واحد.

The Economist

هي، قبل كلّ شيء، ماهرة في صناعة الحبكات والمكائد.

مكتبة بغداد

The Independent

ليس ثمّة مَنْ كتب عن إيطاليا وأحاسيسها وأحيائها ومذاقاتها وعواطفها العنيفة مثلما فعلتْ فيرّانتي.

IL Manifesto

تُحْفَةٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى... قرأت كلّ الكتب وأنا في حالٍ من الانغماس؛ ووقعتُ في سحرها. لم أرغب إلّا في ملاحقة حياة ليلا وإيلينا حتى النهاية.

Jhumpa Lahiri (Pulitzer Prize Winner)

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-532-1
9789953895321

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad